شارل-أندري جوليان

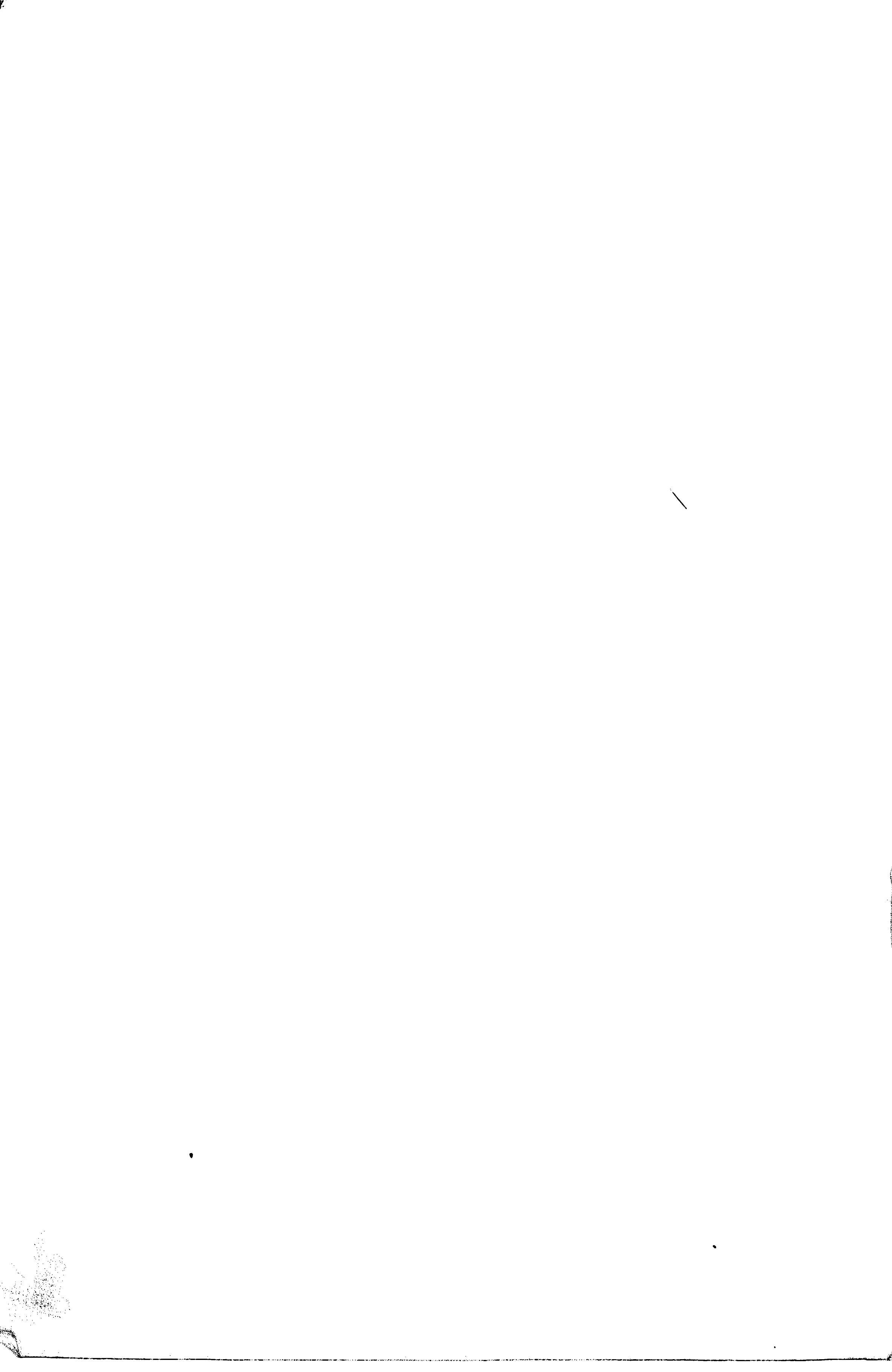
(2)

تاريخ إفريقيا الشمالية

تونس - الجزائر - المغرب الأقصى
من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830م

تعريب :
محمد مزالي
البشير بن سلامة

الدار التونسية للنشر







تاريخ إفريقيا الشمالية

تونس - الجزائر - المغرب الأقصى
من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830 م



شارل أندري جوليان



تونس - الجزائر - المغرب الأقصى
من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830 م

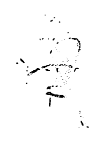


الجزء الثاني

النشرة الثانية

تعريب

محمد مزالي
البشير بن سلامة



الدار التونسية للنشر

تم تعريب هذا الكتاب عن الطبعة الثانية
التي نقّحها وزاد عليها «روجي لوتورنو»



مدخل

اندمجت إفريقيا الشمالية في الشرق باعتناقها الإسلام بعد أن تفانت في الدفاع عن ذاتيتها لا عن طريق الثورات فقط بل بالركون إلى الرّدة كلّما انهزم الفاتح والالتجاء إلى البدعة وانتحال النحل ذات المنحى القومي. ولم ترسخ العقيدة الاسلامية التي بدأت تنتشر منذ أواخر القرن السابع الاّ بعد انتصار الموحّدين في القرن الثاني عشر. ولم يتخذ الجهاد من أجلها الصبغة الشعبية في المغرب الأقصى إلاّ عند صدّه للغزوات المسيحية ومن ذلك الوقت أصبح من المستحيل التمييز بين الإسلام والمغرب. ولا يزال الأمر كذلك إلى اليوم بحيث يتعذر فهم المشاكل الاجتماعية والسياسية والقومية جميعها من دون اعتبار للبعد الاسلامي فيها.

ومن هنا تبرز اهميّة هذه الفترة الطويلة من تاريخ إفريقيا الشمالية التي بقيت معزولة بعيدة عن المؤثرات الأوربية فشهدت دولا تشاد ثمّ تنهار من دون أن تظفر بوحدة دائمة. وكان للابحاث التي قام بها منذ عشرين سنة خاصة الأستاذ (M.R.Brunschvig) و(A. Cateau) و(J. Ceillié) و(Emérit) و (Lévy Provençal) و (R. Le Tourneau) و (G. Marçais) و (Penz) و (R. Ricard) و(H.Terrasse) تأثير عميق في بعض الأحيان على معلوماتنا السابقة. فإذا لم يشمل الدراسات المتعلقة بالخوارج والفاطميين من التغيير الاّ القليل ولم تقتض الفصول المخصّصة للمرابطين والموحدين والسعديين والعلويين والأتراك إلاّ إصلاحا بسيطًا فإنّ كل ما يتّصل بالأدارسة والحفصيين والمرينيين وجبت مراجعته مراجعة عميقة أو كاملة. أمّا الخاتمة فقد أعيدت تماما. فكان لابدّ للقيام بمثل هذا

العمل على أحسن وجه من مؤرخ ملمّ بماضي بلاد البربر لا يمتاز بثقافته فحسب بل ببحوثه الشخصيّة .

ولقد تفضل المؤرخ المستعرب السيد لوترنو (M. Letourneau) الاستاذ بكلية الآداب فكرّس خصاله للقيام بمراجعة هذا الكتاب وهو عمل صعب لايبرز فضله للعيان (بسهولة) الأمر الذي يفرض علي أن أقدم اليه الشكر الجزيل .

وإن أطروحته حول فاس قبل الحماية التي تشهد بمعرفة مباشرة وعميقة للمجتمع الإسلامي ، تشمل تاريخ المغرب الأقصى الإسلامي كله . وكذلك كتابه الجديد : الإسلام الحديث (l'Islam contemporain) الذي ينبىء عن سعة معارفه وعن مدى اهتمامه بالحاضر والماضي . وسيتسنى للقراء ، بفضل البيبليوغرافيا الثرية النقدية الموجودة في آخر المؤلف ، أن يتعمقوا في درس المسائل أو أن يواصلوا بحوثهم الشخصية .

وفي هذه الفترة التي تفرض فيها نهضة القوميات الإسلامية معرفة ماضي المغرب فإن كتاب تاريخ إفريقيا الشمالية من الفتح العربي إلى سنة 1830 الذي راجعه السيد لوترنو بحذق سيتيح للقارىء أن يكون ملمّا بآخر ما وصل اليه علم التاريخ .

شارل أندري جوليان

مقدمة

افريقيا الشمالية ابان الفتح العربي (1)

عندما استرجع البيزنطيون في خريف سنة 533م . المقاطعات التي سبق أن كانت رومانية وأطردوا منها الوندال بدوا كأنهم سيعيدون التقاليد الأمبراطورية إلى سالف عهدها وهي التي أبطلها طيلة ما يقارب القرن جنسريق وخلفاؤه . وفي الحقيقة فإن إفريقية البيزنطيّة لم تكن تشبه في شيء إفريقية الرومانية — ولعل هذا يفسّر ضآلة ما قام به البيزنطيون عندما أقبل الغزاة المسلمون .

وكانت البلاد التي احتلّها البيزنطيون أقل مساحة بكثير ممّا كانت عليه من قبل : ذلك أن موريطانيا الطنجية انحصرت في سبتة وموريطانيا القيصريّة اقتصرت على شرشال (قيصاريّة) . أمّا موريطانيا السطيفية فقد اقتُطع منها الجزء الغربي ، كما أن طرابلس فقدت الجزء الجنوبي منها — ولم تبق على حالها إلاّ نوميديا والبروقنصليّة والمزاق ، ذلك أن البلدان التي تركت وشأنها ظلّت تزورُّ شيئًا فشيئًا عن الحضارة الرومانية وترجع تدريجيا إلى سالف عاداتها البربرية — وإذا كان الأمر هيّنا بالنسبة للأرياف حيث لم يتوغّل الرومان ، فإن البربر « المترومْنين » في المدن والقرى كانوا يتباعدون في أسف عن أسلوب في الحياة طالما

---

(1) راجع جوليان وكرتوا ، تاريخ افريقيا الشمالية من بدء التاريخ الى الفتح العربى .

أحبّته نفوسهم . وعلى كل فإن البربر سواء كانوا حضرا أو قرويين استرجعوا ما فطروا عليه من تعلق بالاستقلال السياسي . وكانت هذه الحاجة الى التحرّر السياسي ظاهرة بوضوح حتى في البلاد الخاضعة لبيزنطة : من ذلك أن مجموعات بربرية عظيمة كانت تظهر وكأنها مستقلة عن والي قرطاج . زد على ذلك أن البيزنطيين أنفسهم لم يأتوا الى إفريقية مدّعمين كما كان الشأن بالنسبة للرومان .

فلقد جاؤوا بخصوماتهم الدينية المتشعبة والعنيفة التي زادها فتح العرب لمصر حدّة . ذلك أنّه من بين من التجأ إلى إفريقية كان يوجد القائلون بمبدإ الطبيعة الواحدة (Les monophysistes) . كما جرّهم تسامحهم في الدين إلى إثارة الطوائف المسيحية وزرع بذور الفتنة بينها .

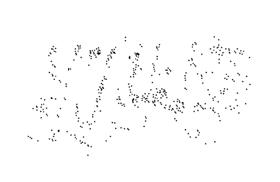
وأخيرًا فإن موظفي بيزنطة لم يظهروا دائمًا في مظهر الخادم المطيع للسلطة المركزية : إذ كانوا يناقشون الأوامر قبل تطبيقها وأحيانًا لاينفذونها — ومما زاد في تفاقم هذه الحالة موت هرقل وتولّى الحكم قسطن II (Constant) (سنة 641) ولم يتخطّ سن المراهقة في ذلك الوقت — وفي سنة 646 شق عصا الطاعة الشيخ « جرجير » والي بيزنطة بإفريقية ونصّب نفسه إمبراطورا.

تلك هي حالة إفريقية قبيل الفتح الإسلامي ، بلاد يعوزها التماسك ، تتباعد عن مدنية محتضرة ، وتستعيض تدريجيا عن المؤسسات الرومانية بالتقاليد العريقة ، وتتمرّد على رؤسائها البيزنطيين الذين كان ولاؤهم أيضًا لوطنهم الأم في فتور متزايد .

الباب الأول

الفتح العربي وممالك الخوارج

1 - الفتح العربي
2 - المقاومة البربرية
3 - ممالك الخوارج



I) الفتــح العــربى

تاريـخ خرافي : إن اتحاد الإسلام مع إفريقيا الشمالية بلـغ حدا من المتـانـة أصبحنـا معه ننسى بسهـولة مدى ما خاضه المشرق الإسلامي من معارك للتمـكن من بسط نفوذه على المغرب البربـري .

وبدهي أن الذي يبهـرنا هو ما أسفر عنه الفـتح العربـي واعتناق الأهالي الدين الإسلامي من نتائـج بـارزة عظيمـة الخطـر . فـالذي حـدث كما أكد قوتيي (E. F. Gautier) « ثورة عـارمة إذ تخطت البلاد ذلك الحـاجز الفاصل بين الغرب والشرق والذي صعب اجتيازه في بلدان أخرى . إنّها قفـزة فـي المجهـول نجـد الثورتيـن الفـرنسية والروسية بالنسبـة إليهـا متـواضعتيـن جـدا »

ولـم يقـم المغرب بهـذه القفزة في المجهـول عن طيبـة خاطر بـل نحـن نعلـم أنّه قاوم مقاومة طويلـة جامحـة . وقد يـكون من المجازفـة أن نظفـر بأكـثر من هذا اليقين . فليس لدينـا وثائـق ولا رحلات كـتبهـا أجانب ولا أخبار أوروبية . وإذ قلـت النقائش وشحت النقود وانعدمت النصوص الثابتـة وجب علينـا اللجوء إلى إخباريين عرب عاشوا بعد الأحداث التي تعنينا بأمد طويل .

قال ويليام مرسي وهو أقدر النـّاس على تقييم النصوص : « إن أقرب الأشياء إلى الواقع في ظني استنادا إلى مـا وصلت إليه معلوماتنا الحالية في هذا الصدد هو ان المعطيات القليلة المتعلقة بهـذه الفترة البطوليـة الأسطورية مستقـاة من روايات أربـع : روايـة مشرقيـة ينتزعـهـا الواقدي الذي عاش بالمـدينـة وبغداد في نهـاية القرن الثامن ، ورواية إسبانيـة يمثلهـا أحد أحفاد الفاتـح

موسى بن نصير الذي عاش بالأندلس في أواخر القرن الثامن ، ورواية إفريقية منسوبة إلى أحد أحفاد فاتح آخر وهو أبو المهاجر وقد عاش بالقيروان في نفس الفترة ، وأخيرا رواية مصرية لابن عبد الحكم المتوفى بالقاهرة سنة 871 وهي الرواية الوحيدة الكاملة التي وصلتنا مباشرة .

لقد دون ابن عبد الحكم في أواسط القرن التاسع ما نقله في مصر من روايات ترجع إلى القرن الثامن . وكلمة رواية لا نلقيها هُنا على عواهنها لأن المصادر كانت تذكر على الطريقة التي كان ينقل بها الرواة أحاديث الرسول محمّد . فالمؤلف يذكر سلسلة الأخبار التي أمكن له جمعها ويسندها إلى أصحابها واحدا عن واحد إلى أن يصل الى آخر حلقة أي إلى الرجل الذي شهد أو كان في وسعه أن يشهد الأحداث المعنية بالأمر . ثمّ إن الرغبة في تدوين الفقه وضبطه كانت واضحة . ذلك أن التاريخ لا يهم في حد ذاته بقدر ما تهم الحجج التي يمكن أن يستنبطها المذهب الذي كان ينتسب إليه ابن عبد الحكم . فمن الواجب إذن معرفة هذه النظرة التي لا تخلو من تشويه للواقع لندرك مدى الحيطة التي يجب اتخاذها عند الاعتماد على آثار هذه الرواية . وإذا كان في الإمكان أن نستنبط منها معلومات ثمينة جدًا فإنه لا يمكن اعتبارها تأليفا تاريخيا بأتم معنى الكلمة ولا حتى مجرد أخبار .

غير أن الإخباريين العديدين الذين عاشوا في القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر ، زودونا بجملة من التفاصيل أوفى من دون أن يذكروا مصادر هامة غير التي أوردناها من قبل . فكأنهم اعتمدوا في تأليفهم نزرا قليلا من الأخبار من الواجب استعمالها بنفس الحذر الذي أحطنا به أخبار ابن عبد الحكم . وابنُ خلدون هو الوحيد الذي لايكتفي بحرية كبيرة في الحكم ولايتقيد بالروح النقدية فحسب ... بل يتجاوز ذلك إلى ضرورة الفهم والتفسير . غير أن ما نقله عن الفتح جاء للأسف متأخرًا عن الأحداث بسبعة قرون ومن المستحيل لمّ شتات المصادر التي اعتمدها . والذي يبعث فينا الحيرة كذلك عندما نعتمد ابن خلدون والمؤرخين الذين عاشوا بين القرن الحادي عشر والقرن الخامس عشر مثل المالكي وابن الأثير وابن عذاري والنويري هو غزارة في التفاصيل

تتناقض مع الاقتضاب الذي يلاحظ في روايات الإخباريين الذين عاشوا بين القرن الثامن والقرن التاسع مثل ابن عبد الحكم والبلاذري.

ولقد قال وليام مرسي (William Marçais) منبها إلى هذه المتناقضات : « إن أبطال المأساة عند الإخباريين الأوّل لهم ملامح أكثر وضوحا ، وأدوار أشدّ تحديدا ، ووقفة أغزر حيوية وأبعد إثارة . وهذه المزايا يمكن أن نعزوها إلى تطور في البراعة الأدبية أكثر من أن نعزوها إلى استغلال موفق لوثائق ذات قيمة حديثة » . ومعنى هذا أننّا مضطرون في آخر الأمر الى استمداد معلوماتنا لدراسة الاحتلال العربي من حياة أشخاص هي إلى القصّة أقرب منها إلى التاريخ .

فهل يجب أن نتخلى من أجل ذلك عن طلب الدقة العلمية ؟ قد يميل الباحث إلى ذلك — أم من واجبنا أن نحرص كما فعل قوتيي (Gautier) على إدخال شيء من النظام في فوضى الحروب والثورات وسقوط الممالك وذلك بالسعي إلى « تفسير » الأخبار التي رواها العرب و « تنسيقها ».وهذه الطريقة وإن لم تكن هي المثلى فهي على الأقل موئلنا الوحيد الا أنها تحمل عنصرا ذاتيا أخطاره لا يمكن أن يخفيها النجاح الباهر الذي عرفه كتاب « قرون المغرب المظلمة » . ذلك أننّا إذا نسجنا بيوت العنكبوت ولو بخيوط من الحرير لمّاعة ولم نحصل على نسيج متين فإن الذنب ليس ذنب الناسج .

كذلك يمكن لنا على غرار ما قام به جورج مرسي (Georges Marçais) أخيرًا ، أن ندرس بصبر النصوص ونستخرج منها ما يمكن لنا استخراجه من الحقائق التي لا يستهان بها ومن نقط الاستفهام العديدة من دون أن يغيب عن أذهاننا وجوب وضع كل هذا في سياقه التاريخي ، أي في التاريخ العام لحوض البحر المتوسط ذلك أن المغرب مهما كان منعزلا في طرف كانت فيه المواصلات بطيئة غير مضمونة فهو جزء لايتجزأ من حوض البحر المتوسط يساهم إن قليلا أو كثيرًا في حياة هذه المجموعة الممتدة من مضيق جبل طارق إلى الشرق الأوسط وقد كانت إفريقيا الشمالية مشدودة إليه زمان قرطاج ، وسيزداد اتصالها به متانة بفضل الفتح الاسلامي والغزوات العربية وحياة بعض الأبطال المليئة بالمغامرات أمثال إدريس وابن رستم وابن تومرت وأخيرًا الزحفة التركية في القرن السادس عشر .

المغرب المفرق : لمّا أشرف العرب على إفريقية البيزنطية لم يجدوا منذ أن عبروا مضيق السويس (سنة 640) من يصدهم عن ذلك بصفة جدية . ولقد كان أقل من أربعة آلاف رجل كافيا في معركة واحدة للانتهاء من أمر مصر حيث استقبل الأقباط المضطهدون الزاحفين بحماس . وسقطت منذ خريف 642 برقة وهي أهم مدينة في خماسي المدن (Pentapole) ثمّ بلاد القريني (Cyrénaïque) كلها . ومن هناك أخذوا يوالون الغارات تارة على جنوب البلاد حتى بلغوا الفزان (زويلة) وطورا على غربه حتى انتهوا إلى طرابلس التي أخذوها عنوة سنة 643 .

ولم يصطدم الفاتحون عند هذا الحد بالقبائل البربرية وكان تخاذل أكسرخس (Exarque) يشجعهم على مواصلة زحفهم الا أنهم اقتصروا على احتلال بلاد القريني نهائيا ولم يتجاوزوا جبال نفوسة . وقيل إن قائدهم عمرو وقد هزته نشوة انتصاراته رغب في القيام بحملة إلى إفريقية أي تونس الا أن الخليفة عمر عارضه في ذلك . والرسالة الشديدة اللهجة التي نسبها ابن عبد الحكم إلى الخليفة تدل على الأقل اذا كانت منتحلة على ما كان يشعر به العرب في القرن التاسع من احترازات ازاء الغزوات الإفريقية المليئة بالأخطار . قال عمر لعمرو عندما اقترح عليه الزحف على إفريقية « لا إنها ليست بإفريقيا ولكنّها المفرّقة غادرة مغدور بها لا يغزوها أحد ما بقيت » وزاد ابن عبد الحكم الراوية الثقة على ذلك بقوله : «لا أوجّه إليها أحدا ما مقلت عينيّ الماء» .

وهكذا فإن التحذيرين المنسوبين إلى الخليفة عمر لا يتركان مجالا للشّك في رأيه.

غزوة ابن سعد : وضع عثمان خليفة عمر حدا لهذا التردد سنة 644 وأمر أخاه من الرضاع عبد الله بن سعد والي مصر بالدخول في المغامرة . ولرّبما قام ابن سعد بمحاولة أولى سنة 645 أو سنة 646 غير أن النّجاح كان حليفه سنة 647 في غزوته الكبيرة التي زخرفها كُتّاب التاريخ العرب بأحداث عجيبة أو خرافية .

وكان الشيخ جرجير قد تحالف مع القبائل البربرية تفاديا لكل غزو واتخذ من سبيطلة المركز المحصن قاعدة استراتيجية له من دون أن يجعلها عاصمة . وكان ابن سعد قد حل أول الأمر بالموقع

الذي ستُبنى فيه القيروان ثمّ تحول إلى الجنوب الغربي وبعد أيام قليلة قضاها في الملاحظة هجم على الجيش البيزنطي في سهل سبيطلة فمحقه . وهلك جرجير في المعركة وقد يكون ذلك بيد عبد الله بن الزبير نفسه الذي نسبت إليه الأسطورة . ومن الخصال ما يدعو إلى الشك . كذلك لا يُعتد بما نسب إلى يمينة ابنة الشيخ من مغامرات هي من قبيل الخرافة .

وقد وصف المؤرخون العرب من دون فرط تحرّ هذه الفتاة الجميلة وهي ممتطية جوادا تقيها حرّ الشمس مظلة من ريش الطاووس أو بارزة للناس من أعلى برج وهي سافرة .

غير أن هذه المرأة التي كان في الحسبان أن تكون من نصيب المنتصر على ابن سعد فاز بها أحد الأنصار ولم تفلت من الرّق الا عندما ارتمت من فوق الجمل فدق عنقها . وهذه القصّة المؤسفة المنتحلة تماما تعبر تعبيرا مؤثرا كما لاحظ ذلك قوتيي عن مدى الفزع الذي عرفته ولا شك اليونانيات الارستقراطيات عندما وقعن في أيدي البدو الغليظة .

وكان الطمع في الغنيمة هو الذي دفع العرب إلى القيام بهذه الغزوة . وقد كسبوا بفضل غزوات جنوب المزاق غنائم عظمى .

غير ان ابن سعد كان يخشى هجوما معاكسا متوقعا ينطلق من مراكز الشمال المحصنة التي كان عاجزا عن حصارها . وعندما عرض عليه البيزنطيون غرامة حربية باهضة مقابل ارتحاله عن المزاق سرعان ما قبل العرض والتحق بمصر حاملا معه كنوزه . وبذلك لم تدم الحملة أكثر من عام (647 — 648) .

وكانت هذه الحملة رغم قصر مدتها ضربة قاصمة للهيمنة البيزنطية . فقد أفلتت من سلطة قرطاج القبائل البربرية الموجودة في جنوب المزاق الذي نهب وأقفر من أهله وزاد هلاك الشيخ جرجير في الفوضى والحزازات المزمنة .

واستفاد العرب بالخصوص من هذه التجربة أن مقاومة اليونان ليست شديدة وأن الغزوات تدر عليهم المنافع العجيبة وهكذا كان من المتوقع رجوع الغازين بسرعة .

أزمة الخلافة : غير أن الاضطرابات التي عقبت مقتل الخليفة عثمان كانت سببا في كسب 17 سنة من الاطمئنان لإفريقيا ذلك أن اتساع رقعة الامبراطورية العربية أثارت مشاكل كان من المستحيل حلها من دون الوقوع في ازمات . فلقد ظن الخليفة الثاني عمر أنه كان من الممكن استتباب الأمن بتنظيم موارد الدولة بصفة يمكن معها توزيع الجرايات على الفاتحين حتى يبقوا تحت نفوذه .

لكن هذا النظام المعتمد على مشيئة الخليفة وعلى استغلال المغلوبين بدون هوادة ما كان يمكن أن يدوم من دون أن يثير غيرة البعض وتمرد الاخرين .

وحافظ عثمان على هذا النظام رغم نقائصه : فكان ضحية له كما كان الشأن بالنسبة لعمر . ووجد علي الخليفة الجديد رغم انّه كان صهر محمّد صعوبات أشدّ وطأة . إذ شق والي الشام معاوية عصا الطاعة في وجهه واستدرجه بمهارة إلى التحكيم في شأن مقتل عثمان ثمّ أعلن علي عن تنازله ولم يلبث ان قتل سنة 661 . وكان معاوية بادر قبل موت علي بتنصيب نفسه خليفة في جويلية 660 . وبخلافته قامت الدولة الأموية التي ستحاول تشييد ملك مركزي قومي عاصمته دمشق .

وكان لمصر التي منها انطلقت غزوات إفريقيا الشمالية علاقات مباشرة بتلك الاضطرابات . فلقد ثارت ضد ولاة عثمان وأجبرت ابن سعد على مغادرة البلاد وبعثت إلى المدينة بقتلة الخليفة . ثمّ دخلت في بيعة علي سنة 658 حيث احتلها أحد قواد معاوية وكان من الطبيعي أن تحتل مشاريع الزحف على المغرب المكانة الثانية بسبب الخلافات السياسية والدينية وتبنت الدولة الجديدة فكرة التوسع تجاه الغرب وأوكلت أمر مصر إلى الشيخ عمرو الذي لم يتخل عن مطامعه في غزو إفريقيا .

زحفة معاوية : لم تستثمر إفريقيا فترة الاطمئنان لتسترجع قواها كما ان القسطنطينية لم تغتنم فرصة موت جرجير لتدعم نفوذها من جديد بل إن الأمبراطور قسطن الثاني أصدر مرسوما جديداً اسمه « النّموذج » (Le Type) يقضي بإنزال صارم العقاب على كل من لا يتبع الرموز القديمة من دون إشارة إلى أصحاب المشيئة الواحدة

(المونوثيلية) (Monothelisme) أو المشيئة المزدوجة (Duothélisme) . وأثار بذلك عليه المسيحيين الارتودكس في إفريقيا الذين يعادل امتثالهم للسلطة البابوية مناوأتهم للإرادة الأمبراطورية . وقد يكون دعيّ من الأدعياء اسمه جناديوس استغل الموقف ليستأثر طيلة سنوات بإمارة مستقلة . ولمّا خشي أحد منافسيه لقي مساندة من الأمبراطور والتجأ إلى فتح التفاوض مع المسلمين للحصول على إعانتهم .

ولمّا عاد الأمبراطور إلى سالف نفوذه لم يجد بين يديه الا أسمالا من الأكسرخسية (Exarchat) واضطر إلى التخلي عن حصون المواقع الأولى واكتفى بحماية تخوم تونس الوسطى .

وهكذا فإن كل ما كتبه المؤرخون العرب عن هجماتهم ضد البربر بين سنتي 660 و 663 مدعاة إلى الاحتراز . وفي سنة 665 كان معاوية بن حديج الذي تزعم شق الأمويين بمصر قد توغل في المزاق بإذن من الخليفة وهزم جيشًا بيزنطيا بحضرموت (سوسة) واقتحم حصن جلولى فدكه ثمّ قفل راجعًا إلى مصر محملا بالغنائم .

الاحتلال الدائم : عقبة . ولم يمض وقت طويل حتى قام عقبة بن نافع الذي كان شنّ غارة موفقة على الفزان بحملة ثالثة تخالف الحملتين الأخريين من حيث إنّها انتهت بالعرب إلى الاستقرار الدائم . ذلك أن عقبة أسس سنة 670 في قلب المزاق ، وفي سهل فسيح يكاد يكون صحراويا مدينة القيروان بعد أن طهره من جميع الحيوانات المفترسة والزواحف الساكنة به مرددا بلا انقطاع طيلة ثلاثة أيام مارواه النويري : « أرى لكم يا معشر العرب أن تتخذوا بها مدينة تجعلونها عسكرا وتكون عزّا للإسلام إلى آخر الدهر » .

ولئن كانت القيروان معسكرا يصد البيزنطيين الذين كان من الممكن أن يجعلوا من المدن الساحلية قاعدة للهجوم فإنها كانت بالخصوص معقلا في وجه البربر الذين أصبحوا هم وحدهم أعداء العرب المهابين . وبذلك لم تحم هذه المدينة طريق مصر فحسب وكان من الواجب أن تبقى مفتوحة للمدد وصالحة للانسحاب المحتمل بل تصدت للأوراس الذي انقلب محورا للمقاومة .

ورغم هذا الاستيلاء لم تتحول إفريقية إلى مقاطعة مستقلة بل بقيت تابعة لمصر حتى أن عقبة أقيل من مهامه في غير رفق وعوض بأبي المهاجر وهو من أنصار الوالي الجديد . ولعل القوم كانوا يعيبون على مؤسس القيروان منحاه العسكري البحت وموقفه الحاد تجاه قواد البربر وما كان يأذن به من مجازر في غير هوادة ويشنه من غارات بالغة الخطورة بقدر ما هي عديمة الجدوى .

ويظهر أن أبا المهاجر خلافا لسلفه فتح مع قواد البربر مفاوضات لكسب مساندتهم ضد البيزنطيين .

ويقال أيضًا إنّه توغل حتى وصل إلى « عيون تلمسان » حيث هزم أمير قبيلة أوروبة كسيلة الجبار الماهر وأسره . وعلى كل فإن سياسة أبي المهاجر وإن كانت دون سياسة عقبة إشعاعا فقد كانت أكثر جدوى .

مسيرة عقبة نحو الغرب : ولم تطل محنة عقبة إذ أسندت إليه سنة 681 القيادة العليا بإفريقيا فشن لوقته على المغرب غارة من الطراز العالي قد يكون من المجازفة الاطمئنان إلى وقوعها .

وجر عقبة وراءه أبا المهاجر وكسيلة مصفدين في الأغلال إشفاء لغليله من دون أن يقتصد حسب ما روي في كيل الإهانات للقائد البربري فكلفه ذلك فيما بعد ثمنا باهضًا . ولم يحاول عقبة حصار المراكز المحصنة شمال الأوراس بل انطلق من هناك صوب طنجة مباشرة بعد ان اصطدم بجيوش من الأهالي تعززها عناصر من الروم قرب باغاية (Baghaï) ولامباز (Lambaise) ثمّ تاهرت (Tiaret) .

وروى المؤرخون العرب ان النبيل يوليان (Julien) عوض ان يقاوم عقبة استقبله محمّلا بالهدايا الثمينة . فاستفسره عقبة عن أمر قوط (Wisigoths) أسبانيا و الروم وبربر المغرب . واعتمد على هذه الإرشادات فاقتحم السوس وقتل أهله تقتيلا وسبا من الفتيات الجميلات عددا كثيرًا ثمّ أشهد الله أن بحر الأطلنطيق هو وحده الذي حال دون مواصلة زحفه لمحق الكفار .

وكل هذا من الغرابة بمكان حتى أن أ. ف. قوتيي (*E.* F. Gautier) بنى عليه نظرية مفادها أن سرعة احتلال موريطانيا الطنجية يمكن موازاتها

مع سرعة احتلال إفريقيـا ثمّ فيما بعد اسبانيا . ذلك أن بلدان إفريقيـا الشمـاليـة التي عرفت التأثير القرطـاجي انحازت بسهـولة إلى المسلمـين . غير أن جل التفاصيـل لم تبرز الا بفضـل المؤرخين المتأخرين في الزمن . فإذا نظـرنا في بعض الروايات التي ذكرهـا ابن عبد الحكـم جميعهـا فنحن لانجد ذكرا الا للسوس وهي لفظـة غامضـة في كـتب الجغرافييـن العرب المتأخرين ، ومن الواجب تحديد معناها في القرن الثامن . كما لانجد الا عبارة عقبـة الشهيـرة عندما وقف على شاطيء البحر (وأي بحر ترى ؟) وأشهـد الله على أنـه غير قادر على مواصلـة زحفه . فلا إشارة إلى مدينـة طنجـة ولا تفاصيـل لهـذه المسيرة العجيبـة في بـلاد مجهـولة . وفي هذا ما يدعــو حقـا إلى إعمـال الرأي والشك : والذي لاجدال فيـه أن عقبـة أجهـد نفسه لتـوسيـع رقعـة الأمبراطورية الإسلاميـة نحـو الغرب ، وأنّه لذلك حـارب في الأوراس إلاّ أنّه يكـون من المجازفة ان يؤكـد الباحث أكـثر من ذلك وقد قال برنشفيق في هذا المعنى « اذا ملنا الى التصديـق بوقـوع جولـة عقبة فـإنّه من الحـكمـة ان نحصرها في الجزائـر الوسطى إلى أن يأتي ما يخالف ذلك . ولرّبمـا وصلـت هذه الجولة إلى جهـة وهران الحالية ووادى شلف » (ر. برنشفيق)

المقـاومـة البربـرية : كسيلـة : إذا نحن جـارينـا في بعض المسائـل ما ذهب إليـه كـتاب ما بعد القرن الحادي عشر وخاصـة ابن خلـدون الذي دون آثاره في نهـاية القرن الرابـع عشر انتهينا إلى القول بأن شخصيـة كسيلـة كـانت مهيمنة على تاريـخ إفريقيـا الشمالية إذ ذاك . ولقد ذهب أ. ف. قـوتيي حتى إلى الافتراض بأن كسيلـة كـان ملـكا لبني جدار وأنّه على الأقل قاد بني أوربة وهم من حضر قبيلة برانس المتأثرين بالحضارة اللاطينية والمسيحية والمائلين إلى الاتحاد مع اليونان ضد العرب المسلمين . وقال هذا المؤرخ في النهـاية : « إن الانتصار على سيدي عقبة كـان انتصارا بيزنطيـا في معظمـه أكـثر من أي انتصار حققه البربر فيما بعد » .

ونظـرا لندرة الوثائـق وقلـة دقتهـا فإنّه من الصعـوبة بمكان معرفة مدى تأثير كسيلـة معرفـة مضبوطة الا أن الأخبـار التي رواها ابن عبد الحـكـم كـفيلـة بتأكيد الدور الخطير الذي قام به في هزيمـة عقبـة وشاهدة على أنّه يعتمـد في خطتـه على الروم السـاكـنين بافريقيـا الشماليـة . ويظهـر أن

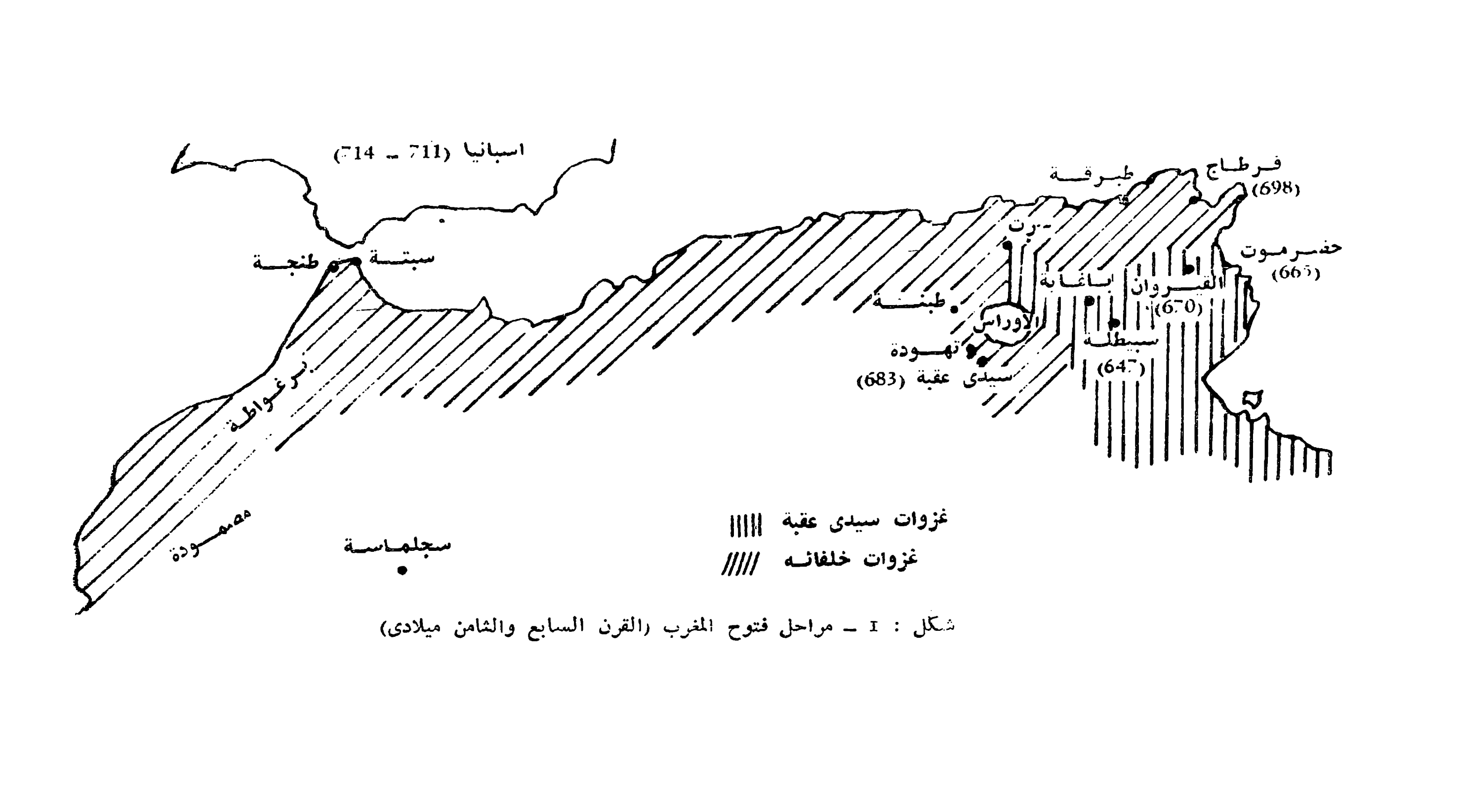
هؤلاء الذين لم تكن لهم قوة عسكرية كافية لصد المسلمين نجحوا في إثارة البربر المتمسكين بخصوصيتهم على المغيرين ولئن أعوزت البرطيين القوة العسكرية ، فقد احتفظوا بتأثير سياسي في شرق المغرب على الأقل ، فهل أسلم كسيلة ورجاله بعد كما يؤكد ذلك المؤرخون المتأخرون في الزمن أم أنّهم بقوا على دين المسيح ؟ قد يكون من المجازفة الجزم برأي في هذا المجال .

ومهما يكن فإن عقبة بوغت في جهة بسكرة عند رجوعه من غارة قام بها في الغرب بحلف عتيد جمع البربر والبيزنطيين ولربّما لم يكن عند ذلك مسيطرا على جيوشه المحملة بالغنائم وعلى كل فإنّه قسم جيشه في طبنة (Thubunae) إلى ثلاثة فيالق واتجه على رأس كتيبة قليلة العدد نحو جنوب الأوراس ؛ لكن كسيلة الذي كان انسلخ عنه في مكان مجهول ووحد القبائل البربرية مع جيوش الروم حاصره في حدود الصحراء قرب تهودة (Thabudeos) على مصب الوادي الأبيض وقتله مع ثلاثمائة من فرسانه (سنة 683) . ومعلوم أن جثمان عقبة مدفون في مسجد الواحة التي تحمل اسمه «سيدي عقبة» على بعد خمسة كيلو مترات جنوب تهودة تحت قبة متواضعة البناء يحج إليها أحفاد الذين ساهموا في مقتله .

وكان الانتصار في الظاهر حاسما : ذلك أن سياسة عقبة أدت إلى الكارثة : إذ أن العرب اضطروا أمام تظافر جهود البربر والروم إلى التخلي عن ممتلكاتهم الواقعة ما وراء برقة .

وبعد ان دخل كسيلة القيروان بقي فيها ثلاث سنوات صاحب السلطة الحقيقية على افريقية والمغرب الشرقي . وما لبث البربر أن ارتدوا عن الإسلام كما كان شأنهم مرات عديدة حتى وصلوا في ظرف سبعين عاما إلى اثنتي عشرة ردة حسب ماذكره ابن خلدون في نص شهير له ، فكأن إفريقية كانت مصممة على أن تحيا مستقلة تحت إمرة قائد بربري في منطقة الأوراس حيث نبض قلب المقاومة البربرية .

غير أن العرب ما كانوا ليصبروا على مثل هذه الهزيمة . فلقد اضطر الخليفة عبد الملك إلى تأجيل الأخذ بالثأر ليتسنى له مقاومة الدعي



شكل : I ـ مراحل فتوح المغرب (القرن السابع والثامن ميلادى)

الخطير عبد الله بن الزبير الذي كان انتصر قبل ذلك على النبيل جرجير والذي أمكن له بفضل قرابته من عائشة أرملة الرسول أن يتزعم جزءا عظيماً من الأمبراطورية الإسلامية . واغتنم عبد الملك فترة هدوء ليعقد لزهير بن قيس على رأس جيش واجه به كسيلة في ممّس (Mems) قرب القيروان ، فانهزمت الجيوش البربرية والبيزنطية بعد قتال عنيف قتل فيه كسيلة (سنة 686) . وكانت الهزيمة نسبية إذ أن زهيراً تراجع بجيشه ولم يترك الا حامية صغيرة بالقيروان وبغت بنزول جيش للبيزنطيين من البحر في برقة حيث لقي حتفه .

الكاهنة : إذا اقتصرنا على ما أورده ابن خلدون في تاريخه وعلى التفسير المغري الذي قام به أ. ف. قوتيي انتهينا إلى القول بأن أفول نجم كسيلة أدى إلى نتائج خطيرة . ذلك ان البيزنطيين المسيطرين على الموانى الكبيرة من سوسة (Hadrumète) إلى عنابة (Hippo regius) وعلى الحصون العديدة داخل البلاد كان دورهم في الحرب الدفاعية دور الروادف بالنسبة للبربر . فاغتنموا فرصة رحيل العرب ومنافسة قواد البربر بعضهم لبعض لتدعيم سلطانهم في المزاق . وأفلت من أيدي أوربة زمام العمليات وصار في حوزة قبيلة جراوة بالأوراس الشرقي .

ولم يبق جراوة حسب أ. ف. قوتيي حضرا تقربهم حضارتهم ودينهم من الروم بل أصبحوا زناتيين أي « بدوا أقحاحا جمّالة دخلاء على المغرب » ليس لهم جذور تصلهم بماضي البلاد ولا مصلحة تشدهم إلى إفريقيا القديمة .

وهذا الافتراض خصب لأنّه يكشف لنا فيما إذا أمكن التدليل عليه عن الاتجاهات الجديدة التي طبعت بها الكاهنة ملكة الأوراس البربرية المقاومة البربرية .

إن هذا التحول تم في ظرف على قدر كبير من الخطورة . ذلك أن عبد الملك الذي تمكن في آخر الأمر من القضاء على ابن الزبير (سنة 698) وعلى الثوارت الدينية في المقاطعات الفارسية (697) أراد أن يقوم بعمل واسع النطاق في إفريقية . وفعلا بادر الوالي حسان بن النعمان الغساني بتوخي طرق جديدة فبدأ بإزالة الخطر البيزنطي عند استيلائه على

قرطاج (سنة 695) فكانت الصدمة عظيمة في القسطنطينية على غرار التأثير الذي حصل بعد انتصار جنسريق واضطر الأمبراطور ليونسيوس (Leontios) إلى تجهيز أسطول نجح من حسن حظه في استرجاع المدينة من جديد .

وفي الأثناء اتجه حسان إلى مقاومة بربر الأوراس . وقد بلغه حسبما يروى أن ملكة عظيمة الشأن تسمّى الكاهنة ، أي النبيّة ، تحكمهم . وهذه المرأة المجهولة الاسم (دمية أو دهية ؟) كانت كما أكده ابن خلدون هي وقومها على دين اليهود . ولقد أراد بعضهم التدليل على ذلك بكنيتها التي هي في واقع الأمر عربية صرف .

وعلى كل فقليلون هم الأبطال الأفارقة الذين غذوا الأساطير بمثل ما غذتها به من سماها جورج مارسي (G. Marçais) في لغة جميلة « الدبورة البربرية » (Débora berbère) . ويحسن التنبيه — نهائيا — بأن النساء في بلاد البربر قمن في مناسبات عديدة بدور مرموق على الأقل إلى الفترة الموحدية . وحسبنا أن نذكّر بقوة زينب زوجة يوسف بن تاشفين التي كانت هي أيضًا تعرف السحر وبعدة أميرات من المرابطين وبأخت ابن تومرت نفسه التي عاضدته في ساعاته الأخيرة مع أخلص مريديه . غير أن واحدة منهن لم تبلغ شأو الكاهنة . والواقع أننا لا نعرف من أمرها الا اسمها وإشعاعها ومقاومتها الشديدة للغاصب وقد غذتها على ما يظهر وطنية بربرية وعقيدة عبرية .

والذي لا شك فيه هو أن الكاهنة جمعت كلمة البربر من جديد وهزمت الجيش العربي على ضفاف مسكيانة بين عين البيضاء وتبسة ودحرته إلى طرابلس .

انتصار حسان : غير أن حسانا اقتحم بعد ذلك بقليل المزاق من جديد وافتك مرّة أخرى قرطاج (سنة 698) فلم يجد في المدينة إلا عددا قليلاً من الروم بلغوا من المسكنة حدا جعلهم لايبالون بمن يسودهم . أما السكان الآخرون ، فقد لاذوا بجزر البحر المتوسط . لكن حسانا سرعان ما استعاض عن العاصمة المنهارة بمدينة جديدة في منتهى الخليج وهي تونس فكان دورها الأول أن أصبحت دار صناعة لا ينالها العدو من عرض البحر .

وكانت مراكب الخليفة قد شتتت الأسطول البيزنطي وهو آخر أسطول قادر على أن يجول قرب شواطي إفريقيا . وانتقلت بذلك السيطرة على البحر إلى العرب ولم يبق في حوزة الروم الا مركز سبتة (Septem) وأشلاء من موريطانيا الطنجية ومايورقا (Majorque) ومينورقا (Minorque) وعدد قليل من المدن في إسبانيا . ويظهر أنهم كونوا من هذا كله آكسرخسية (Exarchat) دامت عشر سنوات أخرى .

وبقي كسر شوكة البربر ، وفي هذه المرة يسرت خلافاتهم انتصار العرب ، ذلك أن الكاهنة قد تكون حكمت المغرب طيلة خمس سنوات حسب عرف البدو والرحل لذا فإن النتائج لم تتأخر عن أجلها .

فقد أجمع المؤرخون العرب على أن الفاتحين وجدوا في الروم وحضر البربر أعوانًا قيمتهم لا تقدر . و إذا صحّ ان الملكة ارادت قطع خط الرجعة على العرب فأمرت بتخريب البلاد بحيث لم يبق ماثلا لا الشجر ولا الأسوار فإننا نفهم لماذا ألبت عليها أهل المدن والمزارعين سواء كانوا روما أو بربرا .

وكان الحسن أذكى من أن يستغل مثل هذه الحالة ، ثمّ إن عبد الملك الذي كان انتصر (سنة 702) على آخر تمرد قام به أحد الأدعياء أرسل إليه بجيش عظيم أمكن له به أن يشن هجوماته من جديد .

وأمرت الكاهنة قبل المعركة الحاسمة بيوم أولادها بأن يسلموا أنفسهم إلى العدو . ولقد بين أ. ف. قوتيي في مقارنة موحية كيف أن هذا الصنيع طبيعي بالنسبة لقائد بربري يضع سلطان عائلته على القبيلة فوق كل اعتبار ، وخاضت الملكة وقد تقدمت بها السن معركة ميؤوسا منها في مكان ربمّا يكون قرب طبرقة ثمّ طوردت هي وخلصاؤها حتى الأوراس ، وقتلت قرب بئر تسمّى من ذلك الوقت بئر الكاهنة وحمل رأسها مشهرا إلى الخليفة . وبموتها انتهت فترة الدفاع البطولي .

الموازنة برانس + بتر = حضر + بدو رحل : وهكذا فإن الصراع الدائم بين الحضر والبدو يحتل المقام الأول في سياق الفتح العربي. وقد تلقي هذه المقابلة الأضواء الكاشفة على تاريخ بلاد البربر لو أمكن مقايستها بالترتيب الذي وضعه ابن خلدون وتبين الواقع الجغرافي والاقتصادي من خلال النظرة الخيالية للأنساب .

وهذا ما حاوله أ. ف. قوتيي في أحد افتراضاته الجريئة التي تحمل على إعادة النظر في التاريخ التقليدي . وقد يكون الجمالة الذين سمح لهم آل سواريوس بتكوين قبائل عظيمة سريعة الرحيل صعبة المنال هم البربر الذين يسميهم المؤرخون العرب البتر والمنحدرون من رجل خرافي اسمه مغديس الأبتر .

بينما الحضر قد يرجعون إلى البرانس نسبة إلى جدهم برنس وكل جماعة تتكون من سكان يتحدون في نمشط الحياة وليست بينهم قرابة . وعلى ضوء ما سبق يمكن فهم الصعوبات التي قامت في وجه العرب عند الفتح وعوامل الانقسام التي سهلت عليهم الانتصار ، ولم يتطلب خضوع أهل المدن الإفريقية العريقين أي مجهود يذكر ، فقد كان قيام حكومة نظامية ضروريا لحياتهم ، وقضاء شؤونهم أهم في نظرهم من الحرية . غير أن مأساة اجتماعية كانت تحاك خيوطها في نوميديا منذ العهد الوندالي . ذلك أن الفلاحين كانوا زمن الهيمنة الرومانية يفقدون منزلتهم شيئاً فشيئاً لفائدة الرحالين الصغار وخاصة كبار البدو الجمالة . ومن المحتمل أن تجسمت على التداول في جماعة البرانس المقاومة البربرية . فكانت أوربة الحضرية تحت إمرة كسيلة وجراوة البدو الرحل تحت إمرة الكاهنة . وقد تكون ثورة الحضر على أساليب البدو الرحل هي العنصر الحاسم في انتصار الفاتحين . وهي التي قد تكون أتاحت لهم الفرصة لمواصلة فتوحاتهم ونشر دينهم في اتجاه الغرب .

قال أ. ف. قوتيي في الختام : « لم يحاول الحضر والبدو في المغرب قط العيش جنبا إلى جنب من دون أن يضمر الحقد بعضهم لبعض . وكان في ذلك انتصار الزحف العربي والمنعرج الحاسم الذي تخطاه حسان بن النعمان » . وإذن فإن هذه الفرضية يمكن أن تستمد من الزحف العربي مثالا يبرز صحتها .

ولقد ناقش وليام مرسي كل ذلك بما يفرضه المقام من جد وكان يرى من المستحيل اعتبار البتر بدوا رحلا والبرانس حضرا . « ذلك أن جانبا عظيماً من الزناتيين الممثلين التمثيل الحق لفرع البتر كانوا من دون شك جمالة » . غير انّه من الصعب تصور الكثيرين من البتربدوا رحلا على

الوجه الأكمل مثل القرويين الكومية والمتاغرة « المستقرين بالأكواخ » وفلاحي نفوسة المستوطنين بنجاد طرابلس وبني جراوة من الأوراس. ومن جهة أخرى نجد من بني البرانس صنهاجة سكان الصحراء وهم أكبر الرحل عظمة. ويشهد كذلك ابن خلدون بأن هوارة البرانس كانت تضم الرحل والحضر معا، وبأن فرعا كاملاً من برانس كتامة وهم بنوسدويكش كانوا يعيشون تحت الخيام ويربون الإبل، وغالباً ما تعتبر كتامة من القبائل؛ وهكذا فإن الواحد من بني سدويكش يمثل خليطاً غريباً من القبائلي الراعي الساكن بالخيام.

وإذا كان المؤرخون العرب لم يلاحظوا تضارباً في نمط من الحياة كان مألوفاً عندهم فمعناه أنّه لم يكن ليتماشى مع المغرب. ويقدم وليام مارسي بدوره بما له من مكانة في العلوم اللسانية وفي حذر رغم ذلك، تفسيراً شخصياً لهذا التقسيم. قال: « ربمّا انبنى هذا التقسيم على الفروق التي لاحظها العرب في لباس أولى القبائل البربرية التي عرفوها من بربر يرتدون برانس (جمع برنس) ذات قلانس وبربر يرتدون ملابس قصيرة أو ليست لها قلانس (بتر جمع أبتر وهو الثوب المقطوع). وهل نحن في حاجة إلى القول إننّا مازلنا إلى هذا الحد في مجال الافتراضات.

وفيما بعد تلاشى المعنى الأول لهذا الفارق عندما أصبح ينطبق شيئاً فشيئاً على الأهالي الذين أخذ الفاتحون يتصلون بهم تدريجيا ».

ومن المحتمل أن الفاتحين عند توغلهم نحو الغرب، وجدوا في أماكن بعيدة جدّاً أحياناً بعضها عن الآخر، قبائل تحمل نفس الأسماء مستمدة من ظروف حياتها « وربما كان الأفرن من سكان المغاور » أو منسوبة إلى طوطم يحميهم. « وبما أن تشابه الأسماء كان بالنسبة اليهم الدليل المرجح لثبوت النسب فإنهم وجدوا في قبائل تتحد في الاسم الأحفاد المنحدرين من جد واحد وقد شتّتتْهم صروف الحدثان؛ ومنها، ما كان يعيش في شرق المغرب، ومنها ما كان يعيش في غربه، وبعضها من البدو الخلص أو أشباه البدو والبعض الآخر من الحضر الفلاحين. ومن بينها من استوطن تخوم السودان والآخر استقر بجبال التل ».

ولـو حـاول مؤرخ عربي اليوم اعتمـاد نفس المعيار لمعرفـة سكـان الجبـال لحشر في عائلـة واحدة « الجبالـة » المغاربـة سكان المنـازل ، و « جبالـة » قسنطينـة سكـان الأكـواخ و « الجبالية » التونسييـن المربيـن للإبـل والعائشيـن تحت الخيام فتـرة من السنة » . وينسبهـم إلى جد واحـد وهـو جبـل . وهـذا هو الذي جعـل بعضهـم ولا شك ينسب صنهـاجة إلى صنهـاج ومطماطة إلى مطماط .

ومن الواجب دحض افتراض أ. ف. قوتيي وإن كـان مغرضـا وذلك نظـرا لإفراطـه في التعميـم . الا أن هـذه النظريـة تـؤكـد الانعكاسات الاجتمـاعيـة للفتـح العربي وتستحـق من هـذه الناحيـة أن تـؤخذ بعيـــن الاعتبـار ، وإن هنـاك ظاهـرة طالمـا تـكررت وهـي أن البدو يغتنمـون الأزمـــات السياسيـة للخروج مـن عزلتهـم والهجـوم على الحضر قصـد الانتفـاع من الفوضـى . وهـكذا انقض المرابطـون على المغرب الأقصى المتداعي فـي القـرن الحادي عشر وظهـر بنـو مريـن فـي جهـات ملويـة السفلى حالمـا بدت على الدولـة الموحدية علائـم الوهن . كمـا انطلق حديثـا الهيبـة ورجـاله الزرق من الساقيـة الحمراء (Rio de Oro) على الدولـة العلوية عندما كـان نجمهـا في أفول . وليس من الغريب إذن أن يظهر البدو الرحـل على مسرح الأحداث بعـد الاضطرابات الـكثيرة التي نتجت عـــن الفـتح الاسلامـي على الأقـل في الجهـة الشرقيـة من إفريقيـا الشماليـة .

ومن جهـة اخرى فإن افتراض أ. ف. قـوتيـي يؤكد أهميـة أنمـاط الحيـاة التي تختلط اختلاطا وثيقًا بوشائـج القربى والتـي يميل الإخباريـون العرب بسهـولة إلى إهمالها لشدّة تعلقهـم بـالنسب وكـثيرة هي أمثلـة القبائـل المنحدرة مبدئيـا من جد واحد والتي تـكونت في الواقع من عناصـر متبـاينة لايجمـع بينهـا إلا نمـط واحد من الحياة ولم تعطهـا طابـع وحدة الجنس الذي يتمسك به المغرب تمسكا شديدا الا أوهام التبنـي .

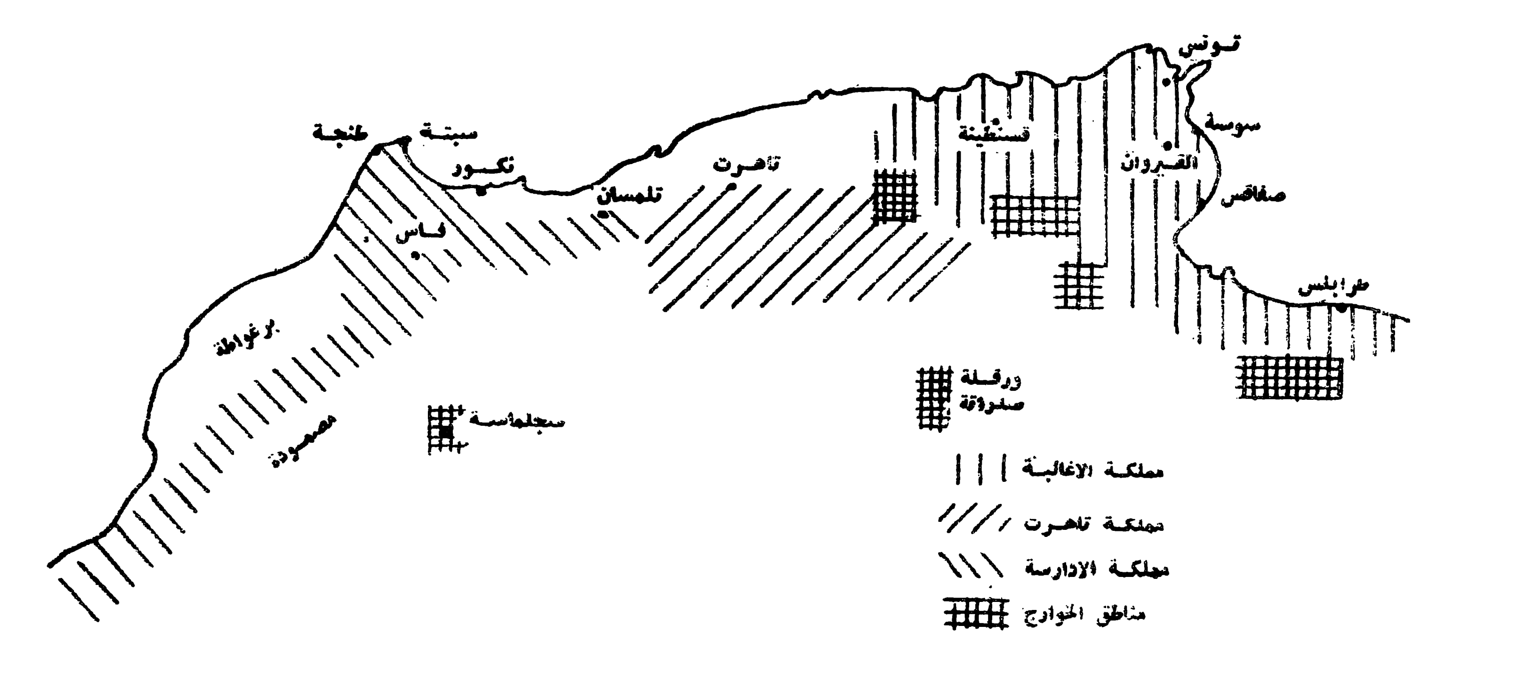
أمّا دور كسيلـة والـكاهنـة فإنّه يبدو من قبيـل المجازفـة ضبطـــه بالاستنـاد إلى ما بيـن أيدينـا من نصوص غير موثوق بهـا ومتضاربـة . فلقـد مـكـنت القرون المتتاليـة شخصيـة كسيلـة أول بطـل لاستقلال بربري مـن أن تبرز بروزا . ذلك أن البلاذري لايعرفه البتة . أمّا البكـري فلقـد جعلـه

يفر من طبنة أمام موسى بن نصير وابن قتيبة أكد أنّه قضى نحبه سنة 702 وهو يقاتل موسى هذا بعينه لافتكاك منفذ الملوية . كما أن ابن عبد الحكم لا يعرف بالضبط هل إن عقبة بن نافع قتل بيد كسيلة أو « ابن الكاهنة » وربمّا اعتبرهما في الواقع شخصا واحدا . وعلى كل فإن واحدا من الإخباريين القدامى لم ينعت كسيلة « بأنه رأس قبيلة أوربة » التي لا تسمح أية وثيقة بجعل موقع سكانها في الأوراس زمن الفتح العربي .

وهكذا فان كامل الرواية التقليدية التي تستجيب لنوازع النفوس التواقة إلى الملاحم لا تثبت أمام مكافحة النصوص . وقد يكون من المجازفة اعتبار شخصية كسيلة أوضح ملامح من شخصية رولان (Roland) كما تبدو من خلال ملحمته (Chanson de geste) .

بقيت النظرية القائلة بوجود أوراسين التي اقتبسها أ. ف. قوتيي من مسكراي (Masqueray) وانّها قد تقوم على أساس التفريق بين لهجتين . لهجة الشاوية سكان الأوراس الغربي أحفاد رعايا كسيلة ولهجة الشاوية سكان الأوراس الشرقي أحفاد رعايا الكاهنة . وهو تفريق مبني على عدّة أخطاء ومردود اليوم من جميع الاختصاصيين في اللّغة البربرية « فنظرية مسكراي القائمة على ثنائية بلاد الشاوية تظهر إذن واهية جدا ، والحيطة تفرض علينا اجتنابها انتظارا لما يخالف ذلك » .

وهكذا فإن الظروف التي اكتنفت المقاومة البربرية تندّ عن تطلعنا . فلم يبق لنا والحالة هذه سوى التذكير من جهة بالرواية القديمة المتعلقة بالفتح كما اعتاد القوم استخلاصها من المؤرخين العرب اعتمادا على اختيار لايخضع دائمًا إلى مقتضيات النقد الموضوعية . ومن جهة أخرى عرض الفرضيات التي أوحت بها هذه الرواية التقليدية إلى فذين من المؤرخين ثمّ مناقشتها ؟ فهل معنى ذلك أن ما حاوله أ. ف قوتيي كان لافائدة فيه ؟ إننّا أبعد ما نكون عن هذا القصد ، ونحن لو تغاضينا عن براعة هذا المؤرخ وإمتاعه لوجب أن نؤكد أكثر ممن سبقه ، الفوارق الموجودة بين « أهل الوبر » و « أهل المدر » ونبين كل النتائج التي يمكن للمؤرخ والجغرافي معا استخلاصها ، والواقع أن ما وجه من



شكل : 2 — المغرب فى مستهل القرن التاسع ميلادى

نقد في هذا الصدد كان ضحلا ما عدا بعض الاستثناءات ومنها نقد وليام مارسيه (W. Marcais) البارع .

ومن البدهي ، كما طاب لمنتقده الاعتراف بذلك ، « أن مؤرخي المغرب لن يتيسر لهم التفصي ولو من مسألة واحدة من بين المسائل التي وضعها » .

موسى بن نصير :

لمّا رجع حسان إلى القيروان وشرع في سن قوانين جبائية قارة أصبح في عيني الخليفة مشبوها في أمره فاستقدمه وأوكل لموسى بن نصير أمر إفريقية التي أصبحت مستقلة عن مصر منذئذ فلم يكن منه إلا أن وسع رقعة انتصارات سلفه . وإذا كان من الصعب جدا ضبط فترة هذا التعيين طالما أن التواريخ المذكورة متغايرة جاز ترجيح سنة 705 مع تقدير نسبة الخطأ بعشر سنوات تقريبا .

وأول ما قام به موسى بن نصير إخضاع المغرب الأقصى حتى المحيط الأطلنطي والتوغل إلى سجلماسة في تفيلالت . ولئن أخفق في فتح سبتة فإنه احتل نهائيا طنجة . وكانت البلاد آنذاك آهلة بقبائل البربر من سلالة صنهاجة . فكانت قبائل غمارة نازلة بساحل البحر المتوسط وقبائل برغواطة على طول المحيط الأطلنطي بين مضيق جبل طارق ومصبّ أمّ الربيع .

أمّا قبائل مكناسة فقد استوطنت وسط البلاد ، وقبائل مصمودة حطت بالسفح الغربي من الأطلس الكبير وبساحل أمّ الربيع في بلاد السوس ، وأقامت قبائل هسكورة بين السوس ودرعة وقبائل لمطة ولمتونة على الضفة اليسرى من درعة . ولقد فرض موسى الدين الإسلامي في حزم شديد على هذه القبائل المسيحية أو اليهودية المنصرفة غالبا إلى عبادة الطبيعة ، ، وكذلك على القبائل المرتدة في سائر بلاد البربر .

ولقد وجد المسلمون الجدد في إسبانيا ما يشفي الغليل إذ انتصر جيش من البربر بقيادة طارق بن زياد البربري على القوط فكانت معركة واحدة كافية للإطاحة بامبراطوريتهم وذلك سنة 711 . وكان البربر

هم الذين توغلوا في الجزيرة واقتحموا غاليا حتى بلغوا مدينة بواتيي سنة 732 (Poitiers) . ولئن انسحبوا بعد انتصار شارل مارتل فلم يكن ذلك تحت ضغط الإفرنج (Les Francs) بل كان نتيجة لما جد في المغرب الأقصى من ثورات اندلعت بسبب استئثار العرب للأراضي الإسبانية عند اقتسامها ، وبسبب ما صدر عن ولاة طنجة كذلك من أعمال اتصفت بالتنكيل أو العنف . وتمكن الغزاة من كسب عطف برجوازية مدن إفريقية وموريطانيا الطنجية ومن صرف حماس البربر بصفة وقتية إلى الغزو والنهب ، غير أن خضوع جماهير البربر التي كان العرب يحتقرونهم ويستغلونهم لم يكن إلا وهميا . فلقد لاحظ حسان منذ ذلك الوقت « أن فتح إفريقية أمر مستحيل » وأدرك خلفاؤه إزاء ما لاقوه من عنت أن الاحتلال القار أعز منالا من مجرد غزوات خاطفة .

2) المقاومــة البربريــة

نحلة الخوارج :

لابد لكل انتفاضة من أصول مذهبية فالفلاحون المصريون الذين ثاروا في الألف الثانية قبل المسيح لإرغام الارستقراطية على كشف الرموز الضامنة للخلود ، والدوناتوسيون الذين قاوموا الانتهازية الكاثوليكية وناهضوا تحالف الولاة الرومان مع الأساقفة والملاكين العقاريين لم يتجاوزوا أن عبّروا تحت قناع الدين عمّا كانوا يضمرونه من حقد نحو الأغنياء ورجال السلطة . وكذلك كان الأمر بالنسبة للبربر الذين أسلموا على يد العرب فقد صبغوا معارضتهم بالصبغة الإسلامية فتمكّنوا بذلك من عرض مطالبهم الاجتماعية في صورة مثل أعلى ديني .

لقد أصبح الخروج بمثابة حلقة من الصراع الطبقي وظاهرة شعوبيّة كما كان الأمر بالنسبة للدوناتوسيّة . ولئن كان المغرب مسرحا ممتازا لهاتين البدعتين أو بعبارة أصحّ لهذين الانشقاقين المطبوعين بالطابع الثوري فذلك لأن مشاعر التقشف والمساواة التي لا يمكن فصلها عن كراهية المسود للسيد لم تبلغ درجة من الحدّة كما بلغته في هذه البلاد .

وممّا لا شك أن ظهور نحلة الخوارج راجع أولا وبالذات إلى التحكيم الذي اضطرّ الخليفة علي إلى قبوله تحت ضغط جيوشه . لكن جمعا من الجند الإضافيين آثروا الانسحاب فورا خشية أن يفهم من بقائهم الاعتراف بقرار يخضع كلمة الله لحكم البشر . وبعد إدانة علي غادر سرّا جمع غفير من أنصاره الكوفة الموجودة على الضفة الغربية من الفرات حيث كان يعسكر الجيش والتحقوا بالمنشقّين الأولين . وهذه الهجرة هي التي أعطت للمنشقين اسم الخوارج .

وإذا نحن تركنا جانبا النحل المتعاديّة التي تكاثرت بسرعة لاحظنا أن الخوارج أجمعوا فيما يخصّ الخلافة على إعلان معارضتهم للجماعة حسب تعبير ولهوسن (Wellhausen) الرّاشق . فقالوا بأن كل إمام يزيغ عن الطريق المستقيم يجب خلعه . وبموجب هذا المعيار الأخلاقي والديني رضوا بخلافة أبي بكر ، وقدسوا عمر ولكنهم تنكروا لعثمان بعد عامه السادس من الحكم كما خرجوا على علي بعد رضاه بالتحكيم . وعلى هذا الأساس فإنّ كل مؤمن جدير بهذا الاسم يمكن للجماعة أن تبايعه ، من دون أي اعتبار لجنسه ، « ولو كان عبدا أسودا » . وفي الواقع فقد كانوا متطرفين في نظرتهم الأخلاقية . ذلك أن الإيمان عندهم لا يصح إذا لم تؤيّده الأعمال ، ومن اقترف ذنبا عظيما عدّ عاصيا وفي نظر بعضهم عدّ كافرا واستحق هو وذووه القتل . ولم يزل الخوارج يوّجهون ضد أنصار الأمويين الحملات الانتقامية ويغرقون أثناءها في بحور من الدماء الأمبراطورية الشرقية بجرائمهم الدينيّة حتى قضى عليهم الخلفاء العبّاسيون وبقوا مجرد نحلة . ولم يبدأ رسولهم في نشر مذهبهم ببلاد المغرب إلاّ في أواخر العهد الأموي فقبلت دعوتهم إلى المساواة وتزمتهم بحماس كبير . ومن بين الاتجاهات الأساسية الثلاثة التي تنازعت الخوارج من أزارقة يمثلون التطرف اليساري وإباضية يمثلون اليمين وصفريّة اليسار احتلت الإباضية والصفريّة مكانة عظيمة في تاريخ المغرب . وتلاءم مذهب الخوارج بطبيعة الحال مع مافطر عليه البربر من نزوع إلى الثورة . فجعلوا من الصفريّة النحلة المناهضة مبدئيا للطرق الإرهابية مذهبا يقول بالعمل المباشر مثل نحلة الأزارقة في الشرق .

وسرعان ما تحوّلت معارضة الخوارج إلى تمرّد على مذهب السنّة المتمثل عمليا في استبداد العرب وبيرقراطيتهم .

وإذا مال قوتيي (Gautier) إلى نسبة هذه الثورة إلى زناتة دون سواهم فان ويليام مرسيه (W. Marcais) يتبين في القرن الثامن الهجري مصدرين للتمرّد كفيلين كلاهما بالقضاء المبرم على الوجود العربي ، أحدهما في المغرب الأقصى وكان يهدد بعزل إسبانيا عن بقية البلاد وامتداد الثورة اليها ، والثاني في الأقاصي الشرقية من بلاد البربر جهة جنوب قسنطينة والبلاد التونسية وطرابلس حيث كان في

الإمكان أن يؤول انتصاره إلى انهيار العاصمة الجديدة وقطع المواصلات مع القواعد الشرقيّة . وإذا قامت زناتة بدور لا ينكر في شرق البلاد فإن نشاط الخوارج شمل بالخصوص البرانس من دون أن يتوغّل أول الأمر في أواسط بلاد زناتة أي شرقي المغرب الأقصى ، وجهة وهران وسهل شلف .

طغيان العرب ورد فعل البربر

كان المغرب وإسبانيا يخضعان آنذاك إلى الولاة المقيمين في القيروان الذين كانوا ينتمون ، حسب التقلّبات السياسية ، مرّة إلى القيسيّة وأخرى إلى اليمنيّة إذ أن انتصار الإسلام لم يحدّ قط من وطأة الخلافات الجاهلية .

وعلاوة على ما لاحظناه من عدم استقرار فان إفريقية كانت تنوء مغلوبة على أمرها تحت وطأة الضرائب التي فرضها الخلفاء . وتلافيا لنضوب الخزينة من جرّاء انتشار الاسلام ، اهتدى الأمويون إلى جبر الذين دخلوا في الإسلام حديثا على دفع الجزية والخراج وهما من الضرائب المسلّطة عادة على الكفار دون سواهم . وكان العرب يعاملون بدون شفقة ولا رحمة المسلمين الذين لم يمض وقت طويل على إسلامهم وخاصة منهم البربر الأجلاف . ألم يتبجّح الوالي يزيد بتوخي نفس الطرق التي استعملها الحجّاج في العراق . وكان الحجّاج مثالا يحتذى بحق إذا تذكرنا على الأقل الوضوح الذي كانت تتسم به مبادئه في الحكم عندما تولى أمر الكوفة .

وهو الذي أعلن في هذه المناسبة السعيدة : « إنّي أرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها ، وأرى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى ... والله لألحونّكم لحو العصا وأضربنّكم ضرب غرائب الإبل » فإذا سلّط على البربر هذا النظام أدركنا لماذا ثاروا وقتلوا اليزيد .

وبعد ذلك بأعوام قليلة وجد الخليفة هشام الذي أراد تعزيز النظام الجبائي الذي أقرّه عمر في ولايتي طنجة والسوس من الشطط في القيام بالواجب ما حمل الأهالي على الثورة (739 — 740) وكان الدور الأول في ذلك من نصيب الخوارج ، فكان ميسرة السقاء الصفري طبعا على رأس الثوار من غمارة ومكناسة وبرغواطة بعد أن بايعوه خليفة ولكن هذا

لم يمنعهم فيما بعد من خلعه وقتله عندما ظهر في أعينهم بمظهر الضعف وكانوا قد سيطروا بسرعة تحت إمرته على طنجة رغم تدخل والي إسبانيا . وان صدّقنا ابن خلدون يكون قائدهم الجديد ، خالد بن حميد قد هزم جيش العدو على ضفاف شلف « في وقعة النبلاء » حيث هلك القائد العربي « وجميع الابطال » الذين كانوا معه (740) . وإذا كان ذلك كذلك وجب التسليم بأن مركز الخوارج في الغرب امتدّ إلى أواسط بلاد زناتة ممّا يؤيد نظريّة أ ف. قوتيي غير أنّ المؤرخين العرب الآخرين حدّدوا على ما يظهر مكان الواقعة شمالي المغرب الأقصى . ولربّما كان الخلاف ناتجا عن خطإ في نسخ نص ابن خلدون يتمثل حسب وليام مرسي في تعويض كلمة سبو بشلف . إذ يكفي أن تطول أو تقصر تعريقة بقطع النظر عن الإعجام الذي كان النّساخ يسهون عنه أو يثبتونه خطأ ، حتى تكون للاسمين نفس الكتابة تقريبا « وهكذا فإن ما في الوثائق التي بين أيدينا من غموض يدعونا مرّة أخرى إلى المزيد من التثبت وعند ذلك رأى هشام أنّه من الواجب ردّ الفعل فأرسل تحت إمرة كلثوم خيرة جيوش الشام فكان مآلهم نفس المآل في واقعة بقدورة على نهر سبو (742) . وكان متوقعا أن ينهار نهائيا سلطان دمشق لو لم ينهض في نفس السنّة حنظلة بن صفوان والي مصر الجديد ليوقف في الوقت المناسب زحف جيشين من الخوارج كانا تغلغلا في إفريقية وهددا القيروان وينتصر عليهما في وقعتي القرن والأصنام (افريل — ماي 742) .

اضطرابات إفريقية :

أتاحت هزيمة الخوارج والصعوبات التي وجدها في نفس الفترة الأمويّون من أجل البقاء في الحكم ظهور نوع من الرجعية العربية ذات الصبغة التمرديّة في إفريقية . ففي سنة 744 أي السنة التي اندلعت فيها بالمشرق الثورات التي أدت بعد ستّ سنوات إلى قيام الدولة العبّاسية أعلن عبد الرّحمان بن حبيب وهو سيّد من أسياد العرب وحفيد من أحفاد عقبة استقلاله في تونس . ويقال إن حنظلة آثر ، تحاشيا من وقوع حرب أهليّة بين العرب ، وبدافع التقوى والورع ، الرجوع إلى الشام من دون قتال

لاعنا إفريقية أرض الفتن (فيفري — مارس 745) . وكان آخر خلفاء الأمويين وأول العبّاسيين في شغل شاغل عن الوقوف في وجه المغتصب . ولمّا استحث الخليفة المنصور آخر الأمر عبد الرّحمان على الولاء والطاعة تمرّد من جديد ، وآوى من نجا بنفسه من الأمويين واستطاع واحد منهم بلوغ قرطبة حيث أسس إمارة تحوّلت فيما بعد إلى خلافة (756) . غير أن آخر أيام عبد الرّحمان كانت مضطربة من جراء خصوماته مع حاشيته وقد هلك بطعنة خنجر سدّدها له أحد إخوته (755) .

ووجد بنو ورفجومة ، وهي قبيلة صفرية من الجنوب التونسي ، في الصراع الذي عقب موت عبد الرّحمان مجالا لاحتلال القيروان فعاثوا فيها فسادا . واضطر القوم إلى الاستنجاد بالإباضيين من جبل نفوسة وهم نحلة أخرى من الخوارج كانوا قد خلعوا والي العبّاسيين في طرابلس تحت قيادة إمامهم أبو الخطاب .

وقيل إن أبا الخطاب استفظع ما اقترفه خوارج النحلة المعادية من جرائم فرمى بجيوشه القيروان وقتل بني ورفجومة تقتيلا رغم اعتدال مبادئه ، وبسط نفوذ سلطانه من طرابلس مقرّ إقامته إلى إفريقية التي ولّى عليها عبد الرّحمن بن رستم وأقرّه بالقيروان وهو شريف من أصل فارسي كان تربّى بها (جوان 758) .

وصار البربر مرّة أخرى مثلما كانوا في عهد كسيلة أسيادا على الجزء الشرقي من إفريقيا الشمالية بينما بقي الغرب مستقلا إلاّ في الفترة الواقعة بين فتوح موسى بن نصير وبين تمرّد ميسرة . ورغم ذلك فإن الفاتحين بذروا في البلاد بذرة دينية ستثبت مع الأيام ، وبالرغم عن أن الإسلام نحا منحى البدع في بلاد البربر ولم يسيطر على كثير من القبائل المتحصنة في الجبال وحتّى السهول فإنّه كان حيّا متغلغلا في النفوس منتصرا على ما سبقه من المعتقدات . وبعث ابن الأشعث والي مصر الجديد جيشين لقتال أبي الخطاب مُنِيَ كلاهما بالهزيمة . واضطرّ في آخر الأمر إلى أن يعيد الكرة مرّة ثالثة فقاد الجيش بنفسه . وبعد أن دفع ثمنا باهضا للانتصار في وقعة تاورغة (في الجنوب الشرقي من زليطن بطرابلس) تمكن من دخول القيروان (أوت 760) .

خوارج المغرب الأوسط :

ولـم يـكن لابن الأشعث الذي استوثـق سلطـانه بإفريقيـة وعمـل على استئصال الخوارج منهـا شأن كبير في سائـر المغرب . بل إن انتصاره كـان سببا غير مباشر في تـكوين مملـكة إباضيـة تمـكّن فيهـا مذهب الخوارج من الازدهار في حريـة تـامة . فلقـد توّصل ابن رستـم إثر سقـوط القيروان من أن يفلـت من قبضـة المنتصر ويؤسس على سفـح جبل جزول مدينـة تاهرت أو تيهرت (واسمها اليوم تـغمت) وهي لا تبعـد كـثيراً عن مر كـز روماني قديـم اسمـه اليوم تيارت وفيهـا ارتضاه أصحابه بعد سنوات قليلـة إمامـا عليهـم (776 أو 778) . وفي نفس الفترة أسس أبوقرة سيّد قبيلـة ايفران المنيعـة مملـكة الصفريّة قريبـا من تلمسان . ونحن لانعرف عن حياته الذاتية شيئا كبيرا غير أن شأنه في الميدان العسكري كـان عظيمـا . ولاقى والي القيروان عمـر بن حفص عناء كبيرا من خوارج هاتيـن الإمارتيـن الذيـن تحالفـوا مع خوارج جبل نفوسة وجماعات أخرى من البزبر . فقد حاصره أبو قرّة على رأس ثلاثة عشر فيلقا في طبنـة بالزاب . ولـم يسلـم العرب إلاّ بفضل خيـانة أميـر الصفرية الذي أبعـد عن سـاحة الوغـى أكبـر جيوشه عددا وأشدهـا بـأسا مقـابل أربعيـن ألـف درهم . ولـم يفلـت عمر من طبنة ويلتحق بالقيروان الاّ بمشقة بالغـة . الاّ أن البربر حاصروه وقطعـوا عنه المؤونة فـكانت المجـاعة وبذلك أصبـح الخوارج يسيطرون لا على المغرب الأوسط فقـط بل على كـامل إفريقيـة (سنة 771) . إلاّ أن الخليفـة أرسل من الشرق جيشا عتيـداً بقيـادة يزيد بن حاتـم الذي أحلـه محلّ عمر . ويقال إنّـه لمّا بلـغ عمر بن حفص هذا الخبر عـرّض بنفسه للمـوت فـي واقعـة فقتل . واتجهـت الجيوش البربرية نحو جنـود العبّاسيين بقيادة أحد ولاة طرابلس السابقيـن وهو خارجي كـان قام بدور كبير في طبنـة وأشرف على حصار القيروان ويدعى أبا حاتـم وقد خلـع عليه الإباضية لقب إمـام فمني بهزيمة نكـراء في طرابلس غـربي جنبـي (Jenby) (772) . ويذكر المؤرخون العرب أن هذه الواقعة هي خـاتمة لثلاثمائة وخمس وسبعين معركة خاضهـا البربر ضد الجيش العربـي منذ أن ثاروا على عمر بن حفـص . وتوخّى يزيد الشدّة في معاملته لخوارج إفريقية طيلة ولايته التي دامت خمس عشرة سنة (772 — 787) . فقد كادت

قبيلة ورفجومة التي أنهكها أبو الخطاب أن تبيد عن آخرها تحت ضربات يزيد . وكذلك كان مصير نفزاوة بالجريد . يقول ابن خلدون : « وعليها كان ركود ريح الخوارج بافريقية وإذعار البربر » ومن السهل طبعا إدراك الأسباب . وانهزم إذن الخوارج بافريقية واستتب النظام العربي السني في الجهة الشرقية من البلاد فقط . ذلك أن جزءا كبيرا من المغرب الأوسط والمغرب الأقصى بأكمله لم يخضع لنفوذ بغداد وبقي متشبثا ببدع شتّى من مذهب خارجي هنا إلى ديانات بربرية جديدة هناك وخاصة في بلاد برغواطة التي سنرجع إلى الحديث عنها . وقد يكون من المجازفة إذن الادّعاء بأن بلاد البربر قد خضعت تماما لسلطان العرب أو حتى أن الإسلام عمّها بالرغم عن أنه قد انقضى قرن كامل منذ أن وطئت أقدام العرب المسلمين أرضها .

3) ممالك الخــــوارج

مملكـة تـاهـرت :

ولم يبلـغ يـزيد من القوة ما جعله يمنّ على مغرب الخوارج بحسنات الأمن الذي ران على فرسوفيا . ففي سنة 787 عرض ابن رستـم الصلـح فلـم يـكن بدّ من قبـول شروطه . ولم يقدر الأغالبـة الذيـن حكمـوا بـلاد البربر الشرقيـة منذ سنة 800 على مشاغبـة بنـي رستم بصورة فعّالة بحيـث تمـكـنت مملـكة تاهرت الإباضيـة من تدعيم نظامهـا طيلـة القـرن العـاشر وعاشت في ظل مبادئهـا الدينيـة بكامل الحرّية .

وفي هذا الباب يحتدّ الخلاف بين أ. ف. قوتيـي وولـيام مرسـي فأكّد الأول غرابة موقع هذه المملكـة قائلا : إذا اعتبرنـا لأول وهلـة المعطيات الجغرافيـة فقط وجدنا أن مملـكة تمتـد من جبال نفوسة إلى تيارت تبـدو مقتطعـة بصورة غير معقـولة . بينمـا حاذت حدودها جهـة من ألصق الجهات بالطبيعة نعني منطقة « السباسب » وهي جهـة مناخهـا جاف ، ومراعيهـا جدباء استوطن بهـا بتـر منحدرون من الجهـة الشرقية وخاصة من جنوب تونس وطرابلس موطنهـم الأصلي . وكـان عيش هؤلاء البدو ضنـكا بالضرورة إذ لم تـكن لهم موارد ذات بال لسدّ حاجاتهم . فكان ما يدعون إليه من تقشف وتقوى منسجما تمـام الانسجام مع ما فرض عليهم من شظف العيش . كمـا أن تصوفهـم كـان يجد فـي الصحراء الإطار الأنسب لبلـوغ أقصى درجات التطرف .

ومن المؤسف أن أ. ف. قوتيـي لم يستغل نصّا معاصرا لتدعيم نظريته . فلنرجع إلى ارنست بيسكاري (Ernest Pichari) الذي أعـاد إلى الأذهـان مـا تبعث بـه الصحراء (هذه الأرض الروحانية) فـي نفـوس البشـر من

« ميل شديد إلى التأملات » . وانساق جبلة – وهو الذي استعمل هذه الكلمة – نحو « أصحاب التأملات وأحلام السباسب ونحو الذين أفنى الصيام أجسامهم واستأصل الإقبال على الحياة من نفوسهم . وهكذا فإن الضابط الشاب الذي يتجاذبه وازع الإيمان فيجذبه رغما عنه لما للصحراء من سحر ، يشعر بميل نحو البربري البدوي المتصوف ! ولسنا في حاجة إلى أن نغير كلمة واحدة مما قاله بسيكاري لتطبيقه على الإباضية . الا أن وليام مرسي يضيف مؤكدا أن العناصر الفعالة للمذهب الخارجي الرسمي لم يكونوا أولئك الرحل من زناتة الساكنين بالمغرب الأوسط المفطورين على الشقاق والتمرّد غير المخلصين لقضية الخوارج الذين نغصوا على أمراء تيهرت ممارسة الحكم . « ومن حسن حظّ بني رستم أن اعتمدوا على أبناء الأوراس وهم رحل يتعاطون الفلاحة وعلى سكان قرى جبال طرابلس . وكانوا يجدون من بينهم الجند المخلصين والدعاة المتحمسين والممولين لخزائنهم بما يدفعونه من ضرائب . »

ولكن الجدير بالاهتمام ليس التوزيع الذي كانت عليه القبائل في صلب مملكة بني رستم بل هو حياة الخوارج الحاكمين بأمرهم وخاصة في كنف عاصمتهم حيث تأجج حماسهم الديني وهم في شبه عزلة . ولنا في خبرين ما يدّل على ذلك ، أحدهما منسوب إلى ابن الصغير وهو مسلم لا ينتمي إلى نحلتهم عاش في تيارت تحت حكم من تأخر من أيمتهم ، والثاني دوّن في أواخر القرن الحادي عشر رواه أبو زكريا وهو عالم خارجيّ من خوارج ورقلة . وقد نشر الرواية الأولى وترجمها موتيلنسكي (Motylinski) أما الرواية الثانية فقد ترجمها مسكراي (Masqueray) معتمدا على نسخة أصلية مزابية ظن القوم خطأ أنها فقدت . وكان عزم الأستاذ البولوني زموقورزفسكي (Zmogorzewski) نشرها ولكنه مات دون ذلك وهو الذي عكف على دراسة مذهب الخوارج ووجد مخطوطات عديدة في المزاب . واتخذت الإباضية تاهرت عاصمة لهم وهي على منحدر يشرف من علوّ قدره ألف متر على سبسب للمرعى . وفيه ينتجع الرحّل في فصل الصيف ويبدلون محصول ماشيتهم بحبوب التل . وكان رؤساؤهم يبادرون عند وصولهم بالاتصال بأعيان المدينة ثمّ يرجعون

إلى موضع خيامهم حتى الرحيل . ولقد ذاع صيت العاصمة الرستمية حتى أصبحت محطّ رحال الخوارج الذين كانوا يخفّون إليها من العراق حاملين معهم أموال المتحمسين ساعين إلى التشبع من روح المذهب الخارجي المنتصر وطامعين كذلك في القيام بمضاربات أقل تجرداً . وكثير هم الّذين كانوا يحجمون عن الرجوع . قال ابن الصّغير : « ليس أحد ينزل بهم من الغرباء إلاّ استوطن معهم وابتنى بين ظهرانيهم لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه وعدله في رعيته وأمانه على نفسه وماله حتّى لا ترى دارا إلاّ قيل هذه لفلان الكوفي وهذه لفلان البصري وهذه لفلان القروي وهذا مسجد القرويين ورحبتهم وهذا مسجد البصريين وهذا مسجد الكوفيين » .

واقتصر الباحثون زمنا طويلا عند تقييم فنّ بني رستم المعماري على آثار صدراتة (قرب ورقلة) وهي المدينة التي التجأ إليها أهل تاهرت عندما استولى الفاطميون على عاصمتهم سنة 911 . وتدلنا هذه الآثار على أن فنها المعماري متصل بفن إفريقية وأن زخرفها ينتسب إلى زخرف أديرة الأقباط وأن لها عناصر معمارية متأثرة بالمباني المصرية المعاصرة لها وربّما بقصور العراق . وكانت الدور ذات الزخرف الثمين المقامة هنالك تذكر بمنازل سكّان تاهرت المشارقة التي كان ابن الصّغير معجبا بها .

وفي سنة 1941 قام ج . مارسي ودوسي لامار (Dessus - Lamare) بزيارة استطلاعية لمعالم تاهرت وأجريا تنقيبا على آثارها . والذي زاد في صعوبة مهمتها هو أن الأمير عبد القادر نزل بين سنتي 1835 و 1841 بموقع عاصمة بني رستم العتيقة وترك فيها أطلالا بعد رحيله .

ورغم هذا فإنهما تمكّنا من أن يكشفا بصورة قطعيّة عن جزء من سور بني رستم وعن مخازن عظيمة للماء ، وبقايا من الفخار كما أنهما ضبطا موقع القصبة مقرّ أمراء بني رستم ، وانتهيا بعد البحث إلى أن تاهرت كانت قبل كل شيء قلعة حصينة مهيّأة للصمود عند الحصار الطويل وأن فنّ القصبة المعماري يذكّر بقصور الشام من القرن الثامن .

ومن جهة أخرى فإن ما وجداه من بقايا الفخار مكّنهما من الجزم بأن فنّ الخزف بتاهرت كان بدائيا بسيطا .

وإن هذه المعطيات الأثرية التي لاتزال إلى اليوم مجزأة لتبعث إلى حدّما على تصديق ما رواه ابن الصغير عن الإمام وهو يبني بنفسه سقف بيته بالملاط الذي كان يناوله إيّاه عبده . إن الأمور تطوّرت فيما بعد طبعا لذلك فإن رسل الكوفة لمّا قدموا ثانية إلى تاهرت« نظروا إلى قصور قد بنيت، وإلى بساتين قد غرست » . وهذه المفاتن ، إن وُجدت ، لابد أنها كانت متواضعة إذا اعتمدنا على آثار صدراتة . وعلى كل فإن التنقيبات الحاليّة لا تدل على أثر لذلك .

حكومة لاهوتية :

كان على رأس المملكة الإباضية إمام جماعة المؤمنين . وكان يحكم رعاياه على سنة الله ورسوله وكان له عليهم الطاعة المطلقة . وابن رستم قبل أن يستجيب لرغبة الأعيان طلب منهم أن يؤكدوا الأيمان بالامتثال لأوامره ما تماشت مع العدل ، فإذا حاد الإمام عن الإرادة الإلهية الهادية له فإن قراراته تصبح بموجب ذلك غير نافذة المفعول . ولاحظ ج . مرسي أن كل خلاف بين الإمام والفقهاء يتخذ بطبيعة الحال طابع الخروج وتكون له خطورته وفعلا كان تاريخ تاهرت في معظمه تاريخ نحل وقفت في وجه السلطة وأفسدتها » .

وكان على الإمام أن يحيا حياة الزهد . من ذلك أن ابن رستم لمّا قدم عليه من العراق رسل من الإباضيّة واصل ما كان منصرفا اليه من إصلاح شقاق في سطح بيته بالطّين ولم ينزل من السلم لإقتبالهم إلا بعد أن أتمّ شغله . وقدّم لهم خبزا وسمنا . « وليس في بيته شيء سوى وسادته الّتي ينام عليها وسيفه ورمحه وفرس مربوط في ناحية من داره » . وكان يحتقر المال إلى درجة أنّه أوصد بابه دون بعثة ثانية قدمت إليه محمّلة بالهدايا لأن الجماعة لم تعد على درجة من الفقر تسمح لها بقبولها . وكان الإمام يعقوب « بعيد الهمّة ، نزيه النّفس ما جس بيده دينارًا ولا درهما وكان إذا أتى وكيله بغلاّته أمره أن يجعلها تحت

بردعة له يجلس عليها وإذا أراد إخراج شيء منها دفعه بقضيب من يده » . ويواصل ابن الصّغير قائلا : « وكانت له بقرات يأمر بحلبها بين يديه في إناء جديد فاذا امتلأ شربه أجمع ثمّ يقوم عليْه ثلاثا لا يأكل طعاما ولا يشرب شرابا ولا يخرج لبراز » . فإذا سافر « ونزل بقوم لم يأكل لهم طعاما » .

وكان على الإمام تسيير شؤون الدولة وتأويل القوانين والقضاء بين الناس وإمامتهم في الصلوات وقبول الزكاة.

وكان رجال الدين والأعيان يراقبونه وكثيرا ما كانوا ينهونه نهيا شديدا وكانوا يبتلون نزاهته عند تعيينه للمسؤولين : فكانت مثلا نتيجة المفاوضات بين الرحل وكبار الإباضية طلب عزل القاضي والقائم على بيت المال وصاحب الشرطة . وكانت عملية تعيين القاضي المسؤول عن الحكم بين الناس عسيرة جدا . إذ كان في إمكانه أن يقف في وجه الأمير ويسلّط أحكامه على أصحاب الجاه .. من ذلك أن قاضيا وبخ صديقه وحاميه عندما بدت منه نيّة النيل من استقلاله وأن قاضيا آخر رمى بخاتمه ودفاتره بين يدي الأمير احتجاجا على اختطاف ابنه لفتاة ، ومن أجل ذلك كلّه كانت الجماعة تحتاط احتياطا كبيرا حتى أنّها كانت تبحث في بعض الأحيان عن التأهل لخطة القضاء في أقاصي جبال نفوسة .

وكان جباة ابن رستم لايستخلصون الضرائب أثناء الحصاد على الحبوب فقط بل على الغنم والإبل أيضا . وعندما تتم الجباية توزع الحبوب بين الفقراء ثمّ تباع الأغنام والإبل . وإذا انتهى الإمام من إرسال الأموال إلى ولاته لسدّ حاجات الإدارة استعمل الباقي لشراء الأقمشة الصوفية والزيوت لتوزّع على كل عائلة توزيعا عادلا مع تقديم فقراء الإباضية . أما تكاليف الدولة فقد كانت متأتية من الجزية والخراج وريع الأراضي وغيرها من المداخيل . وما زاد على ذلك رجع إلى المشاريع العامة العائدة بالفائدة على المسلمين .

وكان الإمام بحكم مسؤوليته فقيها مقتدرا لأن القوم في تاهرت كانوا يعيشون دائما في جوّ ديني بالغ الحماس . فكانت العقول النيرة التي بهرها تطرف المذهب الخارجي لا تخشى الجدل . بل وصل بهم الأمر

إلى التسامح إزاء القوم الكافرين . ألم تذهب جماعة منهم في المشرق حتى إلى محو الفروق أو كادت بين المسلمين وبين اليهود والنصارى ؟ وكان في عاصمة بني رستم على حدّ قول ابن الصغير نصارى يجلسون مع الأعيان حول الأمير أبي حاتم . وكان أحدهم وهو فارس مشهور يعتبر من حماة المدينة . ولمّا داهم الخطر الأمير أبا بكر أسرع النصارى لنصرة بني رستم . وكان الخوارج يشجعون الجدل مع خصومهم على أمل أن يسلموا . وكانت الإباضية والمعتزلة يلتقون بوادي مينة للمناظرة . ولم يخف عدد من الفقهاء المشارقة نيّتهم « في وضع حدّ لتغلغل الإباضية وطمس مذهبهم » وكان أحدهم ذا منزلة مرموقة عند الشعب . وكانت هذه المجادلات تدور حول الفقه والكلام والوثائق والنحو واللغة . وليس أقرب إلى الطريقة المدرسيّة من الحوار الذي نشب بين بعض الخوارج وابن الصغير حول زواج البنات اللواتي لم يدركن البلوغ فكانت بذلك مكانة العلماء عظيمة ، حتى أن بعضهم كان يتقاضى مالا من المعجبين به في سجلماسة « لسعة علمه في الفقه ، والدين والمعاملات والنحو واللغة » . وكان الإباضية يكثرون من التأليف في الجدل ويجمعون المخطوطات كما أنهم يتعاطون إلى جانب رياضتهم على الخصومات الدينية الدراسات الدنيوية بنفس الحماس.

وكان لا بد لهذه المدينة التي كانت في بلاد المغرب بمثابة جنيف في أوروبا من نظام يصون الأخلاق العامة لكن إذا ما ضعفت الإطارات زمن الحرب الأهلية ضرب الفساد أطنابه وإذا استتب النظام فرضت الأخلاق من جديد فكسرت دنان الخمر ولاذ اللواطون بالفرار إلى أعالي الجبال أو أعماق الأوديّة . « وكان كل إباضي في عزمه إعلاء كلمة الله بكل الوسائل متمرّدا بالقوة . ولا يبقى الإمام على نفوذه غالبا إلاّ بتوخي سياسة التوازن . وكلما نشب خصام ظهرت حالا الكتل وشهر السلاح . من ذلك أنه لمّا أمر أبو بكر بقتل محظوظه الذي أثار قلقه بأبهته وشعبيته اندلعت حرب أهلية دامت سبع سنوات . فاستغل التجار الموقف لتمويل الثوار واقتنصت القبائل المشاغبة الفرصة للدّخول في المعمعة . قال ابن الصّغير : « والحرب لا تفتر ليلا ولا نهارا وحميت فيما بينهم حميّة الجاهليّة وجرت بينهم الحرب سمعة ورياء » .

وكانت المصادمات تنشأ في بعض الأحيان عن الحقد الكامن بين القبائل والحضر ، وفي أكثر الأحيان عن غضب الشعب الناتج عن التنكر للعادات . ولمّا قضى الإمام أفلح نحبه احتج بعضهم على الطريقة التي عيّن بها ابن الإمام . وصاح أحدهم قائلا : « الله سائلكم معاشر نفوسه إذا مات واحد جعلتم مكانه آخر ولم تجعلوا الأمر للمسلمين وتردوه إليهم فيختارون من هو أتقى وأرضى » . لذلك كان النّاس على إمامهم الأمير الجديد أبي بكر « علية » ، ولمّا « أحبّت عشيرته وإخوته وأعمامه وبنو أعمامه ومواليه أن يجعلوا له حجابا وهيبة أبت العوام من ذلك وأرادت الدنوّ إليه في كلّ الأوقات على ما كانت تعرف من قبل إمارته » .

ولعلّنا نلمس من خلال ما رواه ابن الصغير سعي الأعيان والفقهاء إلى تكوين ارستقراطية من شأنها أن تملي على الأمير إرادتها وقد حذّر الإمام أفلح كبار الإباضية من مغبة تعيين قاض من الجبل .

وكان القواد وخلصاء عبد الوهاب أقنعوه بنكث عهد أخذه على نفسه تجاه الرّحل محتجين بالخطر الذي ينشأ عن التراجع أمام الضغط وبمحاسن سياسة الحزم . وكانت النتيجة أن تمرّد العرب فأخمد ثورتهم ولكنه رغم توالي الاصطدامات فإنّه يبدو أن مجتمع تاهرت لم تغلب عليه النزعة الحربية ذلك أن المعارك لا تسيل فيها الدماء كثيرة فلا ملاحقة في الغالب للفارين ولا إجهاز على الجرحى . بل كان الخصوم يجنحون إلى التحكيم . وكان هذا ولاشك السبب في زوال مملكة بني رستم . ذلك أن الأيمة لم يوفقوا إلى تنظيم جيش عتيد ما كادت جيوش الشيعة أن تشنّ هجومها حتى استولت على العاصمة من دون عناء (911) .

ولم يؤل تخريب تاهرت الذي اضطر الإباضية إلى الاستغاضة عن المواجهة لا الى التقية وإلى إخماد جذوة الخوارج ولا إلى اضمحلال نشاطهم الفقهي . ولئن تشتّتوا في الصحراء الجزائرية والتونسية فإنهم مازالوا إلى يومنا هذا موجودين بجبال نفوسة وجزيرة جربة وورقلة والمزاب . وبقي

المزابية يبذلون مجهودات جبّارة وأموالا طائلة لتعهد واحات في أرض كؤود وللحفاظ على ما في غرداية ومليكة وبني إسغن المقدسة من مساجد عارية من الزخرف ويظهرون في تدينهم تطرفا يتنافى أحيانا مع الحياة التي يحياها في التلّ تجارهم ورجال أعمالهم الحاذقون .

مملكة سجلماسة وبرغواطة :

ومن المؤسف أنه لايوجد لدينا معلومات كافية حول مملكة أخرى للخوارج أسسها حسب الجغرافي البكري في سنة 757 بسجلماسة بربر مكناسة من الصفرية كانوا ثاروا على والي القيروان . إنها مملكة واحات الصحراء . وإذا صدّقنا ابن خلدون فإن أصحاب هذه النحلة كانوا يبالغون في ممارسة حقّهم في خلع إمامهم . روى صاحب المقدمة أنهم غضبوا من سيرة أميرهم الأوّل : « فشدّوه كتافا ووضعوه على قنة جبل إلى أن هلك » .

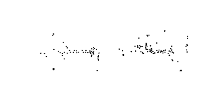
وكان من بينهم فقهاء مشهورون ذاع صيت أحدهم بفضل ما نهله من علوم في المدينة . ويظهر أن أعظم أمير دولة بني مدرار هو أبو منصور اليسع الذي تربّع على عرش الملك أربعا وثلاثين سنة ، أتمّ أثناءها بناء سجلماسة وسيطر على الواحات (790 — 823) .

وكان من المنطقي أن يتحالف مع مملكة تاهرت فزّوج ولده من ابنة ابن رستم .

وكانت هذه النحلة مرموقة إذ انتشرت في المغرب الأقصى ببلاد الشاويّة بين القبائل التي تكوّنت منها برغواطة . وكانت اعتنقت نحلة الخوارج وشاركت في حملات ميسرة السقاء ثمّ تبعت قائدها صالحا حوالي سنة 744 عندما عزم على الدعوة إلى دين جديد . وكان صالح ادعى النبوة في البربر وألفّ قرآنا بلغته وسنّ قانونا دينيا ضبط محظورات لاشك أنها ترجع إلى أصل بربري وأدخل بعض التغييرات على العبادات .

وسواء كانت هذه النحلة لصالح نفسه أو جدها حفيده يونس وربّما أسسها أو خلقها هو نفسه فإنها تعدّ على كل حال من أطرف المحاولات « لبربرة » دين ورد إلى المغرب عن طريق الغزاة .

وإن ما استعرضناه من ممالك الخوارج لم يحظ بعناية المؤرخين العرب رغم ما نراه فيها من أهمية كبيرة . إنهم شغفوا بدراسة الدولتين السّنيتين اللتين تأسستا في أوائل القرن التاسع في طرفي المغرب نعني دولة الأدارسة بفاس ودولة الأغالبة بإفريقية .



الباب الثاني

الدول العربية والبربرية

من القرن التاسع الى القرن الحادي عشر

1 - دولة الادارسة
2 - دولة الأغالبة
3 - حكم الفاطميين في المغرب
4 - دولة صنهاجة وزحفة بني هلال

إن الفترة الممتدة من أواسط القرن الثامن إلى أواسط القرن الحادي عشر بالنسبة لتاريخ المغرب يكتنفها الغموض ، إذ غمرت أثناءها البلاد موجتان من البدو الرحل ، انحدرت الأولى من الصحراء المغربية ونعني المرابطين ، وأتت الثانية من صحارى المشرق ونعني زحفة بني هلال .

لقد كانت فترة تحوّل ، قطع فيها البربر الروابط التي شدّتهم ردحا من الزمن إلى المشرق من دون أن يأنسوا في أنفسهم من القوة ما يجعلهم يتخلصون نهائيا من هذا المشرق الذي كانوا يرفضون سلطانه السياسي . وإذا هم ، باستثناء إفريقية ، لم يعترفوا بسلطة الخلفاء العباسيين فإنهم أسرعوا إلى احتضان اللاجئين المشارقة واتخذوهم رؤساء عليهم ، ونهلوا مباشرة من منهل الفقه الإسلامي والفن الشرقي وأجهدوا أنفسهم للعيش داخل مدنهم التي لم تتحضر بعد على منوال حضر دمشق أو بغداد العريقين في الحضارة .

وهكذا يبدو التناقض الغريب المتمثل في أن البربر ، في الوقت الذي تحرروا فيه سياسيا ، تأثروا عميق التأثر بالحضارة السامية ، وحاولوا لأول مرّة منذ بدء التاريخ على ما يظهر أن يتمشرقوا .

أما الوثائق المتعلقة بهذه الفترة فهي أغزر وأصحّ من وثائق الفترة التي سبقتها . وعلينا طبعا أن نقنع في كثير من الأحيان بما كتبه مؤرخون عاشوا في عهد متأخر عن الأحداث التي نحن بصددها ، ولا يمكن أن تنسينا عبقرية ابن خلدون أن الفترة التي تفصله عن الأدارسة والأغالبة تساوي ما يفصلنا نحن عن حرب المائة سنة . غير أن بين أيدينا مصادر أكثر قدما كَتَبَ بعضها شهود عيان مثل اليعقوبي وابن

حوقل ، ومن دون أن نظفر بكل الأضواء الكاشفة ، إذ لاتزال عبارة « القرون المظلمة » التي استعملها « أ. ف. قوتيي » تحتفظ بكل قيمتها ، فإنه في الإمكان إذن أن نخطو خطوات أكثر تثبتا ، ونسمح لأنفسنا بتأكيد بعض الحقائق الثابتة .

I) دولـــة الادارســـة

استقـرار إدريس في المغـرب الأقصى

وصل إدريـس بن عبد الله الى طنجة سنة 788 وهو من سلالة علي وفاطمة . جاء هاربا من الشرق . وكان تورط في إحدى ثورات العلويين على العباسيين وأسعفه الحظ فأفلت من المجزرة التي عقبت انتصار العباسيين على الثوار في وقعة فخ قرب مكة سنة 786 . وواصل طريقه صحبة مولاه الوفي راشد حتى بلغ طنجة من دون أن يقرّ لـه قرار لا في إفريقية التي بقيت على وفائها للخلافة ولا في المغرب الأوسط الذي كان يحكمه الخوارج . وكانت طنجة بعيدة عن مركز النفوذ فلم يبق بها طويلا بل أصبح ضيفا ثمّ زعيما بل إماما (حسب اصطلاح الشيعة) على قبيلة أورَبة المستوطنة حول فوليبليس (Volubilis) المدينة الرومانية العتيقة التي تسمّت فيما بعد وليلى . وهل نحن في حاجة إلى أن نعتقد كما فعل « أ. ف. قوتيي » أن إدريس تمكن من رئاسة هذه القبيلة لأن أفرادها ما زالوا من البربر « المترَوْمنين » ولعلّ الأفضل أن نوافق تراس (Terrasse) في أن البربر ، سواء ترومنوا أم لا ، قد أحسنوا وفادة إدريس لأنه شريف معارض للخلافة التي كانوا يمقتونها وربما لأنه كان يتمتع كذلك بخصال شخصية مرموقة ، وسرعان ما التحق بأوربة عدد من العرب المناهضين للعباسيين . وقد يكون إدريس بيّت النية كما فعل الفاطميون فيما بعد لجعل المغرب نقطة انطلاق لاسترجاع إرث آبائه . وعلى كل فإنه لما وجد وليلى دون مقامه أسس مدينة جديدة سمّاها مدينة فاس في موقع الحي الأندلسي اليوم وشرع في تشييد مملكته بالاعتماد على قبائل بربرية عديدة من شمال المغرب . ومضى يهاجم تامسنا في جهة سلا وفازاز جهة عزرو عين اللوح

ثم تلمسان التي استولى عليها . ولكن ما إن علم هارون الرشيد بهذا النجاح حتى أرسل إليه من دس له سمّا سنة 791 — 792 .

ادريس الثانى وتأسيس فاس

لم يترك إدريس ولدا يتولى بعده الإمارة ، ولكنه ترك إحدى جواريه وتدعى كنزة البربرية ، وكانت حاملا منه فولدت بعد شهرين من مماته ولدا سمي بدوره إدريسا ، فنشأ برعاية أمه وعناية راشد ، محفوفا بتقديس بربر أوربة الذين رأوا فيه وارث البركة ، هذه القدرة النافعة التي توارثها أبا عن جدّ أحفاد الرسول .

ولا بد أن الطفل حقق الآمال الساذجة التي وضعها فيه القوم إذ أنه ما أن بلغ الحادية عشرة من عمره حتى بويع في حفل مشهود خليفة لأبيه، إلاّ أنه الى جانب تأثير أوربة عليه كان يخضع لمؤثرات أخرى ، فلقد دخل في حاشيته بوليلي عرب من إفريقية والأندلس وأيقظوا فيه على أغلب الظن ميولا وراثيه لأنه أصبح يختار من بينهم أكبر أعضاده . بل وصل به الأمر سنة 808 إلى أن أذن بقتل أبي ليلى إسحاق رأس أوربة بإيعاز من صحابته الجدد ، ولا شك، غير أننا لا نعرف بالضبط الظروف التي حفّت بهذه الفعلة . وأحسّ إدريس ومن كان معه من العرب إثر مقتل أبي ليلى أنهم لم يعودوا مطمئنين على أنفسهم في وليلى ففكروا في مدينة فاس التي كان أسسها قبل ذلك بعشرين سنة إدريس الأول من دون أن يجد الوقت الكافي ليجعل منها عاصمة فظلت قرية بربرية متواضعة (سنة 809) .

وآثر الأمير الشاب عوض إدخال تغييرات على المدينة ، أن يستقّر قبالتها على الضفة الشمالية من النهر . فبنى مسجدا وسوقا وقصرا متواضعا . ولا شك أنه أسكن فيه أصحابه العرب . وهكذا ولدت المدينة التي سيطلق عليها فيما بعد اسم القرويين والتي سميّت في أول الأمر العالية . تلك هي الرواية التي اقترحها ليفي بروفنصال (L. Provençal) في مقال هام جدا خصصه للبحث في تأسيس فاس ، وأن الحجج المتنوعة التي أوردها تحمل على الاقتناع بذلك حسب رأينا على الأقل .



شكل 3 ـ فاس ـ هذا رسم بيانى كتلى وضعه أ· ف· قوتيى · « يبرز الرسم البيانى الكتل الفارق البنيوى بين جهتين يفصل بينهما الخط المتسلل فى وادى سبو ووادى فاس · فعن اليمن (غربى الشمال الغربى) نجد بنية معقدة وتعاريج عنيفة · وعن اليسار تنحدر طبقات الاطلس الاوسط الكلسية لتنتهى مع الوادى فى انحناءة رفيقة · ويتحول ماؤها الى عيون غزيرة سيلها متواصل ثابت ومنها يتكون وادى فاس ويزيد فى انتظام السيل سهل عالية فاس بمستنقاتـه (سهـل السـوس) · وشيدت فاس فى النقطة التى فيها يخرج السهل من جراء الانجراف العنيف الذى يحدثه وادى سبو · وهكذا تم حل مشكل تزويد المدينة بالماء عن طريق الطبيعة (أ · ف · قوتيى ص 343) ·

(عن أ. ف. قوتيي ، عصور المغرب المظلمة ، دار بايو شكل 10 ، ص 284).

وعلى كل حال فإنه ليس في الإمـكان بعد قراءة هذا المقال أن نجهل وجود روايتين حول تأسيس فـاس وأن نغفل رواية بروفنصال التي ليست رغم افتقارها الى التفاصيل أقل قدمـا ولا أحوج برهانا من روايـة روض

القرطاس والتي تعلل فوق كل ذلك تواجد مدينتين قديمتين تحمل كلتاهما اسم فاس وهو أمر بقي الى اليوم غامضا.

ولقد أصاب « أ. ف. قوتيي » حين أكد على غزارة المياه التي تسيل أو تنبع من موقع فاس ولا بد أن كان الماء هو العامل المرجّح لاختيار إدريس الأول والثاني لموقعها وزيادة على ذلك فإن مواد البناء متوفرة حول المدينة وهي أخيرا كائنة في الطريق الملائمة والرابطة بين السهول الأطلسية والمغرب الأوسط التي تشقه في هذا المكان بالذات طريق تصل الشمال بالجنوب من طنجة إلى تفيلالت.

ولم تلبث هاتان المدينتان التوأمان أن توافدت عليهما جماعات أخرى من السكان إذ اضطرت ظروف السياسة مئات من عائلات قرطبة والقيروان إلى الهجرة فأتت إلى فاس الفتية تحمل معها فنونا راقية (سنة 818 وسنة 825) وكفت المدينة مؤونة التدرب الطويل على الحياة الحضرية.

إن إدريس الثاني لم يشيّد مدينة فقط بل أسس أول دولة للمغرب الأقصى. وليس معنى ذلك كما لاحظه هـ. تراس (Terrasse) أنه وُفق إلى أن يجمع تحت لوائه كل ما يعرف اليوم بالمملكة الشريفية بل إن الوثائق التي بين أيدينا (البكري وابن خلدون خاصة) « تبيّن على ما يظهر، أن معظم السهول الأطلسية، والأطلس الأدنى باستثناء ساحله الشمالي والأطلس الأوسط كله والأطلس الأعلى وأغلب جهة الواحات وجزءا كبيرا من المغرب الأقصى الشرقي بقيت كلها خارجة عن امبراطورية الأدارسة »، غير أن إدريس تمّكن من جمع عدد عديد من القبائل البربرية تحت سلطة إسلامية واحدة وقد كانت قبل ذلك مستقلة الواحدة عن الأخرى.

انحطاط الدولة :

كانت هذه المملكة الجديدة عتيدة في الظاهر لكنّها كانت غير قادرة على الصمود فهي لم تثبت عند موت مؤسسها الذي عاجلته المنية سنة 828. ولا ندري هل هو ذهب ضحية حادث أم قتل، ذلك أن

الروح البربرية القديمة المفطورة على التجزئة السياسية والنزاعة إلى الاستقلال المحلي لم تستأصل تماما . وأن أبناء إدريس الثاني العشرة انتصحوا بما أشارت عليهم به جدتهم كنزة البربرية فاقتسموا إرث والدهم وخرّبوا بذلك الصرح السياسي الذي بناه من دون أن يقدروا على طمس عمله الحضاري وذلك بفضل إشعاع فاس المدينة الوحيدة الحرية بهذا الاسم بالمغرب الأقصى في تلك الفترة .

وبقيت إمارات الأدارسة تتقاوى على نفسها حتى قدوم الفاطميين سنة 921 ثمّ تشبث أعقاب الأدارسة بجبال طنجة المجاورة حتّى سقطت هذه الدولة سنة 974 على يد قواد قرطبة .

2) دولــة الاغالبــة

دولـة مستقلـة :

أسس إبـراهيـم بن الأغلب أحد ولاة العرب فـي الزاب فـي الطـرف الأخر من بلاد البربر أي في إفريقية دولة بقيت مستقلة استقلالا تاما من دون أن تقطـع علاقاتها مع الخلفاء العباسيين . وسميّت هذه الدولة باسم الأغلب ابن سالم الذي تقلّد الإمارة بفضـل ثقة الخليفـة ، ولكـنّ مشاكـل الحكـم لم تزل تداهمه حتـى هلك تحـت سـهام الجند (765 — 767) . أمّا ابنـه إبراهيـم فقد تولى حكم الـزاب بعد أن قضى بعيدا عن القيـروان السنوات التي كان فيهـا يزيد بـن حاتـم يمسك زمامهـا بيد من جـديـد ويقرّ فيهـا النظام . ثمّ استغل في مهارة ثورات إفريقية ليقـوم بدور الوسيط ولم يـزل بهـم حتى أَوْلَـوْهُ أمرهم سنة 800 .

وبقي أحفاده يتداولون بعده على الحكم إلى أوائـل القرن العاشـر مـن دون أن تحدث بين القيروان وبغداد أزمة خطيرة . وكان الخلفاء الذين تدخلـوا خاصـة في العهد الأخير لهـذه الدولة أثناء خصومات الأمير مـع أهل مدينة تونس يكتفون غالبا بسلطة اسمية ، بـل كانـوا يحجمـون عـن كتابة العهد إلى الأمراء الجدد .

أما الأغالبة الذين استمدّوا من ثقـة الخليفـة مزيدا من الهيبـة في نظـر الجند العرب والذين كان في إمكانهم بفضل ولائهم التمتع بمنح من العباسيين فإنهم لم يحاولوا أبدا قطـع علاقاتهم ولم يشعروا في الواقع بوطأتها أبدا .

امتداد سلطان الأغـالبة :

سيطر هؤلاء الأمراء على إفريقية بلاد الحضر التي لا نقدر على ضبـط حدودها ، إن كانت ، فحكمـوا في الجنوب الشرقي طرابلس ولـكن بقيت ضواحيها القريبـة بيد إباضيـة جبل نفوسة الذين لم يتأخروا عن مراقبـة الطريق الساحليـة الضيقـة المؤدية إلى المدينـة إلى أن تمـكن الأمير أثناء معركة لم تـكن متوقعة من محـق خصومه الأشداء (896) . وكـان جنـوب الجريد الذي استنزفت المقاومة قواه ، منطقـة أغلبهـا بيد الخوارج ولـكن يعمهـا الأمن ، وفي الجنوب الغربـي بالـزاب والحـضْنـة تمكّن عدد قليـل مـن العرب الحازمين والمـوالين للأغالبـة من إبقاء هذه المقاطعات البعيدة تحت نفوذ القيروان حتى سنة 865 ، وكان عدد الحاميات المستقلة بعضها عن بعض أو تـكاد ، تراقب المسالك المؤدّية إلى الزاب وتضمن أمن المسافرين فيهـا .

أما الأوراس فقد كان بالطبـع كـتلة مناوئة يهيمـن عليهـا مذهب الخوارج في صيغته الأشدّ تطـرّفا ، نعني النكّارة الذين مهدوا السبيل لعقلانيـّة المعتزلة ، ممـّا حمل الأمير على الحذر والرضى بسلطة صوريـّة . وأخيرا في الغرب كانت عنابة تابعة للأغالبـة وكـذلك بلاد كتامة الأشاوس الذيـن كـانت قلعة بـِلـَزْمة تثنيهم عن التمرد. وكـانت بلاد القبائـل الصغرى وكـامل الأوراس لاتخضع في الواقـع لسلطان الأغالبـة .

ولـم يجد الأمير في إفريقية بالذات صعوبة لبسط نفوذه على الجهـة الساحلية من قابس إلى سوسة وعلى قمـودة في الجنوب الشرقي بين القيروان وقفصـة وتبسة وكـذلك على كـامل المنطقـة الـكائنة بين القيروان وتونس. وسكانهـا جميعا حضر مستعربون سنيون ؛ إلاّ أنّه كـان عليه أن يقرأ حسابا للقبائـل البربرية القاطنة في الشمال الغـربي والمجاورة لـكتامة ولسكان الشمال الغربـي الذين بلغوا شأوا في الحضارة إلاّ أنهم ظلوا مستقلين . كما أن سكان القيروان ومدينة تونس لم يكونوا ميالين إلى الطاعة .

كـان البربر الذين أسلموا يمثلـون أغلبيـة السكان طبعـا غير أن أحفاد العرب الفاتحين عددهم كـثير وربمـا بلـغ مائة ألف . أمّا النصارى وهم البربر الذين مضى على اعتناقهم المسيحية وقت طويل أو أحفاد الرومان

المعروفون باسم الأفارقة فإنهم لم يبيدوا بل كانوا يحتلون رغم تناحرهم منزلة مرموقة بفضل ثقافتهم التقليدية . وكان يوجد كذلك حسب اليعقوبي عدد من الروم وهم بقايا الحاميات البيزنطية قديما يتدرجون نحو الاندماج التام . وكان اليهود يمثلون في المدن النخبة المثقفة ومن بينهم بالخصوص الأطباء . ويظهر أن النصارى واليهود لم يتضايقوا من معايشة المسلمين . أمّا العرب الأدنون منهم فقد كانوا يكرهون البربر المسلمين .

وقد وجد الفاتحون في مذهب الخوارج ما يكفي من الذرائع لتبرير حقدهم المتزايد على البربر لذلك أقام الزاهد بهلول وليمة يوم أن علم علم اليقين أنه عربي قحّ .

مجتمع تقاة :

في الإمكان أن نتصوّر المجتمع الإسلامي بإفريقية تصورا كاملا لا بواسطة الأخبار الباهتة بل بكتب الطبقات التي تضبط ظروف نقل الحديث ومرجع السنة . وإن كتاب طبقات علماء إفريقية وهو من أقدم هذه الكتب يزوّدنا بعدد عديد من اللوحات الصغيرة التي تصوّر بصورة ملموسة حياة القيروان اليومية وكانت التقوى تطغى على مجتمع إفريقية شأنها في كامل بلاد الإسلام في القرن التاسع . غير أن الجماهير البربرية التي تأبى أنصاف الحلول أضفت على هذه التقوى صفة الوجوب وأتاحت لمن يمارسها القيام بدور اجتماعي مرموق ، ولقد فرض رجال الدين مهما اختلف الوسط الذي انحدروا منه الاحترام والإعجاب على هذا الشعب الذي عانى منذ أواخر القرن الثامن أزمة زهد ، فبلغ احتقار بهلول الولي للجسم البشري حدا جعله لا يبدل ثوبه قط ، ويتخذ من الميضاة مكانا للوعظ ، فذاع صيته حتى بلغ سمرقند لفرط زهده وتطرفه في التمسك بالسنة ، وقويت هذه الظاهرة في العهد الأغلبي الأول فتفاقم عدد المسلمين الذين شعروا بالحاجة إلى الخلوة ، وأحيانا إلى اعتزال الدنيا تماما أو الاعتكاف في أكثر الأحيان بالرباطات . وهي حصون تحمي التخوم لا يقل فيها داعي العبادة عن واجب الدفاع عن الأوطان .

غير أن إفريقيـة لم تـكن أرض الإيمان الفطري فحسب بل كـانت أيضا مركزا فقهيا زاخر النشاط ، سأل مسافر قادم من العراق : فيم يتحدث أهل القيروان ؟ أجابه شاب : « في أسمـاء الله وصفاته الحسنى » .

ويظهـر أن الزهد في مظهـره البسيط تطور ابتـداء من سنة 830 تحت تأثيرات واردة من العراق ثمّ دخلـه الجدل وأخذ المشرق والأندلس يبعثان بعلمائهما إلى إفريقية حيث كـثر مريدوهم . وكـان العرب وخاصـة أهل القيروان يسافرون إلى العراق أو المدينـة للجلوس إلى حلقـات العلمـاء المشهـورين ثمّ يقفلون راجعيـن ونفوسهـم تفيض حماسـا بمـا نهلوه من علوم جديدة وهي توّاقة إلى نشرها في أوطانهم ، وهكذا نشأت طبقة من العلماء ورجال الدين والفقهـاء أثاروا بمناظراتهـم حماس النّاس ، ولـم يـكونوا كلهـم متفرغين لهـذه المهنـة بل كان الـكـثير منهـم يمارسـون مهنهم فمنهم الخزاف أو الطيان ومنهـم بائـع الأفراء او القطنيـات ومنهـم التاجـر المقسط الـذي تميـل نفسه إلى إيـفـاء الـكيل والميـزان ومنهـم المـلاك الخادم أرضـه . وأحبهـم الشعب جميعـا لشعـوره بأنهـم أقرب النّاس إليـه وألصقهم بحياتـه اليوميـة فلا غرابة أن أصبحـوا الناطقيـن باسمه ممّا دعـا الأمير إلى أن يقرأ لهـم كـل حساب خاصة وأن ماعرفوا به من استقلال وما اتصفـوا به من عزوف عن الجاه والسلطان حرم الحـكومة من وسيلة لتسليط الضغط عليهـــم .

مسألة خـلق القرآن والمعتزلة :

إن المسائـل التي تناظر فيهـا القوم حينذاك هي نفسها التي أثارت حمـاس النّاس في كـافة البلاد الإسلاميـة وفي مقدمتها مسألة خلق القرآن الخطيـرة . وكـان أهل السنة الذين تبينوا من خلال مناقشاتهم مع النصارى معنى ازليـة كـلام الله وقدمه يؤكدون أن القرآن وحي الله المنزل القديـم قدم الله . فـكل نسخة من القرآن العربـي موجودة منذ الأزل مثـل اللوح المحفوظ ومطابقة لـكلام الله ، « الموجـود بين دفتي الـكتاب » .

وأنـكر المعتزلة بقـوة هذه الأقوال التي من شأنها في نظرهم أن تمس بوحدانيـة الذات الإلهيـة ، وأكـدوا أن القرآن مخلـوق . واختلـفوا في

مسائل أخرى جوهرية مع أهل السنة ، وقالوا بالاختيار ، وقابلوا النظريات التي تؤول إلى تشبيه الله بتفسير مجازي للقرآن ، ورفضوا باسم نظرية التوحيد الصفات الإلهية التي لايمكن تمييزها عن الذات الإلهية والتي يقضي تعدادها اللامتناهي إلى غير القول بأن الله موجود ، ورأوا أخيرا ان العقل هو المصدر الأساسي للمعرفة الدينية .

وتواصلت المعركة حتى أتى الأشعري المتوفى سنة 935 وهو الذي أسس علم الكلام السني بعد أن قطع صلته بالمعتزلة ، واستعمل طرقهم في الجدل للدلالة على أن القرآن في جوهره وحقيقته قديم قدم كلام الله الأزلي ، وبذلك ضمن لمذهب السنة الانتصار .

وظل المعتزلة في إفريقية ابتداء من أواخر القرن الثامن أقلية مستقلة شجاعة لايتنكرون لآرائهم أمام جماهير البربر المتعصبين الذين رأوا في الاعتزال إنكارا للربوبيّة ولا يضعفون أمام السنيين إلاّ أنهم وجدوا أنفسهم محاصرين بين هاتين النزعتين كأنهم بين شقّي رحى ، وقد قضت بلورة العقيدة الإسلامية في آخر القرن التاسع على محاولاتهم بالفشل . ولمّا انتصر الشيعة كانت الضربة القاضية

المذهب المالكي – الامام سحنون :

كانت المناظرات في أصول الدين متصلة اتصالا وثيقا بالفقه الاسلامي المقنن لحياة المسلم دينا ودنيا . ومن بين مذاهب السنة الأربعة التي يمكن اعتناقها كان الدور الأعظم في إفريقية للمذهب الحنفي نسبة للإمام أبي حنيفة المتوفى ، حوالي سنة 767 وهو مذهب فارسي النزعة ، أقل تشدّدا من المذهب المالكي ، نسبة إلى إمام المدينة الشهير مالك بن أنس المتوفى سنة 795 وهو مذهب متمسك أشدّ التمسك بالنصّ ، مناهض للتآويل المعتمدة على العقل .

ولمّا كان المذهب المالكي منسجما أتمّ الانسجام مع العقلية البربرية انتصر طبعا بافريقية ثمّ بكامل إفريقيا الشمالية حيث لا يزال سائدا ، إلاّ أن نجاحه لم يتحقق من أول وهلة . فأسد بن الفرات العظيم الذي كتب له أن يفتح صقلية على رأس الجيوش الأغلبية قد نشر المذهب المالكي في

إفريقيـة إلاّ أنّه لم يسلـم من التواطؤ في بعض الأحيان مع المذهب المنافس فكان أحد تلامذته وهو الإمام سحنون صاحب المدوّنة الشهير، وهو فقيـه بارع مقدام اشتهـر بالتقشف واستقلال الرأي،وهو الذي قـوّم أخطاء شيخه ودعـا إلى مذهب مـالكي صارم وضمـن له بذلك الفوز .

وصمدت نخبـة الحنفيـة القليلة صمـود الأبطـال بفضـل ما وجدتـه لدى بعض الأمراء من إعانة فعالة إلاّ أنّها تورطت في آخر القرن التاسع بسبب اتصالاتهـا بالمعتزلة فضاعت في حشود البربر المالكية المعروفة بعنفها ومناوأتهـا لها . وبذلك سيطـر على كـامل إفريقيـة المذهب المـالكي المتصف بالصرامة وفرط الحماس . قال بغدادي إلى قيرواني : إن الرسول قال : فقاطعه القيروانـي قائلا : روي أن مـالـكا له رأي آخر . فصاح به البغدادي قائلا : سوّد الله وجوهـكم يوم القيامة يا أهل المغرب تقابلـون حديث الرسول بحديث مالك » .

الأمـــراء :

لم يتمسك الأمراء دائما بالمذهب المالكي تمسكا كـاملا ، فقد كـان عدد منهـم يميل إلى الحنفية واعتنق أحدهم مذهب المعتـزلة ؛ إلاّ أنه كـان من الضروري مراعاة الرأي العام حتى أنهـم اضطروا بعد سحنون إلى تعيين قضاة القيروان من بين المالـكية الذين كـان لهـم تأثير بالغ الأهميـة .

وكـانوا يؤثرون على المناظرات الدينيـة حياة الترف في قصور شيّدوها على غرار قصور بغداد محفوفين بالعازفات على الآلات والجواري والغلمان والخصيان الذين كـانوا يرتقـون أعلى المراتب بفضـل حظوتهـم لديهـــم ومصحوبين بعـدد كبير من أمراء بيتهـم وأسياد العرب الداخلين في طاعتهـم والمُعتقين البيض وحـرسهم الأسود الوفي . فيستمعون إلى الغناء والشعر ويضحكون من تهـريـج البهلـوانيين ويتيهـون في الحدائـق ويتنزهون على المراكب في بركهـم ويعزفون ويلعبون لعبة الصولجان أو يحضرون سباق الخيـل . وكـانوا في أكـثر الأحيان أدباء ظرفاء يتمتعون برحابة الصدر وسعة الأفـق ، إلاّ أنهـم اتصفـوا في بعض الأحيان بالقسوة . وأدْمَن أكـثرهـم على الخمـر .

وكان مؤسس الدولة إبراهيم الأول (800 — 812) شخصية مرموقة ، عالما ، بارعا مقداما ، وكان عبد الله الأول (812 — 817) طاغية انصرف كامل وقته إلى استغلال رعاياه ، وجمع زيادة الله الاول (813 — 838) الذي أخمد ثورة الجند وشرع في فتح صقلية بين الذوق الأدبي والإدمان على الخمر . وظهرت من أبي عقال (838 — 841) بوادر طيّبة أثناء مدته القصيرة . وأخلد محمّد (841 — 856) إلى الجهل والمجون . وتفرغ أحمد (856 — 863) إلى حياة التقوى وولع بالبناء والتشييد . وبعد إمارة زيادة الله الثاني الوجيزة عكف محمّد الثاني (864 — 875) على الصيد ولذات الكأس . أما إبراهيم الثاني (878 — 902) أشهر أمراء الدولة الأغلبية فقد كان رجل دولة بحق رغم اختلال توازنه النفساني إذ أشبع نهمه بتقتيل ذويه ثمّ غلبت عليه التقوى فاعتزل الحكم وانقطع إلى محاربة نصارى صقلية . وكان عبد الله الثاني أميرا ممتازا جمع بين العلم والفقه وتمتع بشعبية واسعة رغم اعتناقه الاعتزال إلاّ أنه لم تكد تمر على ولايته سنة حتى خرّ صريعا تحت ضربات ابنه زيادة الله الثالث (903 — 909) الذي كان ضعيف المدارك وحشي السلوك ، فلم يقدر على الصمود في وجه الشيعة وفرّ إلى المشرق حيث تجرّع مرارة البؤس .

وتجلى ميلهم إلى الأبهة فيما أقاموه من مبان كثيرة اعتمدوا في تشييدها على قدماء العبيد النصارى الذين أصبحوا فيما بعد مواليَ لهم . فلقد بني إبراهيم الأول على بعد فرسخ من القيروان القصر القديم الذي تحوّل إلى قلب مدينة عظيمة محصنّة كما أن إبرهيم الثاني بنى على بعد تسعة كيلو مترات من العاصمة مدينة رقّادة التي كانت مركز الحكم وفي نفس الوقت موطن المجون الذي استفظعه تقاة القيروان . وكان يراوح الاقامة بينها وبين تونس .

الفن المعماري العسكري والديني :

حرص الأمراء الأغالبة على صيانة البلاد فأدخلوا تحسينات على الحصون البيزنطية وخاصة فى بلزمة وباغاية (باغاية العتيقة) . واستوحوا منها على الأخص نماذج لبناء الرباطات على طول السواحل مثل سوسة والمنستير أو لإقامة أسوار منيعة كما هو الحال بالنسبة لصفاقس .

غير أن المباني الدينيـة هي التي حظيت أكـثر من غيرها ، بطبيعـة الحال ، بفائـق عنايتهـم . ونخص بالذكر منهـا الجامع الـكبير بالقيروان . وأول من بناه حسب الرواة عقبة بن نافع . وأغلب الظن أن محرابه الحالي هو الأصلـي . وأعاد زيادة الله سنة 836 بناء الجامع ، وتمّ توسيعـه مرتيـن أثناء القرن التاسع . وقد شيّد على النمـط الشرقي الذي لم تدخل عليـه تغييرات من عهـد الرسول . ويحتوي بالخصوص على قاعة مستطيلـة مقامة على سوار تفتـح على صحن تحيط به أروقة من ثلاث جهـات . وإن المرء يغمـره شعور غريب بروعة هذا الجامع لمـا اشتمـل عليـه من صحن فسيـح الأرجاء ، وصومعـة على النمط السوري ذات الأبراج الثلاثة المتراكبة ، وقبة ، ومحراب رخامي ، وخاصـة مصلاه بأقبيته السبعـة عشر المعتمدة على عدد كبير من السواري والمضاءة بمقدار .

وللأغالبـة شواهد أخرى على نشاطهم في ميدان البناء منهـا جامع الزيتونة الأعظـم في تـونس بزياداته الهامة . وجامع سوسة ، وهو أقل منه سعة ، وجامع الثلاثة أبواب بالقيروان بصفائحه الشبيهة بصفائح حصان التي تزخرف واجهتـه زخرفة على جانب كبير من الجمال . وأخيرا جامع صفاقس الذي أدخلـت عليـه تغييرات فيما بعد .

ولقد استعمل القوم في بناء هذه المعالم جميـع المواد من طوب وآجر مجفّف وحجر المقاطع كما أنّهم غرفوا ملء أيديهـم من الآثـار الرومانيـة . وتأثروا في زخرفتهـم بتقنية الفترة المسيحية فنقلوا الصور على شكل فروع وورود . أما الـكَرْم الذي اتخذه الوثنيون والمسيحيون منذ القدم رمزًا لهـم فإنه شاع في زخرف المباني الإسلاميـة بإفريقية على شكل أوراق مبسوطة أو مطـوية .

الحكـــومـــة :

لم يتميز الأغالبـة بحبهـم للمتعـة وولعهـم بالبناء فقط ، ولا يصـح أن يقال إن الراحة أبطرتهـم عند اضطلاعهـم بالمسؤولية بل إنهـم حرصـوا حرصا شديدا على تنظيم الحكم تنظيما محكمـا على نحو ما وجـد في بغداد إنهـم لم يطمئنوا كـثيرا الى الارستقراطية العربية فانتخبـوا أعضادهم مـن

بين أمراء بيتهم الذين ظلّوا أوفياء دائما أو من بين عامة القوم من موال وخدم وخصيان وحتى من النصارى .



شكل 4 ـ المنستير ، منظر للرباط من جهة البحر • الرسم لجورج مرسى •

وعيّنوا وزراء كما فعل العباسيون من دون أن يعطوهم نفوذا حقيقيا ، وحجّابا يجمعون بين الحجابة وقيادة الجيش . وكان لهم صاحب البريد وهو في آن واحد صاحب الشرطة . وكان لهم كذلك عدد من الكتاب . وانتخبوا القواد لا حسب مكانتهم بل اعتمادا على قيمتهم الشخصية كما أوكلوا الأعمال الإدارية من ديوان رسائل وجباية ، وديوان الختم ، إلى بعض أصحاب الأقلام المتواضعين . أمّا فيما يخص القضاء فإن خطة قاضي القيروان ، زيادة على ما فيها من مشمولات إدارية لا تسند إلاّ إلى شخصيات مرموقة اشتهرت بيقظة ضميرها أكثر من سعة علمها . وتمتع ولاة المقاطعات بنفوذ كبير تحت رقابة الأمير . وفي الواقع فان مشمولات الموظفين لم تضبط ضبطا واضحا ممّا جعل السلط تتداخل تداخلا خطيرا ، غير أن الموظفين وهم جميعا من العرب ، فقد انتدبهم الأمير حسب مشيئته فأصبحوا مدينين له بكل شيء وظلوا على وفائهم له .

وانتهج الأغالبة سياسة اقتصادية في ميدان الماء على الأقل . ويشهد بذلك ما أقاموه من مخازن مياه وحنايا ويظهر أن إفريقية عاشت في القرن

التاسع فترة رخاء . غير أن سياستهم الجبائية كانت فاسدة ، إذ فرضوا على رعاياهم حتى المسلمين منهم الجزية واستخلصوا الخراج عينا لا عـَرضا . وسنوا ضرائب لم ينص عليهـا القرآن وخـاصة على الأسواق ونقل المؤونة . فإذا أضفنا إلى ذلك تنكل الموظفين تصورنا الأسباب التي أدت إلى سقوط هذه الـدولـة .

الجنـد وفتـح صقليـة :

سعى الأمراء إلى إدماج العرب والبربر من دون أن يفلحوا في ذلك . ولئن لم يجدوا صعـوبات تذكر من البربر فإن الجيش العربـي وضع أحيانا دولة الأغالبـة على قاب قوسين أو أدنى من الانهيار فـكـان الجنـد المتـكوّن من قدماء الحرس المسرّحين بدون راتب ، المتضورين جوعا ، أو من الجيش النظـامي المسخر لخدمة الأمراء تتآكلـه الخصومات القبليـة ، ويفرق صفوفه تطاحن الحاميات ، ويثبّط عزائمه تضارب المطـامع فـأصبـح لذلك كلّه حشودا فوضوية على أهبة التمرّد دائما . واضطر الأغالبـة للتغلب عليهم إلى جمـع كـل قواهم وبعث حرس أسود يطمئنون إلى ولائـه ولـكـنهم مـا أن كسروا شوكـة الجند وقضوا على حـاميات الحدود وخاصـة حاميـة بلزمة حتى وجدوا أنفسهـم من دون جيش قادر على الوقوف في وجه الشيعـة .

وتوفق زيـادة الله الأول الى التخلص من شغب العسـاكر المتمردين بتوجيههم الى محـاربة النصـارى في صقلية . وكـان الأمراء يعيشون بإفريقية في أمن مع أجوارهم خـاصة وأن الجند عبروا بوضوح عن إرادتهم في مسـالمة البربر ، غيرأن هذه الجزيرة الـكبيرة التي قـام العرب فيهـا بغزوات عديدة منذ أمد طويل بدت فريسة سهلة المنـال . ولم تعد بيزنطة تهتمّ كثيرا بهذا الموضوع الذي أصبح بعيدا جدا عن مشـاغلهـا وانصرفت الى الدفـاع عن صقلية معتمدة على الجمهوريـات الإيطـالية الصغرى بينمـا أنشـأ الأمراء الأغـالبة أسطولا وجعلوا من إفريقية دولـة بحرية .

وفي سنة 827 أمر زيـادة الله استجـابة لنداء قـائد يونـاني متمرّد بفتح صقلية وأرسل جيشـا من الجند والبربر تحت إمرة القـاضي أسد بن الفرات الذي تفرغ للجهـاد . وبعد ذلك بأربع سنـوات استولى العرب

على بلرمو وجعلوا منها عاصمتهم . ثم إنهم أخذوا مسينا عنوة بعد أن مُنوا بخيبات كان منشؤها في الغالب خلافات بين جيوش إفريقية وإسبانيا وانتشار الأوبئة سنة 843 وأخيرا استولوا بعد مجهودات تواصلت ثلاثين سنة على « بلفيدير صقلية » مدينة يانا (كستروجيوفاني سنة 859) . وواصلت الجيوش الأغلبية زحفها في صقلية ثم توغلت في إيطاليا الجنوبية رغم جهود بيزنطة المتقطعة وتدخلات البندقية والجمهوريات الصغيرة وحتى الأمبراطور لويس الثاني الكارولنجي . فسقطت سرقوسة في يد الأغالبة سنة 878 ثم تاورمينة (Toornina) سنة 902 ومن ذلك الوقت استوسق الأمر للعرب في صقلية باستثناء بعض المراكز الخالية من الأهمية . واضطرّ الأمبراطور ليون السادس أمام انتصارات الأغالبة الى التخلّي عن ممتلكاته في إيطاليا والاكتفاء أثناء الفترة الثانية من ملكه بحصر طموحه السياسي في المشرق .

وحقّ لزيادة الله الثالث أن يعتبر في أوائل القرن العاشر صقلية في مأمن من أي خطر ذي بال . وبينما كان الأمراء يحققون في الخارج نجاحا مبينا استنزفوا قواهم في حرب بعيدة عن أرضهم أصبح من المتعذر أن يعتمدوا في إفريقية حيث قضوا على الجند وأضعفوا حاميات الحدود ، على قوى كفيلة بالصمود أمام حشود كتامة التي رمى بها الداعي أبو عبد الله الشيعي آخر الأمراء الأغالبة وأشدّهم غدرا .

3) سلطان الفاطميين على المغرب

الشيعة :

إن أصل الدولة الفاطمية نحلة تدعو الى شرعية الخلافة . وتدعى الشيعة ، ومؤسسها عبيد الله ، وهو لاجيء من المشرق . وسندها كتامة ، وهي قبيلة بربرية من بلاد القبائل .

إن مسألة الخلافة هي السبب في ظهور الشيعة وكذلك الشأن بالنسبة للخوارج الذين يختلفون معهم في تعلقهم المطلق بأحفاد علي الذين تتنافى وراثتهم الشرعية للخلافة مع أية صيغة من صيغ الانتخاب .

وبما أن عليًا كان أحق الناس بالمبايعة بعد وفاة الرسول نظرا الى أنه ابن عمه وصهره فإنهم اعتبروا الخلفاء الثلاثة الأولين مغتصبين . أما الأمويون الذين دعموا حكمهم بمقتل الحسين بن علي وأقربائه في كربلاء سنة 680 والعباسيون الذين خلفوهم فإن الشيعة لم يعترفوا بحكمهم قط وظلّوا متمسكين بالحقوق المقدسة لأحفاد علي وزوجته فاطمة .

وواجه الخلفاء محاولات الشيعة بالقمع الشديد ورغم ما مُنُوا به من هزائم وقاسوه من سجون وآلوا اليه من تشتت جعل منهم جماعات قليلة العدد قصيرة اليد تعمل في السر بواسطة دعاتها الذين كانوا يستهوون الأفراد ويلقنون أصول مذهبهم للأنصار فإنهم وفّقوا الى إقامة صرح مذهب الإمام المختفي فتعزوا به عن مصائبهم . وكان هذا الإمام الطاهر المهدي آخر أحفاد علي ينتظر ، من دون أن تراه عين ، الساعة المناسبة للظهور ولسياسة الدنيا بهدي من الله وإنقاذها ونشر السلم وملء الدنيا

عدلا كما ملئت جورا وإضفاء الخير العميم على كافة المسلمين . وانقسم الشيعة إلى فرق كثيرة تنتسب كلّ واحدة منها إلى أحد أحفاد عليّ وتقف حياتها على انتظار عودته .

ويرجع الفاطميون الى الإسماعيلية الذين اعتبروا إسماعيل الإمام السابع آخر من ظهر من الأيمّة . وقد عاش أحفاد إسماعيل مختفين يوجهون من مخابئهم دعاتهم ينشرون في الجماهير مذهبا مليئا بالرموز يستهوي النّاس بغرابة طرق تلقينه وتفاضل درجات المعارف الّتي يشفون بها غليل أتباعهم. وآلت هذه الدّعوة الواسعة النّطاق رغم كونها سرّية الى انفجار العقيدة الشيعية فساعد ذلك على ظهور المهدي المنتظر في شخص عبيد الله في أوائل القرن العاشر .

عبيد الله المهدي :

كان مقر قيادة المهدي في سَلَمْيَة وهي مدينة صغيرة بالشام تقع قرب حماه في شرقي نهر العاصي وقد أصبحت حوالي سنة 864 مركز الدعوة الإسماعيلية .

وليست لدينا معلومات مضبوطة عن نسب عبيد الله وربّما انحدر من ميمون القداح القرمطي الفارسي الشهير وأحد الشيعة المرموقين . وعلى كل حال فإنه كان يؤكد انتسابه للفاطميين واعترف له بذلك (ولم يشك خصومه في نسبه إلاّ بعد ذلك بزمن طويل ثم أصبح رأس الإسماعيلية وبثّ دعاته في العراق وفارس واليمن) .

غير أن بذرة الشيعة أخصبت في أرض المغرب إخصابا غير مؤمّل ووجدت في كتامة سمادا لها .

كتامة :

استقرت قبيلة كتامة ببلاد القبائل الصغرى شرقي جبال بابور بين جيجلي وسطيف وقسنطينة وفي أقصى شرقي موريطانيا الرومانية وهي منطقة وسط بين وعورة الجبال وحضارة نوميديا التقليدية وهي الى ذلك أرض ممتازة لبعث الأمبراطوريات .

وكان الأمراء رسميا أسياد بلاد القبائل الصغرى غير أنهم قلما جازفوا بتأكيد حقوقهم الشرعية على البلاد . قال ابن خلدون : ولم تكن الدولة دولة الاغالبة تسومهم بهضيمة ولا ينالهم تعسف . ومعنى ذلك أن القيروان اعترفت بعجزها عن بسط نفوذها عليهم.

وكان بربر كتامة القاطنون على تخوم إفريقية يضمرون للفاتحين العرب عداوة تلقائية تبرز في احتضانهم للجند المتمردين فلما تمكّنوا من صبغ هذه العداوة بصبغة المعارضة الدينية المتقمّصة في شخص زعيم، تحوّلت الى صراع عنيف زالت معه دولة الأغالبة.

ويستبعد أن يكون مذهب الخوارج انتشر ببلادهم في القرن الثامن رغم زعم بعضهم أن فريقا من كتامة ساند الإمام ابن رستم الإباضي أو مال الى النكّارة و تولى نشر مذهب الشيعة بينهم منذ أوائل عهد ابراهيم الثاني داعيان إسماعيليان مسؤولان عن الدعوة في بلاد المغرب ولكن أبا عبد الله هو الذي قام بالعمل الحقيقي .

الداعي أبو عبد الله :

لم يكن لأبي عبد الله في أول الأمر شأن يذكر ثم أصبح محل ثقة المهدي من دون سابق معرفة له حسب ما يشاع ولا بدّ أنه تمتع بقدرة نادرة على التنظيم وفراسة نافذة وديبلوماسية نشيطة. ولقد كان له في مكّة اتصال مع حجاج من كتامة استصحبوه الى بلادهم سنة 893 تقريبا واستقر بإيكجان وهي حصن منيع ببلاد القبايل الصغرى في مأمن من مجموعات الأغالبة ولا يبعد كثيرا عن موقع شوفري (Chevreuil) الحالي .

وليس لدينا تفاصيل مضبوطة عن مراحل دعوته، ويظهر أنه لاقى معارضة من بعض قواد البربر فتخلص منهم بحدّ السيف غير أنه توصل في آخر الأمر الى جمع كلمة كتامة وجعل منهم جيشا عتيدا يستمد عصبيته من عقيدة دينية واحدة. وهجم به على إفريقية. فلما استولى على الميلة سنة 902 أدرك أن الثمرة قد أينعت وحان قطافها. عند ذلك أسرع عبد الله الثاني الذي

بايعه والده إبراهيم الثاني أميرا الى ملاقاة الداعي فهزمه، ولكنه مني بفشل ذريع عند ما سار بجيشه بين الجبال المغطاة بالثلج سعيا الى إيكجان. وسرعان ما أعاد أبو عبد الله الكرة إثر مقتل الأمير على يد زيادة الله الثالث واستولى على سطيف (سنة 904) واسترجع الميلة وهزم الجيش العربي قرب بَلَزْمة شر هزيمة (سنة 905) وأخذ عنوة حصن طبنة وبَلَزْمَة واحتلّ كل الأماكن الحساسة على طول الطرق المؤدية الى إفريقية (907—908) ثم إنه بعد أن شتت آخر جيش أغلبي قرب الأربس ولا شك، دخل في 27 مارس سنة 909 مدينة رقادة بينما فرّ منها الأمير في حالة يرثى لها. وكان أبو عبد الله يطمئن السكان حيثما حلّ ويعدهم بإسقاط الضرائب غير المنصوص عليها في القرآن متوقيا بالخصوص جانب الفقهاء ورجال الدين لما كان يخشاه من خطر تأثيرهم على الناس. بينما أمر بتقتيل السود عن آخرهم ونشر الأمن بتسليط شديد العقاب على قطاع الطرق وضرب السكة. ولما رأى أن نفوذه قد تدعّم، عيّن قاضيا شيعيا وطلب من المؤمنين أن يحتضنوا تعاليم المنتصرين ثم مضى يبحث عن سيّده المهدي الذي قام بالدعوة باسمه.

انتصار المهدي :

لما أدرك عبيد الله أن دعوته أصبحت تقض مضجع الخليفة غادر سَلَمْيةَ ليلتحق بداعيه الذي كان أبلغه مدى انتشار دعوته (902) وكاد أن يلقى عليه القبض وهو يجتاز مصر متنكرا في زي تاجر، ولا شك أن والي طرابلس تهاون في إيقافه طمعا وغفل عن سجنه وكذلك الأمر بالنسبة لمو ظفي قسطيلية (الجريد) الذين بلغهم الأمر باعتقاله بعد رحيله. وأقلع عن الالتحاق بأبي عبد الله واحتمى ببني مدرار في سجلماسة من دون أن نتبين سببا لذلك ولربّما أودع السجن وعلى كل فإن جيش كتامة خلصه من الأسر بعد أن أطاح وهو في طريقه بمملكة بني رستم في تاهرت (26 أوت 909).

ولقد كانت عودة مظفرة اذ دخل عبيد الله يوم 15 جانفي سنة 910 مدينة رقادة في موكب بهيج وتلقب رسميا بلقب المهدي وتسمّى باسم أمير المؤمنين. وكان انتصاب المهدي بعاصمة الأغالبة إيذانا بانتصار الشيعة وخاصة قبيلة كتامة. فمنها تكوّن جيش الداعي • بفضل أبنائها غزا الفاطميون المغرب ومصر. وإن لفي هذا الانتصار رموزا ومعاني بعيدة الأثر، كما أكد ذلك

« أ. ف . قوتيي » ، اذ وضع بذلك حدّا فاصلا للفتح العربي. وثأر المغرب لنفسه من الغزاة الأجانب.

ولم تعتمد الدولة التي أسسها الخليفة العربي عبيد الله على البدو الرحل بل على كواهل الفلاحين المستقرين ببلاد القبايل. على أن قبيلة كتامة التي أثخنت فيها معارك المغرب ومصر وصقلية ، واستنزفت قواها ملذات السلطان، دفعت بانقراضها ثمن مغامرتها العجيبة.

أوائل حكم المهدي :

كوّن الأمراء الأغالبة إطارات إدارية، سهّل على المهدي استغلالها لحكم إفريقية. قال ابن خلدون : « ودون الدواوين وجبى الأموال وبعث العمّال على البلاد ».

أما المعارضون وكان عددهم بطبيعة الحال قليلا فقد هلكوا بحدّ السيف.

وما أن تقلّد عبيد الله الحكم حتى ظهر في مظهر صاحب الحزم والعزم لا يرضى بوصية داعيته أبي عبد الله الذي كان يوسوس له أخوه أبو العباس مزينا له التمرّد على المهدي وكان يقول له مرارا وتكرارا : « أنت الذي أسّست أمبراطورية » وحاول أبو عبد الله بدون جدوى استدراج المهدي لاقتسام السلطة ثم مال الى الطعن في قرارات الدولة بل ذهب حتى إلى الشك في توفّر صفة المهدي في عبيد الله . وبلغ الأمر الى الأمير فبادر بقتل أحد قواد كتامة وخافه الآخرون، فتآمروا عليه، فلم يردّ عبيد الله الفعل في الحال لما لم يزل يحمله في نفسه ولا شك من عطف واعتراف بالجميل لمن وضعه على كرسي الحكم ولم يجد أخيرا بدا من الأمر بقتل أبي عبد الله وكذلك أخيه (31 جويلية 911).

وتمرّدت كتامة وهم الذين تعلقوا بالداعي أكثر من تعلقهم بالمهدي وقد ساءهم كذلك أن منعوا من نهب إفريقية الغنية واستنزاف أموال أهلها. وفتر حماسهم في أول الأمر لما واجههم به المهدي من حزم ثم التفّوا حول مهدي مزعوم وشقوا عصا الطاعة من جديد في ربيع 912. وجرّوا معهم قبائل الزاب (جنوب قسنطينة) ولاقى عبيد الله في محاربتهم عناء كبيرا. ولم

ينتصر عليهم الا عندما عقد لابنه أبي القاسم على الجيش فأبلى البلاء الحسن ولـمّا يبلغ العشرين من عمـره .

ولم تكن ثورة كتامة هي الوحيـدة من نوعها. ففي خريف سنة 911 تمـرّد سكان تاهرت على نفوذ الشيعة تعاضدهم في ذلك قبيلة زناتة من مغراوة وفي آخر سنة 912 جـاء دور سكان طرابلس الـذين ضاقـوا ذرعا بأعمال كتامة المعسكرين في تلك المدينة وأخيرا التف جـانب من أهل صقلية حول أحد أمراء بني الأغلب واعترفوا بخليفة بغـداد وظلّوا يذيقون جيش الشيعة الأمرين حتى سنة 915، إذا صدّقنا التواريخ التي لم تبلغ حدا من اليقين من شأنـه أن يقينا مغبة الـوقوع في الخطـأ.

الحمـلات على مصـر :

ما أن أخمـد عـبيد الله تـلك الثـورات الخطيرة حتى وجّه جيشه نحو مصـر ذلك أن المغرب لم يكن في نظره الغاية القصوى بل اعتبره مجرّد نقطة انطـلاق بوصفه الوارث الشرعي لكافة الامبراطورية الاسلامية، فما أن استقام له الامر بافريقية حتّى حاول الاستيلاء على مصر التي اعتبرها بدورها مجـرّد مرحلة جديدة لافتـكاك الخـلافة.

ومنذ شتاء سنة 913—914 هيأ عبد الله حملة على مصر أوكل أمرهـا إلى أحد قوّاد الشيعة ثم إلى أبـي القاسم ولي عهده بالذات. فاحتل من دون كبير عنـاء الاسـكندرية والفيوم وهدد الفسطاط، لكن الخليفة العباسي المقتـدر تصدّى للغزاة وأرسل أحد قواده الممتـازين ، الخصي مؤنس الفتى.

واضطر أبو القاسم الذي كان منقطعا عن قواده إلى التقهقـر والرجوع إلى رقادة يوم 26 مـاي 915 بعد معـارك كبيرة وداميـة.

ولم تمض أربع سنوات حتى أعاد الجيش العبيدي الـكرّة بقيادة أبي القـاسم كذلك..

واستسلمت الإسكندرية من جديد من دون أية مقاومة وأحدق الخطر ثانيـة بالفسطاط وأدركت جيوش الشيعة الجيزة. فواجههـا مؤنس من جديد ودمّـر الأسطول العباسي أمام مرسى الرشيد سفنا أرسلها عبيد الله لنجدة أبي

القاسم الذي صمد صمود اليأس (11 ماي 920) ثم اضطر في آخر الأمر إلى التقهقر بعد أن تألبت عليه جيوش مؤنس وأثخنت فيه المجاعة والطاعون، ووصل المهدية في نوفمبر سنة 921.

تأسيس المهدية :

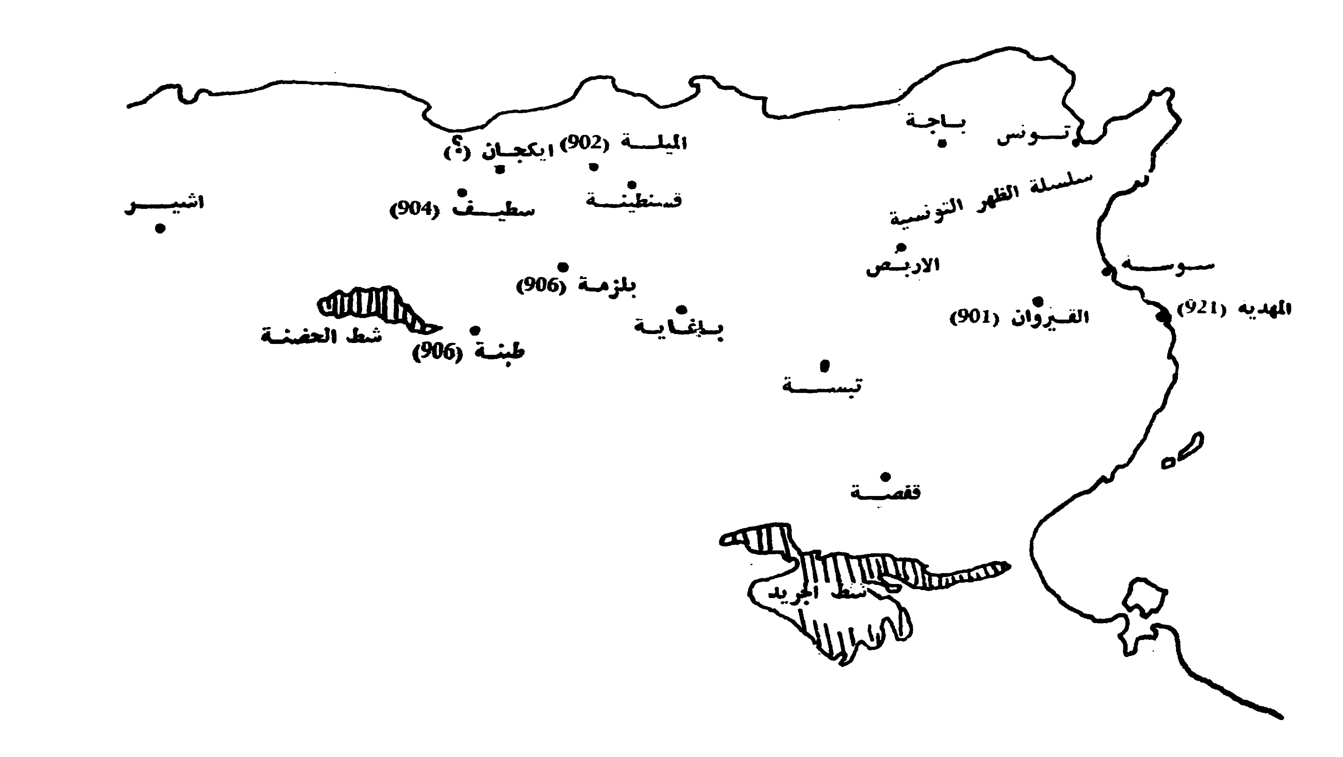
كان عبيد الله في تلك الأثناء قد أبدل القيروان بعاصمة أخرى ولقد جرت العادة منذ ذلك العهد أن تستبدل كل دولة اسلامية جديدة المدينة التي حكم فيها من سبقهم . ثم أن رقادة مدينة الأغالبة الواقعة وسط سهل ممتد الأطراف لم تحطها الطبيعة بما يقيها شر أعدائها. ودلت الأحداث التي جدت في أول عهد الفاطميين أن أعداءهم كثر. وأخيرا انشغل عبيد الله، كما رأينا، بمصر وشرقي البحر المتوسط أكثر من انشغاله بالمغرب، سعيا منه الى الانتصاب على السواحل حيث يمكنه الانطلاق منها لشن حملات بحرية.

وبعد البحث عن موقع ملائم في جهة قرطاج وتونس استقر رأيه على شبه جزيرة بين سوسة وصفاقس وُجد بها فيما قبل مرسى روماني وربّما فينيقي. وهنا أيضا تعوزنا التواريخ المضبوطة : فابن عذاري يرى أن تأسيس العاصمة الجديدة تمّ سنة 912 اثر الثورة المندلعة في أول عهده، أما ابن الأثير فإنه يحدد لنا هذا التاريخ في سنة 915 .ومهما يكن الأمر فان عبيد الله استقر بعاصمته الجديدة سنة 921 وأضفى عليها الاسم الذي بقيت تحمله الى اليوم وهي المهدية مدينة المهدي .

وإن المعطيات الأثرية التي انكب عليها ج. مرسي بالدرس تجعلنا نؤكد أن المهدية كانت قبل كل شيء حصنا منيعا ومرسى حربيا زيادة على كونها دار صناعة وبطبيعة الحال نجد فيها كذلك مسجدا وقصورا غير أنّه كان أعوزها البهرج ذلك أن عاصمة الفاطميين الجديدة كانت مدينة حربيّة أكثر منها مقرا للأمراء .

الحملات في بلاد المغرب :

كانت مشاغل عبيد الله الأوليّة كما رأينا متجهة نحو مصر والمشرق ، غير أنه ربّما أدرك أن خيباته في المشرق مردّها بنسبة كبيرة الى عدم رسوخ قدمه في إفريقية .



شكل 5 – مراحل الغزو الفاطمي

ومن الثابت أن أول حملة وجهها إلى غربي بلاد المغرب تمت بعد خيبته الأولى في مصر وأنه توغل أكثر من ذي قبل بعد فشله الثاني وكأنه في كل مرة يستخلص العبرة من كبواته في المشرق .

وكانت الحملة الخاطفة التي قام بها أبو عبد الله لتخليص سيّده في سجلماسة قد فتحت في وجه الشيعة سهول المغرب العليا الآهلة بزناتة الخوارج ، حيث كانت سلطتهم مطعونا فيها أكثر من أي مكان آخر نظرا للخلافات القائمة بين الغالب والمغلوب وهي خلافات مأتاها المذهب والجنس ونمط الحياة ، فكان الخوارج ضد الشيعة وزناتة ضد صنهاجة ، والرعاة الرحل او الظاعنون ضد المزارعين المستوطنين . وإذا نحن أنعمنا النظر شاطرنا رأي هـ . تراس (Terrasse) في أن جميع الاحداث الواقعة حتى أواخر القرن العاشر في الشطر الغربي من المغرب لم يكن محورها انتصار الشيعة أو الخوارج بل تفوق زناتة أو صنهاجة ، وستنضاف الى ذلك العداوة بين الامبراطورية الفاطمية والامبراطورية الأموية في قرطبة .

ورغم ذلك فإن عبيد الله هاجم أول ما هاجم إمارة نكور (الحسيمة) التي كانت لها علاقات حسنة مع امارة قرطبة (917) ولئن قتل الشيخ المسن أمير نكور فإن عددا كبيرا من أفراد عائلته تمكنوا من الفرار إلى إسبانيا ولم تمر أشهر قليلة حتى عادوا واسترجعوا إرث أجدادهم بقوة السلاح ومعاضدة قرطبة السافرة .

ولكن لم يتجاوز كل ذلك مجرّد مناوشة ، إذ بدأ غزو المغرب الاقصى بصورة فعلية سنة 922 ، عندما تخلّى عبيد الله مؤقتا عن مطامعه تجاه المشرق وتحركت جيوش الشيعة نحو الغرب تحت إمرة مصالة ابن حبوس شيخ مكناسة ولم تجد صعوبة في تخضيد شوكة يحيى الرابع الادريسي وفرض سلطة العبيديين عليه والاستيلاء على سجلماسة . وبعد ذلك بقليل طرد يحيى لأنه كان في نظر أسياده الجدد غير منقاد تمام الانقياد وأبدل بموسى بن أبي العافية أحد أمراء مكناسة ، فدخل بذلك جزء من المغرب الاقصى ، أي جهتا فاس وسجلمامنة ، تحت حماية الفاطميين بواسطة مكناسة .

ولم يكن صاحب قرطبة المنصرف آنذاك إلى قمع الثورات التي ورثها عن جده ليشتغل رغم ذلك عما كان يجري بالمغرب الاقصى ولم يتدخل مباشرة ولكنّه أثار على مكناسة إخوانهم في الجنس بني مغراوة من زناتة .

وظلت مكناسة ومغراوة طيلة عشرين سنة يأكل بعضها بعضا من أجل الاستحواذ على شمال المغرب . وفي بعض الاحيان كان الأدارسة يتدخلون في خصومتهم من ذلك أن عبد الرحمان الثالث الذي نصّب نفسه خليفة بقرطبة سنة 929 وضع حاميات في مدينة مليلة سنة 927 وخاصة سبتة سنة 931 احتياطا لكل ما يمكن أن يحدث وما لبث أن توصل إلى كسب موسى بن أبي العافية . وقام الفاطميون سنتي 933 و 935 بعمليتين جريئتين هامتين من دون الوصول إلى نتيجة تذكر . وإذا جاز القول بأن الفاطميين ثبّتوا أقدامهم بالمغرب الأقصى قبيل ثورة أبي يزيد فإنّه لا يمكن الجزم بأن الأمر قد استتب لهم نهائيا .

طغيان الفاطميين :

كانت طرق عبيد الله في الحكم سببا في تعريض سلطان الفاطميين إلى خطر عظيم فقد كان المهدي على ما يظهر يدير شؤون دولته بلا شفقة ولا رحمة . ورغم وعود الداعي فإن ضرورة الحصول على ما تحتاجه الدولة من موارد أدت إلى إقامة نظام جبائي يعادل في جوره وشططه نظام الأغالبة ، قال ابن عذاري : « وفي سنة 307 هـ (919 م) كان بإفريقية طاعون شديد وغلاء سعر مع الجور الشامل من الشيعة والتعلل على أموال النّاس في كل جهة » . وإذا أضفنا إلى ذلك ما للبربر المتمسكين أشد التمسك بالملكية من نفور إزاء نحلة سيد لم ير مانعا في التصرف فيها حسب هواه أدركنا كيف أثارت هذه الدولة الجديدة منذ عهد أول ملك لها حفيظة النّاس فتجاوزت عداوتهم لها ما كان يلقاه منهم الأغالبة .

ويمكن أن نؤكد ظهور مقاومة حقيقية بإفريقية كردّ فعل على المذهب الشيعي إذ ركنت إلى العمل السري ونظمت العصابات المسلحة

ولاقت ألوانا من التعذيب والاستشهاد وحظيت بتأييد يشوبه الحذر من برجوازية القيروان . وتزعم هذه المعارضة صنفان من التقاة : فقهاء المالكية بالقيروان والزهاد والصلحاء العاكفون بالرباطات وعددهم كبير جدا ، وكان لأولئك وهؤلاء من المكانة عند السكان ما اضطر الشيعة إلى توخّي الحذر الشديد قبل التصدي لهم .

وانتحلت الثورة ضدّ استغلال الفاطميين الصبغة الدينية والاجتماعية للمذهب الخارجي المتطرف فقامت مرة أخرى في بلاد المغرب التي قلقلها الفتح ، وأثخنت فيها النزاعات المسلحة واستنزفها النظام الجبائي .

أبو القاسم :

تأبى الأسطورة إلاّ أن تجعل المهدي يتنبأ بأنّ زوبعة الخوارج ستعصف بكامل المغرب قبل أن تتلاشى أمام أسوار المهدية . وبعد اضطرابات منذرة بالويل عصفت في عهد ابنه أبي القاسم (934 946) . ولقد ساهم الخليفة الجديد مساهمة مباشرة في سياسة والده التوسعيّة فاستولى على قسنطينة وطرابلس وقاد حملتين ضد مصر وما أن اعتلى العرش حتى بادر بمحاولة ثالثة مكّنته أول الأمر من الاستحواذ على الاسكندرية ولكنّها آلت إلى خيبة جديدة . ورمى بقراصنته شواطيء بروفانس (Provence) وتمكّن من احتلال جنوة ردحا من الزمن .

أمّا في المغرب فبعد أن تخلّص أبو القاسم بسهولة ممن ادّعى أنّه ابن المهدي نفض يديه من أمر موسى بن أبي العافية الذي مال إلى الأمويين وعهد بممتلكاته إلى الأدارسة كما عهد لهم بتاهرت الثائرة .

ويظهر أنّ أبا القاسم كان أميرا شجاعا غليظ القلب ميّالا دائما إلى خوض المعارك وكان شيعيا مغرقا في التشيع صاحب حزم وعزم . قال ابن حمّاد : إنّ الرسائل والسجلات كانت تبعث من حياة أبيه باسمه ، كما أن المطالب والوفود كانت تأتي إليه . وسعيا إلى فرض هيبته على

النّاس سن عادة لم تكن مألوفة قبله في بلاد البربر فأمر بأن يمسك فارس من الفرسان بمظلة فوق رأسه « وهي شبه درقة في رأس رمح محكمة الصنعة رائقة المنظر [فيها] ظرف من الصناعة في الصياغة ونظم الأحجار الغالية ما يروق مرآه ويدهش من رآه » .

وأغلب الظنّ أن الإدارة الفاطمية تمادت آنذاك وربّما بالغت في توخي القسوة المألوفة في عهد أبي القاسم عندما كان يشارك بصفة فعالة في شؤون الدولة بصفته وليّ العهد فكانت يقظة المقهورين جبارة .

ثورة أبي يزيد صاحب الحمار :

وتزعّم الثورة أبو يزيد الملقب بصاحب الحمار ، وهو زناتي من الجريد . ولد حوالي سنة 885 بالسودان ولا شك ، حيث كان أبوه يتعاطى التّجارة ، وكان هذا الأعرج الحقير ذا مزاج عجيب كأنّه فطر على الشغب فتمكن بفضل دعايته المحمومة من إثارة المغرب وجعل الدولة الفاطميّة على قاب قوسين أو أدنى من السقوط ولم يكن جاهلا ، قال ابن حماد : « فلمّا كبر وشب قرأ مذهب الإباضية ففقه فيه ومهر في الجدل عليه » . وبطبيعة الحال انتسب إلى النكارة وهم أشد خوارج المغرب تقشفا وتطرفا .

وجرت حرارة الدعوة لرسالته مجرى الدم في عروقه فعندما كان يعلّم الأطفال القرآن في توزر أثر فيهم وحملهم على مناهضة المهدي . وبلغت دعايته في الجريد من الخطورة حدّا شغل السلط الشيعية واضطر إلى الرحيل نحو تاهرت معقل الخوارج حيث تمادى في بث تعاليمه .

ولم تنتشر دعوته إلاّ بعد موت المهدي . فكان يجوب المغرب الأوسط ممتطيا حماره الأشهب مصحوبا بأبنائه الأربعة وزوجته وهي من مريديه ، لابسا كعامة الشعب جبّة بسيطة ، ضاربا المثل بأشد ألوان الزهد ، محرضا البربر على طرد الفاطميين وتعويضهم

بمجلس من الشيوخ أي من الفقهاء حسب الطريقة المعمول بها ولا شك في دول الخوارج .

وسرعان ما حظيت هذه الدعاية الثوريّة بنجاح سريع وباهر خاصة في الأوراس لأنّها أثارت آمال بروليتاريا بائسة وجعلتها ترنو إلى حكومة منبثقة منها تنادي بالكرامة وتنشر العدل ، وتدعوها إلى إقامتها بحدّ السّلاح . وكانت صرامة أبي يزيد لا تمنعه من أن يدرك دقيق الإدراك مقتضيات السياسة فلقد قام بمساومات مع الأمويين أصحاب قرطبة لمناصرته ولكن بدون جدوى. واعتمد على المالكية رغم حيطتهم المعهودة لكسب أهل القيروان بصفة وقتية . ووجدت المعارضة الدينية أخيرا الفرصة سانحة للانفجار في وضح النهار .

وسرعان ما غزا صاحب الحمار إفريقية لا تحدوه في ذلك هو وجماعاته شفقة ولا رحمة . روى أبو زكرياء من بين من روى ما اقترفه « عدو الله » من فظائع وأورد تفاصيل ضافية مشكوكا في صحتها نظرا لكونه إباضيا معتدلا مناوئا للمتطرفين .

ولم تستفظع الجماهير هذا العنف بل استهواها ودفعها إلى الانقضاض على الغنيمة معتقدة أنّها ستردّ الكيل كيلين إلى الفاطميين . وسلك هذا الموج العارم من البشر نفس الطريق التي سلكها قبل ذلك أبو عبد الله وجماعته من كتامة ، فعبروا وادي ملاّق ومنه انتشروا في شمال البلاد التّونسيّة حيث عبثا حاولت جيوش القائم الوقوف في وجههم وهزمها أبو يزيد قرب باجة ثمّ استولى على تونس بتواطؤ مع أهلها السنيين واجتاز سلسلة الظهر التونسية ودخل القيروان حيث نجحت مساعي فقهاء المالكيّة في وضع حدّ للنّهب ثم انتصر على جيش أرسل من المهدية تحت إمرة أحد خيرة قواد الشيعة ووصل إلى أسوار المهدية وحاصرها وهي الرقعة الوحيدة من الأمبراطورية الفاطمية الّتي بقيت في حوزة الخليفة (نوفمبر 944) وتخلل هذا الحصار هجومات عنيفة أوشك بها أبو يزيد أن يقتحم المدينة وهو المقدام الّذي لا يتردد في مواجهة الموت فكاد أن يلقى حتفه مرات

عديدة . وبينما كان أهل المهدية يعانون مرارة الحصار إذ أسعفتهم كتيبة فكت الحصار عنهم ومدتهم بالمؤونة يقودها زيري بن مناد رئيس صنهاجة بمدينة أشير . ولعلّه بذلك أنقذ الدولة الشيعية .

وكانت مثل هذه المقاومة طويلة في نظر الجماعات التي أثار أبو يزيد حميتها فانطفأ حماسها بمثل السرعة التي التهبت بها ، وإذ لم يبق شيء يمكن نهبه فقد عاد عدد كثير منها إلى ديارهم واتّهم آخرون الشيخ الأعرج باستطابة مباهج الحياة . فاضطر إلى التخلّي عن حصار المهدية في سبتمبر سنة 945 . وحاول جمع شتات جيوشه حول القيروان ، ولم يلبث أن وجد نفسه أمام عدوّ جديد : فقد مات القائم في 16 ماي 946 وخلفه ابنه أبو العبّاس إسماعيل المنصور الذي بذل كلّ طاقته في ملاحقة الثائر : ذلك أنه بعد أيام قليلة من تقلّده السلطة دخل القيروان واستحكم فيها رغم الضربات الشديدة الّتي وجّهها إليه أبو يزيد . وأخيرا جرت معركة دامية تحت أسوار المدينة فكانت الفَيْصَلَ في أمر هذه الثورة (15 أوت 946) .

ودامت المطاردة القاسية عاما كاملا ولمّا قطع المنصور على أبي يزيد خط الرجعة عبر الصحراء التجأ إلى جبال الحضنة وبرهن للمرة الأخيرة عن طاقة عجيبة في الكفاح فصمد إلى الرمق الأخير محفوفا بمن بقي من أتباعه .

ولم تتح للمنصور فرصة التمتع بتعذيب خصمه إذ مات متأثرا بجروحه رغم ما لقيه من إسعاف (أوت 947) . قال ابن خلدون : « فأمر (المنصور) بسلخ جلده وحشوه تبنا واتخذ له قفصا فأدخل فيه مع قردين يلاعبانه بعثا له » .

وحمد الخليفة الله على نعمته عندما أبصر جثّة الثائر بين يديه وأراد أن يبرز فضله فخلع على نفسه لقب المنصور . وفي الواقع تجاوز نجاحه حدود الانتصارات العسكرية العادية إذ استأصل بهذا النصر نهائيا جذور المذهب الخارجي هذه القوة الثورية العظيمة في المغرب الإسلامي وفسح بذلك المجال لسكان بلاد القبائل المستوطنين الّذين

تفرغوا إلى ضمّ شتات بلاد البربر في دولة موحّدة بعد أن اقتطعوا نصرهم من لحم البدو الرحل .

آخر عهد الفاطميين ببلاد المغرب :

إن أعظم ما حققه المنصور في عهده (946 — 953) تمثل في قمع ثورة الخوارج وقد بلغ استتباب الأمن حدا أمكن له معه ترك معقل المهدية وتشييد مدينة جديدة في أحواز القيروان القريبة سمّاها صبرة أو المنصورية وجعل منها مركزا تجاريا نشيطا على حساب جارتها (947) . وفي المغرب كانت حملة واحدة كافية لإقرار النظام بعد تحرير مدينة تاهرت الّتي كان حاصرها ضابط قديم من جيوش الفاطميين أصبح فيما بعد واليا على المغرب من قبل خلفاء قرطبة .

غير أن الأندلسيين اغتنموا ثورة أبي يزيد للقضاء على تأثير الفاطميين السياسي في كامل المغرب الأقصى ، أما هم فقد بسطوا نفوذهم على طول السواحل حتى مدينة الجزائر حيث كانت تقام صلاة الجمعة باسم خليفة قرطبة .

وكذلك الأمر في صقلية فإن وضع الفاطميين كان صعبا إذ اندلعت فيها الثورة في ربيع سنة 947 عندما كان المنصور يطارد أبا يزيد في جبال الحضنة ، وهدأت ردحا من الزمن ثمّ عادت كأشد ما تكون لأنّ نصارى الجزيرة استنجدوا بالبيزنطيين فأنجدوهم وتوصل الوالي الفاطمي في آخر الأمر إلى السيطرة على الموقف وأمكن له ، بعد أن هزم أعداءه الهزيمة الفاصلة تشييد مسجد عظيم في ريجيودي كلابر . قال ابن الأثير : « وإن أخرجوا حجرا منه هدمت كنائسهم كلها بصقلية وإفريقيّة » .

وبلغت دولة الفاطميين في بلاد البربر أوجها ونهايتها في عهد الخليفة المعز (953 — 975) ، وبنى الخليفة في المنصورية قصورا قد

تـدل أسماؤها الفارسيّة على بداية تـأثير حضارة بـلاد مـا بين النهرين . وتمكن القائد جوهر مـولى المنصور سابقا بـإعانـة جيوش صنهاجة التابعة لـزيـري من قهـر ملك بني مـدرار من سلجماسة كـان رجـع إلى السنـة وتلقب بـأمير المؤمنين وضرب السكـة بـاسمـه ثمّ استحوذ على فـاس ، وأذعنت لـه كـامل البـلاد حتّى طنجـة وسبتـة (958) . ونجح نجـاحـا ممـاثـلا عندمـا شنّ بعد ذلك بتسع سنوات حملـة ثـانيـة تمكن بفضلهـا من طمس تـأثير الأمـويين وإقـرار سلم داخليـة لم يعـرفهـا المغرب منذ زمـان بعيـد .

وهـكذا أمـكن للمعـزّ أن يحقق مطـامح الفـاطميين في مصر ، وكـان على علـم بحـالتهـا السيـاسيـة المتدهـورة لـذلك دخـل جوهـر بسهـولـة عـاصمـة مصر سنـة 969 على رأس جيش يعـد مـائـة ألـف رجـل كمـا يقـال . واختط حيـا جـديـدا أصبـح نـواة لمـدينـة القـاهـرة الحـاليـة . ولمّا انتصر على جيوش عديـدة أتـت للنجـدة دعـا مـولاه الخليفـة فالتحق بـه بعـد أربـع سنـوات من انتصابـه بـالقـاهرة القـديمـة (جوان 973) . وظلت مصر تحت نفـوذ الفـاطميين مـدّة قـرنين كـاملين .

ولم يصحب الخليفـة معـه عند مغـادرتـه إفريقيّة الّتي سكنهـا أحفـاد الرسول على مضض « كنـوز الأمبـراطوريـة » وأثـاث القصر فقط بـل اصطحب جميـع موظفـي دولتـه ونقـل تـوابيت أسلافـه مـؤكـدا بـذلك عزمـه على الهجـرة من إفـريقيّة نهـائـيـا . وأبـقى بطبيعـة الحـال في مصر جيوش كتـامـة الّتي زحف بهـا عليهـا جوهـر وجنت صنهـاجـة ثـمـار الانتصار الّذي حققـه لفـائـدة كتـامة . وفعـلا عهـد المعـز لبُلـكيـن ابـن زيـري بحـكم المغرب بـاسمـه .

4) دول صنهاجة وزحفة بني هلال

أشير زيري :

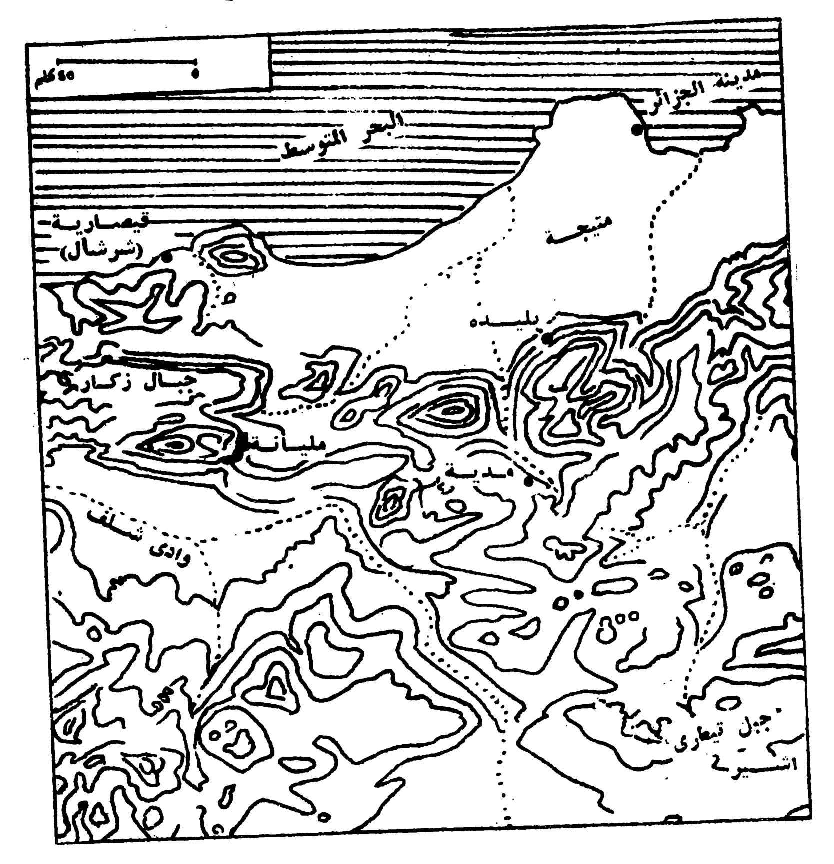
تنحدر دولة البربر التي ورثت سلطة الفاطميين في إفريقية من رجل منهم امتاز بالإخلاص والنشاط . وكان لتدخلاته الدور الحاسم سواء في صراعهم مع جند أبي يزيد أو في تصديهم لرحّل زناته . لذلك سمح له الخليفة القائم بتدعيم سلطانه الناشيء فبنى عاصمة سمّاها أشير وجعل منها حصنا منيعا ومستودعا للعدة والعتاد (شرقي بوقاري على سفح الجبل الأخضر) .

وقد بيّن ج . مرسي الذي نقّب على معالم بني زيري بنفسه دلالتها على ما سجله مؤسس هذه الدولة من تقدم . ولا بد أن زيري اقتصر في أول الأمر على مساحة قليلة في أعلى صخرة تحيط بها مهاو ثم اتّخذ قرية أكثر اتساعا أخرج منها سكّانها ونقل خيراتها عندما شيّد في آخر الأمر عاصمته على مساحة فسيحة الأرجاء تعد ولا شك 35 هكتارا .

وسرعان ما عظم شأن مدينة أشير في مرحلتها الثالثة . فلقد كانت بموقعها الجغرافي الممتاز على الحدّ الطبيعي الفاصل بين سهول التلّ الغربي وجبال القبايل الشرقية تتحكم في الطريق الرابطة بين السواحل والجبال وتراقب رحل السهول .

وعمل الخليفة على ازدهارها بل إنّه عجّل ببنائها فأرسل الفنيين ووفر العدّة ونقل زيري إليها سكان مدن أخرى . وربّما وجّه إليها كذلك غير المرغوب فيهم ممن لم يكونوا في مأمن

على أنفسهم ثم أحاطها بأسوار عريضة . روى البكري في أوائل القرن الحادي عشر : « أنه ليس في تلك الأقطار أحصن ولا أبعد متناولا ومراما ولا يوصل شيء منها بقتال إلا من موضع يحميه عشرة رجال » . لأن عشرة رجال كانوا كافين للدفاع عنها .



شكل 6 – موقع اشير بنى زيرى « ثلاث عواصم متتابعة جمعت فى مكان واحد . قيصارية ومدينة الجزائر على الساحل واشير داخل البلاد . ويمتد من داخل البلاد الى الساحل خط جبلى تبرزة مليانة ومدية » (أ . ف . قوتيى) .

وسعيا إلى السيطرة على المواصلات أمر زيري ابنه بتأسيس أو ربّما ترميم ثلاث مدن وهي الجزائر العاصمة ومليانة والمدية وأوكل إليه أمرها .

وكانت أشير عاصمة بحق فهي معقل منيع ومركز مبادلات نشيط بين التل والسباسب وقبلة الفقهاء والعلماء . واضطلع زيري بالسلطة على خير وجه يمسك بيد من حديد على أشدّ الجند تدويخا ويشرف على المغرب الأوسط من أعلى قلعته ويضرب السكة باسمه .

لقد كانت أشير قلب سلطان صنهاجة النابض حتّى أن بني زيري عندما جعل منهم نجاح الخليفة الخاطف أسيادا على إفريقيّة لم يفارقوا عاصمتهم إلاّ عن مضض ولئن لم يتأخر بلكين في الاستقرار بالمنصورية فإن الأمراء لم يجلبوا عائلاتهم إليها إلاّ شيئا فشيئا . ثمّ ضعفت الروابط الّتي تشدّهم إليها فعهدوا بها إلى أقربائهم حتى أفلتت من أيديهم .

ملوك بني زيري :

غير أن بلكين وإن أطلقت يداه في جميع أرض المغرب لم يتجاوز في الواقع منزلة وال تابع للفاطميين ، فقد كان يدفع الإتاوة ويبعث بالهدايا الثمينة إلى القاهرة محفوفا بأشخاص تركهم الفاطميون ليكونوا في نفس الوقت عيونا عليه وأعوانا له .

ولمّا تقلد بلكين الإمارة أعاد الكرة على زناتة بطردهم نهائيا من المغرب الأوسط وخرب تيارت واستولى على تلمسان ونقل أهلها إلى أشير . وفي سنة 978 عهد له العزيز الخليفة الفاطمي الجديد بولاية طرابلس الّتي كانت إلى ذلك الوقت ولاية مستقلة بذاتها .

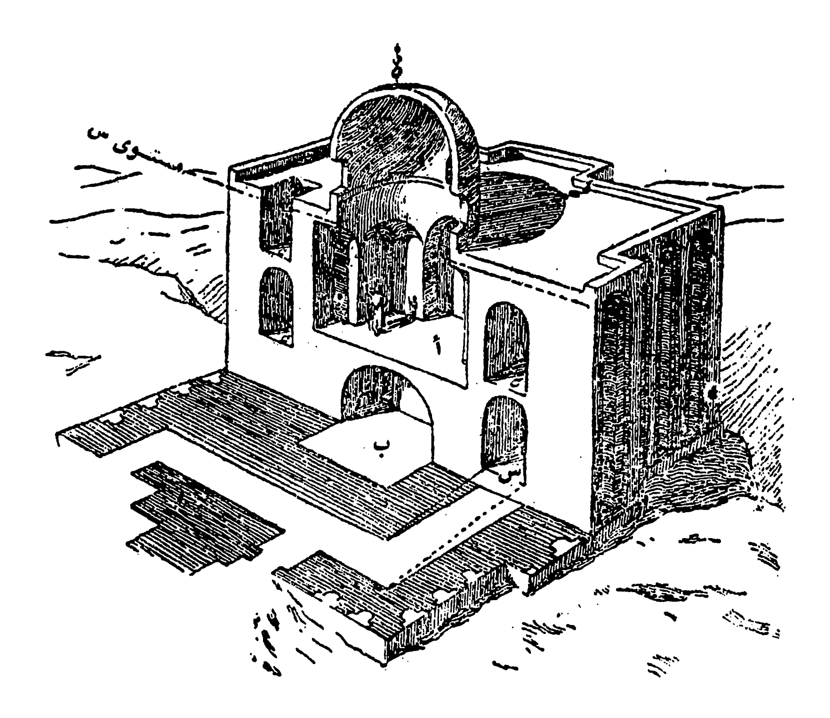
وفي سنة 979 عاد إلى مطاردة زناتة والأمويين الحامين لهم واستحوذ لا على فاس فقط بل على المغرب الأقصى بأكمله (980) غير أنّه لم يقو على الصمود أمام هجوم انطلق من سبتة حيث تحصن الوزير الأموي . ولم يكن لانتصاراته الأخيرة تأثير إذ ما أن توارت جيوشه حتّى أرجعت زناتة الخطبة باسم خليفة قرطبة من الملوية إلى طنجة .

وكان ابنه وخليفته المنصور (984 — 996) أول من حاول زحزحة نير الفاطميين فما أن تقلد الحكم حتّى صرخ أمام أعيان القيروان الّذين جاؤوا لتهنئته قائلا : « ما أنا في هذا الملك ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب لأنّي ورثته عن آبائي وأجدادي » (ابن عذاري) . ولم يطل ردّ فعل الفاطميين ، ووجهوا من القاهرة داعية رسميا إلى بلاد كتامة لإثارة رجالها الأشداء على المنصور (986) ، ودامت الثورة عامين ثم أخمدها زيري بمنتهى القساوة ومنيت الثورة الثانية الّتي اندلعت سنة 989 بنفس الفشل الذريع فانتهى بذلك أمر كتامة ، وبسطت صنهاجة أشير نفوذها على كامل الشطر الشرقي من بلاد المغرب .

غير أنّهم تركوا سائر البلاد لزناتة ذلك أنّ المنصور بعد أن حاول بدون جدوى السيطرة من جديد على فاس وسجلماسة (985) انصرف عن غرب البلاد كلّه وخلاه لأعدائه القدامى ولطاغية الأندلس المنصور بن أبي عامر بل إنّه ربط معهم علاقات عاديّة . وحصل بعد رحيل الفاطميين الّذين وجهوا طموحهم وجهة أخرى توازن نسبي بين زناتة وصنهاجة الّذين تقاتلوا طيلة ثلاثة أرباع القرن . وجنحوا جميعا في آخر الأمر إلى الاستمتاع شيئا ما بثمرات غزواتهم .

أمّا باديس (996 — 1016) فقد آثر الخضوع إلى سلطة الخليفة في القاهرة من دون أن يجني من ذلك فائدة تذكر . إذ هو لم يتلق عند انفصال عمّه حماد سنة (1014) أية معونة من مصر رغم أنّ المتمرّد أعلن عن تبعيته للعبّاسيين .

أمّا ابنه وخليفته المعزّ (1016 — 1062) الّذي اعتلى الحكم في الثامنة من عمره فانه لم يسلك نفس السلوك فهل كان ذلك مأتاه تأثير تكوينه الأول برعاية معلم سني أم هي الرغبة في ارضاء الرأي العام المناهض للشيعة أشد المناهضة في القيروان وفي سائر إفريقيّة ؟ وعلى كلّ تخلّص المعز شيئا فشيئا من نفوذ القاهرة وانتهى به الأمر سنة 1048 إلى اعلان ولائه لبغداد .



شكل 7 ـ قلعة بنى حماد • البرج الرئيسى ـ للمنارة • هذا الرسم المنظورى بما فيه المقطع والخطوط من وضع جورج مرسى ـ أ • قاعة على شكل صليب ـ ب • مفازة نحتية ـ ج • منحدر « الجزء البارز فوق المستوى س هو تصور افتراض » (ج • مرسى) •

(عن جورج مرسى ، كتاب الفن الاسلامى • ج I ص 122) •

الدولة فى عهد بني زيري :

آل أمر إفريقيّة إذن إلى نفس الوضع السياسي الّذي كانت عليه سائر بلاد البربر فبعد أن خضعت للخلافة وأطاعت امراء شرقيين لا يربطهم رابط ببغداد وصل بها المطاف إلى الاستقلال على يد أمير بربري ذلك أنه يجب ألاّ ننخدع بولائها للعبّاسيين . إذ هو يؤكد القطيعة،مع القاهرة أكثر من دلالته على ارتباط جديد مع بغداد .

غير أنّ إفريقيّة أخذت تتميّز شيئا فشيئا على سائر بلاد البربر وحتّى عن أشير حيث نشأت الدولة الزيرية لأنّ التأثير الشرقي كان فيها أعمق مما هو عليه في بلاد المغرب الاخرى .

فلم يلبث الأمراء أن تلاءموا مع خطّتهم كمعتمدين للخليفة وأصبغوا عليها أبهة الشرق فكان أحدهم يوزّع آلاف الدنانير كأنّه من النبلاء العريقين وكانوا شغوفين بالعلم والتّحف الفنيّة مولعين بالشعر ميالين إلى البذخ . وكانوا يستطيبون الحفلات فيتباهون فيها بفاخر المنسوجات وأصيل الجياد ونادر الحيوان ويقال إن مهر ابنة المعز « حمل في عشرة أحمال على البغال » وبلغت قيمته ألف دينار . وكان مرور الموكب وسباق الخيل مما « سارت به الركبان لمحاسن آثاره وامتلأت البلدان بعجائب أخباره » .

ولقد أمر الأمير عند موت أمّه بأن يصنع التابوت من العود الهندي ويرصّع بالجوهر وتكون مساميره من الذهب وأقام في المنصورية دارا فخمة محفوفة بالأشجار وبنى المعزّ قصورا عديدة .

ويرجع بذخ الأمراء إلى ما كانت تدرّه إفريقيّة من خيرات ويظهر أنّ البلاد تمتعت في عهدهم بازدهار حقيقي فعمت المزروعات أمكنة هي اليوم قاحلة وتراصت القرى في بقاع ليست اليوم إلاّ قفرا ، وكانت باجة تحتاج في كلّ يوم إلى ألف من الإبل لحمل الحبوب ، وتهافت على هذه الأرض المحظوظة لا فقط التجار وأصحاب الصنائع الذين جلبهم النشاط التجاري والصناعي بل الأدباء والفقهاء النازحون من آسيا وخاصة بلاد ما بين النهرين وعن طريقهم تأثير فن بغداد .

ولئن دفعت البلاد ثمن بذخ ملوك بني زيري باهضا فإنّها لم تستنزف كما استنزفتها حروب الفاطميين ومهما يكن فإنه ليس لدينا ما يشير إلى عسف بني زيري في الجباية اللّهم إلاّ في أول عهدهم عندما كانت طابات القاهرة المالية ثقيلة الوطأة ، ونظرا للرخاء الذي شمل البلاد فإنه يمكن أن نفترض أن الضرائب كانت تستخلص بدون عناء كبير وأنها على ضآلة نسبها كافية لمواجهة مصاريف الدولة الحاكمة .

انفصام الوحدة الصنهاجية - قلعة بني حمّاد :

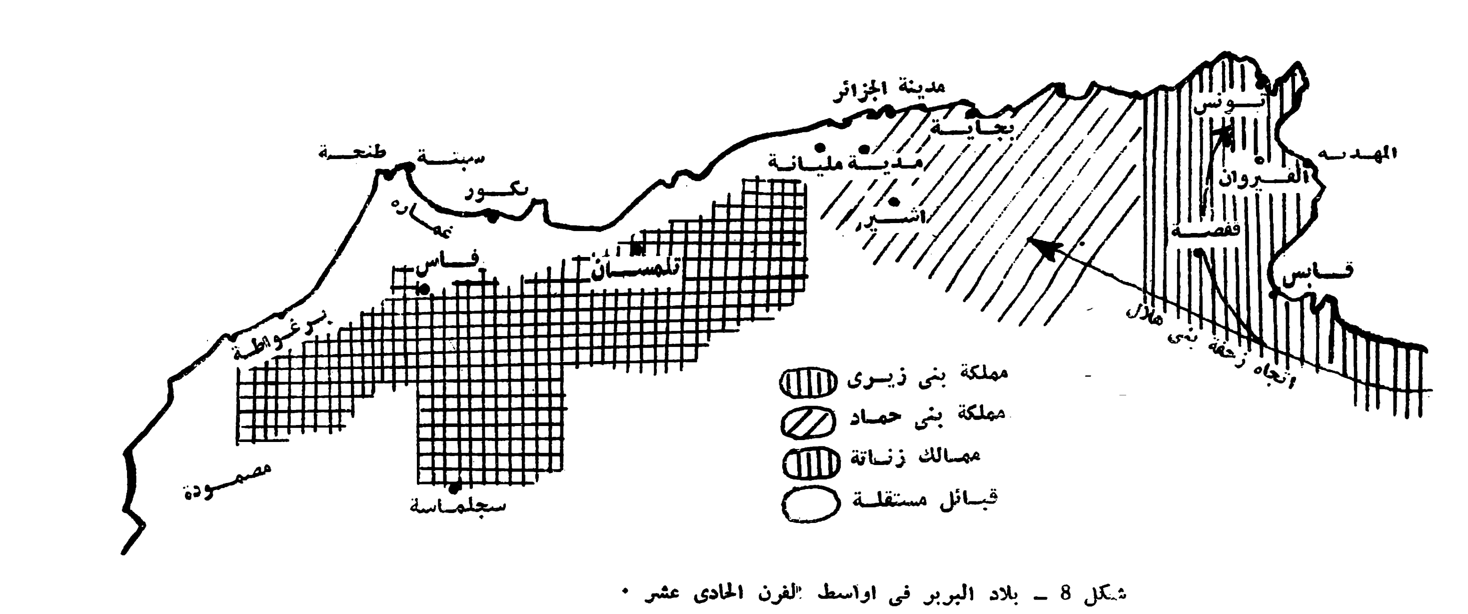
إن صنهاجة القاطنين بالغرب البعيدين عن ترف إفريقيّة بقوا على ما نشأوا عليه من شظف عيش وخشونة وأنفة . وتمادوا بنجاح في قيامهم بدور شرطة المغرب الأوسط . حتّى أنّ الأمير باديس اضطر إلى منح عمّه حمادا امتيازات هامة .

وبلغ زعيم هذه العصابات درجة من العظمة جعلته يأبى الخضوع للأمير فأكد عزمه على التخلص من وصاية المنصورية بتشييد عاصمة بدوره سمّيت قلعة بني حمّاد على منحدر جبل (كتامة) قريبا من المكان الذي دهمت فيه جيوش صنهاجة أبا يزيد (1007 — 1008) .

ولموقع هذه القلعة الجديدة مزايا استراتيجية تفوق ما اختصت به أشير . فلقد سارع حمّاد بتحصينها وعمرها بسكان المسيلة وحمزة عندما خرب مدنهم وازدهرت ازدهارا سريعا ، فجلبت بالخصوص الطلبة لكثرة مواردها وأصبحت بعد زحفة عرب بني هلال على إفريقيّة محط رحال سكان القيروان المفلسين والتجار المشارقة . وإلى هؤلاء جميعا يرجع فضل تطويرها غير المنتظر حوالي سنة 1065 .

وإن ما قام به بلانشي (P.Blanchet) ثم الجنرال دي بيلي (De Beylié) وج. مرسي (G.marçais) من تنقيب يعطينا اليوم صورة أقرب إلى الواقع عن معالم القلعة وأشير .

فلقد بقي من الجامع الأعظم صومعة علوها 25 مترا ومن قصر المنار لم يثبت إلاّ البرج بأسواره العالية المبثوثة فيه من أسفله إلى أعلاه كوى صغيرة (ج. مرسي) ، أمّا دار البحر فقد طمست معالمها ولكن أسسها تمكننا من تشخيص رسمها ، فهي عبارة عن مجموعة من البنايات والحدائق وقاعات للاستقبال وغرف خاصة وحمامات الأسياد أما اسمها فيرجع اختياره لوجود بركة فسيحة كانت مسرحا لألعاب بحرية .



شكل 8 – بلاد البربر فى اواسط القرن الحادى عشر ٠

ولا يمكن تصور قصر إسلامي بني في القرن الحادي عشر بمثل هذه الدقـة .

ولقـد طغت سواء في القلعة أو المنصورية أصول فن القاهرة وخاصة بغداد : من فسيفساء الخزف والنحت على الجبس ومقرنصات من طين مموّه بالميناء وزينة نباتيّة منمنمة وزخرف هندسي إلاّ أنّها كانت تعوزها جميعا الرقة وكثيرا ما احتفظت بخصائص الآفاق . ولم يبق بنو زيري بطبيعة الحال مكتوفي الأيدي أمام استقلال بني حمّاد ، فحاصر باديس حمادا في القلعة ولكنه مات من غير أن يصل إلى مرغوبه ولم ينجح المعز كذلك بل اضطر إلى التسليم بالأمر الواقع (1017) . ومن ذلك الوقت قامت دولتان لصنهاجة مستقلتان الواحدة عن الاخرى على أهبة التناحر .

وبينما كانت صنهاجة شرقا كانت زناتة غربا في مأمن من خطر المنافس ، فلقد تلاشى كل تأثير سياسي لقرطبة على المغرب الأقصى من يوم أن انهارت الدكتاتورية العامرية في الأندلس ، أما زناتة وهم أتباع الأمويين منذ عهد طويل فقد أخذوا مكانهم بالطبع من دون أن يؤسسوا دولة متماسكة وانقسموا مثل مسلمي الأندلس إلى ملوك طوائف متعادية في الغالب .

وكان تأثيرهم لايشمل المغرب الأقصى باجمعه لانهم اصطدموا بمجموعات بربرية قويّة وهي مصمودة في أعلى الأطلس وغمارة بالريف والجبل وبرغواطة في تامسنا . وكانت غمارة وبرغواطة من الزائغين عن السنة ، الضالين ضلالا كبيرا .

وبينما كان شرق بلاد البربر يتمتع بنوع من التلاحم تحت بني زيري وبني حمّاد فإن الغرب رجع إلى ما كان عليه من تمزّق سياسي كان انقذه منه شيئا ما الأدارسة .

زحفة بني هلال :

حرص امراء القلعة على تأكيد انفصالهم عن بني زيري فضربوا صفحا عن تبعيتهم للفاطميين ، ولمّا عزم المعز بدوره على قطع صلته

بالشيعة والفاطميين بادر بنو حماد بإعلان ولائهم للقاهرة وانتصبوا ممثلين رسميين عنهم وهكذا غنموا وحدهم من الزجفة التي رمى بها الفاطميون المغرب.

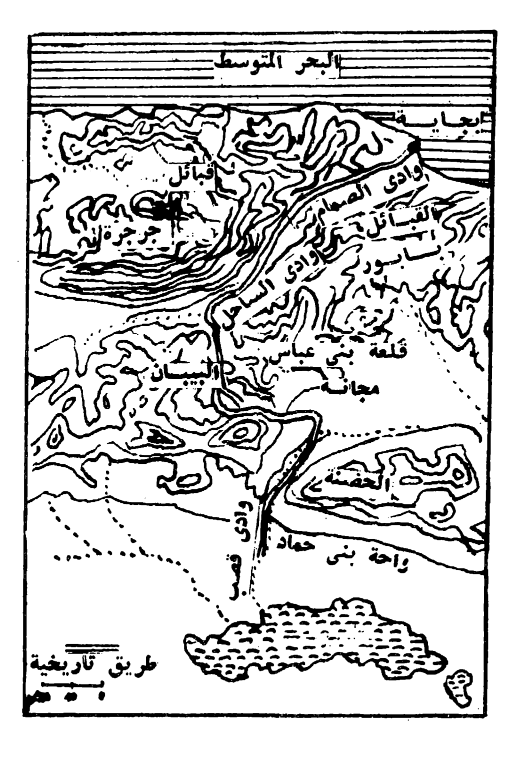
ولقد تلقى الخليفة بغضب شديد القطيعة التي أعلن عنها المعز فانتقم لذلك من افريقية بعرب بني هلال النهابين الذين كان اضطر إلى حشدهم في صعيد مصر عقابا لهم على نكاياتهم بالنّاس وبذلك قد كسب كسبين بضربة واحدة اذ هو تخلص من ضيوف شديدي الوطأة وسلط عقابه على من تمرد عليه.

وسرعان ما استغل بنوهلال هذه النزهة التي أتاحها لهم الخليفة وتبعهم بنو سليم بعد ذلك ولم يكونوا خيرا منهم فانقضوا على إفريقية وهزموا الأمير الذي طمع في مناصرتهم له على بني حماد وخربوا القيروان وعاثوا فسادا في البلاد فأصبحت أثرا بعد عين، قال ابن خلدون، متمثلا بآية قرآنية «كأنهم جراد منتشر». (1050 — 1052) واضطر بنو زيري إلى الالتجاء إلى المهدية (1057) ومنها حاولوا بدون جدوى استرجاع مدنهم الضائعة. وهكذا عمت الفوضى إفريقية فظهرت على ارضها بصورة عفوية مدن وإمارات ودويلات عربية.

وتدفق الرّحل بدون انقطاع ومعهم نساؤهم وأولادهم صادين من سبقهم من العرب، فتحالف معهم بنو حماد وأمكن للناصر بفضلهم أن يقوم ببعض الغزوات في إفريقية ولكنّه سرعان ما أصبح لعبة في أيديهم بعد أن كان سيدا عليهم.

وانتهى بهم الأمر من فرط مانهبوا أراضي بني حماد إلى الحصول على نصف المحاصيل من المنصور خليفة الناصر. وما لبث أن تخلّى عن القلعة المهددة مباشرة ليستقر ببجاية عاصمته الأخرى وقد أسست قبل ذلك بثمانية عشرة سنة في المكان الذي تنتهي فيه إلى البحر الطريق الكبيرة المشرفة على القلعة من الجهة الجنوبية (1090)، وفي بجاية بقيت دولته محتفظة بهيبتها حتى غزوة الموحدين.

كـانت زحفـة بني هلال بلا منازع أهم حـدث عرفتـه بـلاد المغرب أثناء القرون الوسطى . فهـي التي أثرت أكثر من الفتح الاسلامي تـأثيرا طبـع المغرب بطـابـع لم تمحه القرون . ذلك أن هذه البلاد كانت ، قبل مجيء الهلاليـن إذا استثنينا الاسلام ، بربرية اللغـة والعادات في أعمـاقهـا ، وكانت تسترجع شيئـاً فشيئـاً التقاليد السياسية البربرية كلما تخلصت من سلطان المشرق ؛



شكل 9 ـ الطرق الرابطة بين القلعة وبجايـة . « تصل بين القلعـة وبجايـة عاصمتى مملكة بنى حماد طريق بجارية وحربيشة هامة بين قبائل جرجرة وقبائل بابور .. وهى طريق واسعة فى العموم (المجانة ، واديا ساحل والصومام) . وتضيف فى نقطة تدعى ممر البيبان (ابواب الحديد) كانت تحميها قلعة بنى عباس (أ . ف . قوتيي) .

ورأينا الأن كيف انها حققت توازنا ربما لم يستقرّ نهائيا بين مجموعات الأجناس الكبرى القاطنة هناك منذ آماد بعيدة .

ولقد أتى البدو بلغتهم التي يمكن بسهولة تمييزها عن لهجات أهل المدينة الموروثة عن الفاتحين الأولين . ومن لغة البدو تفرعت أغلب اللهجات العربية الريفية المستعملة اليوم في إفريقيا الشمالية .

وجاء بنو هلال ايضا بعاداتهم الرعويّة ، ويظهر أن البربر المستقرين والرحل توصلوا قبل زحفة بني هلال بصعوبة إلى اقتسام الأراضي الضرورية لمعاشهم . وأفسد مجيء الهلاليين هذا الانسجام بين نمطين من الحياة يفرضها مناخ المغرب وتضاريسه . وبهم عمّت البداوة وتحولت الأراضي المعدة لزراعة الحبوب والخضر والأشجار المثمرة إلى غير ما جعلت له واختنقت قرى ومدن صغيرة وخربت ، ولم تسلم الا ّ الاراضي الفلاحية الكائنة على طول السواحل حول المدن الباقية او داخل الجبال التي أحاط بها الزحف العربي دون أن يقتحمها ، والأمثلة عديدة في هذا الباب فلقد توارت الفلاحة بإفريقية نحو الساحل والوطن القبلي وبنزرت بينما أصبحت أراضي الزياتين في الوسط مرتعا للأغنام والإبل ، واضطرت مملكة بني حمّاد إلى النزوح إلى بجاية ، واستحالت القيروان الى مدينة صغيرة بعد أن كانت عاصمة طيلة قرون وانطوت بلاد القبائل على نفسها تحوطها جبالها وامتنعت عن كل تأثير صادر عن القادمين الجدد .

ولم تكن نتائج زحفة بني هلال في الميدان السياسي بأقل أهميّة ، فلقد دحر العرب شيئا فشيئا نحو الغرب بدو زناتة جميعهم اولئك الذين أسسوا قبل ذلك مملكة تاهرت . وفي إفريقية سرعان ما تفجرت مملكة بني زيري وتفرعت عنها إمارات صغيرة عديدة تساند كل واحدة منها قبيلة عربية قد حطت رحالها قريبا منها . وأخيرا فإن مملكة بني حماد التي ظن زعماؤها أنه في امكانهم استعمال العرب فقد انطوت على نفسها حول بجاية معتبرة بقاءها أخف الضررين ، ورأينا هذه الظاهرة الغريبة التي أشار اليها ج . مرسي ، وهي أن صنهاجة ، هؤلاء البرابرة الجبليين يحوّلون وجوههم شطر البحر ويؤسسون في المهدية وبجاية إمارتين

بحريتيـن ، ولـكن فات الفوت : لأن النرمـان قد انتصبوا بعـد في جنـوب ايطـاليـا وصقليـة وسيتصدون لتحركات بني حمـاد وبنـي زيري البحريـة .

والمـلاحظ أن كـل هذه التغييرات كـانت بطيئة في الجملـة إذ لم تجـر الأحداث مجرى السيـل الجارف بـل كـانت بمثابة المد الذي يزحف من دون توقف ، فلـم يسجـل التاريـخ في تلك الحقبة معركـة تذكر ولاحدثا ذا شأن ، بل هو الدفع المنتظـم في غير عنف ولـكن من دون هوادة .

الباب الثالث

الامبراطورية البربرية

المرابطون والموحدون

1 - المرابطون
2 - ابن تومرت، مهدي الموحدين
3 - الامبراطورية الموحدية
4 - الحضارة الموحدية

في نفس الوقت الذي كانت القبائل العربية تطأ أقدامها أرض المغرب من الجهة الجنوبية الشرقية كانت مجموعة أخرى بدوية ، لكنها بربرية في هذه المرة ، تلمّ شتاتها في الصحراء الغربية وتتهيأ هي أيضا للانتشار في إفريقيا الشمالية من الجهة الجنوبية الغربية ، إنهم صنهاجة الملثمون الذين يذكرهم التاريخ باسم المرابطين ، فلقد تمكّنوا في ظرف نصف قرن تقريبا من إقامة امبراطورية بربرية شاسعة الأطراف في الجزء الغربي من البلاد وفي إسبانيا .

وبعد ثلاثة أرباع القرن من ذلك تشاد حول قبيلة مصمودة وهم نواة من البربر المستقرين بالأطلس الأعلى امبراطورية أخرى أعظم اتساعا لأنها اشتملت على المغرب الإسلامي بأجمعه من طرابلس إلى كونكة (Cuenca) وأقادير وهي امبراطورية الموحدين .

وهكذا توصل المغاربة بمحض قواهم طيلة قرنين تقريبا إلى اقامة صرح سياسي شامخ يبدو أن أهل المغرب لم يقدموا على تشييده من قبل .

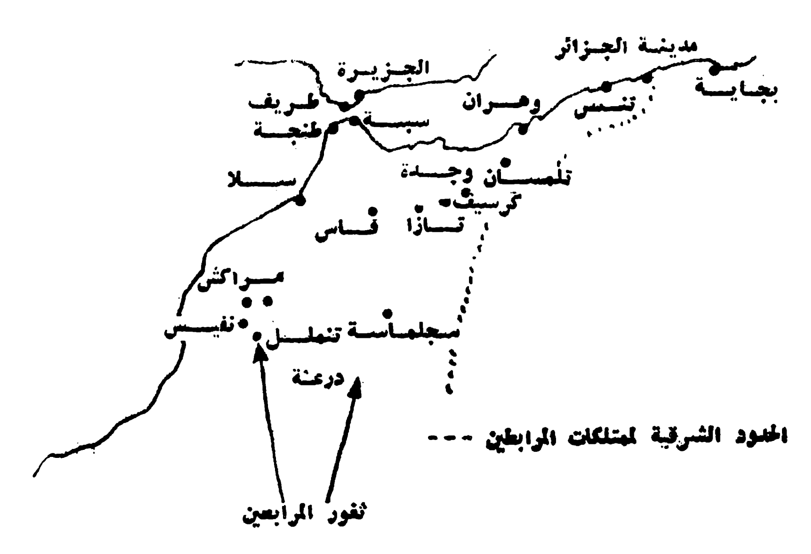
ولم تتوفر لدينا حتى سنة 1920 من المعلومات حول هذه الفترة الهامة من تاريخ المغرب إلا مايرجع إلى قرن أو قرنين بعد الأحداث المعنية . ولم يعاصر الأحداث المروّية إلاّ الجغرافيان البكري والإدريسي والإخباريان المراكشي وابن الأثير المشرقي .

ومن ذلك الوقت كشف المستعربون وعلماء الآثار ، خاصة في المغرب الأقصى مهد هاتين الأمبراطوريتين ، النقاب عن نصوص ومعالم تسمح بزيادة معرفة الرجال والأحداث وفهمهم فهما أحسن ، ولئن بقي الغموض يكتنف مسائل عدّة وافتقرنا ، ربما ، إلى اكتشافات أخرى فإنه يمكن ، ولو بصورة إجمالية ، تتبع تطور أمبراطورية الموحدين وأمبراطورية المرابطين والكشف عن بعض أسباب فشلهما النهائي .

I) المــرابطـــون

كـانت الخليـة الأصليـة لامبراطورية المرابطيـن لمتونة القبيلة الصنهاجية العتيدة أصيلـة الصحراء التي كـان مهدها أدرار بموريطانيـا ، وكان لمتونة يجوبون خاصّة المناطق القاحلـة الممتدة من واحات جنـوب المغرب الأقصى إلى بلاد الزنـج ولعلهم كـانوا يضعـون اتقاء من العين لثاما يحجب أسفـل وجوههـم فسموا لذلك بالملثمين ، وكـانوا لايفارقونه أبدا ويحتقرون ذوي الوجوه المكشوفة ويعتبرونهـا مصيدة للذباب .

ولقـد أكـد البكري أنّهـم لم يكـونوا ليحذقوا لاحراثة الأرض ولا بذرها ، وانحصرت ثروتهـم في تربيـة الماشيـة مصدر عيشهم . قال « ينفد عمـر أحدهم وما رأى خبزا ولا أكلـه إلا أن يمـرّ بهـم التجار من بلاد الإسلام أو بلاد السودان فيطعمونهـم الخبز ويتحفونهـم بالدقيـق » .



شكل IO – امبراطوريـة المرابطين بالمغرب .

وإلى جانب تربيـة الحيوان الضامنـة لقوتهـم ازدهرت تجارة القوافل في الصحراء الغربيـة ابتداء من أواخر القرن التاسع ولاحظ هـ. تراس قائلا : « كانت صنهاجة الملثمون سلاطين ملوك الزنـج في السودان وأسياد الصحراء الأطلسيـة هم ولاشك أكبر المنتفعين من تجارة القوافل سواء نقلـوا البضاعة أو استخلصوا من القوافل إتاوات المرور والحماية » .

وقد دخل هؤلاء البدو الأجلاف في الدين الاسلامي أثناء القرن التاسع فصرفوا حماسهـم ، وهم حديثـو العهـد بالدين الذي ما زالوا يجهلون تعاليمه جهـلا تامّا ، فـي الجهـاد المقدس ضد الزنوج الكفار . وبعـد أن بقـوا يقاتلـون تحت إمرة قائد واحد أصابهـم داء الانقسام فمـازالوا به أكثر مـن قرن حتى تزعمهـم أمير حازم هو أبو عبد الله محمّد بن طفاوة .

ابـن ياسيـن :

وكـان سيد لمتونة وجيرانهـم جدالة حوالي أواسط القرن الحادي عشر خليفـة أبـي بكر عبد الله يحيـى بن إبراهيـم الجدالي الذي قام بفريضـة الحج صحبة الأعيـان فلاقى في القيروان وهـو راجع من المشرق شيخا مشهـورا من فقهـاء المالكية أصيل المغرب الأقصى يدعى أبا عمران الفاسي . ولمّا أدرك مدى جهله طلـب منـه أن يشيـر عليـه بأحد مريديه لتعليم قبائـل صنهاجة الصحراوية القرآن ، غير أنه لم يرض ولو واحد من أبنـاء المدينـة الملتفين حول أستاذهم بتعليم مثـل هؤلاء الغلاظ الشداد فأشار أبو عمـران على يحيـى بعالم مغربي من السوس الأقصى كـفيل بأن يجد من بيـن طلبتـه إماما يجمـع بين الكفاءة والإخلاص ؛ وفعلا تطـوّع أحدهم وهــو عبد الله بن يس الإفريقي ورافق إلى الصحراء شيـخ لمتونة .

وكـان عبد الله بن يس حسبمـا يمـكن استشفافه من نص البكري الذي كـان معاصرا له تقريبـا شخصا غريب الأطوار : فهـو عالم في نظـر سكان الصحراء الجهلة من دون أن يتجاوز مستوى أديب متواضـع ، أي أن بضاعته كـانت محدودة وكـان شغفه بالنساء كبيرا . ولا شك أنه كـان إلى ذلك ماهرا له من العصبية ما أتاح له مع طول الـزمن السيطـرة على بدو صنهاجـة وفـرض نظـام شديد بالسيـاط . لقـد كـان رجل عمل محركـا للجماهيـر

أكثر منه رجل مذاهب . وفعلا فإنه لا وجود لمذهب عند المرابطين . وفي أول الأمر نفر منه البدو المفطورون على الحرية والحريصون على إرضاء ميولهم أكثر من التقيد بقواعد أخلاقية لذلك أقنع ابن يس عيْنين من لمتونة وسبعة أعيان من جدالة بتأسيس رباط تحت إشرافه في جزيرة من جزر نهر (النيجر او السينغال) أو أغلب الظن في جزر تيدرا (Tydra) على الساحل الموريطاني بين خليج ليفريي (Lévrier) ورأس تيمريس (Timiris) على أن يتمسك المقيمون فيه أي المرابطون بمبادىء المذهب المالكي في مفهومه الصحيح وتعاليمه المضبوطة .

وطعام المرابطين من الثمار ومما يصطادونه برا وبحرا ومن صفيف اللحم الجاف مطحونا يصب عليه الشحم المذاب أو السمن ، وشرابهم اللبن قد غنُوا به عن الماء ، وكانوا يسعون الى نصرة الإسلام بقيادة زعيمهم الروحي الحازمة وفي كنف المساواة . ويذكر البكري أن المترشح لدخول هذه النحلة كان يمتحن امتحانا شديدا ليتطهر مما علق به من الأدران ، فكان حد شارب الخمر أو المفتري ثمانين جلدة وحد الزاني مائة جلدة . وكان ابن يس في بعض الأحيان يتشدد في العقاب أما الإخلال بالواجبات الدينية فجزاؤه مضبوط حسب تعريفة : خمس جلدات لمن تخلف عن الصلاة ، عشرون لمن فاتته ركعة أو سجدة ومن رفع صوته في المسجد فأمره موكول إلى مشيئة القاضي وعلى المريد أن يعيد أربع مرات صلاة الظهر قبل الصلاة الجامعة تداركا لما فاته .

الغزوات الأولى :

إن ما اشتهر به المرابطون من صلاح وما أضفوه على نظام حياتهم من فضيلة سرعان ما جلب إليهم حوالي ألف رجل تدربوا على الحياة العسكرية وصح منهم العزم على فرض احترام الدين بحدّ السلاح على المترددين وضعاف الإيمان ، وما لبث هؤلاء الرهبان المسلحون أن أخضعوا قبائل صنهاجة لنفوذهم فأتاح لهم نجاحهم جمع ثلاثين ألفا من الأنصار تقريبا وهي قوة خارقة للعادة في مثل هذه البلاد الصحراوية . وكانوا حريصين على التفاني في نشر الإسلام وفي نفس الوقت إشفاء غليلهم من النهب ، ولئن ظل ابن ياسين زعيم المرابطين الروحي فإنه كان أدهى من أن يطمح إلى

الحكم الشخصي بجعل الجيوش تحت إمرة يحيى بن عمر وهو أحد أسياد لمتونة من الرعيل الأول ، فأفلح في الحروب التي شنها بوادي درعة شمالا والسودان جنوبا ثم سرعان مادعي للتدخل في سجلماسة وكان بنو مدرار قد أطردهم نهائيا من تافلالت (976 — 977) خزرون بن فلفل المغراوي وهو قائد زناتي من أتباع السلطان الأموي في قرطبة وأعلن أحفاده بعد ذلك استقلالهم . وكان استنجد بالمرابطين عدّة علماء لما لحقهم من صاحب سجلماسة من استهتار واضطهاد فأسرعوا لنجدتهم وتمكنوا بذلك من القيام بواجبهم الديني واشفاء غليلهم من زناتة ايضا ، وإطلاق العنان لغرائز النهب فيهم . واستولى ابن يس على المدينة واذن بتدمير أماكن اللهو وتكسير آلات الطرب ، وغنم كثيرا بعد أن أباد جميع من وقع في يده من مغراوة (1055 — 1056) .

ومن ذلك الوقت لم تتمتع سجلماسة باستقلالها ولكنها لم تخضع لسلاطين المغرب خضوعا كاملا بل ظلت قبائل تافيلالت وسكان المدينة والولاة المحليون يثيرون الاضطرابات بلا انقطاع . وكان المرابطون قبل استيلائهم بقليل على سجلماسة قد دخلوا مملكة الزنج بغانة حيث استحوذوا على مدينة أودغسط (Aoudaghost) الهامة جنوب تقانت(Tagant) الحالية (1054)

ولمّا توفي يحيى سنة 1056 أسند ابن ياسين قيادة الجيوش إلى أخيه أبي بكر بن عمر ووسّع تجاه الشمال رقعة غزواته . فاستهدف أول ما استهدف السوس حيث استولى على عاصمته تارودانت(1056) وأمر بإزالة إمارة شيعية كان أقرها الفاطميون من دون أن يتمكن المرابطون قبل ذلك من تثبيت أقدامهم فيها . ثمّ نفذ إلى جبال الأطلس من دون صعوبة على ما يظهر حتى وصل أغمات وفيها تزوج زينب أرملة الملك الجميلة صاحبة العزم الملقبة « بالساحرة » التي ستلعب فيما بعد دورا هامّا .

أمّا أهل البدع من برغواطة الذين هجم عليهم بعد ذلك المرابطون فإنهم لم يعتنقوا بسهولة مبادىء السنة بل إن ابن ياسين هلك عند تقهقر جيشه (1059) ولم تخضّد شوكتهم إلا هجمة عنيفة شنها من جديد أبو بكر . وظهر في الشرق خطر آخر ، ذلك أن سلطانا من قلعة بني

حماد اسمه بُلُكّين بن محمد بن حمّاد سار بجيش عظيم حتى وصل فاس فاستولى عليها . ولكنه قتل عند ما قفل راجعا : قال ابن خلدون : « وانكفأ راجعا إلى القلعة فانتهز منه الناصر ابن عمه الفرصة في الثأر بأخته ومالأ قومه من صنهاجة لما لحقهم من تكلف المشقة بإبعاد الغزو والتوغل في أرض العدو ... » ولم يكن في قدرة بني زيري أن يقدموا على غزوات في الغرب باهضة الثمن لا طائل من ورائها من دون أن يعرضوا وجودهم للزوال .

ولسنا نعرف هل أن المرابطين اصطدموا ببني زيري ، وقد تكون مشاغل أخرى صرفتهم عنهم حينذاك ، فكانت صنهاجة الصحراويون يأكل بعضهم بعضا ، واضطر أبو بكر إلى الذهاب على عين المكان ليضع حدّا لخلافاتهم وترك قيادة جيوش المغرب لابن عمه يوسف بن تاشفين وزيادة على ذلك سلّم له زوجته التي ما لبثت أن أصبح لها تأثير كبير على زوجها الجديد (1061) .

وهكذا بلغت الدولة المرابطية فترة التحول ، ذلك أن هؤلاء الصحراويين معرضون إلى الإبادة بين عشية وضحاها لأن بني حماد يهددونهم ولأن نزاعات داخلية خطيرة ، ولا شك ، كانت تتآكلهم ، وأخيرا لأنهم استقروا في بلاد مازالت لايؤمن جانبها ، وهذا هو رأي البكري عند ما قال : « وأمير المرابطين إلى اليوم وذلك سنة ستين وأربعمائة (1067 — 1068) أبو بكر بن عمر وأمرهم منتشر غير ملتئم ومقامهم الصحراء » الاّ أن أسباب النجاح لم تعوزهم في الواقع فبنو حماد كانوا مشغولين عنهم وقبائل المغرب كانت أعجز من أن تتحد على الغاصب ، وكان المرابطون يتمتعون بهيبة دينية عظيمة الأثر في بلاد مثل المغرب الأقصى لمّا يتغلغل فيها الاسلام . وكانت فيهم زينب أصيلة البلاد التي تبدو لنا من خلال روايات الإخباريين قوية جدا . وكانوا يعولون على جيش قد جرّب الحرب وعزز صفوفه بالمرْتزقة النصارى والسود وأخيرا كانوا يعتمدون على رجل كان مغمورا قبل ذلك (إذ لم يذكره البكري ولو مجرد ذكر) ولكنه سيفرض نفسه كغاز عظيم ، ماهر في استغلال جميع الفرص .

ابـــن تاشفيـــن :

كـان سن ّ ابن تاشفين في ذلك الوقت خمسين سنـة وكـان صحراويـا بأتـم ّ معنـى الكلمة ، وتلك كـانت صفتـه من خـلال وصف ابن أبـي زرع له في القرطاس « كان أسمـر اللون نـقيه ، معتدل القامة ، نحيف الجسم ، خفيف العارضين ، رقيـق الصوت ، أكحل العينين ، أقنى الأنف ، لـــه وفرة تبلـغ شحمة أذنيـه ، مقرون الحاجبين ، أجعد الشعر . وكـان رحمـه الله بطلا نجدا ، شجاعا حازما ، مهابا ، ضابطا لملكه ، متفقدا للموالي من رعيتـه و [مـا] ببـلاده مـن ثـغـور ، ومـواظبـا على الجهـاد ، مؤيـدا ، منصورا ، جوادا ، كريمـا شيخا زاهدا في زينـة الدنيـا ، لبـاسه الصوف ، لم يلبس قط غيره وأكلـه الشعير ، ولحـوم الإبل وألبانهـا مقتصرا على ذلك لم ينتقـل عنـه مـدى عمـره إلى أن تـوفي » . وتطـورت الأمبـراطوريـــة المرابطيـة بفضلـه تطـورا سريعـا لابمـا له من صفات القيـادة فقط بل أكـثر من ذلك بتمسكّـه الشديد بالدين ممّا ضمـن له أنصارا مقتدريـن من بيـــن تقاة المسلمين رعايا مغراوة بفاس . ولمّا علـم أبو بـكر بغزوات مساعده في المغرب الأقصى والمغرب الأوسط عاد فطـالب بتسلّم القيادة ولـكـنه لـــم يظفـر إلا ّ بهدايا ثمينـة أشارت زينب بتسليمهـا له واضطـر إلى الرجوع إلى الصحراء . وعندما قضى نحبـه أمـكن لابن تاشفيـن أن ينعـم بالسلطـة المطلقة من دون أن ينازعه منازع (1087 — 1088) .

وسرعان ما ركز سلطتـه وشيّد على السفـح الشمالي من الأطلس في أعلى مجرى واد تنسفت معسكرا لم يكـن يتوقع آنذاك أن عاصمـة كبرى اسمهـا مراكش ستنبثق منـه (1060) ، ولم يبخل علينـا المؤرخون العـــرب بتفاصيـل منتحلـة في أغلبهـا حـول تأسيس مدينـة كـان لهـا فيمـا بعـد مستقبل زاهر جدّا وكـانت أرضهـا وهي على ملك عجـوز من مصمـودة معروفة بأنهـا مخبأ لقطـاع الطريـق . ولقـد دفع ابن تاشفيـن ثمنهـا من مـالـه الخاص وضرب فيهـا خيام المرابطين وشارك بنفسه في بناء المسجد . و ذكر في القرطاس : انه كان : « يحتزم ويعمـل في الطين بيده مع الخدمة تواضعا منـه وتورعا » .

ويظهر أن هذا الوصف منسجم مع طبع هذا الولي الصالح . وإلى اليوم لايزال موضع هذا البناء يدلّ إليه في الشمال الغربي من الكتبية . وعلى كل فإن مراكش ظهرت من يوم تأسيسها بمظهر المدينة الصحراوية بواحاتها الموجودة في مناخ لا يناسب زراعة النخيل ، غير أن سكان الصحراء لم يكونوا ليرضوا بالنخلة بديلا .

ومن هذه القاعدة حيث تقوم الشجاعة والإقدام مقام الأسوار كان ابن تاشفين يوجه الحملات نحو غرب المغرب وأوسطه . فاستولى على فاس (1069) ووضع حدا بذلك لسيطرة زناتة على شمال المغرب الأقصى ودخل الريف واجتاز وادى الملوية وأخضع بني سناسن ووجدة ولمّا أصبح سيد المغرب الأقصى ولّى وجهه شطر الشرق فاستحوذ على تلمسان ووهران وتَنس والونشريس وضرب الحصار على مدينة الجزائر (1082) ولكنه لم يهاجم بلاد البربر الشرقية ولا حتى كتلة بلاد القبايل . وبعد ان وطّد سلطانه في البلاد المغزوة أوكل أمرها إلى ضباط مرابطين ، وقفل راجعا إلى مراكش وكأنه اعتبر نفسه قد أدّى واجبه كاملا ، ولكن سرعان ما أجبرته أحداث هامة على التدخل في اسبانيا .

ملوك الطوائف :

لم يكن الخليفة الأموي بقرطبة رغم هيبته ليصمد أمام الصراع القائم بين المسلمين في الجزيرة فكان عرب المشرق وبربر المغرب المرتدون الأندلسيون والعبيد النصارى المعتقون يتربصون بالسلطة الدوائر فيستغلون كل الفرص لحسم خلافاتهم بحدّ السلاح . ولم يقدر عليهم إلا الوزير ابن أبي عامر المنصور المشهور بطول باعه وقوة شكيمته وذلك بالاعتماد على جند البربر ، ولمّا مات ابنه المظفر (1008) لم تعد أية سلطة بقادرة على الحيلولة دون تداعي الخلافة فظهر طيلة ربع القرن الذي تبع طرد آخر خليفة أموي أكثر من عشرة أدعياء ثمّ اختفوا .

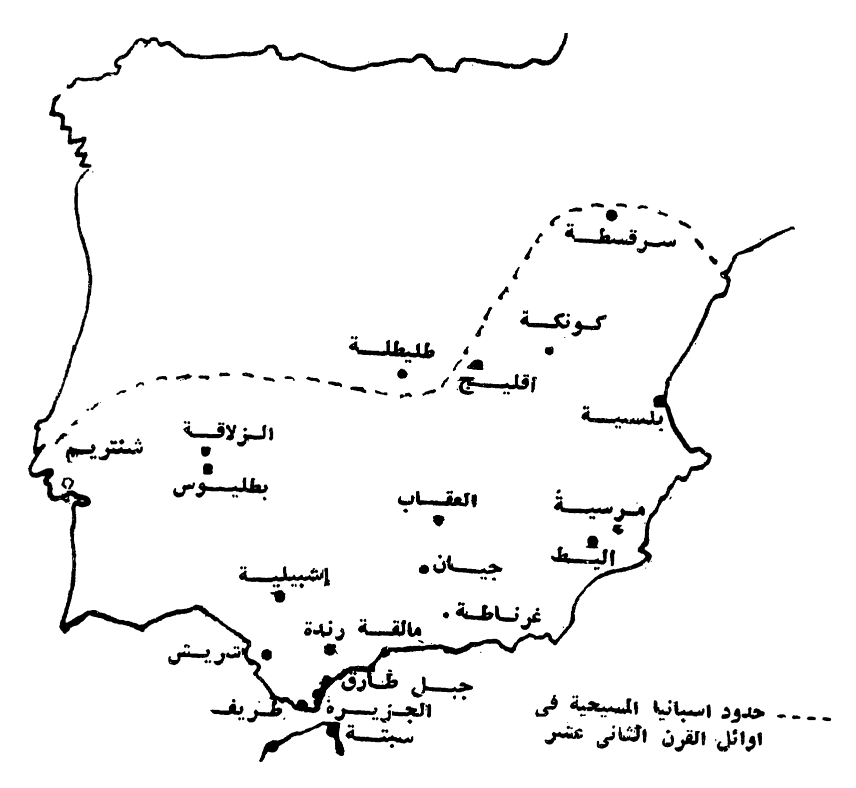
واستغل وُلاَة المقاطعات وأعيانها هذه الفوضى فأسسوا شيئًا فشيئًا 23 امارة مستقلة تمسح أرضا شاسعة تمتد من الارغون [رغُون] عند العرب (Aragon) شمالا وبلنسية شرقا إلى الأندلس ومرسيّة جنوبا ولوزتانيا

سـابقا غربـا ، ولقد سموا مـلوك الطوائـف (Reyes de taïfas) بـالاسبـانيـة .
وفـي بَـطَـلْـيَـوْس أسس ضابـط بـربـري مـن مـكناسة كـان يـدعي أنـه عربي الأصـل دولة بني الأفطس (1027 — 1094) . وفي الجنوب فعـل بالمثـل ملـوك صغار برابرة وهم بنو حَمود بمالقة (1016 — 1057) وبنو زيري بغرناطة (1012 — 1090) وفي الجنوب الشرقي كان عبيد مُعْتَقون قائمين على مـا سمي بـالممـالك الصقلبيـة ببلنسيـة والمـريّة ، وفي الأرغـون (في التخوم العليـا) سيطر على سرقسطـة (Saragosse) بعـد انقـراض دولـة التُجيبيين المزدهرة (1019 — 1039) بنو هـود وهم أحلافهـم بـلا رَدة مـن أصـل عـربي مثلهـم (1039 — 1180) وأعظـم هـذه المـمالك مملـكـة إشبيلية (1023 — 1091) التي كـانت بيـد بني عبّاد وأصلهـم من الشام وقـد وسعوا رقعة نفوذهم في اتجاه البرتقال الحالي ومالقة وفاس وبطليوس بالجزء الجنوبـي الغربي من الخلافـة سابقا ، واستولوا في آخر الأمر على قرطبة ، وأصبحت بذلك أشبيلية أول مركز سياسي وفـكري وفني بالجزيـرة .

وانتهز النصارى فرصـة تشتت قوى المسلمين والخلافات المزمنـة بيـن أمرائهـم ليعملـوا على استرداد ارضهـم (Reconquista) وبعـد أن وجـد فرديناند الأول (فرذلند الطاغية عند أهل الأندلس) جليقية (Galice) وليـون (Léon) مع قشتـالة (Castille) أمسك عن ضـم نافـار (1054) (Navarre) إلى مـلكه وأقام بذلك الدليـل على صرف جهـوده في مقاومة المسلمين .
ولم يزل يهاجمهـم وينتصر عليهـم حتى اضطر ملـوك اشبيلية وبطليوس (Badajoz) وطليطلة (Tolède) وسرقسطة (Saragosse) إلى دفـع الجـزية ووسـع حدود ملكه فـي جميـع الجهـات ، وفـي سنة 1063 قـرر البابـا الأسكـندر الثانـي منـح مغفـرة خاصة لـكل من يشد الرحال لقتال المسلمين في اسبانيـا ، فهـب عدد كـبير من فـرسان فرنسا لمعاضدة إخوانهـم في ما وراء الجبال ، وفي نفس الفترة دخلت مملـكة الأرغون في صراع مع ملـكي سرقسطـه ووشقـة (Heusca) وكان من الممـكن أن يـكون سعي بطلـي المسيحية حاسمـا الاّ أن ما نجـم عن خلافة فرديناند من اضطرابات (1065) حال دون نيـل الأرب .

وكـان ان جمع الملك الفنس السادس (الفنش وأذفنش عند أهل الأندلس) من جديد كـامل أراضي اسبانيـا الوسطى والغربيـة شمـال تاجو

(Tage) ليستأنف سياسة والده (1072) ، وأثناء هذه المعارك الغامضة التي واجه فيها النصارى أقوام الموريسك (Maures) وتناحر فيها ملوك الطوائف قام الفارس ردريق (ديازدي فيفار) (Diaz de Vivar) الملقب عند الاسبانيون بالبطل (Campiador) وعند جنده المسلمين بسيدي (بالاسبانية Miocid) بدور سياسي فاصل فكان يضع سيفه مرّة في خدمة ملك قشتالة ومرات في خدمة دولة بني هود بسرقسطة وكان في أكثر الأحيان يخدم مطامحه الشخصية . ومن المحتمل انه لولا الخلافات والضغائن الواقعة بين « ألفونس » و « السيد » لتحقيق النصرّ ، لاختصر المسيحيون الآجال طالما أن قوى ملوك الطوائف كانت محدودة .



شكل : II ـ اسبانيا المسلمة فى عهد المرابطين والموحدين

وفرض ملك قشتالة إتـاوة مضاعفـة على المعتمـد ملك اشبيلية الـذي كـان وقف موقفـا مناوئا له في صراعه من أجـل الملك . كمـا أجـبر ملك طليطلة على أن يكون تابعـا له وفي سنـة 1083 شـن حملـة واسعـة النطـاق على البلاد الاسلاميـة ثمّ استغل تمـرد أهل طليطلة ليستولى على مدينتهـم ويجعل منها قاعدة هامة لعملياته الحربيـة (1085) فـأمكنـه بذلك أن يتوسع في ممتلكاته من تاجو إلى توريه وأن يترك مرسية تحـت رحمتـه وأن يجبر ملـوك الطـوائف جميعهـم من الشـرق إلى الجنـوب على دفـع الإتـاوة ، أمّا في الشمال فإن ملك سـرقسطـة كـان يلاقي عنـاء كـبيرا في الصمـود أمام ضربات ملك الارغون وكـونتات برشلونة .

وكـان على ملـوك الطوائف أن يختاروا بين الخضوع لألفونس السادس أو الهجرة ، ويروى أن المعتمد أكـد أنّه يؤثر أن يـكون جمّالا في إفريقيا على أن يبقـى بوّابا في قشتالة ، إلا أن هناك حلا ثالثـا كـان كـفيلا بالخروج من المأزق وهو الاستنجاد بمسلمي العُدْوة لمـواجهـة النصـارى . وكـان للعاطفـة الدينيـة المتأججـة في نفـوس الطبقات الشعبيـة المسلمـة صداهـا البعيد في إسبانيـا ، واستحالت العلاقات الودية بين النصارى والمغاربـة إلى عداء دينـي أكـثـر منـه سياسي ولـم يعـد في إمـكـان الملـوك أن يتجاهلـوا ميول الجماهير الدفينة فالتجأوا دفاعا عن العقيدة إلى نفس المحاربين البربر الذين كـانوا وجهـوا ضدهم ضربات الثورة التي أدت فيمـا سبـق إلى سقوط الخلافـة وقرروا الاستغاثة بالمرابطين وآثروهم على بني هلال في آخر الأمر .

تدخـل المـرابطيـن :

كـان يوسف بن تاشفين منذ سنة 1074 كـثيرًا ما يتلقى الدعوات الملحة للتدخـل في اسبانيـا سواء لنجدة المسلمين الذين اشتدت عليهـم وطأة النصارى لنصرة أمير مسلـم على آخر (مذكّرات عبد الله) وكـان يأبـى جبـلّة المجازفة فتريث في الأمر حتى استوثق من سيطـرتـه على مضيـق جبل طارق : فلـمّـا استولى على سبتة سنـة 1083 اشترطْ قبـل أن يستجيب لطلبات المعتمد الملحة أن يستبقي تحت سلطتـه الجزيرة الخضراء ، ويظهـر أنه لم تـكن لـه فعـلا مطامـع في احتلال اسبانيـا التي كـان يجهـل عنهـا كـل شيء ، إنمّا

كان همّه الجهاد في سبيل الله استجابة لإخوانه في الدين وتوفيرا للظروف الملائمة .

ونزل بالجزيرة الخضراء في جيش عظيم وجعل منها مركزا محصنا ثمّ اتصل بالمعتمد في إشبيلية وزحف نحو طليطلة بما وصله من مدد إشبيلية وغرناطة ومالقة والمريّة وبطليوس ، وتقابل الجيشان في فلاة قرب الزلاقة قريبا من بطليوس (Azagal ou Sacralias) ودعا ابن تاشفين الفونسو إلى الإسلام فاحتكم إلى السيف وجال المرابطون جولة باغتوا بها العدو من خلف وكان معها النصر العظيم وكاد ملك قشتالة ان يقع في الأسر فاضطر إلى الانسحاب من جهة إشبيلية والكفّ عن محاصرة سرقسطة (23 أكتوبر 1086) وكان لهذا الانتصار الصدى العظيم في العالم الإسلامي بأجمعه لا يماثله إلا أخذ طليطلة من الفونس السادس ، واعتبر ابن تاشفين من ذلك الوقت واحدا من عظماء أبطال المنافحين عن الإسلام الذي كان محفوفا بالمخاطر .

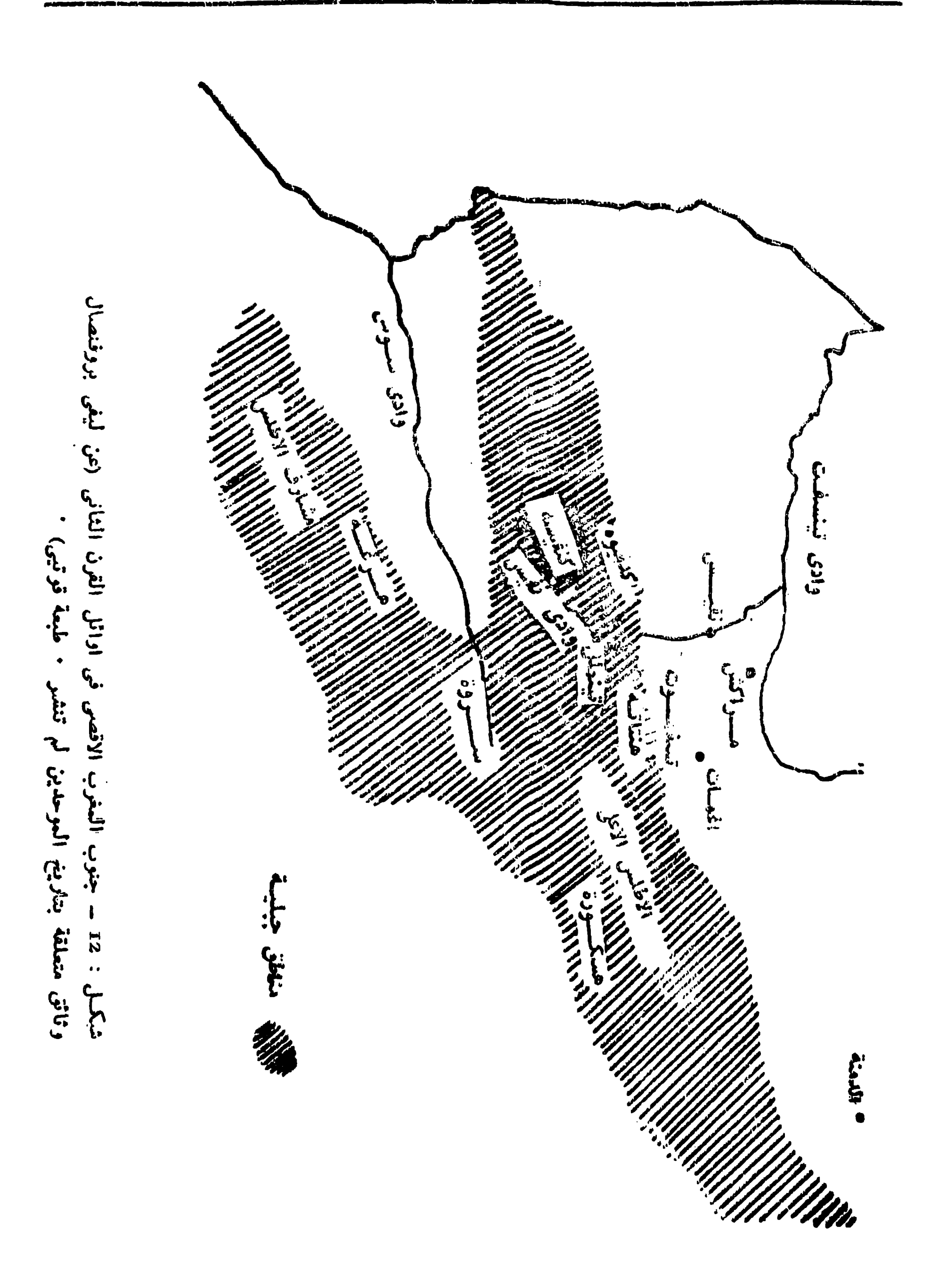
وتوقف توغل الجيوش الإسلامية عندما التحق ابن تاشفين بالمغرب بسبب وفاة ابنه ولم يترك للمعتمد إلا ثلاثة آلاف من البربر ، فأعاد النصارى الكرة نحو مرسيّة والمريّة فلم يجد المعتمد بدا من الذهاب بنفسه إلى ابن تاشفين يناشده أن يتدخل مرّة أخرى (1088 أو 1090) فخرب ابن تاشفين قاعدة أليط العسكرية المنيعة (في الجنوب الغربي من مرسية) التي عجز عنها ملوك الطوائف وأرجع الأمور إلى نصابها . وكان كل شيء ينبيء بأن الهجمة العظيمة لقوى المرابطين والمغاربة المتحالفة قد آن أوانها ، غير أن الممالك الإسلامية باسبانيا كانت أضعف من أن تقدّم لابن تاشفين إعانة فعالة وبلغت حدا من التفرقة أغرى القائد البربري بتعزيز سلطانه على حسابها . ولم يلبث أن سلك سلوك السيد لا الحليف ، وإذا كان ملوك الطوائف وهم الأدباء الخليعون يحتقرون هذا المغربي المتقشف ويعتبرونه من الأجلاف فإن عامة النّاس الذين كانوا عرضة لانتقام النصارى وكذلك الفقهاء كانوا يميلون عن أمراء الأندلس المتخاذلين في دينهم إلى هؤلاء البربر المتمسكين شديد التمسك بالمالكية وكانوا يعتبرونهم رسل الله .

وأمكن لابن تاشفين بهذا التأييد المزدوج أن ينصب نفسه حكما يفصل الخصومات وينفي الملوك ويفتك مملكاتهم وكان الفقهاء يفتون في هذه التعديات لإكسابها الصفة الشرعية ، وهكذا نجح في توحيد المسلمين من جديد باسبانيا (1094) إلا أنه ترك مملكة سرقسطة وشأنها واعتبرها دولة فاصلة بين النصارى والمرابطين ولم يستول على بلنسية التي كانت بيد السيد ثمّ خلفته عليها ارملته يمنة ، (Chimène) إلا في سنة 1102 ولمّا توفي يوسف وقد ناهز المائة حسب ما يقال خلّف لابنه علي الذي أنجبته جارية نصرانية والبالغ من العمر آنذاك 23 سنة ، أمبراطورية شاسعة كانت تضم إسبانيا الاسلامية الممتدة حتى افراغة (Fraga) (في الجنوب الغربي من لاردة) شمالا وجزر ميورقة (Majorque) ومنورقة (Minorque) وإبيسة (Ibiça) (1106 — 1107) .

علي والدفاع عن المالكية :

تقلّد الملك المرابطي الجديد الحكم بدون صعوبة تذكر ، رغم شبابه وهو دليل آخر على ما كان يتمتع به يوسف من هيبة عظيمة ، وكان علي أشدّ تقوى من والده فقد بلغ به الورع حدا أصبح معه آلة طيعة في يد الفقهاء ، ثمّ إنه لم يعرف في شبابه صعوبة الحياة في الصحراء بل انّه ترعرع في إسبانيا وتربّى تربية أهل الحضر بعيدا عن خصائص الحياة القبلية وعاداتها وأخيرا فقد كان ابن شيخ مسن تعوزه الحيوية . قال المراكشي : « وكان حسن السيرة ، جيد الطوية نزيه النفس ، إلى أن يعد في الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يعد في الملوك والمتغلبين ... وقنع باسم إمرة المسلمين ، وبما يرفع إليه من الخراج وعكف على العبادة والتبتّل فكان يقوم الليل ويصوم النهار ، مشتهرا عنه ذلك ، وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال » . فلا غرابة إذن كما ذهب إلى ذلك المراكشي نفسه أن يتصرف في عهده عظماء الأمبراطورية بما فيها النساء حسب مشيئتهم من دون مراعاة للصالح العام .

لهذه الأسباب لم يدم سلطان المرابطين إلاّ قليلا فقد كان الدين سببا في سقوط دولتهم كما كان سببا في قيامها ، وكان علي على سنة أبيه مالكيا متشددا وكان هذا المذهب في اسبانيا كشأنه في كامل



شكل : 12 – جنوب المغرب الأقصى في أوائل القرن الثاني (عن ليفي بروفنصال وثائق متعلقة بتاريخ الموحدين لم تنشر ، طبعة فوتيي) .

المغرب يقتل المجهود الفكري ويطفئ العاطفة الدينية ويمنع تأويل الآيات القرآنية وكل بحث شخصي لمعنى القانون ولايقرّ القياس كأصل من أصول الدين ، فكان يعتبر مجرّد السؤال عن معنى أحاديث الرسول

بدعة ويعرض عن دراسة القرآن والحديث مما يؤول به إلى ضرب من التجسيد الفاحش والإغراق في الشك . وكـان يؤثر التفرغ مستندا إلى كتب أهل السنـة المروية عن الطبقة الثانيـة حول فقـه المعاملات أي المتعلقة بالأحكام الوضعية في مختلف فروعهـا ولم يكن هذا الجدل الشكلي المستفرغ من كل محتوى دينـي سوى ذريعـة لمناقشات قانونيـة وفقهيـة لانهاية لها . فكان كـل واحد يأنس في نفسه الكـفاءة لإصدار فتوى في أي موضوع كـان ولقـد أنـكر هذا الاتجاه الغزالي في شكـه وهو أعظـم أيمـة الإسلام وأكـثرهم طرافة (1058 ــ 1112) فيبيّن في كـتابه « إحياء علـوم الديـن » أن الفقه كمـا يراه المالـكية المتشدقون إنّمـا هو شغل دنيـوي لا صلة لــه بالدين ، وشهـر بتدخل الفقهاء في السياسة لغاية في أنفسهـم وفضـح تعلقهم بالشهـرة وعاب عليهـم زعمهـم النجاة بالنفس بمجرد رياضـة فقهيـــة غير مجدية بينمـا الدين هو قبـل كـل شيء إيمـان بالقلب فلا غرابة أن أثارت تآليفـه حفيظـة المالـكية لا لأسباب عقائدية بل لما احتوت عليـه من صارم الأحـكام على الفقهاء لذلك حملـوا عليـا عدوّ علم اللاهوت ، على احراق التـآليف وتهديد كـل من ملك جزءا منهـا باستصفاء أمواله وقتلـه ، وكـان في هذا الاعتداء على الفـكر القضاء المبرم على المرابطين كمـا دل على ذلك نجاح الحركـة الموحديّة .

المعالم المرابطية في المغرب :

رغم ما كـان عليـه المرابطـون من تقـوى فانهـم لم يحكمـوا إسبانيـا بالاعتمـاد على البربر السنيين وحدهم ، فلقد وجدوا أنفسهـم في وسط اشتدت فيـه وطأة التقاليـد ورقت الحضارة بحيث لم يعـد ممكـنا فسخ الماضي فسخا وبمـا أنّهم لم يبسطـوا سلطـانهـم على سكان الصحراء فقـط بل على جميع مسلمـي المغرب كمـا يدل على ذلك لقبهـم وهو أمير المسلمين فإنهـــم استعانوا برجالات البلاد المرموقين فلم يستغنوا لا عن الأدباء ولا عن رجال الفن بل قصدهم على حدّ قول مؤرخ عربي عدد عديد من ألمـع الكـتاب ورجال الأدب ما لم يره أي عهـد قبـل ذلك . ظل ابن باجة (1138) وهـو الفيلسوف والموسيقار الشهير معـا ، طيلـة عشريـن سنـة ، وزيرا لوالي غرناطه وسرقسطـه صهـر علي المرابطـي . وأخلـد هؤلاء الرجال الشداد الملثمـون

إلى البيئة الإسبانية شيئا فشيئا فحدّ ذلك من تقشفهم وكشف لهم عن لذات أخرى غير التي تتيحها مقارعة السلاح . وبواسطتهم انتشرت في المغرب الحضارة الأندلسية التي كانت دخلت قبل ذلك مدرستي سبتة وفاس ولئن تقبلت إسبانيا من إفريقيا جند الإيمان فإنها زودتها مقابل ذلك بعدد من المعماريين وأرباب الصنائع وأضفت عليها حضارة وصلت إلى عدة مدن على الأقل .

ولقد تطوّر الفن الإسلامي بالجزيرة في حرية تامة بعد انفصال الأمويين عن الخلافة العباسية ، فتأثر المرابطون بالفن المعماري الموجود بقرطبة وغرناطة نظرا إلى أنهم لم يجدوا حولهم نماذج قديمة وكانوا لا تربطهم بالمشرق روابط مباشرة . لهذا فإنهم استعملوا في المعالم التي أقاموها بغربي بلاد البربر دعائم سميكة عوضا عن الاسطوانات من جهة ومن جهة أخرى أقواسا نصف دائرية حدوية كانت نقلتها إسبانيا عن إفريقية حيث جرى القوم على استعمالها منذ قرنين وأقواسا ذات فويسات عوضا عن الأقواس المكسورة الحدوية الموجودة بالقيروان .

وللأسف لم يبق شيء من جامع مراكش ولا من مصليات فاس التي أقامها ابن تاشفين إلا أننا نجد في عهد الأتراك الجزء الهام من الجامع الكبير بالجزائر بمصلاه الذي يحتوي على إحدى عشرة بلاطة وخمسة صفوف ممّا يذكر بجامع تلمسان رغم الزيادات المحدثة في القرن الرابع عشر ، وكان علي هو الذي زاد في جامع القرويين بفاس الذي أسس في أواسط القرن التاسع وأصبح بعد ذلك أضيق من أن يسع جماهير المؤمنين وهو الذي أسس أيضا الجامع الكبير بتلمسان وهو أعظم أثر مرابطي .

وهو مبنى يتراوح طوله بين خمسين وستين مترا في مدخله صحن مربّع ضلعه عشرون مترا تحيط به شرقا وغربا وفقا لخصائص الفن المرابطي بلاطات تتصل ببلاطات المصلّى . ولهذه القاعة ثلاث عشرة بلاطة ذات ستة صفوف كما هو الشأن في الجزائر وفاس وهي محفوفة بدعائم مبنية تحمل اقواسا نصف دائرية حدوية أو مكسورة أو ذات فويسات . وفي الوسط شيّدت قبة ذات تعاريق . وأقيمت تجاه المحراب قبة أخرى

مخرمة الزوايا فكأنها نوع من « التخريم الفاخر الفضائي الذي بُسط من فوق فقرة العمود » . وإن وضع الثريا البارزة من البناء بأحجامها المتراكبة الواحدة فوق الأخرى يمكننا من أن نتبين أول أنموذج مغربي للقبة المقرنسة مضبوط التاريخ .

امّا فيما يخص الزخرف فان رسم الزهور هو الغالب بشكله النهائي المتمثل في سعفات النخيل المفردة أو المزدوجة المعرقّة في رقّة والمختلطة بالأقنثا (Acanthe) أشدّ الاختلاط . ويمتاز المحراب بزخرفة أنيقة تذكّرنا بمحراب قرطبة .

أما القصور المشيدة في مراكش وتاغرارت (Tagrat) ، فقد انطمست آثارها وكان علي هو الذي بنى الأسوار الأولى في مراكش (1120) فبقيت ماثلة إلى اليوم آثار حصني بلاد ورغة وأعالي مراكش وهما أمرغو (Amergo) وتاسغيموت (Tasghimout) ومنها كان يسكن مراقبة أهل الريف والمصامدة . ويستبعد أن يكون المرابطون قد أكثروا من الأشغال ذات المصلحة العامّة غير أن القوم ينسبون إلى علي حفر القناة التي كانت تمكّن من ريّ حدائق فاس وبناء جسر تنسفت بالاعتماد على الفنيين الاسبان . قال ج . مرسي في هذا الصدد « كان المرابطون أداة وصل بين اسبانيا وإفريقيا فلجؤوا في كل ما أسسوه إلى مهندسي الري الصحراويين والمعماريين الأندلسيين معا » (ج. مرسي) .

انحطاط دولة المرابطين وسقوطها :

بلغت دولة المرابطين باسبانيا أوجها في عهد ابن تاشفين ، ولقد تمادى ابنه علي في محاربة نصارى قشتالة الاّ أنه رغم انتصاره في أقليج (Uclés) (قرب طرنيان في جهة كونكة) فإنّه لم يتوّصل إلى الاستيلاء على أي جزء من أرض العدو (1108) ، وبلغت قواه من الضعف ما لم يمكنه معه استغلال الاضطرابات التي انجرّت عن موت الفونسو السادس (1109) بقشتالة وليون ، وقصارى ما وصل اليه احتلال سرقسطة طيلة سنوات معدودة (1110 — 1118) ورغم تخلي قشتالة عن المعركة بسبب ما دهاها مؤقتا من الفوضى فإن الارغون وبرشلونة واصلا الغزو من جديد

فاستولى الفونسو المقاتل ملك الأرغون على سرقسطة (1118) ووسّع حدوده إلى ما وراء نهر الايبرو وزحف على جهات بلنسيّة ومرسية والأندلس الشرقية ثمّ أدرك لأول مرّة البحر في شلوبانية (Salobrena) (جنوب غرناطة) قبالة بلاد البربر (1126) وبعد أن نجح نجاحا باهرا بـآرنسول (Arnisol) قرب اللّسانة ، على بعد ستين كيلومترا تقريبا من الجنوب الشرقي من قرطبة وطّن 14.000 من النصارى المعاهدين (Mozarabes) (نصارى الأندلس الناطقين بالعربية) في الاراضي التي انتزعت من جنوب الأيبرو ، ثمّ واصل زحفه شمالا ولكنه انهزم أمام إفراغة ولاردة . وفي تلك الأثناء كان كونت برشلونة يتوسع على حساب لاردة وطرطوشة ويفرض على والي الجزائر الشرقية (Iles baléares) دفع الإتاوة . أمّا الملك الفونسو السابع فقد تمكن من التغلب على الصعوبات التي نجمت عن موت الفونسو السادس فوالى غزواته الكبرى في الأندلس وعاث في البلاد فسادا حتى حدود المريّة (1144 — 1147) .

وعندما مات علي (1143) كان النصارى يدحرون في كل مكان أمراء قرطبة وإشبيلية بينما كان الموحدون يحتلون غالب ارض المغرب الأقصى وعند ذلك بدأ المسلمون في اسبانيا يتمردون على ابنه تاشفين ، وربما كانوا يتألمون ممّا أصبح عليه أمراؤهم من فساد تحت تأثير الوسط الأندلسي ويتذمرون من الحماية التي كان يتمتع بها حرس فاس النصارى بقيادة الرّبُرتير (Réverter) النصراني ويشكون من غير شك العجرفة التي كان يعاملهم بها الأمراء المرابطون .

ومهما يكن من أمر فانهم استغلوا ما كان بين تاشفين بن علي والموحدين في المغرب من صراع للثورة في غرب الأندلس (Algarve) بقيادة أحد مريدي الغزالي ثمّ في بلنسية ومرسيّة وقرطبة والمريّة ، فعرفت اسبانيا المسلمة من جديد نظاما شبيها بنظام ملوك الطوائف بعد سقوط الخلافة ، وكان أن طلب أحد القواد المتمردين ، اثناء الصراع بين المرابطين ومسلمي الأندلس تدخل الموحدين فكان ذلك سببا في انهيار السلطان المرابطي في إسبانيا وفي بلاد البربر أيضا .

الـخـلاصــة :

إن أهم ما يبـقى في الأذهان بعـد استعراض طور قصّة المرابطين هو أنها كـانت عبارة عن نار تبن وهاجة تبدّد رمادها بسرعة ولم يبق منه شيء .

فـكانت الخيبة الـكاملـة من الناحيـة السياسيـة ، ذلك ان الأمبراطوريـة المرابطيـة تمزّقت بنفس السرعـة الـتي التأمت بهـا بينمـا كـان الأهـالي في لامبالاة مطلقـة وكـأنهـم لم تصدر عنهـم مقاومة جدّية ضد الموحدين ، أمّا اسبانيـا فإنهـا أصبحت في سنة 1145 في نفس الوضع الذي كـانت عليـه عند تدخل يوسف بن تاشفين أي ممزقة لاحول لهـا ولاقوة لرد هجـوم النصارى . وأخيرا فإن المؤرخ لايسعـه الا أن يلاحظ أن سلـوك المرابطيـن ومستشاريهـم لم يتوصلـوا الى إرساء جهاز حكومة حقيقي ، وكـل ما في الأمر هو أنه تمخض عن المؤسسات الصحراوية الاصليـة والتقاليـد الاندلسية على ما يظهـر مزيج غريب خال من كـل متانـة وفاقد لصفـة الدوام ، غير ان اسياد الصحراء عودوا قبائـل المغرب الأقصى بالانقيـاد إلى نفـوذ سياسي واحد فيسروا بذلك لخلفائهـم مهمـة الحكم .

أما من الناحيـة الدينيـة فإن علامات الخيبـة أقل وضوحـا رغم الظواهر ولئن أعوز التفكير المرابطـي الغزارة ولم يبرز الفقهاء الا في الجدل الصوري فـإن الذي لايمـكن نـكرانه هو أن المرابطيـن اقتلعـوا جذور البـدع العديدة التي ازدهرت ابتداء من القرن الثامن في ربوع المغرب الأقصى وحققوا لهـذه البلاد وحدة دينيـة لم تتصدع اركـانهـا فيمـا بعـد .

وحوصلـة الأمر هو أن الحركـة المرابطيـة تركت أبقى آثارها على الدهر في دنيـا الحضارة ــ وهو أمر غريب اذا نحـن رجعنـا إلى أصــل هؤلاء الملثميـن المنحدرين من الصحراء وتذكرنا كساد بضاعتهـم في حقـل الخيـال الخلاق . والواقع فـإن المرابطين لم يبعثوا حضارة طريفة ولـكـنهم كـانوا في غرب بلاد المغرب بأكملهـا رسلا ينشرون الحضارة الأندلسيـة ، ولعـل مدينـة فاس التي اقترن اسمهـا بالمرينيين تدين ليوسف ابن تاشفين وإلى ابنـه أكـثر ممّا هي مدينـة إلى ملـوك القرنين الثالث عشر والرابـع عشر وكـذلك الأمر بالنسبة لتلمسان والجزائر ومراكش . والمرجح

ان الرأي السائد هو أن هذه الحضارة المعمارية الناشئة مقتبسة في معظم جوانبها من اسبانيا المجاورة وليس معنى هذا أن أي اتصال لم يحدث من قبل بين الاسبان والمسلمين والمغاربة غير أن التأثير المتبادل الذي تم بينهم في عهد المرابطين لم يحدث من قبل البتة ؛ وهنا أيضا تعوزنا الوثائق .

وإذا نحن عرفنا كيف كانت تعيش إشبيلية في أوائل القرن الثاني عشر (ليفي بروفنصال ، إشبيلية المسلمة في القرن الثاني عشر) فاننا لانملك شيئًا مضبوطا عن الحياة اليومية في فاس أو مراكش فليس لنا إذن الاّ أن نسجل التأثير الأندلسي من دون أن نقدر على دراسة اطواره .

وفي الجملة فمهما سطع نجم المرابطين فإن عهدهم لم يكن الا تمهيدا للموحدين الذين سيجنون ثمرة ما بذله أسلافهم من جهود هامّة وإن كانت عديمة الفعالية .

2) ابن تومرت ، مهدى الموحديـن

ابـن تـومـرت :

بينمـا كـان ما يسلطـه علي من اضطهـاد يرجح في الظاهر كـفـّة المـالـكية المتطـرفة ، كـانـت طائفـة الموحدين تنظـم صفـوفها على أسـاس مقاومة المدرسة الفقهية العتيقـة ممّا سيؤول إلى تقويض سلطـان المرابطين ، ولم يـكن انتصار هذه الطائفـة انتصارا لنحلة علي أخرى فقط بل كان فوز القبائـل الجبليين على الرحل الصحراويين وانتقاما متأخرا حققته زناتـة المستوطنـون بالمغرب الأوسط على صنهاجة .

ذلك أن ابن تومرت مهدي الموحدين نشأ بين جبال جنـوب المغرب وبأطراف الأطلس على أغلـب الظن وذلك في أواخر القرن الحادي عشر ، فقد كـانت قريـة ايقليز الصغيرة التي ربمـا أصبـح أبوه سيّدا عليهـا مبنية في تراب قبيلـة هـرْغة المنتشرة في المنحدرات الشماليـة لجبال تلك الجهـة في اتجاه وادي السوس ، وكـانت عائلتـه المنتسبة إلى ارستقراطيـة القريـة معروفة بالتقوى والورع ، لذا أظهـر القوم فيمـا بعـد براعة فائقـة للرجوع بـه إلى نسب الرسول عن طريق الأدارسة خاصة .

ولفت ابن تومرت الأنظـار منذ نعـومة أظفاره بتأجـج عاطفتـه الدينية ، وكـان ملازما للمسجد وأحاط بالعلـوم في سن مبكرة ممّا قد يكـون أضفى عليـه لقـب الصفو ، ولا بد أن ذلك أكسبه نفوذا أدبيـا لدى أقرانه . وطبعـا كـان سفر هذا العالم الشاب إلى المشرق حيث كـان يروم مواصلـة دراساته (بين 1105 و 1110) حدثا عظيمـا فـي القريـة وحتى في القبيلـة نفسهـا ويظهر أن مراكش لم تستوقفه طويلا وليس لدينـا مـا يثبت أنّه أقـام بـإسبانيـا

فترة قيل إنه اطلع أثناءها على كتابات الفقيه القرطبي ابن حزم (المتوفى سنة 1064) ، وعلى كل فإنه يوجد بين الفقيه الظاهري ومهدي الموحدين وجوه شبه ليست ولا شك عفوية ، فكلاهما كان كارها للاجتهاد الشخصي الناتج عن الرأي وكلاهما كان لايستند إلاّ إلى الكتاب والسنة والإجماع .

وفجأة نجد ابن تومرت في الشرق من دون أن تكون لدينا نصوص تسمح بمعرفة مراحل سفره . ولا نعرف لماذا لم يؤد فريضة الحج ، إلاّ أنّنا متأكدون من أنّه أتم ثقافته ببغداد وربّما في دمشق ، وهناك وطن نفسه على دراسة علم أصول الفقه الذي كان المالكية المغاربة لا يبالون به إذ كان همهم التفرّغ إلى فروع الفقه .

وإذا كان ابن تومرت قد طالع كتب الغزالي فإنه ليس من الثابت أنه التقى بالامام كما أكدت ذلك الأسطورة فيما بعد ، غير أنه أكبّ بالخصوص على دراسة فقه الأشعري (873 — 935) مؤسس علم الكلام السنّي وقد وفق بفضل طريقة التأويل إلى تجاوز التناقض المقلق بين الإيمان بروحانية الله وتنزيهه وبين التجسيم الذي قد توحي به بعض الآيات القرآنية لذلك اعتنق ابن تومرت مذهب أبي الحسن الأشعري اعتناقا كليا وانتصر له في المغرب .

وبعد عشرة أعوام من رحيله عن ايڤليز أخذ طريق العودة إلى المغرب الأقصى وتوقف بالأسكندرية التي كانت آنذاك مركزا نشيطا للدراسة الاشعرية ولرّبما وصل إلى تونس عن طريق البحر ونزل بالمهدية . وستروي الأساطير أنه كسّر دنان الخمر التي وجدها في المركب ووعظ البحارة فأقنع أشدهم تنطعا وذلك بعد أن هدأت عاصفة هوجاء استجابة لدعائه . ولا يستبعد أنه لم يجمع بين آراء ابن تومرت حينذاك نسق فكري متكامل وانه لم يعتبر نفسه إلى ذلك الوقت الامام المعصوم وإنما كان يحصر واجبه في النهي عن المنكر ولاشك أن ثقته في فصاحته بلغت درجة أصبح معها مدفوعا إلى الوعظ والإرشاد طوال مسيرته ولقد روى مريده البيذق انه أنحى باللائمة على فقهاء تونس وعلّم فقهاء قسنطينة أنه لايمكن تسليط

عقابيـن مختلفين جزاء ذنب واحد ، ووبـخ أعنف توبيـخ أهل بجاية الميالين شديد الميل إلى تقليد مسلمـي اسبانيـا في فرط ترفهـم وانحلال أخلاقهـم .

وقد أثارت تدخلاتـه العنيفة من ردود الفعل ما حملـه على الرحيل عن عاصمـة بني حمّاد إلى ضاحيـة صغيرة تدعى ملالة ، وكـانت خلـوتـه مثمرة من ناحيتين ، ذلك أنهـا مكـنتـه أولا من ضبط مذهبـه عند اتصالـه بطلبتـه وتوضيحه إياهم الغاية من رسالتـه ولأنهـا أتاحت له ثانيـا فرصـة الاتصال بالرجل الذي أرسلـه القدر لتحقيق مقاصده وهو عبد المؤمن .

عـبـد المـؤمـن :

إن الرجل الذي سيصبح خليفـة المهدي أنجبه خزاف بسيط من ندرومة وتوجد قرية تاقرا مسقّط رأسه في تراب قبيلة كوميـة الـزناتيـة البربرية ، وتنسب الأساطيـر إلى هذا الطفل كرامات عجيبة منها أن خشارم من النحل وقع عليـه من دون أن يلسعـه وأن فقيهـا من تلمسان تنبأ له بأنه سيغزو بلاد الله جميعـا .

وتعلّم القرآن في مدرسة القريـة ثمّ بجامع تلمسان . وكـان حسب البيدق شديد الذكـاء يفهـم عشرة مسائـل في نفس الوقت الذي يقضيه الناس عادة لفهـم مسألة واحدة وتعلقت همّة هذا الطالب الشاب باستكمـال معارفـه لدى مشاهير الشيـوخ فيمـم شطـر الشرق مرفوقا بعمـه الاّ أنّه لم يتجاوز بجاية ، واذا نحـن نظـرنا إلى اللقـاء الذي تمّ بيـن ابن تومرت وعبد المؤمن من خلال تعاقب القرون وجدناه بمثابة المعجزة فكان عبد المؤمن تغشاه أحلام احتـار في تفسيرها أما ابن تومرت فقـد كـان يحس بقرب ظهـور المختار لقـد تنبأ بالنصرواستشهد بقـوله تعالى : « وما النصر الا من عند الله العزيـز الحكيم » وأشار إلى القوم أنه سيجيئهم غـدا رجل طالبـا للعلـم فمن صدقه نـال السعـادة والويـل لمن كذبه . وما أن دخل عبدالمـؤمن حتى نطـق الإمام المعصوم باسم أبيـه واسم قريتـه ودعـاه إلى العدول عن السفـر إلى المشرق طلبـا لمعارف بإمكانه أن يجدها في بلاده .

وإن قصـة اعتناق عبد المؤمن لمذهب ابن تومرت كمـا يرويهـا صاحبه رائعـة مؤثرة رغم بساطتهـا قال : « فلما جن الليل أخذ الإمام المعصوم

بيد الخليفة وسارا فلمّا كان نصف اللّيل ناداني المعصوم يا أبا بكر ادفع لي الكتاب الذي فيه الوعاء الأحمر فدفعته له وقال لي : أسرج لنا سراجا فكان يقراه على الخليفة من بعده وأنا يومئذ ماسك السراج أسمعه يقول لايقوم الأمر الذي فيه حياة الدين الا بعبد المؤمن بن علي سراج الموحدين فبكى الخليفة عند سماع هذا القول وقال : يا فقيه ما كنت في شيء من هذا إنما أنا راجل أريد ما يطهرني من ذنوبي فقال له المعصوم : إنما تطهيرك من ذنوبك صلاح الدنيا على يديك ثمّ دفع الكتاب وقال طوبى لأقوام كنت أنت مقدمهم وويل لقوم خالفوك أولهم وآخرهم » .

مذهب المهدي :

ولاشك أن هذه القصّة جمعت محادثات جاءت مقتضبة بسبب ما كان لابن تومرت من نفوذ على مريديه ، ومهما يكن فإن عبد المؤمن عدل عن مواصلة سفره وبقي طيلة أشهر عديدة يتلقى العلم ليل نهار من المهدي الذي كان قد أكمل مذهبه آنذاك .

وفعلا فإنه يمكن ان نتبيّن من ذلك العهد نظرية أخلاقية وعقيدة دينية تبلورت بعدها بقليل آراء سياسية وتتميز النظرية الاخلاقية التي بدأ بها ابن تومرت حركته الإصلاحية بشدتها البالغة وحرصها الأكبر على الرجوع إلى المنابع الأصلية دون سواها ، أي القرآن وأحاديث النبي المدنية ، من ذلك انّه يأمر باجتناب الاختلاط بين الرجل والمرأة ، والكف عن شرب المسكرات والابتعاد عن مختلف ضروب اللهو (الموسيقى واحد منها) ومقاومة تبرّج المرأة الخ ... وإن شيئا من ذلك لا يعد جديدا من الناحية المذهبية ، غير أنّه إذا صدقنا ما رواه البيذق ممّا ذكره الاخباريون المتأخرون فإن سيرة أهل المغرب من تونس إلى مراكش كانت مغايرة لذلك ، ومعنى هذا أن ابن تومرت كان يدعو إلى اصلاح أخلاقي جذري يمكن تبين آثاره إلى اليوم في سكان إفريقيا الشمالية .

وترتكز عقيدته الدينية أساسا على التوحيد ولذلك سمي معتنقو هذا المذهب بالموحدين أي الذين يقولون بوحدانية الله وبما ان الله روح وجب تأويل ما ورد في القرآن من نسبة السمع والبصر إلى الخالق ، وكان من

الحتمي الحكم على المجسمين الذين يفسرون النصوص القرآنية بظاهرها وعلى المشركين الذين يضفون على الصفات الالهية (الرحمة والكرم والحلم) من الأهميّة ما يجعل الله الواحد الصمد يبدو كأنه مجزأ إلى قوى عديدة مستقلة الواحدة عن الأخرى ، وأخيرا فإن وحدانية الله توجب الإيمان بقدرته المطلقة المفضية بدورها إلى القول بالقضاء والقدر فكل ما خلق إنّما هو بعلم منه وقضاء وقدر ... وكلّ مخلوق ناله ما كتب له .

وليس في هذا كلّه مايمكن ان نعتبره طريفا . وفي الواقع فإن ابن تومرت يجتنب الطرافة ويحتاط من الرأي ولا يعتمد الا أصول الدين المعروفة أي القرآن والسنة واجماع العلماء وفي ذلك ترديد لصدى الاتجاهات الفكرية الاسلامية السائدة في المشرق وخاصة منها مذهب الاشعري الذي قدّم أفكارا تقليدية في ثوب جديد ، وفعلا فإنه يمكن أن نجد في كتاب ابن تومرت سلسلة من الاستدلالات المنطقية والمجرّدة القريبة من أسلوب الأشعري ، الا أن الذي يتميز به ابن تومرت عن الفقهاء المشارقة ويجعله من المجددين حقا هونشر مذهبه ، ذلك أن الفقهاء المشارقة ومن بينهم الغزالي نفسه كانوا مفكرين يعيشون في برجهم العاجي ولا يدور بخلدهم أن الجماهير في إمكانها أن تنتفع من تأملاتهم ، أمّا أبن تومرت فقد كان يرمي إلى نشر مذهبه على نطاق واسع فكان كثيرا ما يستعمل لهذا الغرض اللغة البربرية لأن العربية كانت قليلة الانتشار في المغرب الأقصى آنذاك ، ومن جهة أخرى كان يؤلف باللغة البربرية دائما رسائل صغيرة أو تآليف وصلتنا منها عينات ماسي (Massé) : شهادة المهدي وأيمته الروحانيون . لوسياني : كتاب ابن تومرت (Luciani) .

وأخيرا فقد كان ابن تومرت يستعمل وسائل آلية للحفظ قد تبدو لنا اليوم ساذجة ولكنها في الواقع ، تقرأ حسابا للمادة البشرية التي كانت تروم صنعها من ذلك أنّه كان يسند إلى كل فرد من مجموعة ما كلمة من جملة تكون بمثابة الاسم له ويطالب بحفظها ، وفي كل يوم تقع مناداة جميع الأفراد فيفوه كل واحد منهم باسمه في ترتيب لا يتغير حسب نظام الكلمات في تلك الجملة ولاتمضي أيام قلائل حتى تكون الجملة محفوظة عن ظهر قلب ، اما آراؤه السياسية المركزة على

فكرة المهدي الشيعية والامام المعصوم فإنها لم تظهر الا فيما بعد عندما رجع ابن تومرت إلى المغرب الأقصى واصطدم بساطة المرابطين . ويظهر أنه حاول في أول الأمر جلبهم إلى الطريق المستقيم ثم إنه عندما تبين له إمعانهم في الخطأ لم يكتف بالتشهير بهم بل أورد حكم الرسول فيهم بالاستناد إلى أحاديث يكتنفها الغموض (كتاب ابن تومرت) ثم جاهر بالمهدوية .

تلك هي الدعائم الرئيسية لتفكير ابن تومرت كما تبدو من خلال النصوص الموجودة بين أيدينا اليوم ، وما لبث ابن تومرت ان جعل الدولة في مقام الأخلاق والتوحيد أو أكثر : فأصبح بذلك بطلا لقضية سياسية ودينية في آن واحد . أما في عهد خلفه عبد المؤمن فإن السياسة ستكون لها الأولوية .

تأسيس الطائفة الموحدية :

لم يكن في الإمكان أن تتواصل الاقامة بملالة إلى ما لا نهاية له ولا بد أن ابن تومرت مثل جميع سكان الجبال كان يصغى لنداء المعالي ، واتفق أن مرّ من ذلك المكان حاجان من الاطلس في طريقهما إلى المشرق . فسألهما بلغتهما لأنهما كانا يجهلان اللّغة العربية ، ولاشك أنه تبين من أجوبتهما ما كان في نفوس بربر الأطلس من غضب دفين على المرابطين في البسائط ، روى البيذق قائلا : « ولمّا جنّ الليل قال لنا عولوا على السير غدا إن شاء الله » وبذلك كان بدء السلطان الموحدي . وسارت القافلة الصغيرة التي لم يتجاوز عدد أفرادها أصابع اليدين في اتجاه الغرب مرورا بالونشريس وتلمسان ووجدة واجرسيف وفاس . وحيثما حلّ ابن تومرت أخذ ينهى عن المنكر من دون ان يظهر في مظهر المهدي . وكثيرًا ما كان يفرض نفسه ويوفق إلى نصرة تعاليمه إلا أنه كان يلقى أحيانا معارضة سافرة مثلما حدث له في قرية بجهة تازا حيث هدده القوم بالضرب إذا هو لم يبارح المكان حالا . وفي مثل هذه الحال فإن ابن تومرت كان لايتعنت بل يواصل سيره . أمّا في المدن حيث لا تشوب التقوى شائبة التعصب فإنه كان يجد مساندة من ذوي النفوذ المبهورين بعلمه وفصاحته ولا شك أن حماية أحد أعيان فاس جنّبته ما استهدف له

من عقاب عندما خرب دكاكين تجار آلات الطرب . وسرعان ما نزل المعصوم بمراكش مارا من مكناس وسلا .

واتفق أغلب الاخباريين على ان سنة 514 للهجرة (1120 — 1121) هي السنة التي وصل فيها ابن تومرت إلى مراكش والى حدّ هذه السنة فإنه يصعب ضبط أي تاريخ في حياته : فلنا خمسة أو ستة تواريخ ولادة تتراوح بين سنة 1075 و 1097 وليس لنا مما يدلنا دلالة قاطعة على سنة رحيله إلى الشرق ولا على مدّة إقامته فيه وتاريخ عودته منه ولا على أهمية الفترة التي قضاها متنقلا عبر بلاد المغرب من المهدية إلى مراكش ، وأن البيذق الصاحب المخلص الذي زوّدنا بمعلومات هامة عنه كان يجتنب في مهارة الدّقة في ذكر التواريخ . وهكذا نتبين إلى أي حدّ يتعذر التمييز بين الأسطورة المشحونة تقوى وبين التاريخ الموضوعي . وفي مراكش تجلت في ابهى صورة خصال ابن تومرت كمصلح أخلاقي . فلقد روي أنّه لعن أخت الأمير نفسها لسفورها وانتقد الأمير لأنه كان يحمل حجابا . ويؤكد كل المؤرخين أنه دخل مع فقهاء المالكية في جدال كاد أن يؤول به إلى السجن .

ويبدو من الثابت أن ابن تومرت التقى بعلي بن يوسف الملك المرابطي وأنه أحرج هذا الرجل الورع أيما إحراج فقد كان علي يرى بوضوح تام في ابن تومرت المشوش الذي يمكن أن يصبح خطرا عليه والذي عرف كيف يجعل لنفسه عيونا حتى في البلاط المرابطي ولكنه من جهة أخرى كان لايتمالك عن الانبهار بتبحّره في علوم الدين وأصالة فضائله ، ثمّ إنه كان يشعر بتأثير شخصية هذا المتشرد العجيب وجاذبيتها فلم يتخذ قراره الحاسم في شأنه إلا بدافع من بعض مستشاريه . إلا أن ابن تومرت أخبر بذلك في الوقت المناسب .

ومرّة أخرى وجب استئناف الرحلة الطويلة . وتوغّلت القافلة في الجبال يتعقبها أتباع الأمير . واضطر المهدي ايضا إلى مغادرة أغمات بعد إقامة قصيرة بها ولكنه أمكنه في آخر الأمر أن يحط الرحال في مسقط رأسه ويشرع في بث دعوته بين القبائل (1121 — 1122) ؟ ومضى يصلّي ويدعو إلى مذهبه طيلة ثلاث سنوات غير أنه كان زعيما سياسيا بقدر ما كان

رجل دين . وما لبث نواب قبائل عديدة أن نادوا به إماما وأقسموا ألا يخذلوه ابدا في حربه المقدسة ضد المرابطين. ولمّا تقبل أيمانهم أعلن أنه المهدي الإمام الظاهر المعصوم الذي بعثه الله ليقاوم الزيغ وينصر الإيمان الحق . وأضفى على مريديه المتصلين به مباشرة لقب الطلبة لأنهم كانوا يتلقون من لدنه العلم الصحيح ، أمّا الذين رضوه قائدا روحيا فقد تسمّوا بالموحدين . وفكر ابن تومرت في طريقة لإحكام دعوته بين سكان الجبال وتهيئة هجومه على المرابطين فاستقر بتنملّل (1125) وهي بلدة واقعة بمدخل سهل كالواحة في خصوبته في أعلى وادي نفيس و كانت تمتاز أوّلا بكونها في قلب قبائل مصمودة وثانيا بأنها موقع استراتيجي ممتاز (1125) .

نظام الطائفة :

وفي تنملّل سار ابن تومرت في حياته وتنظيم طائفته سيرة الرسول والصحابة بالمدينة ، فكان مثل الرسول ، الزعيم الروحي والقاضي والقائد للجيش ، إلاّ أنه سلك أيضا مسلك الزعيم البربري الذي يعرف أفراد عشيرته أحسن معرفة وينفذ إلى عقلياتهم ويفهم عاداتهم الاجتماعية والسياسة .

وفعلا فإنه وجب على ابن تومرت خلافا لما درج عليه يوسف بن تاشفين من اعتماد على مجموعة قائمة الذات من القبائل المرابطية أن يمارس خليطا من القبائل الغيورة على استقلالها المرهفة الحساسية ، الشديدة البنية في هيكلها الاجتماعي وميولها السياسية على نحو ما وصفه ر. مونتانيو في كتابه « البربر والمخزن في جنوب المغرب الأقصى » .
(R. Montagne - Les Berbères et le Makhzen dans le Sud du Maroc)

فكيف السبيل إلى جعل هذه العناصر المتناثرة تحيا حياة سياسة مشتركة وتكوّن قوة لها من التماسك ما ييسر لها زعزعة السلطان المرابطي ؟

واستنبط ابن تومرت لحل هذه المشكلة نظاما اجتماعيا ليس لنا فيما يخصه الا معلومات قليلة وربما يظهر لنا لهذا السبب معقدا الى درجة قصوى ويمكن أن نتبيّن فيه العناصر الآتية :

تونس
عنابة
مدينة الجزائر
تنس
وهران
سبتة
طنجة
سوسة
المهدية
صفاقس
قابس
باجة
قسنطينة
سطيف
مليانة
باغاية
قلعة بني حماد
تبسة
بسكرة
الحضنة
تلمسان
غمارة
كرسيف
فاس
سلا
الرباط
ازمور
مراكش
تينملل
سجلماسة
الجريد

1145 1147 1152 1160

شكل 13 ـ مراحل الغزو الموحدى

1) أهل الدار وعددهم عشرون شخصا تقريبًا (منهم إخوة ابن تومرت الثلاثة) وهم عبارة عن أركان حربه ولا يرجعون بالنظر الا اليه .

2) مجلسان مجلس العشرة ومجلس الخمسين ونظامهما مقتبس بطبيعة الحال من مجالس الأعيان التي تقوم بدور كبير في « الجمهوريات البربرية » فمجلس العشرة يتكوّن من أصحاب ابن تومرت العشرة الذين كانوا أول من بايعوه مهديا . ولئن لاحظنا بعض الاختلاف فيما وصلنا من قائمات الأسماء فإننا نجد فيها دائما اسماء عبد المؤمن وأبو حفص عمر الهنتاتي وهو من أول أعيان سكان الجبال الذين انضموا إليه بعد الهروب من مراكش وكذلك عبد الله بن البشير الونشريسي وهو من أول المريدين وقد انتخب من المغرب الأوسط . ويتكون من هذه الشخصيات العشرة شبه مجلس خاص كان المهدي يستشيره في كل المسائل الهامة .

أمّا مجلس الخمسين فيتكوّن من نواب يمثلون أهم قبائل الجبال ويتفاوت عددهم بحسبها . وكان نشاط هذا المجلس دون نشاط مجلس العشرة بكثير فهو بمثابة مجلس استشاري .

3) كانت القبائل تتفاضل حسب نظام ترتيبي مضبوط على الأقل بمناسبة الاستعراضات العسكرية وربما كذلك في مكانها من ساحة الوغى . وكانت قبيلة هرغة التي ينتسب اليها المهدي تأتي في المرتبة الأولى ، وقد انضم اليها عن طريق الولاء فيما يظهر بعض الشخصيات منها عبد المؤمن ، ويليها أهل تنملّل ثمّ سائر قبائل الجبال الأخرى وأخيرا العبيد وهم في أغلب الظن من السود .

4) وكان يوجد في صلب هذه المجموعات نظام ترتيبي آخر مرتكز لا على الانتساب إلى القبيلة بل على الوظائف التي يضطلع بها كل فرد . فكان المحتسب يأتي في المرتبة الأولى ولئن بقي دوره مجهولا لدينا فإننا نعلم علم اليقين أنه كان يعتبر رأس الجماعة . ونجد في المرتبة الثانية مزوار بالنسبة للرعيل الأول من الموحدين ومزوار بالنسبة للتابعين ثمّ يأتي في المرتبة الثالثة السكاكون المكلفون بضرب السكة وربما بالجباية أيضا ، ويليهم الجند والمؤذنون والمحاربون (جيوش الرديف في أغلب الظن) والحفظة وأهل الحزب (المتربصون) وأخيرا الرماة وهم من المعتقين أو العبيد .

وكان هذا المجتمع المنظم على أساس تفاضل أصنافه خاضعا لقواعد مضبوطة وقد سيطر عليه المهدي سيطرة مطلقة . فكانت المواظبة على الرياضة الروحية إجبارية وكان كل من يزيغ عن التعاليم الدينية يستهدف إلى الضرب بالسياط وحتى الموت . وحقا فإن خطب المعصوم كانت هدفها أن ترسخ في عقول البربر التشريع الإسلامي المناقض في بعض الأحيان لقانونهم إذ كان ، في دعوته ، رجل دولة بقدر ما هو رجل دين . وكان كل من لا يخلص كامل الإخلاص للقضية يعامل معاملة الكافر وعلى هذا الأساس قام المهدي في « يوم التمييز » بتطهير جذري في صفوف العناصر المشبوه فيها وأمر بإعدامهم جميعا وقضى بنفس الطريقة على قبيلة لايؤمن جانبها . فكسب بهذه الأعمال الحازمة نفوذا على سكان الجبال .

وليس من المستبعد أن يكون ابن تومرت قد توخى سبلا أخرى للهيمنة على أتباعه ولقد بيّن لنا ابن أبي زرع في كتابه روض القرطاس وابن الأثير وكلاهما مناهض للموحدين كيف أن ابن تومرت وعبد المؤمن كانا يستغلان سذاجة العامة بضروب من الشعوذة الصبيانية . وأغلب الظن أن هذه الأخبار وقع تحريفها والمبالغة فيها لغاية في النفس . ولكنها ليست كاذبة بالضرورة لأننا نعرف من جهة أخرى أن ابن تومرت كالعديد من بربر الجنوب كانت قدمه راسخه في فنون الكهانة وأن لعمليات السحر مكانة كبيرة كما هو الشأن في وقتنا الحاضر في حياة الشلوح اليومية .

ومهما يكن فإن ابن تومرت توصل إلى إقامة دولة منظمة في جبال الأطلس بفضل موارد حاصلة من الضرائب وجيوش متعصبة ومستعدة لمحاربة المرابطين من دون هوادة فقد كان نصيب اول محاولة قام الصحراويون بها ضد الموحدين الفشل الذريع (1122) لذلك حصّنوا مراكش وأغمات خوفا من هجمة سكان الجبال وحسنا فعلوا إذ أنهم دُحروا إلى عاصمتهم عندما قاموا بحملة ضد تنملل وضرب عليهم الحصار طيلة اربعين يوما وانتهى الأمر لصالحهم عندما خرجوا لمطاردة جيش الموحدين فهزموه وتقبل المهدي نبأ هذه الواقعة بجلد

كبير وعندما علم بنجاة عبد المؤمن أمر البيذق قائلا : « ارجع اليه وقل له : الأمر باق ولا تجزعوا » (1128) .

ولمّا احسّ ابن تومرت بعد ذلك بأربعة أشهر بتداعي صحته تعلّل بحاجته إلى عزلة طويلة واعتكف بمنزله ولم تمض عليه أربعة اشهر (1127 — 1128 أو ديسمبر 1129) حتى قضى نحبه وأخفى القوم موت المهدي أكثر من عامين حسب تأكيد ابن خلدون خوفا من أن يقصي الموحدون ، غداة الهزيمة ، عبد المؤمن الذي كان يعتبر رغم كل شيء غريبا عنهم ، ونفذ اتباع ابن تومرت وصيته بكل أمانة وحتى أبو حفص عمر وهو سيد بطن من أعظم بطون مصمودة ومن ساهم انضمامه منذ الساعات الأولى مساهمة كبيرة في نجاح الطائفة فإنه لم يعترض سبيل الخلف المعيّن بل إنه قام بعد موافقة مجلس العشرة ثمّ مجلس الخمسين بحملة دعائية بين الموحدين فرضوا أن يقدموا يمين الولاء بين يديه (1129 — 1130) .

3) امبراطورية الموحدين

غزو المغرب الأقصى :

تلقب عبد المؤمن بخليفة ابن تومرت على غرار أبي بكر خليفة محمّد . ويظهر انه ما ان تقلّد الحكم حتى أضفى على نفسه لقب أمير المؤمنين أولقبه بذلك أصحابه . واستبقى التنظيم الذي سنه المهدي وسار على استشارة المجالس ولكنه لم يتمتع بما كان يتمتع به المعصوم من نفوذ أدبي على قبيلة مصمودة بل إنه اضطر إلى إحباط المؤامرات والى إحاطة نفسه فيما بعد بحرس منتخب من انصاره .

وبادر عبد المؤمن بتطبيق خطة الجبليين المعهودة التي كان أوصى بها المهدي لمساعديه بقوله « لاتنزلوا إلى السهل واتركوا العدو يصعد إليكم بنفسه » ثمّ قام بغزوات خاطفة مكّنته من الكشف على نقط ضعف الخصم . وقرر في آخر الأمر الهجوم على اعدائه فاحتل أولا المقاطعات الجنوبية في المغرب الأقصى وتحوّل شيئاً فشيئاً إلى الشمال من دون أن يغادر الجهات الجبلية لأن جيش المرابطين لم يزل على خطورته ثمّ توغّل حتى بلغ وادي ورغة والريف واحتلهما من دون مقاومة وترك سبتة جانبا ثمّ استغل الصراع القائم بين القبائل فتابع سيره نحو الشمال الشرقي . وحاول العاهل الجديد تاشفين بن علي التصدّي له بالاعتماد على الكتائب المرابطية والحرس النصراني الذي كان يقوده الرّبُرْتير وبعض حلفائه من زناتةبالمدد الموّجه من بني حمّاد . غير أن الربرتير هلك في إحدى الوقائع ويقال إن سرور الموحدين كان عظيما عندما صلبوا جثة الكافر (1144 — 1145) . وبموت هذا القائد فقدت جيوش المرابطين انسجامها إذ أعوزتها القيادة بحيث إنها قصرت عن الصمود في وجه

الكتائب الموحدّية التي جمعت بين الحماس والانضباط والوقوف عند ارادة عبد المؤمن المتبصرة ، ولمّا اندحر تاشفين إلى سهل وهران بعد انهزامه قرب تلمسان لم يتمكّن من الهروب عن طريق البحر . وبينما كان يسير ليلا تردّى به فرسه من بعض الحافات فقطع الموحدون رأس جثته وحنّطوه وبعثوا به إلى تنملل وانتهت بنهاية آخر ملك مرابطي جدير بهذا الاسم هيمنة الصحراويين القصيرة وذلك تحت ضربات قبائل الأطلس . ومرة أخرى ينتهي الصراع الدائم بين البدو والحضر بانهيار أمبراطورية والتمهيد إلى قيام أخرى (22 فيفري 1145 ؟) .

ولم تنته الحرب بموت تاشفين حتى في غرب بلاد البربر ذلك أن القوم نصبوا ابنه في مراكش وهو لايكاد يبلغ سنّ المراهقة وترك الخليفة لأحد أعضاده مهمة فتح تلمسان فهجم على فاس واستولى عليها بعد حصار دام تسعة أشهر ثمّ تحوّل إلى مراكش فدخلها عنوة وحكم فيها السيف (1146) .

ولمّا انتصر الموحدون ناشد العاهل المرابطي الشاب عبد المؤمن أن يرحمه وكاد أن يعطف عليه لولا أن صاح أحد رفقائه في وجهه قائلا : « أيها الموحدون هذا عبد المؤمن يقف ضدنا . إنّه يريد تربية اولاد الأسود » . وفي الأثناء كان أحد الأمراء المرابطين يبصق في وجه الأمير الشاب ويوبخّه قائلا : هل إنك تناشد أباك أو من هو أدعى إلى الرحمة بك ؟ كن شجاعا مثل الرجال » . وكان هذا الموقف آخر مظهر تجلت فيه شهامة المرابطين قبل انقراض دولتهم .

إلاّ أن استيلاء عبد المؤمن على مراكش لم يكن حاسما في كسب النصر : ذلك أن ثورات خطيرة ما لبثت أن اندلعت في السوس أولا ثمّ على طول سواحل الاطلنطيق حيث حملت فلول برغواطة السلاح وأشعلت نار التمرّد بين جيرانها بني دكالة . ومن حسن حظّ الموحدين أن هذه الثورات لم تكن منسّقة ولا حدثت في وقت واحد ، وما أن شارفت سنة 1148 على النهاية حتى أصبح المغرب الأقصى بأكمله تحت نفوذ الدولة الجديدة .

دخـول المـوحـديـن إلى إسبـانـيـا :

دعي الموحدون إلى اسبانيـا قبـل استيلائهـم على مراكـش من طرف من ثاروا على المرابطين . ولم يجدوا كبير عناء للانتصاب في الجزء الغربـي من الأندلس ولم تـكن لهم خطـة مسبقة لأنه حتى لوسلّمنا كمـا هـو محتمل جدا بان عبد المؤمن كـان راغبـا في طرد المرابطين من اسبانيـا كمـا فعـل فـي المغرب فـإنه كـان أكـثر حذرا من أن يطلـب هذه الغايات في نفس الوقت . واقتصر على ارسال بعض الجيوش بامرة أخوين لابن تومرت فسلكا في إسبانيـا سلـوك الغـزاة بحيث أثـار الموحدون عليهـم حفيظـة جميـع أهل الأندلس واضطـروا إلى التخلي عن جـزء من مواقعهـم ولـم يدعوا من جديد لنجدة الأراضي الإسلاميـة الا عندما شنّ عليهـا الفنسو الثامن القشتالي حملتـه الشعواء وكـانت نجدة الموحدين فـي الوقت المناسب إذ كـان الملك النصراني محاصرا لقرطبـة . واقتبـل عبد المؤمن وفدا من أعيان غـرب الأندلس جاؤوا لمبايعتـه ملـكا عليهـم (1150) ، غيـر أن الأمر لـم يتجاوز أن كـان نـوعا من الحماية الغامضـة المحدودة .

الاطـاحـة بمملـكـة بـنـي حـمـاد :

توغل الموحدون في تلمسان ووهران في أول حملـة قاموا بهـا فيمـا وراء نهـر الملـوية . وبعـد ذلك بسبـع سنـوات توّجت حملـة ثانيـة بالاطاحة بمملـكة بني حمـاد وكـانت بجاية العاصمـة الجديدة التي أسسهـا الناصر (1062 — 1063) قد أصبحت منذ أن استعاض بهـا خلفـه المنصـور عـن القلعـة (1090) من بين أعظم مدن بلاد البربر . قال الإدريسي إبان صولـة الموحدين : « ومدينـة بجاية في وقتنا هذا مدينـة الغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد والسفن إليهـا مقلعة وبهـا القوافـل منحطـة والأمتعـة إليهـا بـرا وبحرا مجلوبة والبضائـع بهـا نافقـة واهلهـا مياسير تجار وبهـا من الصناعات والصناع مـا ليس بـكـثير من البلاد . وأهلهـا يجـالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق وبهـا تحـل الشذوذ وتبـاع البضائع بالأموال المقنطـرة ولهـا بواد ومزارع والحنـطـة والشعير بهـا موجـودان كـثيران والتين وسائر الفواكـه بهـا منهـا ما يكـفي لـكـثير من البـلاد وبهـا

دار صناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن والحرابي وبها معادن الحديد الطيب » .

وكانت بجاية كذلك في مستوى عاصمة ثقافية فقد أحصى مؤرخ من مواليدها تراجم مائة وأربعة من مشاهيرها في الفقه والطبّ والشعر وعلوم الدين .

ومعلوم أن الذي صدم ابن تومرت في أهل بجاية خلاعتهم ، اذ كانوا يرتدون أزياء خاصة ويتبرجون مثل النساء ويحبون الموسيقى ويشربون الخمر . وكانوا نساء ورجالا يختمون شهر رمضان بالاختلاط في ساحة المدينة ولم تكف هيبة المهدي ولا سياطه لتقويم أخلاقهم . وكانت مملكة بني حماد قد ازدهرت بالرغم من توغّل الهلاليين ازدهارا كبيرا في عهد المنصور . فقد عزّز السلطان كتائبه الصنهاجية والزناتية بالمرتزقة العرب لمقاومة المرابطين واستحوذ على تلمسان فوضع حدا لزحفهم نحو الشرق كما استطاع أن يفتك عنابة وقسنطينة من زيري ويقمع ثورات البربر .

وأخذ نجم بني حمّاد في الأفول بعد موت المنصور ولئن تمكن العزيز (1104 — 1121) من احتلال جربة ودحر العرب من جبال الحضنة فان ابنه يحيى (1122 — 1152) الذي كان يقضي حياته بين القنص والنساء لم يقدر على صدّ هجوم شنه جند من جنوة على بجاية (1136) . وكان طبعا أعجز من أن يوقف زحف الموحدين .

أمّا عبد المؤمن الذي تعزّزت جيوشه فقد قرّر بعد أن أمسك بزمام الأمر في إسبانيا مؤقتا أن يضرب ضربته الحاسمة في المغرب الأوسط فاتجه بسرعة وفي كنف السرية نحو بجاية ودخلت طلائع جيشه بدون عناء مدينة الجزائر وبجاية وكان يحيى قد فرّ منها ثمّ استولى ابنه على القلعة وخرّبها (1151) .

صمود الهلاليين :

أدرك العرب الخطر . فلقد وجدوا أمامهم « القبائلية » منظمين أحكم تنظيم ، قادرين على أن ينتزعوا منهم ماكسبوه من منافع بسبب

ضعف الحكومات القائمة . وتجاوز مشايخ إفريقية خصوماتهم إلى حين ووحدوا صفوفهم لدحر العدو إلى وطنه الأصلي بمحض قواهم فتجمعوا قرب باجة واتجهوا في غير نظام نحو بجاية . وكان عبد المؤمن قافلا إلى المغرب الأقصى فانقلب على عقبيه في متيجة واستدرج العدوّ حتى استشرف سطيف . وكان الهلاليون شاعرين بان الصدام سيكون مصيريا فأخذوا معهم نساءهم وأولادهم ليكونوا رهان المعركة وقيدوا ابلهم حتى لاتحدثهم انفسهم بالرجوع القهقرى ودامت المجزرة أربعة أيام تمكن بعدها الموحدون بفضل انضباطهم من الانتصار ولاذ العرب بالفرار يتعقبهم اعداؤهم إلى أن بلغوا تبسة (1152) ولم يجنح عبد المؤمن إلى أعمال انتقامية ووزع الغنائم على أصحابه ولكنّه ردّ إلى المهزومين عائلاتهم وعامل مشايخهم عند استقبالهم بمراكش بما يفرضه مقامهم .

من الموحدين إلى بني عبد المؤمن :

وإذا جاز لنا الاعتماد على التواريخ التي لا يزال يكتنفها الغموض فإن عبد المؤمن اختار ذلك الظرف بالذات للاستئثار بالحركة الموحدية لفائدة عائلته . فهل صدرت المبادرة منه أو من بعض الشخصيات الموحديّة أم هل أوحى له بذلك قواد من العرب أصبحوا يخضعون لسلطانه ؟ وعلى كل فإن عبد المؤمن قبل بدون تردد تعيين ابنه أبي عبد الله محمّد خلفا له عوضا عن الشيخ أبي حفص عمر الذي سبق تعيينه من قبل . وبعد ذلك بقليل أي في سنة 1156 (راجع رسائل رسميّة عدد 13 و 14) وزّع عبد المؤمن على بقية أبنائه أهمّ ولايات الأمبراطورية . وكان كل واحد منهم محفوفا طبعا بشيخ من الموحدين مكلّف بتكوينه . ومن ذلك التاريخ تم التمييز رسميا بين الأسياد أي سلالة عبد المؤمن والمشائخ أي سلالة سائر كبريات العائلات الموحدية .

والغالب على الظن أن المؤسسات التي استنبطها المهدي بقيت من دون أن يطرأ عليها تغيير في الظاهر الا أنها أصبحت في الواقع بدون محتوى . فقد حلّ نظام ملكي موقوف على عائلة واحدة لايستسيغه البربر محل ما استنبطه ابن تومرت من نظام طريف يتمثل في جمهورية

فيديرالية ارستقراطية يظهر أنّها نالت استحسان هؤلاء البربر . وتقتصر معلوماتنا حول ما أدخله عبد المؤمن من تغييرات في نظام المهدي على كتاب «الحلل الموشية» المجهول المؤلف والمتعلق بصنف الحفظة الذين لم يبقوا في عهد عبد المؤمن مجرّد حفظة للقرآن بل وصفهم لنا المؤلف وهم يتعلمون ركوب الخيل ويتمرنون على السباحة والرماية ويتلقون تكوينا عاما شاملا ، ممّا يوحي الينا بوجود مدرسة إطارات . ولقد أدرك معاصرو عبد المؤمن تمام الإدراك مغزى الاجراءات التي اتخذها . ولئن تقبل أبو حفص عمر وأغلب مشايخ الموحدين الأمر الواقع بين الرضى والسخط فإن عددا منهم لم يخفوا تمردهم وخاصة أخوي المهدي عبد العزيز وعيسى اللذين فرّا من فاس حيث كانا في الإقامة الجبرية وحاولا الاستيلاء على مراكش (راجع البيدق ورسالة رسمية عدد 1) ولكن عبد المؤمن كان رجل الحزم فلم يلبث أن توصل إلى فرض النظام الجديد .

حالة بلاد البربر الشرقية والوسطى ـ النّصارى والهلاليون :

لم تكن هزيمة سطيف النكراء لتضع حدا لزحف الهلاليين . فلقد اكتفى الخليفة بتسمية وال على بجاية ثمّ قفل راجعا إلى المغرب الأقصى . ولئن لم يصب كتلة زناتة بالمغرب الأوسط أذى كبير فقد دها طرابلس وإفريقية من المصائب ما يصعب تلافيه . ففي طرابلس تمكن الغزاة من تعريب قسم من البربر ولكنهم ظلوا عرضة لهجمات قبائل الجمالة التي كان من العسير ملاحقتها . وأوشكت الفلاحة حول المدن ان تنقرض وكسدت سوق التجارة خاصة وتناقص نشاط الموانى بسرعة وخلت برقة من أهلها أو كادت . ولم تسلم إلاّ المدن المحصنّة مثل لبدة او المدن التي ربطت نفسها بمواثيق مع البدو مثل اوجلة (جنوب برقة) التي أبقى عليها العرب للاستفادة من نشاطها البحري وأصبحت البلاد من طرابلس الى الجريد أثرا بعد عين. غير أن الموانى الموجودة في الساحل الشرقي من افريقية عرفت كيف تدافع عن نفسها وهضمت قابس اسيادها الجدد من بني جامع الهلاليين (1099) الذين ساروا حتى غزوة النرمان سيرة رؤساء الحضر همهم ضمان الازدهار الاقتصادي لممتلكاتهم ، وغايتهم تحسينها . وظلت زراعة النخيل على عنفوانها واستبقت التجارة المحلية حيويتها وبقيت

المدن الساحليـة المحصنة في مأمن من الخطر العربـي إلى أن وقعـت في أيدي النصارى . وكـان روجر الثاني الكونت النرماني صاحب صقليـة المتولي آنذاك على مسينا حاول أن يتمـركز بسـواحل افريقيـة للسيطـرة على التجارة بالبحر المتوسط ولـكنه لم يفلح (1118 — 1127) ولقد ذهب به الأمر إلى محاولة تنظيـم حملـة صليبية إفريقيـة بتعاون مـع كـونت برشلونة ومدينـة سافونة ، ولـكن رغبتـه في الاستيلاء على الدول النرمانيـة الأخرى بجنوب إيطاليـا وخصومته مع البابا صرفتاه مؤقتا عن ذلك . فلمّا منحه البابا لقـب ملك (1130) صحّ منـه العزم على تنفيذ مشروعه الذي لم يـزل منشغلا به . وعهـد من حسن حظـه بقيادة حمـلاتـه إلى أمير البحر جورج الانطـاكـي الذي كـان انصرف هو وأخوه عن خـدمة الأمير الزيري بالمهديـة ووضـع تحت تصرّف روجر معرفتـه الواسعـة للغـة العربيّة وخبرتـه بالسواحـل الافريقيـة واستغل روجر ما كـانت عليـه إفريقيـة من اضطراب لفـرض حكمـه على المهدية والاستيلاء على جربة (1134) . ومن هذه الجزيرة سـدد أسطـوله ضرباته على جيجلـي (1143) (Djidjelli) وعلى المـوانـي الصغيرة الموجـودة بين شرشـال وتنس وكـذلك على جـزر قـرقنـة وطرابلس (1196) . ولقـد دفعه تمـكنّه من طرابلس إلى ارساء احتلاله على قواعد دائمـة فركز حـاميـة في كـل ميناء . واستـولى اثناء السنتين التاليتين على قابس والمهدية وصفاقس وسوسة فوضع بذلك حدا لسلطـة بني زيـري . وامتد سلطـانه من طرابلس إلى تونس . وظلـت صفاقس تعيش بصيـد الأسمـاك وبمـا تبقى لهـا من زياتين أما سوسة فكـان موردهـا التجـارة والمنسوجات . وحصر ملك « الصقليين » همه في بسط نفوذه للاستحـواذ على إفريقيـة تاركـا للاهالي في الجهات المحتلـة أمر إدارتهـم محتـرما لعاداتهـم من دون أن يتدخل في خصوماتهـم الدينيـة .

ولئـن احتفظت المدن الساحليـة بشيء من أبهتهـا القديمـة فإن القيروان كـانت في حالة احتضار . فكان الحضر الـذين ارهقتهـم ضـرائب البدو يفارقـون مدنهـم . وأصبحت المنصورية ورقادة أثرا بعد عين . وخرب العرب سهـول الوسط وغربـي إفريقيـة واستولوا على قرطاج وسهـول باجة الخصبـة . أما تونس فإنهـا استطاعت رغم خلافاتهـا الداخليـة وعدم استقرار حكوماتهـا أن تنظـم مع القبائـل القويـة المجاورة لهـا مبادلات تجاريـة

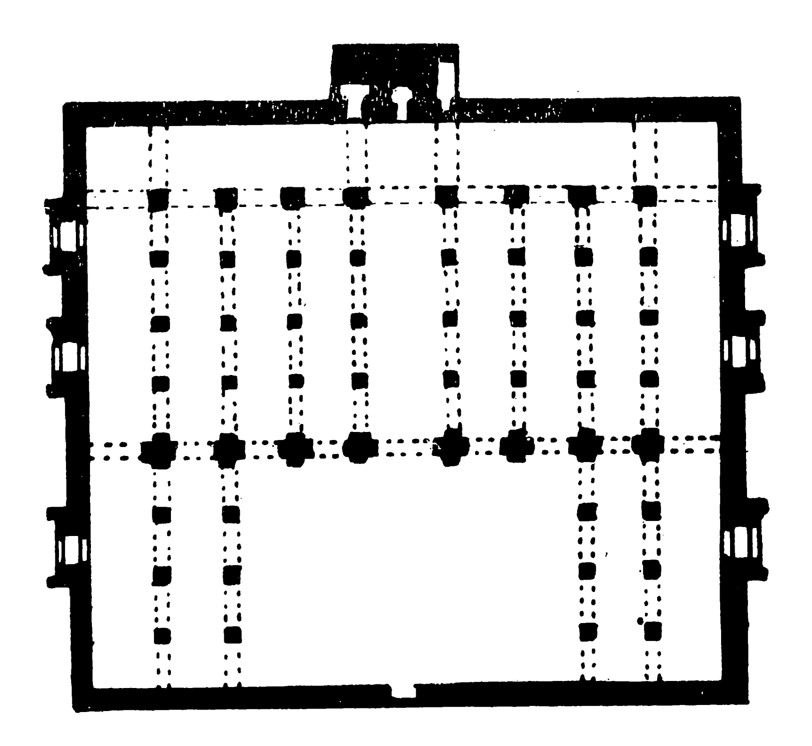
وتنمي بذلك ثروتها . وكان تزويد الجريد بالقمح رهن مشيئة البدو الذين فرضوا هيمنتهم على باغاية واستحوذوا على أراضي الزاب بعد أن اطردوا منها ملاكيها البربر . وكان النّاس لايخرجون من المدن من دون أن يعرضوا بأنفسهم إلى الخطر غير أن هذه الزحفة لم تتجاوز الحضنة والبابور ورأس بوقرعون .

وكانت مدن نوميديا أقل تعرضا للخطر من مدن إفريقية بل إن قسنطينة أبرمت اتفاقا مثمرا مع البدو غير أن انخرام الأمن تفاقم في البلاد كلها .

ولم يقم من طرابلس إلى الحضنة نظام موحّد فكانت العلاقات بين البربر والعرب تتغير بحسب القوى المتقابلة . فإن سيطر البدو على سهل باجة سيطرة كاملة وجعلوا من الملاكين القدامى عبيدا فإنهم فرضوا على أهل باديس (على سفح الاوراس) وباغاية حماية باهظة الثمن وقتية إلا أنها تيسر للتجارة والفلاحة بعض النشاط . وفي المدن المنيعة الواقعة شمالي القلعة فإن المصالحة التي تفرض دفع الدية لأهل القتيل لاتنفذ إذا كان القاتل من العرب . ولم تقدم على التعاون التجاري والفلاحي مع البدو من دون محاربة جديّة سوى تونس وقسنطينة لما كانتا تتمتعان به من وضع ممتاز .

احتلال إفريقيّة :

كان الهلاليون مسؤولين بصفة غير مباشرة عن هجوم النصارى . لذلك لم يبقوا مكتوفي الأيدي . ولئن بدا شعورهم الديني فاترا إذا هو قورن بتدين المرابطين والموحدين فإنه على كل حال تأجج عند احتكاكهم بالكفار حتى أنهم رفضوا الاستعانة بروجر الثاني على الموحدين سنة 1151 . ثمّ إنهم حاولوا مساندة الاضطرابات التي أثارها الضباط في أرض النصارى عندما أمروا بالتمرد على الموحدين غير أن حماسهم لم يصل بهم إلى درجة الاستغناء عن المنح التي كان يغدقها عليهم النرمان وسواء أيدوا مرامي الموحدين أم خشوا كارثة جديدة كالتي نكبوا بها في سطيف فإنهم على كل حال لم يقفوا في وجه الحملة



شكل : 14 رسم مسجد تنملل يبهر الناظر من اول وهلة تناسق المبنى ونظامه .

التي قام بها عبد المؤمن لغزو إفريقية بل إن أهم قوادهم انضموا إلى الموكب حسب ما رواه مؤرخ عربي .

واذا صدّقنا ابن الأثير فإن غزو إفريقية قد تمّ إعداده منذ وقت طويل وبالفعل فإن دخول النرمان إلى المهدية كان سنة 1156 . وسرعان ما أرسل سكان عاصمة بني زيري القديمة المسلمون ، بعد أن لجؤوا إلى زويلة المجاورة لهم ، وفدا إلى عبد المؤمن يلتمس منه إعانتهم على الرجوع إلى مدينتهم . وحظي مطلبهم لديه بكل عناية لكن انقضت أكثر من سنتين لإعداد العدّة قبل أن يشن عبد المؤمن هجومه الذي صمم على ان يكلله بالنصر وغادر مراكش على رأس جيش عظيم بينما كان أسطوله يمخر البحار صوب الشرق (1159) . وكان قد وضع على طول الطريق أكواما من الحبوب لتموين جيشه . وبهر السكان بانضباط جيوش الموحدين. ووضع وصولها إلى إفريقية حدّا للفوضى وأخضع عبد المؤمن الإمارات التي ظهرت على أنقاض امبراطورية بني زيري بين تونس وسوسة ثمّ ضرب الحصار على المهدية . ومرت شهور طويلة ولم تجنح المدينة إلى استسلام مشرف (22 جانفي 1160) إلاّ بعد حصار شديد وبعد انهزام أسطول جاء من صقلية لنجدتها . وبسقوطها انتهى الوجود النرماني بإفريقية ولم يحاول ملك صقلية ردّ الفعل البتة وكان القوم في بلرم يرون من الحكمة عدم المجازفة بالدخول في حرب مع السلطان الموحدي في وقت كانت فيه المملكة أحرص ما تكون على الاحتفاظ بكامل قواها لمجابهة الأمبراطور بربروسا الذي كان يهدّد وجودها بالخطر .

وكان فتح عبد المؤمن لافريقية حدثا بالغ الأهمية في تاريخ المغرب : ذلك أن هذه هي المرة الأولى التي تعرف فيها هذه البلاد منذ أحقاب وأحقاب وربما منذ فجر التاريخ الوحدة السياسية تحت سلطة زعماء أنبتتهم تربتها وأن هذا التوحيد الذي كان شرع فيه الفاطميون بفضل قبائل كتامة صنعه سكان الجبال الحضر ، غير أن عبد المؤمن اتخذ في نفس الوقت الذي أنجز فيه هذا العمل العظيم قرارا سيُساهم في خسرانه . لقد كان شاعرا بقوة العرب البدو في إفريقية فأراد أن يكسر شوكتهم ويحشد الحشود في الوقت ذاته لفتح اسبانيا ولربما كان

يرغب في الاعتماد على رجال مخلصين له يحتاجهم عند الحاجة لتدعيم دولته الفتية . لذلك حوّل بالقوة إلى المغرب الأقصى عددا من القبائل العربية ووطّنها في السهول الاطلنطيّة التي خلت من أهلها بعد إبادة قبائل برغواطة ودكالة التي كانت تمردت قبل ذلك باثنتي عشرة سنة .

وهكذا فإن عبد المؤمن في الوقت الذي حقق فيه انتصار البربر الحضر مكّن العرب البدو من غربي البلاد فنشروا في تلك الربوع نمط حياتهم وأشاعوا فيها عاداتهم الفوضوية .

القلاقل باسبانيا ، ابن مردنيش :

وضعت الاخبار الواردة من اسبانيا حدا لإقامة الجيش الموحدّي بإفريقية .

ولاشك أن الحماية الموحدية على غرب الأندلس كانت تدعمت ، غير أن سائر البلاد وخاصة شرق الأندلس (Levante) كانت خارجة عن سلطة عبد المؤمن وكانت تكوّن دولة مستقلة يحكمها منذ زمن يصعب ضبطه إسباني من أصل نصراني يدعى ابن مردنيش (Martinez ?) وكل ما يمكن تأكيده بدقة هو أن عبد المؤمن كان دعاه منذ سنة 1153 إلى الاستسلام (رسالة رسمية عدد 10) . وعوض أن يدخل ابن مردنيش في طاعة الموحدين ناصبهم العداء فعقد المعاهدات مع جيرانه ملوك النصارى واستغل انصراف الخليفة إلى فتح إفريقية للتوسع في ممتلكاته نحو الغرب وتهديد قرطبة . وما كان عبد المؤمن وهو في أوج عظمته ليسمح بمثل هذا الموقف فعبر بنفسه لأول مرّة المضيق ومكث شهرين في جبل طارق لإصْدار تعليماته على عين المكان (1161) .

وتمكن الموحدون بعناء من دحر ابن مردنيش نحو الشرق وافتكاك غرناطة التي كان استحوذ عليها على حين غرّة من دون أن يستطيعوا القضاء عليه (1162) . وأبى عبد المؤمن أن يرضى بهذا النجاح المنقوص : فاستعان بابنه أبي يعقوب يوسف بعد أن أمر القوم بمبايعته عوضا عن محمد الذي اعتبره غير جدير بالحكم وتمركز في أول سنة 1163 بحصن رباط الفتح الذي كان أمر ببنائه منذ سنة 1150 وحشد فيه جيوشا جرارة

وجمع اسطولا عظيما (راجع روض القرطاس) استعدادا للانقضاض على اسبانيا ، ولكن موته حال دون ذلك اذ ختمت أنفاسه برباط الفتح في شهر ماي 1163 .

حكم الخليفة :

لم يقصر عبد المؤمن طموحه على الفتوحات بل أراد دائما أن ينظم البلاد التي يتم استيلاؤه عليها . وجاء في القرطاس أنه قام سنة 1159 « بتكسير (Arpentage) بلاد المغرب وافريقية من برقة إلى بلاد نول من السوس الأقصى بالفراسخ والأميال طولا وعرضا » واستثنى من هذه المساحة الثلث المتكوّن من الجبال والأنهار والسبخات والمسالك والقفار ، أمّا الثلثان الآخران فقد وظف عليهما الخراج وضبط لكل قبيلة ما يجب عليها دفعه من الحبوب والأموال . وكانت هذه بدعة في بلاد البربر .

وإن هذا المسح لبلاد المغرب الذي يعد استنباطا وفق اليه رئيس دولة حريص على ضمان مداخيل الجباية كان يستمد شرعيته من تصوّر الخليفة للدين ، فقد كان عبد المؤمن يعتبر الطائفة الموحدية دون سواها مسلمة بحق ويكفّر ما عداها من المسلمين ، وحتى الموحدين المتهمين بفتور عقيدتهم فكانت الطائفة تعتبر نفسها محقة في انتزاع أملاكهم وجعلها أحباسا وجبر المقيمين فيها على دفع الخراج . وكانت الدولة تستأثر بجزء كبير من هذا الخراج الذي كان كافيا مع بقية الضرائب الشرعية لسد حاجات الخزينة .

غير أن كل القبائل لم تكن مطالبة بالخراج . ولم يكتف عبد المؤمن وخلفاؤه بحشر البدو في الجيوش المقاتلة بإسبانيا بل استعملهم شرطة في بلاد البربر . وهكذا انتصب قسم من بني هلال على أراضي الطائفة بالمغرب الأقصى وأسند لبني عبد الواد من زناتة جزءا من البلاد الواقعة بين مينا والملوية ، ونزلت قبيلة أخرى في جهة بجاية ولم تكن هذه القبائل « المخزنية » معفاة من الخراج فقط بل كانت هي التي تستخلصه من بعض القبائل الحضر وكانت تملك عبيدا يخدمون اراضيها وتتصرف في

المراعي بـكل حريّة . إلاّ أنها كانت مقابل ذلك مطالبـة بالخدمة العسكرية ، ومنهـا تـكوّن جيش الموحدين .

أبـو يعقـوب يـوسف :

ومهمـا كـان نفـوذ عبد المؤمن فإنه كـان يقـرأ حسابا لحساسيـة المشايخ وتأثيرهم للاطمئنان على خلافتـه . واضطر إلى التراجع في القرار الـذي اتخذه لفائدة أحد أبنائـه ولتعيين ابنه أبـي يعقـوب يوسف خلفا له . وتـرك لنا الاخباريون روايات كـثيرة متضاربة حول تولي أبـي يعقوب الخلافة . وقد أورد ابن خلدون نفسه روايتين مختلفتين لهذا الحدث : فمنهـم من يقول إن العاهل الجديد بويـع من دون صعوبـة تذكـر ، ومنهـم من يؤكـد أنه اصطـدم بمعارضة كـادت تـكون سافرة من أبـي حفص عمر وعدد عديد من مشايـخ الموحدين وأنه لم يتلقب بلقب خليفـة الاّ بعد خمسة أعوام من وفاة والده إثر انتصاره على بني غمـارة المتمردين . وتؤيد الروايـة الثانيـة تـأييدا كبيرا الرسائـل الرسميـة الموحدية التي نشرهـا ليفي بروفنسـال (Levy Provencal) (انظر الرسالة عدد 24) .

لقـد كـان عبد المؤمن ملـكا عظيمـا فاتحا نشيطا ذا آراء طريفـة وصارمة في الشؤون الإدارية وكان صائبا في أحكامه . وترك لابنـه أمبراطورية ممتدة الأطراف تشمـل كـافة بلاد المغرب وجزءا كبيرا من إسبانيا المسلمة .

وآبـى أبو يعقـوب (1163 – 1184) أن يترك هذا السلطان يتدهـور بـل انتصح بنصيحـة أبيـه واستمـدّ جيوشه من القبائـل العربيـة التي كـانت تمثل طاقة لم تفل منهـا صروف الحرب وبفضلها أعاد الـكرة على مردنيش الذي رجـع إلى مناوشة الموحدين بالاعتمـاد على ملـوك أرغون وقشتالة وبرشلونة النصارى (1170) . وذهـب ابن مردنيش ضحية خيانات عائلته ولقي حتفه أثناء حصار مرسيّة ومهد ذلك إلى انتصار أبـي يعقـوب . ودخل أولاد المتمرد في خدمة الخليفـة وانضوت إسبانيـا الإسلاميـة بأجمعهـا تحت سلطـة الموحدين (1172) .

اندلاع الثورة في بلاد المغرب :

لم يظهر أبو يعقوب حزمه في إسبانيا فقط بل أتيحت له الفرصة كذلك في بلاد المغرب . وفعلا فإنه ما أن مات عبد المؤمن حتى تمرّدت غمارة في شمال المغرب الأقصى وجرّوا وراءهم جارتهم صنهاجة . ولم يتمكن أبو حفص عمر من اخماد نار الثورة التي انتشرت من سواحل البحر المتوسط إلى ورغة . واضطر أبو يعقوب في آخر الأمر إلى الاشراف بنفسه على سير العمليات فتم قمع سكان الجبال سنة 1167 (رسالة رسمية عدد 24).

وما كاد الأمر أن يستتب له في هذه الجهة حتى اضطر إلى صرف اهتمامه إلى الطرف المقابل من المغرب : ذلك أن سكان قفصة الذين استنزفهم اسيادهم الموحدون شقوا عصا الطاعة وأمروا عليهم رجلا من سلالة الدولة التي كانت تحكمهم قبل الفتح الموحدي . وفي هذه المرّة أيضا كانت المواجهة ضعيفة جدا في أول الأمر : ثمّ إن المتمردين كانوا يجدون تشجيعا من مغامر أرمني الأصل يدعى قراقوش استقر بطرابلس ابتداء من سنة 1172 وكان ينوي ولا شك الاستيلاء على إفريقية. وام تخمد نار الثورة الاّ بعد أن حاصر أبو يعقوب قفصة واستحوذ عليها (1180) . ورغم أن الخليفة نقل إلى المغرب الأقصى عددا من العائلات العربية من قبيلة رياح المتمردة فإنه ترك بلاد البربر الشرقية وهي تعاني مرارة المجاعة وتشكو انخرام الأمن بسبب قطاع الطريق وتستعد دائما لاحتضان القواد الذين كانوا يدعون إلى التمرد .

الجهاد في إسبانيا :

وما كاد أبو يعقوب ينتصر على ابن مردنيش حتى اتفق مع النصارى على هدنة تدوم سبع سنوات . وتم في الجملة احترام هذه الهدنة طيلة بضعة أعوام ثمّ خرقها النصارى الذين أصبح يتزعمهم ألفنسو التاسع صاحب ليون . وكان أبو يعقوب منشغلا بشؤون إفريقية فلم يرد الفعل في أول الأمر ، وفي سنة 1184 قام بهجوم على مدينة شنترين حيث استشهد وهو في السادسة والاربعين من عمره وقد خلفه ابنه أبو يوسف يعقوب من دون صعوبة ولم يتجاوز سنه الخامسة والعشرين تقريبا وقد لقب فيما بعد بالمنصور .

ثـورة بـنـي غـانيـة :

كـان شرقي بلاد المغرب وأوسطهـا يعانيـان ويلات البدو الذين مـا انفـكوا يوالون هجوماتهم . وكـان زمام الأمر يفلت فيهمـا شيئًا فشيئًـا من أيدي الموحدين فـكانت المغامرة العجيبة التي قـام بهـا فارسان من ميورقـة عاملا جديدا من عوامل الانحلال . ولم يكـتف بنوغـانيـة المرابطـون بإنشاء إمارة في الجزائر الشرقيـة (Les îles Baléares) لفرض غرامـات على النشاط التجاري بالبحر المتوسط . ولـم يكـونوا ليجهلـوا ما كـانت تستهدف لـه إفريقيـة من ثورات ولا ما كان يساور سكان عاصمـة بني حماد القديمـة من غضب أو ما كانت تشكوه الحاميات الموحدية من ضعف . وفجـأة نزل علي بن غانيـة على رأس أربعـة آلاف من الملثمين قرب بجاية واحتل البلدة بدون عناء (13 نوفمبـر 1184) ولم يجد صعـوبة في كسب تأييـد أمراء بنـي حمّاد المخلوعيـن وخاصـة قبائـل بني هلال . ومـا لبث أن دخل عنـوة الجزائر العاصمـة ومليانة وقلعـة بني حماد بمعونة العرب ثمّ ضرب الحصار على قسنطينة . وكـان على الخليفـة الجديد أن يبذل مجهـودا جبارا في المغرب الأوسط بعـد أن عاد الأمر إلى نصابه في إسبانيـا لاسترجاع هـذه المدن وفك الحصار على قسنطينة واضطرار علي وأخيـه يحيـى الى اللواذ بالجريد . وشاءت الأقدار أن تدفـع ببنـي غانيـة إلى جهـة كـانت متهيئة أكـثر من غيرها لتحقيق مطـامحهـم . ذلك أنهـم وجدوا قبـائـل مناوئـة للوجود الموحدي واستطاعوا ان يربطـوا الصلـة مع جنـد قراقوش التركماني الذين سيطروا بعـد على فزان وطرابلس بالاعتمـاد على بني سليم وهـي قبيلـة كبرى من البدو لم تدخل من قبل بلاد المغرب .

وقد احتل علي وقراقوش إفريقية باستثناء تونس والمهديـة وذلك بمقتضى سلطـات استثنائيـة عهـد لهمـا بهـا الخليفـة العباسي . وتـمكّن المنصور على رأس جـيش صغيـر منضبـط مـن الحـاق الهـزيمـة بهمـا قـرب فـاس والاستيلاء على قفصـة التـي سلط عليهـا شديد العقاب لتورطهـا مـع المـرابطين ثمّ نقـل إلى المغرب الأقصى عـائلات القبائـل العربية الثلاث جملة ولم يدم هذا الانتصار طويلا . فقـد كـانت وضعية إفريقيـة الشاذة تحـول دون اعتمـاد أسياد المغرب الأقصى على ولائهـا . وظهـر بالجـريد يحيـى

الذي خلف أخاه عليا واستعان ببني سليم للتخلص من جند قراقوش التركماني وكان التحالف معهم شديد الوطأة عليه ثمّ دخل المهدية وكان يحكمها أمير موحدي استقل عن الخليفة وحصّن قابس التي جعل منها عاصمة له ، واحتل باجة وبسكرة والقيروان وعنابة وافتك في آخر الأمر مدينة تونس (1203) . وهكذا استقام له ، بالاعتماد على جيش معظمه من كتائب بني سليم وبني هلال العربية ، أن يؤسس في بلاد البربر الشرقية أمبراطورية مرابطية تمتد من عنابة إلى جبال نفوسة وتتوغّل جنوبا حتى بسكرة.

الأرك (Alarcos) .

واكتفى المنصور بأن قام بحملة محدودة في الزمن بإفريقيا . والواقع أن المغرب الأقصى وخاصة إسبانيا كانا شغله الشاغل . ولقد وجد عند اعتلائه العرش الوضع باسبانيا صعبا إذ أن الفونس الثامن ملك قشتالة نجح بمعيّة ملك أراغون في اغتصاب كونكة من الموحدين بعد حصار طويل (1177) بينما كان ملك ليون بصدد التوغل في إسترمادورا (Estramadure) وكانت هذه الانتصارات مدعاة إلى شن هجوم شامل على المسلمين . واكتسح أسقف طليطلة (Tolède) القائد الحربي والشخصية الكنسية معا مقاطعتي قرطبة وجيّان (Jean) على رأس فرسان القنطرة الذين تأسست جمعيتهم منذ قليل وقد أذنت كارثة شنترين (Santerem) بانتهاء عهد أبي يعقوب . واقتصر الخليفة المنصور على تدارك الموقف بسرعة . ثمّ لمّا انتهى من إفريقية أعدّ العدة للأخذ بالثأر . فحاول الفنسو درء الخطر وطلب من المجالس الاعتمادات لمواجهة المعركة القادمة واستنجد بليون ونافار غير أنه لم يتصل بالإعانات التي كان يعوّل عليها بل إنه لم يستطع استغلال إمكانيات قشتالة العسكرية كلّها . ورغم ذلك فإنه لم يتردد في الرمي بجيشه الذي كان يعوزه التنظيم والانضباط في وجه الجيوش الموحدية التي ألحقت به هزيمة نكراء بالأرك غربي موقع سيوداد (Ciudad réal) الحالي فتيسر للمنصور حينذاك أن يواجه حملاته ضد طليطلة ومجريط (مدريد) والقلعة وكونكة .

الامبراطورية الموحدية في عهد المنصور :

يعتبر غالب الاخباريين العرب عهد يعقوب المنصور أزهى عهد الامبراطورية الموحدية . ومنذ سنوات قليلة أي في سنة 1941 خصه محمد الرشيد مولين وهو مؤرخ مغربي بدراسة باللغة العربية عنوانها «عهد المنصور الموحدي» . وإذا استثنينا تمرد بني غانية الذي سرعان ما تم إخماده بصورة مؤقتة على الأقل فإن عهد المنصور امتاز في الواقع بالهدوء ، فلم تشر القبائل حتى في الوقت الذي كان فيه المرابطون يحاولون استعادة سلطانهم ولم يكد ينشب خلاف بين أفراد العائلة الحاكمة ولم يصدر من مشايخ الموحدين أي ردّ فعل وكأنهم اعتبروا تفوق بني عبد المؤمن أمرا واقعا ، وانتشرت ألوية السلام « وكانت فترة تستطيع فيها امرأة أن تسافر من برقة إلى وادي نون من غير أن يضايقها أو يكلمها أحد » .

وكانت كذلك فترة ازدهرت فيها حركة تشييد المعالم الموحدية التي بدأت في عهد عبد المؤمن وكانت مساجد كبيرة تشيّد وأخرى تدشن . وقامت مدينة جديدة عملاقة حول حصن رباط الفتح . وأنجزت بمراكش أشغال ذات مصلحة عامة : من قنوات لجلب المياه وبناء مستشفى وتعبيد طرقات . وكان الأمير واسع الثقافة مولعا بشؤون الفكر فعج بلاطه بالشعراء والعلماء والفلاسفة وسطع فيه نجم ابن رشد قبل أن يتنكر له الدهر إلى حين . وبينما كانت الأمبراطورية الموحدية في ازدهار اعترتها تغييرات جذرية عجلت بزوالها ، وليس لنا عن ذلك سوى معلومات ناقصة وغير دقيقة في بعض الأحيان ممّا يضطرنا إلى الاكتفاء بالفرضية دون اليقين . غير أنه من الثابت أن يعقوب المنصور انشغل أيّما انشغال بالمذهب الموحدي الذي كان فقد من حيويته عندما صار في عهد أبيه وجدّه « المذهب الرسمي » وأرجع له عنفوانه . فأمر اليهود بحمل زي خاص واضطهد المالكية وأحرق كتبهم (أورد المراكشي قائمة المؤلفات المالكية التي رآها بنفسه تتآكلها النيران بمدرسة فاس) وضايق الفلاسفة . ولم يقف الخليفة عند هذا الحدّ بل نادى بوجوب الرجوع إلى أصلي الدين : القرآن والسنة دون سواهما بما في ذلك المهدي نفسه كما لاحظه المراكشي . بل أكد الخليفة المأمون الموحدي فيما بعد

ضمن رسالة وردت في كتاب « الحلل الموشية » المجهولة الكاتب أن المنصور كان ينفي في سرّه نظرية ابن تومرت وأنه لو لم يعاجله الموت لصدع برأيه . ولئن أعوزتنا الحجج لتأكيد ذلك أو نفيه جاز لنا على كل حال الاعتقاد بأن شيئًا من التململ ساد مراكش في السنوات الأخيرة من عهد المنصور وأن مقومات المذهب الموحدّي لم تسلم من الطعن .

الخليفة النّاصر :

ولم يكن خليفة المنصور في مستوى يؤهله لمعالجة مثل هذه الأزمة الخطيرة . ويمتاز وصف المراكشي لمحمد الناصر (1199 — 1214) بما درج عليه الاخباريون المغاربة من وصف دقيق موح للملوكهم : فانظر كيف تحدث عن هذا الملك الشاب وهو في الثامنة عشرة من عمره : « كثير الإطراق شديد الصمت ، بعيد الغور . كان أكبر أسباب صمته لثغا كان بلسانه ، حليما شجاعا ، عفيفا عن الدماء ، قليل الخوض فيما لا يعنيه جدا » . ويمكن أن نضيف إلى ذلك ما جاء بالقرطاس لابن أبي زرع : « لاتكاد تصله الأمور الا بعد الجهد [معجب] برأيه مستبد في أموره وتدبير مملكته بنفسه » . وهكذا فإن امبراطورية ممتدة الأطراف ، أشد ضعفا وأقل انسجاما مما تدل عليه الظواهر ، ورثها شاب خجول ميّال إلى العزلة

خضوع إفريقيّة — وحكم أبو محمّد بن حفص :

لقد نال انتصار الموحدين في الأرك مؤقتا من طاقة النصارى على الصمود . فاغتنم الخليفة الناصر الفرصة لتركيز جهوده على مقاومة المرابطين ببلاد البربر الشرقية التي ضاق سكّانها ذرعا بطغيانهم . واسترجع أسطوله مدينة تونس ودخل جيشه قفصة ثمّ المهدية . ولاذ يحيى بالصحراء بعد أن انهزم في واقعة حامية الوطيس .

ورأى الناصر أنه لايمكن لإفريقية أن تصمد في وجه المرابطين من جديد الاّ إذا أسندت مقاليدها إلى أيد من حديد . فلم يختر من بين أفراد عائلته الوالي الذي كان يريد أن يضعه في مقام نائب الملك بل

عيّن الشيخ أبا محمّد الذي علا شأنه أيما علو بعد انتصاره على الفونسو القشتالي وعلي يحيى . واكتسى هذا الاختيار أهمية بالغة نظرا إلى أن أبا محمّد هوابن لأبي حفص الذي لولا ولاؤه لما تيّسر لعبد المؤمن أن يصبح خليفة . ويؤكد مؤلف عربي أن الناصر لم يظفر بموافقة الشيخ الاّ عندما صرح له أنّه يعتبره ندا له وأنه لا يتأخر عند الاقتضاء في التخلي عن الحكم بمراكش لفائدته . ومعنى هذا أن الحفصيين كانوا يتمتعون بمنزلة ممتازة جدا ضمن الطائفة مما حفز الخليفة على خصّهم بمكانة مرموقة في الامبراطورية . ولم تكن المسؤولية التي اضطلع بها أبو محمّد هينة . فقد وجب التصدي إلى الهجومات المتوالية التي كان يوعز بها يحيى المتدفق نشاطا وحيوية ، وكذلك مواجهة عرب جيش الموحدين بعرب من قبائل معادية وعندما خفق انتصاره بشبرو (قرب تبسة) بإعانة بني سليم التجأ يحيى إلى المغرب الأوسط فعاث عرب جيشه وزناتة معا في البلاد فسادا بعد أن تخلصوا من وطأة الصنهاجيين . ولم تقم لتلك الجهة قائمة بعد ذلك . ولا حظ ابن خلدون بعد مرور قرنين بقوله : « فلم تبصر بها نار ولا لفحت لها بنافخ ضرمة ، ولاصرخت لها آخر الدهر ديكة » . ولم يلعب يحيى ورقته الاخيرة ببلاد البربر بل في طرابلس حيث طارده أبو محمد . وقد انضم اليه مشائخ القبائل العربية التي كانت تخشى أن يحول الحكم الحازم بإفريقية دون الانتجاع والنهب . وكانت واقعة جبل نفوسة يوما من أخطر أيام العرب ببلاد البربر . ووضع بدو جيش المرابطين عائلاتهم وأموالهم رهانا للمعركة : فخسروا كل شيء ولم يجدوا بدا من أن يلوذوا بالفرار نحو الجنوب (1209) غير أن يحيى لم ينته أمره . فلما أطرد من إفريقية وطرابلس تمكن من صلب حليفه السابق قراقوش والاستيلاء على ودان (في واحة جفرة) والواحات المجاورة (1212) في انتظار الفرصة المؤاتية للظهور من جديد ببلاد المغرب التي كان أبو محمد حينذاك حائلا دونها .

وهكذا أصبحت إفريقية في مأمن من خطر المرابطين الاّ أن الثمن كان يتمثل في استقلال الوالي استقلالا يكاد يكون كاملا . واتضح أكثر من ذي قبل أن هذه المقاطعة كانت بعيدة جدا عن مراكش وأنّ مراسها من نوع خاص بحيث كان يتعذر أن يكون للخليفة عليها سلطة حقيقية .

ومن جهة أخرى أكد تعيين حفصي على رأس تونس أن نفوذ مشايخ الموحدين ظل قويا وأنه كان يتعزّز ولاشك بضعف شخصية الخليفة .

العقاب Las navas de tolosa

كان الخليفة يعتمد كل الاعتماد في مقاومته للمرابطين على الشيخ الحفصي خاصة وأنه كان منشغلا كليا بشؤون إسبانيا . وكان الفونسو يعد العدة للأخذ بالثأر بعد هزيمته بالأرك . فاستنجد بكل ملوك اسبانيا وبملك البرتغال وحتى بالبابا الذي دعا إلى حرب صليبية ضد الموحدين .

ولبى الدعوة فرسان ومغامرون أتوا من كل صوب وحدب . وأدرك الناصر خطورة الموقف فغادر مراكش وترأس بنفسه اركان الجيش (فيفري 1211) . ودامت الحرب مدّة طويلة وكانت الكارثة في النهاية ذلك أن جيش النصارى الجرار الذي ساهمت فيه اسبانيا كلها ما عدا ليون ، عبر جبال قرطبة (Sièrra morena) وألحق بالموحدين في العقاب هزيمة حاسمة (16 جويلية 1212) ولم يتوقف النصارى عن زحفهم الكاسح نحو الجنوب الاّ بسبب انتشار وباء الطاعون . وحاول اللواء أبو سعيد تدارك الموقف فحالفه التوفيق أول الأمر ولكنه مني بهزيمة جديدة (1213) وبعد عام مات ألفونسو بينما أخذت دولة الاسلام في اسبانيا في التصدع .

تصدع الأمبراطورية :

لم يكن الخليفة في مستوى يمكنه من السيطرة على الموقف . فرجع إلى المغرب وتنازل على العرش لفائدة ابنه يوسف المستنصر ولقي حتفه في ظروف لاتزال إلى اليوم غامضة طالما ان روايات الاخباريين تختلف الواحدة عن الأخرى (ديسمبر 1213 أو جانفي 1214) . وكان المستنصر (1214 — 1224) في السادسة عشرة من عمره غارقا في ملذّاته فناءت كتفاه بثقل المسؤولية ولئن خفت عنه وطأة إفريقية بإسنادها إلى أبي محمد فقد افلت زمام المغرب الأوسط من يديه عندما أصبح مرتعا لزناتة ، بل إن بني مرين الخاضعين حتى ذلك العهد إلى سلطة الموحدين تطاولوا

في المغرب الأقصى ذاته فوجهوا عصابات لنهب البلاد بلغت التل . وزاد موت أبي محمد (1222) الطين بلّة ، وعين مجلس الحكومة ابنه خلفا له ولكن الخليفة كان يتوّجس خيفة من استقلال الحفصيين فاستقدمه وأحل محله واليا عاجزا . واستغل يحيى الظرف فظهر من جديد في ربوع المغرب الأوسط وظلّ يناوش السلطة طيلة عشر سنوات واقتصر نشاطه في آخر الأمر على مجرد أعمال ارهابية (1226 — 1237) .

وحدثت حزازات بين المشايخ في أواخر العهد الموحدي (1224 — 1226) فتمسكوا بالتقاليد واشترطوا في الخليفة بيعة الخاصة وبيعة سلالة عبد المؤمن معا ، ويجدر أن نذكر أن المتهافتين على السلطان كانوا يكسبون ودّ القبائل العربية المستقرة بالمغرب الأقصى مما جعلها بالرغم عنها تقوم بدور متزايد الأهمية في الحياة السياسية التي كان يكتنفها الغموض حينذاك وهكذا تيسر شيئاً فشيئاً لهؤلاء العرب الذين لم يكد يمر على وجودهم بالبلاد ثلاثة أرباع القرن أن يصبحوا قوة سياسية لها تأثير حاسم أحيانا على الأحداث وستبقى كذلك حتى مطلع القرن العشرين .

وقضى أبو محمد عبد الواحد خنقا (1221) ومات خلفه العادل غرقا في بركة بالقصر (1227) وطالب بالخلافة في الأندلس المأمون أخو العادل وفي مراكش يحيى بن الناصر مرشحّ المشايخ . وأتاحت الحرب الأهلية للنصارى التدخل في شؤون المغرب . فزود الملك فريديناد الثالث (Ferdinand III) المأمون باثني عشر الف فارس لفتح مراكش (1130) وكان انتصار المأمون إيذانا بشن حملة شعواء ضد الموحدين . إذ أمر بتقتيل المشايخ وعائلاتهم واتخذ قرارات سياسية مناقضة لما سنه أسلافه وتبرأ من أعلى منبر القصبة من مذهب المهدي ولم يتردد في لعنه وأعلن عن اعتناقه مذهب السنة .

ودفع المأمون ما كان بذمته من دين نحو ملك قشتالة فسمح بتأسيس كنيسة نوتردام حيث تمكن النصارى من إقامة شعائرهم على مرأى ومسمع من المسلمين . ولئن هدمت هذه الكنيسة منذ سنة 1232 فان الأسقفية بمراكش بقيت على نشاطها حتى القرن الرابع عشر ما وجدت قوات مسيحية متمتعة بحق أداء واجبها الديني على الأقل بصورة خاصة . بل إنه تعهد بالحيلولة دون ردّة النصارى المنضوين تحت لوائه بينما كان لا يمانع

في اعتناق رعاياه للمسيحية عند الاقتضاء . وهل من دليل أقوى على ما دها الدولة الموحدية من تهافت منذ سنة 1228 من قبول عاهلها لمثل هذه الشروط؟

وغنم فرديناد الثالث غنما ثانيا من هذه الأزمة اذ أنه لما أصبح ملكا على قشتالة وليون معا ، لم يواجه دولة موحدّية متكتلة بل إمارات إسلامية صغيرة ببلنسية ومرسيي وأرجونة (في الشمال الغربي من جيان قرب أندوجر) . فأعلن صاحب مرسية عن تبعيته (1241) مع العلم أنه أعظم ملوك هذه المدن الثلاث والحاكم على كامل جهة الجنوب الشرقي (من لقنت (Alicante) إلى الحامة (El Hamma) والتمس ملك أرجونة (Arjona) التحالف معه وكان اتخذ غرناطة عاصمة له (1246) . ولم تمض سنتان حتى سقطت إشبيلية وأصبح فرديناد سيدا على أسبانيا المسلمة كلها باستثناء مملكة غرناطة ، حيث أمكن لدولة بني نصر أن تدوم قرنين ونصفا وأن تسطع فيها الحضارة الأندلسية بآخر أنوارها ومات فرديناند في الوقت الذي كان يتهيأ فيه للنزول بالمغرب الأقصى (1252) وبه انتهت الفترة البطولية من « استرداد » (La reconquista) الممالك الاسلامية بإسبانيا

واستهدف السلطان الموحدي في بلاد البربر إلى ضربات لا تقل قساوة عما دهاه بالأندلس فقد اغتنم يحيى غياب الخليفة الذي كان مشغولا بحصار سبتة كما استغل ما أثارته آراؤه تجاه المذهب الموحدي من معارضة فاستولى على مراكش . ولقي المأمون حتفه وهو في طريق العودة إلى عاصمته (1232) واضطر ابنه الشاب الرشيد (1232 — 1242) إلى مواصلة الحرب ضد يحيى ولم يسترجع عاصمته إلاّ بعد اغتيال منافسه .

ونتيجة للثورة التي أحدثها النزاع على الحكم تصدعت وحدة الامبراطورية التي كانت أخذت الهزائم باسبانيا منها مأخذا . فقد أعلن أمير تلمسان يغمراسن بن زيان عن استقلاله وأسس مملكة بني عبد الواد الزناتية (1235 — 1236) في إفريقية فقد قطع الوالي الحفصي أبو زكريا صلته بالخليفة (1228) ثمّ تلقب بلقب أمير واتخذ مدينة تونس عاصمة له (1236 — 1237) .

وفي سنـة 1238 اعتـرفت إشـبيـليـة بالرشيـد خليفـة وبعـد أشهـر أبرم ابن الأحمـر من بني نصـر صاحب غرناطة اتفاقا مع عاهل مراكش . ويتبيّن من كـل هذا مدى الغمـوض الذي كـان يسود أشلاء الامبراطورية الموحدية . وتفاقم الأمر في عهـد السيد (1242 — 1248) إذ والى الحفصيون هجوماتهم حتى بلغوا تلمسـان بينمـا تسرب بنو مرين حتى مكنـاس وجمعوا الضرائب حيثما استقـام لهم الامـر وحينئذ بذل السيـد أكبـر مجهـود وآخره للرجوع بالامبراطورية الموحدية إلى ما كانت عليـه من شأن عـلى الأقل في بلاد المغرب . وقرر أن يواصل السير الى تونس وأجبر بني مرين على مصالحتـه وحتى على تزويده بـكـتيبة رمزية ، وكـان في الحسبان أن يسحق بنـي عبد الواد سحقـا ولـكنه وقـع في كمين وقتـل . وولى الجيش على أعقابـه نحـو المغرب الأقصى وكـان بنـو مرين في انتظـاره عند مروره من الملوية إلى أجرسيف : فقضوا عليه القضاء المبرم وما لبثوا أن استولـوا على فاس ولم يبـق من الحكم الموحدي الا شبحـه .

واضطر عمـر المرتضى (1248 — 1266) الذي كـانت ممتلـكاتـه يحـدهـا من جهـة الشمال أم الربيـع إلى دفـع إتاوة لانقاذ مراكش (1262) وبينمـا كـان الموحدون يتخبطـون في خضم كـل هذه المخاطـر زادت خلافاتهـم العائليـة الطين بلـة . فلقـد انضم أبو دبوس ابن عم المرتضى إلى الغـدو وخلـع الخليفة وحلّ محلـه (1266) فتعلل المرينـي بخيانـة حليفـه وبادر باحتلال مراكش وبذلك دالت الدولة الموحدية (سبتمبر 1269) .

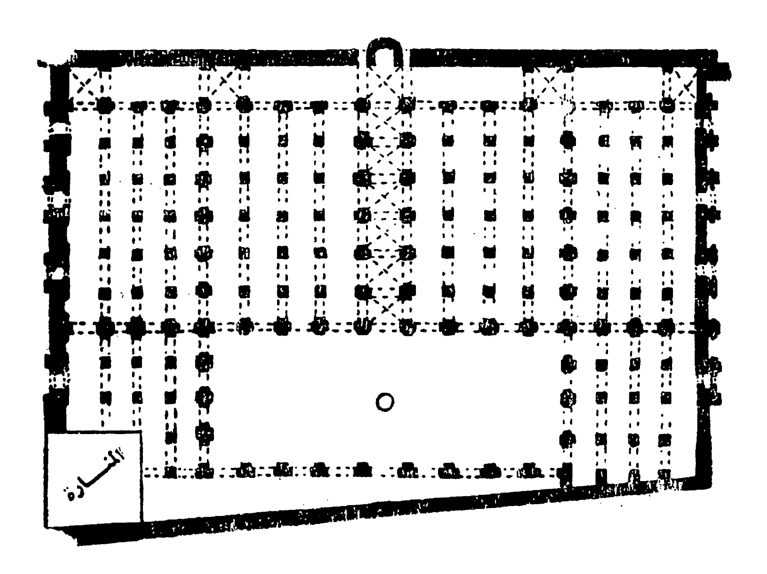
4) الحضارة الموحدية

الخلفــــاء :

بدا سلطان الموحدين خطرا على الحضارة ذلك أن المهدي كان لايتسامح في مجال العقيدة الدينية وينكر الاستهتار في اللباس ويأمر بتحطيم آلات الطرب . وقد جاء في « القرطاس » أن أول ما قام به عبد المؤمن عند دخوله فاس تجْصيص الزخارف المنحوتة والتذهيبات الموجودة في الجامع الكبير . ومن الممكن أن يكون الموحدون في أول عهدهم قد جرموا زخرفةِ المعالم لأنّها لاتتماشى مع نزوعهم إلى التقشف على أنه لو فرضنا أن ذلك كذلك فإن مثل هذه المشاعر سرعان ما تضاءلت أمام مقتضيات السلطة وخاصة عند الاحتكاك بالوسط الأندلسي .

فلقد أذن عبد المؤمن ببناء عدّة مساجد كثيرة الزخرف ومنها بناؤه مرّتين للكتبيين إذ هدمت الأولى بامر منه نظرا لوقوع خطإ في وجهتها وكذلك مسجد تنمْلل. ولم يحظ الشعراء بدعوة عبد المؤمن الا في أواخر أيامه بينما كان مقيما في اسبانيا .

وابتداء من عهد « أبو يعقوب » أصبح من المتعذر فصل إسبانيا عن المغرب أو بالأحرى المغرب عن إسبانيا التي أصبحت مقرهم المفضل فقد نزع ابن عبد المؤمن عنه ثوب التعصب الديني. وأصبح يؤثر اشبيلية عاصمة الملذات على قرطبة كعبة رجال الفكر. وكان رغم ذلك ولوعا بالثقافة حتى أنه أثار بتبحره في الفلسفة تعجب ابن رشد عند اجتماعه به أول مرّة وكان يأنس بمجلس ابن طفيل إلى حدّ أنه كان يبقى بالقصر في مجلس السلطان أياما ولياليَ من دون أن



شكل 15 ـ رسم جامع الكتبية بمراكش .

يظهـر للناس حسب ما رواه أحد مريدي هذا الفيلسوف . وأمر ببناء الجامع الكبير بإشبيلية ووضـع أسس منارته جيرلدا الشهيـرة وخط بمراكش موضع القصبـة وأقام أسوارها وشيّد فيهـا قصرا وقد عفا أثرهمـا اليوم .

وكـان المنصور مثل والده متشبعـا بالثقافـة الأندلسية ، ولم يـكن قائـد جيوش فقـط بل كـان بناء يرجـع اليه الفضل في تشييد مسجدالقصبة بمراكش ومجمـوعة الأسوار والأبواب العظيمـة الموجودة بالرباط ومسجد الحسن الممتد الأطراف بالرباط أيضا الذي لم يقـع إتمـامه . وانتشر الفـن الأسباني الموريسكي في بلاد البربر بفضـل الخلفاء الموحدين . أمّا البربـر والعرب الذين تـكوّنت منهـم جيوش الاحتلال بمـدن إسبانيا فإن التأثيرات الأندلسيـة وجدت اليهـم سبيلا هم أيضا .

النّشاط الاقـتصـادي :

لمعـت الحضارة الأندلسية حينذاك لمعانا زاد تألقـا باستتباب الأمن الذي حققه الموحدون عند ممارستهـم للحكـم . فقـد وضع الخلفاء حدا للفوضى

المالية التي سادت في عهد ملوك الطوائف وشجعوا الزراعة في « بلاد البركة » كما وصفها كاتب عربي من القرن الثاني عشر . وظلت الصناعات مزدهرة ونفقت تجارة دود الحرير في جيان . وعمرت لقنت بعدد من دور الصناعة ، وبلغ عدد مناسج الحرير ثمانيمائة بالمريّة التي كانت تنتج كذلك آلات من النحاس والحديد .

وكان لهذا النشاط الصناعي أثره في المغرب فكانت سبتة مثل شاطبة (Jativa) مشهورة بصناعة الورق المعروف بالسبتي وعلى غرارها كانت فاس عامرة بالطواحين لنفس الإنتاج .

وكانت التجارة نشيطة جدا واشتهرت لقنت والمريّة وقرطبة بأسواقها ولم تقتصر اسبانيا على تزويد المغرب الأقصى بما تنتجه غاباتها من خشب بل كانت تصدر اليها كذلك الحبوب والمصنوعات والكتان والمنتوجات الشرقية وأدخل الموحدون تغييرات على نظام السكة الذي سنه المرابطون ورسموا « في دائرة الدينار شكل مربع في وسطه وملء من أحد الجانبين تهليلا وتحميدا ومن الجانب الآخر كتبا في السطور باسم المهدي واسم الخلفاء من بعده » ، واختاروا وحدة سكّتهم ضعف ما كانت عليه لتماثل في وزنها الدينار القديم .

ولم تتاجر بلاد المغرب مع اسبانيا فقط بل إن تونس وبجاية وقسنطينة ووهران وتلمسان وسبتة (حيث كان يوجد فندق مرسيلي سنة 1236) كانت تتبادل البضائع مع بيز (Pise) وجنوة (Génes) والبندقية (Venise) ومرسيليا . وكشفت لنا النصوص التي شرحها أ. أ. سايوس (E - A - Sayous) عن الطرق التي كان يتوخاها تجار افريقية في المضاربات التي كانوا يعقدونها مع النصارى .

كان المسلمون أول من نظموا أساليب تجارتهم حسب مقتضيات السوق العالمية فلمّا جاء عهد الموحدين حسنّوا طرقهم فاقتبسها منهم النصارى . ولم تنفك الروابط والمبادلات بين النصارى والمسلمين في اطراد رغم فوارق الدين بل رغم تكاثر القرصنة التي أفلت زمامها من الملوك الأفارقة ولم يقتصر التجار النصارى في القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث

عشر على المجيء إلى تونس والمتاجرة بها بل استقروا فيها . وكانوا يشترون من بلاد المغرب خاصة جلود الضأن والمعز والشمع ويبيعون بها الأقمشة والمنتوجات الشرقية وحتى الخمر .

وكان تجار بيز أكثرهم نشاطا إذ تمكنوا من إبرام اتفاق لتأمين أشخاصهم وبضاعتهم بعقد اتفاق بسيط (1157) . وخصص لهم فندق لإيداع منتوجاتهم وعوملوا معاملة حسنة .

وفي مطلع القرن الثالث عشر كتب تجار من مدينة تونس رسائل وديّة وحارّة لتاجر من بيز كان غادر المدينة إثر عقلة وأعطوه كل التطمينات . كتب له في إحداها ترجمان قائلا : « لا تتردد في الرجوع وستجد حيث حللت الترحاب أنت ومن معك . فسوق البضائع نافقة وفي وسعك أنْ تقوم بكل الشراءات التي ترومها » وأردف دبّاغ مسلم في رسالة أخرى قائلا : « إن الحالة والتجارة على ما يرام أحسن ممّا كانتا عليه عند رحيلك ستنزل مكرما مبجّلا مثلما كان ذلك في السابق » وهذه الرسائل تدل على ما كان بين تجار بيز وتونس من العلاقات الشخصية الطيّبة . وهكذا كان لأهل بيز في إفريقية تجارة نافقة . وكانوا يُبادلون بالخصوص الحبوب بالصوف والجلود والشب والشمع . وكانت ثقة المسلمين بهم كافية حتى أنهم يمهلونهم أحيانا في الدفع .

وكان أهل جنوة ومرسيليا يستعملون الطرق المعروفة في الأسواق الأوروبيّة . ومنها القرض المتداول الذي ليس فيه ربا مبدئيا والقرض البحري الباهض التكاليف إذ يتحمل صاحب المال وحده ما قد ينجر عن أخطار البحر ومنها العقد الذي يساهم الدائن بمقتضاه في أرباح التاجر ، ومنها الشركة التي تقضي بتوزيع المرابيح بين العمل وأسهم المشتركين . وكان تجار جنوة هم أول من استعمل عقود المبادلة مع تونس ، كما أن تجار مرسيليا رصدوا أموالا كثيرة في حقل التجارة والنقل . وتدل العقود العشرون التي أمضاها أصحاب رؤوس الأموال التجار المسمّون مندووال (Manduel) (بين 1212 إلى 1246) على أنهم باعوا ببجاية وسبتة ووهران وتلمسان بواسطة بعض اليهود نقودا عربيّة (قيمة نصف درهم) كانوا يضربونها في مونبيليه (Montpellier) قصد التصدير .

أما أهل البندقية فإنهم لم يحتلوا مكانة مرموقة في مدينة تونس الا في حكم الحفصيين .

الجيش والأسطول :

أنشأ الموحدون جيشا محكم التنظيم سعيا لبسط نفوذهم على بلاد البربر وإسبانيا بالخصوص فانتدبوا الجنود من بين القبائل البربرية في أول الأمر ثم من بين العرب الرحل ولم يتأخروا في تجنيد أسرى الترك الذين وقعوا بين أيديهم أثناء حربهم مع قراقوش واستعملوا قوات من النصارى أيضا . وبقدر ما كان عدد هؤلاء الأجانب يزداد ويتناقص جند المصادمة كان الجيش الموحدي يفقد حماسه الأول — وقد يصحّ أن نقول روحه الوطنية ليصبح جيشا محترفا وكان لحرس الخليفة شأن كبير إذ وجب على الاوفياء منهم الذين اختيروا لحراسة سرادق الخليفة ان يموتوا دونه حتى لايدخله أحد . وكانت الجيوش تهاجم على كرّات متوالية حاملة الرماح والسيوف والنبال والمقالع . وتستعمل أحيانا لتخطي الاسوار أبراج الحصار التي تبلغ ستة طوابق في بعض الأحيان .

ولمّا احتل الموحدون فاس امكنهم الاعتماد على أسطول بني ميمون الخطير . فجعل يوسف البربري من قوة الخليفة البحرية أول عمارة في البحر المتوسط بعد أن اشتغل في بحرية ملك صقلية روجر الثاني وعينه أبو يعقوب أميرا للبحر . لذلك استنجد صلاح الدين الأيوبي سنة 1190 بالخليفة لصدّ الملوك النصارى عن طريق الشام . ولاشك أنّه لم يستجب لندائه إذ لم ينس « أبو يعقوب » تواطؤه مع قراقوش .

وكان لسلطان الامبراطورية الموحدية وزن كبير بفضل ثرواته الواسعة وسمعة جيشه وأسطوله . ويؤكد كاتب عربي أن من بين المسلمين في القاهرة والاسكندرية من كان يتمنى دخول « أبو يعقوب » مصر . وأن سعي صلاح الدين يقيم وحده الدليل على أنه كان يعتبر عاهل بلاد المغرب أقدر رؤساء المسلمين على درء ما كان يهدد الاسلام من مخاطر .

فلسفة ابن طفيل وابن رشد :

إن الثقافة الإسبانية المغربية عززت ما كان يتمتع به الموحدون من هيبة في كامل البلاد الاسلامية وكان ابن طفيل وابن رشد وهما أكبر فلاسفة العرب في القرن الثاني (1110 — 1185) من المقربين عند الخلفاء. فابن طفيل كان كاتبا لأحد أبناء عبد المؤمن في سبتة وطنجة ثمّ أصبح الطبيب الأول لأبي يعقوب الذي كثيرا ما انتصح بنصائحه . وحلّ ابن رشد (1126 — 1198) محلّه لدى الخليفة ولم يتغير عليه الا المنصور لمدة محدودة . وكلاهما طبع بطابعه فلسفة القرون الوسطى ممّا كانت له آثاره في العالم المسيحي نفسه . وكان ليبنتز (Leibnitz) لا ينفك يثني على قصة ابن طفيل الفلسفية حي بن يقظان حسب اقتباسها إلى اللاطينية من طرف (Pococke) وقد وصف فيها المؤلف طفلا وحيدا في جزيرة قفراء وهو يتسامى عن المدْركات الحسّية التي استطاع بفضلها أن يصنع بكل دقة ما هو ضروري لسدّ حاجاته إلى الصور المجردة للاجسام ثمّ إلى تصوّر العلل الكبرى : أي السماء التي يراها على شكل كرة والعالم حيوانا كبيرا وأخيرا الله المريد الحكيم العليم الرحيم الذي تتجلى صفاته من خلال دراسة الكائنات الطبيعية . وقد حاول حي بن يقظان الدعوة إلى فلسفته في بلاد مجاورة لكنه لم يجد آذانا صاغية فقفل راجعا إلى جزيرته صحبة مريد له تقي كان اعتنق مذهبه قبل ذلك وانقطع إلى التأمل المجرّد تاركا الشعب يعيش في صوره ورموزه . وبذلك ضبط ابن طفيل فصل المقال فيما يوجد بين التصوّف والدّين من مفارقات .

استجاب ابن رشد لنصيحة ابن طفيل وأقدم على كتب الفلسفة اليونانية التي كانت ترجمتها تبدو للخليفة غامضة ولم تصلنا كل كتبه بالعربية ووصلنا بعضها مترجما إلى العربية او اللاطينية بينما فقد البعض الآخر . وكان ابن رشد محللا مفسرا أكثر منه فيلسوفا مبدعا . وكان لشروحه الثلاثة لأرسطو المتلائمة مع درجات التعليم الثلاث تأثير كبير . ولم يخالف ابن رشد من الناحية الفلسفية ابن سينا وابن باجة الاّ في مسائل ثانوية وكان مجددا في نقطتين : أولاهما نظريته الخاصة بخلق الصوّر الجوهرية المخالفة لابن سينا . والثانية في نظرية العقل التي ردّ بها على

الاسكندرالا فروديزي . وصرف اهتمامه بالخصوص إلى ما بين الحكمة والشريعة من واجب الاتصال بو صفهما مرحلتين من مراحل العقل . وكان يرى أنه يجب على العامة الاكتفاء بالظاهر بينما يحق للفيلسوف التأويل حتى يمكنه الكشف عن الحقيقة بل إن في تعرفه عليها ضربا من العبادة .

وليس من الغريب إذن أن تكون هذه الفلسفة التوفيقية التي ترى أن حقيقة واحدة قد تظهر في صور مختلفة أثارت قلق الفقهاء الرسميين وألصقت بصاحبها تهمة الكفر

الموسيقى :

لم يهتم الوسط الأندلسي والمغربي الذي فيه عاش ابن طفيل وابن رشد بالفلسفة فقط بل ولع كذلك بالموسيقى والفن . فعن طريقة المغرب انتقلت نظرية الموسيقى والفواصل والمقامات من المشرق ، حيث تكونت، إلى اسبانيا وكادت تبقى هناك على حالها . وكان أهل إشبيلية ولوعين ولعا كبيرا بالموسيقى على حدّ قول ابن رشد وتجادل الفلاسفة في جمالية الموسيقى ، وفي وقع الأصوات في النفس البشريّة وقوتها التّعبيرية — وكان ابن رشد يُنْكر الألحان الباكية ، المزعجة ، ويرفض التقليد الأعمى لكلّ ما يتنافى مع المعقول ولا يليق بالإنسان مثل صراخ الحيوان وأصوات الطبيعة لوقعها السيء على السامع وكان يحرّم كل موسيقى صادرة عن آلات مختلفة وحتّى المقامات الموسيقيّة جميعها . وكانت الغاية من الموسيقى بالنسبة إليه أخلاقيّة : من واجبها حمل البشر على القوّة والاعتدال . لهذا كان يحتقر الألحان العربيّة الذائعة في مدن المغرب والأندلس على السواء . ولا يزال عدد هواة « موسيقى غرناطة » في بلاد البربر كبيرا ويعتبرونها أرقى وأروع موسيقى وبينما اختص أهل المدن بهذه الموسيقى فإن البربر احتفظوا في الأرياف بغنائهم ذي الألحان الجادة والنبرات الخشنة البسيطة الّذي يعتمد من حيث الآلات المزمار البدائي أو المزود وهو آلة ذات اسطوانة لها عروة من خشب متحرّكة .

الفن المعماري :

كانت النزعة الفنّية في إقامة المباني متّصلة بحياة المدن . وكما كان الشأن بالنسبة للفن المعماري المرابطي فإن الفن المعماري الموحّدي ازدهر عندما انفردت عائلة واحدة بالحكم . فبلغ أوجه حالما بسط عبد المؤمن نفوذه على المغرب الأقصى . فكانت أزهى فترات الفنّ في الجناح الغربي من العالم الإسلامي .

وأقام عبد المؤمن حمدا لله مساجد بتازه ومراكش حيث أمكن ضبط الرسم الأول لجامع الكتبيين الّذي تهدّم وكشف اليوم عن أسسه وكذلك بتنملل تخليدا لذكرى المهدي . واجتمعت في هذه المساجد التّقاليد الاسبانيّة المغربيّة والعناصر الشرقيّة والتأثيرات المحليّة . وشيد كذلك حصن قُلعة رباط الفتح الّتي كانت تحتل الموقع الحالي لقصبة الوداية في الرباط . وأذن ابنه أبو يعقوب ببناء الجامع الأعظم باشبيلية وقصبة مراكش . وأشرف أبو يعقوب المنصور حسب تقاليدهم على الأشغال الأولى لبناء جامع حسّان في الرباط وعلى تشييد جامع قصبة مراكش وكذلك على نهاية أشغال جيرالدا بإشبيليّة ومنارة جامع الكتبيين . وكان جامع حسّان جليل المظهر ، إذ كان يحتل مساحة كبرى طولها 183 م ، 10 وعرضها 139 م ، 40 وله 16 بابا . ولم تبق منه إلاّ المنارة المبنيّة بحجارة ورديّة اللّون والماثلة في وسط واجهة المسجد .

ومن بين المنارات الموحدية المربعة الشكل والّتي يعلوها في الوسط برج صغير لم تثبت كاملة أمام طوارق الحدثان إلاّ منارة جامع الكتبيين . وهي تتكوّن من ستّة طوابق يحتوي كلّ واحد منها على قاعات متراكبة تفنّن المعماريون في تنويع أشكال أقبائها . وكان بمثابة بروج صغيرة وهو مغطى بقبّة مضلعة وفي آخره منارة تنتهي بثلاث كرات من النّحاس المذهب وكان طول هذا المبنى يتجاوز 67 مترا .

وعفت القصور الموحدّية كلها واندثر المارستان الكبير الذي أقامه بمراكش الخليفة المنصور أشهر بناة دولة الموحدين وأضفى عليه من

الفخامة ما لم يكن معهودا . وشيّد هذا الخليفة اسوارا كثيرة وبنى بالخصوص مدينة الرباّط وقلعتها . وكان السور العظيم المبني بالتراب المدكوك (الطائبة) والذي تتخلّله أبواب كثيرة أحسنها وأبقاها إلى اليوم باب الرواح يمتد على طول خمسة كيلومترات ونصف . وكان على مجموع المباني العسكرية التي يتألف منها رباط الفتح والتي أصبحت قصبة الوداية ، أن تحرس مصبّ واد بورقراق وان تكون مركز تجمّع للجيوش المعدة لغزوات الأندلس . وكان مدخل القلعة العجيب المبني من حجارة تميل في حمرتها إلى المغرة على شكل قوس حدوي منكسر ويحتوي على ثلاث قاعات مربّعة

وفي مراكش حيث شيّد الموحدون أسوارا من « الطائبة » تتخللها أبراج مربعة الشكل يشبه باب أقناو في فخامته مدخل الوداية . وكان الخلفاء الموحدون هم الذين أقاموا أسوار فاس البالي التي لا تزال موجودة إلى اليوم وخاصة في الجهة الشمالية من خارج المدينة السفلي .

ويمتاز عهد الموحدين على عهد المرابطين بما توفّر فيه من حرص على التوازن وتوخي الرقة في تزويق المباني . وتطور الزخرف النباتي تطورا جديدا فاستمد من سعف النخيل شكله النهائي . قال تراس وهينو (Terrasse) و (Hainaut) : « كانت كل سعفة يعنى بها على حدة ويعتنى بتصوير حافاتها . وتعظم الأشكال وتتداخل الحافات الممتلئة اليانعة القوية كالعضلات وتنحني في حركات عنيفة وقد استوحى القوم من الفن الشرقي بإفريقية صورة جديدة للسعفة : فكأن سعفات النخيل تنبثق من كؤوس متوالية . وفي الجصّ المنحوت تقطع الحافات لتحدث ظلالا وافية . أمّا في الزخرف المتشابك فإن السعفة الملساء تظهر في الموضع الذي لايُصرف فيه النظر إلى غير المطاوي المتشنجة للقويسات » .

ولا يقل التزويق الهندسي أناقة ولا قوة من دون أن يؤول إلى تعقد في الخطوط . قال تراّس وهينو : أمّا الأقواس ذات الحنيات التي كثيرا ما يتكوّن ظاهرها من مشبكات افقية متشعبة إلى فروع عديدة فإنها تعدّ بمنحنياتها العتيدة وأطرافها الطويلة مزيجا فريدا في بابه من الأناقة

والقـوة وإن الميـل إلى استعمـال المشبكات في الأطر يصـل إلى حـدوده القصوى وتغطي واجهات المنارات المشبكات المعمارية .

وكان همّ الفنانين في القرن الثاني عشر التلـوين فتحلـت المنارات بالزليـج المختلف الألوان وهكذا توّج الزليـج الأزرق الفيروزي منارة جامع الكتبيين بـإكليـل من الحجارة الكريمة الوهاجة كلما ألقت الشمس عليهـا أشعتهـا .

وكـان الفن الموحدّي الذي انكبت على دراسته في المغرب الأقصى مدرسة قادها وتزعمهـا المأسوف عليـه هنري باسية (H. Basset) وهنري تراس تتويجا لجهود دامت قرونا . فقـد مزج هذا الفن بين ما استمده من التقاليـد الأندلسية وما استلهمه من المشرق . وكـوّن من هذه العناصـر كلهـا جماليـة فريدة من نوعها ، جليلة ، قويّة مثل ملـوك الموحدين . ونجد هذه العظمـة في المساجد الكبيرة بقبابها العديدة ومناراتهـا الشامخـة . كمـا نجدها أيضا في مواد البناء القويّة وحتى في « الطائبّة » التي تبنى بهـا الأسـوار ، وكذلك في الزخرف المنسجم أشد الانسجـام مع الفن المعمـاري والمتميز برحابته وتساميه واختصاره وحرصه على الترتيب والوضوح . وهذا ما دعا البعض إلى القول بأن هذا الفن هـو « منتهـى الضبط المتكامل المتـوافق » (فزال) ولقد عرف الفن الموحدي أوجه في عهـد الخلفـاء الأولين . وبدأ الانحطاط منـذ القرن الثالث عشر فلـم يكـتب لمنارة جامع حسان أن يتـم بناؤها . وانهارت الامبراطورية العظيمة ولم تبلـغ قط الدول التي تقاسمـت أشلاء ها ما بلغته من عظمـة سياسيـة وفنيـة .

الخـاتمـة :

لئن كـان عمـل الموحدين يماثل في تألّقـه عمـل المـرابطين على الأقل ، فإنه خلف آثارا أبقى على الدهر .

وكـانت الخيبـة واضحـة من الناحية السياسيـة : ذلك أن بلاد المغرب انقسمـت كمـا هو الشأن في أوائـل القرن التاسع ، إلى ثلاثة أجزاء لـم يكـتب لهـا إلى اليوم الالتئام : فـكان للحفصيين إفريقيـة ولبني عبد الواد

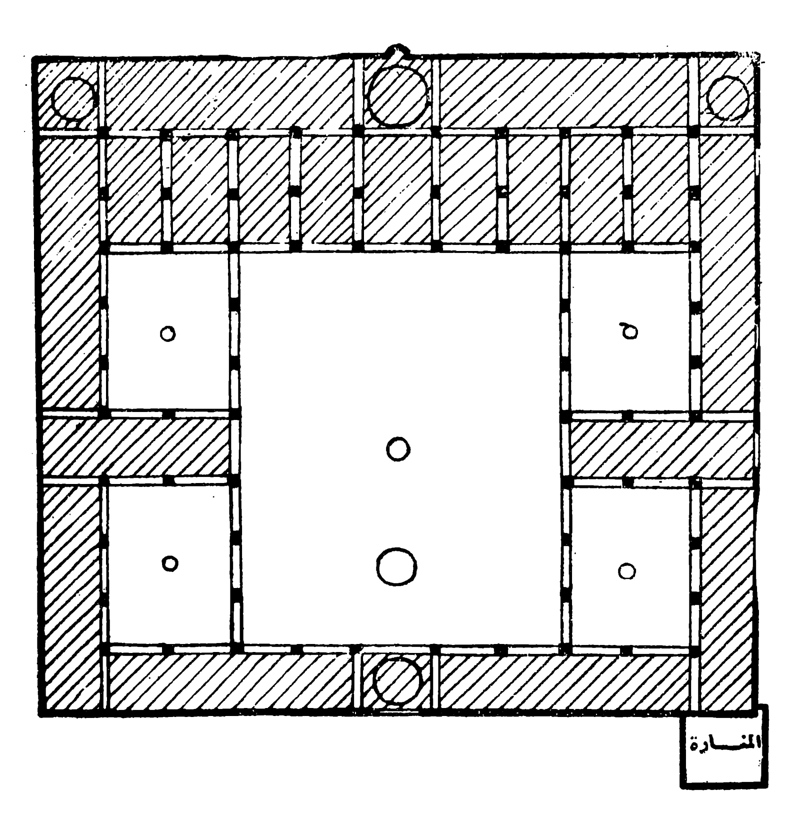
المغرب الأوسط ولبني مرين المغرب الأقصى . ولم يتوفق المصامدة وبنو عبد المؤمن إلى انشاء وحدة بربرية دائمة وهذا الفشل ناتج عن أسباب عديدة حللها هنري تراس بتعمق كبير في كتابه تاريخ المغرب الأقصى.

وأول ما نلاحظه هو أن محاولة الوحدة جاءت متأخرة عن أوانها . ذلك أنه لما أخذ الموحدون السلطة كانت الدودة قدحلت بالثمرة منذ زمان بعيد ونخرتها إلى أبعد حد .

ففي أواسط القرن الثاني عشر كان عرب بني هلال قد بسطوا نفوذهم الكامل على إفريقية وتوغلوا كثيرا في المغرب الأوسط . ومن جهة أخرى كان عرب بني معقل وهم آخر من دخل بلاد المغرب بصدد التسرب إلى المغرب الأقصى عن طريق مشارف الصحراء . وكان هؤلاء وأولئك قد تحالفوا بعد مع البربر الزناتيين وأصبحوا بذلك جموعا بدوية قوية جدا قادرة على الحيلولة دون كل محاولة يقوم بها الحضر لفرض هيمنتهم . ونحن نعلم أن العرب سرعان ما يوالون السلطة المركزية عندما تكون في عنفوانها ولكنهم ينتقضون عليها كلما سنحت الفرصة . وكانوا عنصر تخريب للامبراطورية الموحدية . وخاصة أثناء مغامرة بني غانية الطويلة ثم ابتداء من سنة 1224 عندما أخذت الدولة في الانهيار . غير أن نتائج اعمالهم قد تكون من الناحية الاقتصادية أبعد أثرا ، ذلك أن هؤلاء الرعاة الذين لايرضون أبدا بنمط حياتهم بديلا حولوا جهات فلاحية كثيرة إلى مواضع للانتجاع شاسعة تعاطوا فيها تربية الماشية على نطاق واسع ؛ وجعلوا المزارعين في غيرها من الأماكن عبيدا أجرهم منقوص وأملهم مفقود . وعطلوا أخيرا وهم النهابون جبلة المبادلات التجارية التي كانت مزدهرة جدا في أول عهد الموحدين .

وأدرك خلفاء مراكش تمام الإدراك مشكلة هؤلاء العرب الرحل وظنوا أن الحل ينحصر في جلبهم إلى المغرب الأقصى ولكنهم لم يتوفقوا إلى احلال السلم في إفريقية فكان أن انتشر الداء في المغرب الأقصى الذي بقي إلى ذلك الوقت سالما منه..

ثمّ إن هؤلاء البربر سكان الجبال لم يعرفوا كيف يقدّون نظرياتهم السياسية على قدّ امبراطوريتهم التي توصلوا إلى إقامتها . فلقد أبى المصامدة وهم الرعيل الأول من الموحدين أن يشركوا في أعمالهم ، أي في حكمهم ، سكان الأمبراطورية الآخرين : وساروا سواء في إسبانيا أو إفريقية أو المغرب الأوسط سيرة الغزاة : مما أدّى إلى قيام الثورات بدون انقطاع والتصدع النهائي حالما ضعفت شخصية الخليفة .



شكل 16 — رسم جامع القصبة بمراكش .

وإذا نظرنا إلى الفئة الحاكمة نفسها وجدنا أن بني عبد المؤمن قد خصّوا أنفسهم بنصيب الأسد على حساب العائلات الموحدية الأخرى . وأثارت سياسة احتكار السلطة حفيظة هذه العائلات التي اغتنمت أول فرصة لاسترجاع ما كانت تعتبره حقها المشروع . وإنها لسياسة قصيرة

النظر كان مآلها الانهيار التام باستثناء إفريقية التي امساك أمرها بنو حفص . وهكذا فإنه لم تمض على الامبراطورية البربرية بضعة عقود حتى تقطعت أوصالها بدون رجعة .

أما إذا نحن اعتبرنا الناحية الدينية فإن حصيلة ما قامت به دولة الموحدين مخالفة جدا لمّا سبق . ولئن لم يبق مذهبهم فإنهم أتموا ما بدأه المرابطون من عمل توحيدي ونجحوا في ذلك إذ اعانوا على نمو الحركة التصوفيّة الاسلامية التي كانت كامنة في بلاد المغرب من دون أن يتيّسر لها قط الازدهار من قبل . كتب تراس قائلا : « إن الجدير بالملاحظة هو أن أعظم أيمة المتصوفين ببلاد المغرب الذين سيتفردون من بين أولياء هذه البلاد بأكبر شعبية عاشوا جلهم في عهد الموحدين وماتوا في أواخر القرن الثاني عشر : مثل سيدي حرازم (ابن حرزهم) (1173) ومولاي بوشايب (1174) ومولاي بوعزّة (1176) وسيدي بومدين . ومولاي عبد السلام بن مشيش وسيدي بلعباس السبتي (1188) ». ومن ذلك الوقت هدأت الخلافات الدينية وساد المسلمين الوئام تحت راية المذهب المالكي . ولا ننس من جهة أخرى أن تشدّد المغاربة في دينهم كعزل النساء عن الرجال والتمسك الشديد بالصوم واجتناب المأكولات المحرمة اجتنابا كليا يستمد أصوله من تعاليم ابن تومرت الأخلاقية .

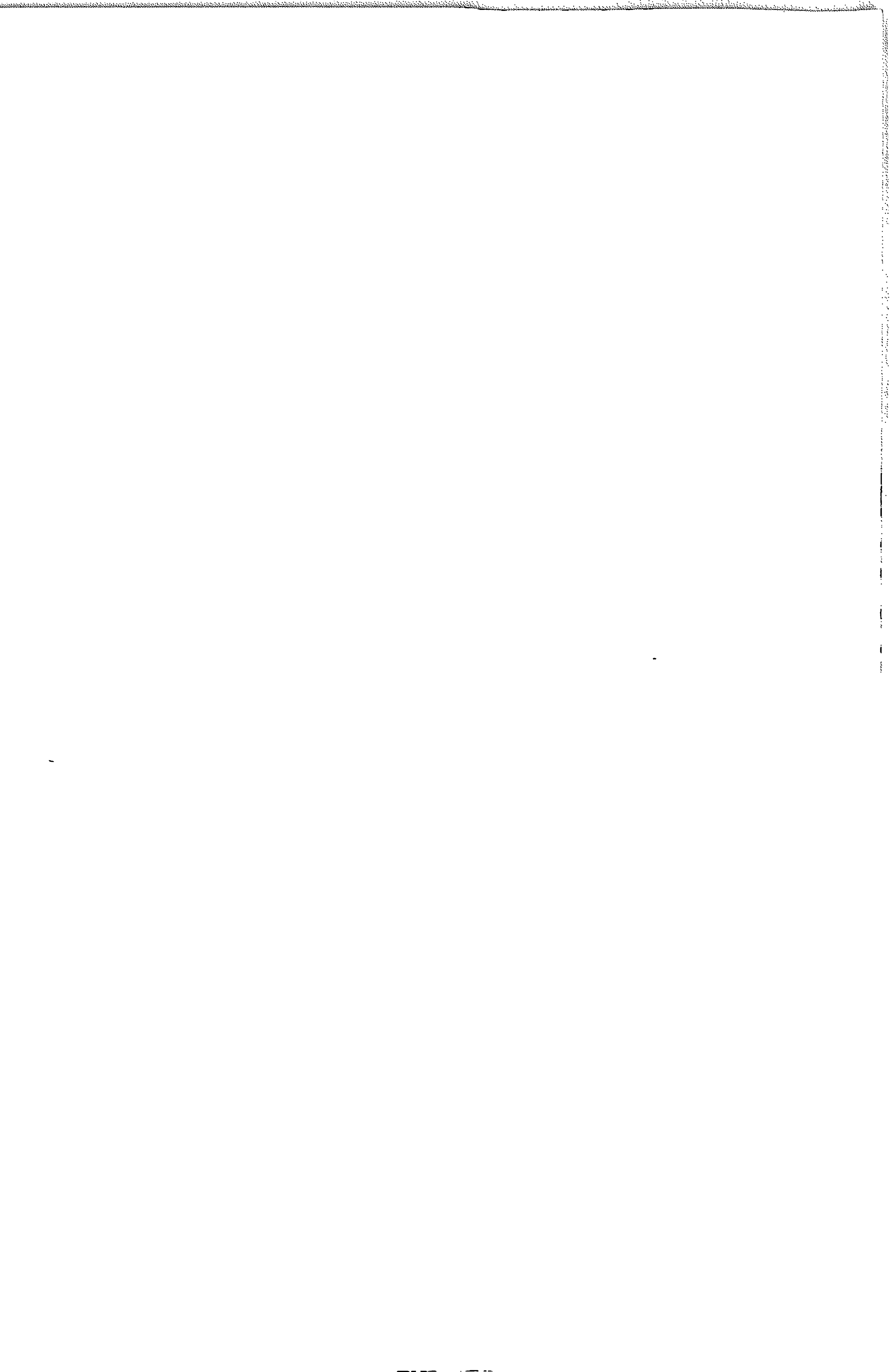
وأخيرا فإنه لامجال إلى إنكار ما خلفه الموحدون من حضارة حق إذ أنهم لم يكتفوا مثل من سبقهم بنقل الحضارة الأندلسية وإشاعتها . وإنها لحضارة لم تخل من طابع التزمت وصفة القوة إذ طغت فيها الحصون والمساجد على القصور والحدائق وتغلبت الفلسفة على الشعر الا أنه لا سبيل إلى نكران ما توفر لها من طرافة وعظة .

لذا فإنه يمكن اعتبار نصف القرن الواقع بين 1160 و 1240 الفترة التي جاد فيها المغرب البربري بأنفس ما عنده .

الباب الرابع

عودة إلى الممالك البربرية

1 - مملكة بني حفص بتونس
2 - مملكة بني عبد الواد بتلمسان
3 - مملكة بني مرين بفاس
4 - دولة بني وطاس ويقظة الاسلام



ما أن ظهرت على الأمبراطورية الموحدّية أولى علائم الوهن الخطير حتى سارت بلاد البربر نحو الانقسام إلى ثلاثة أجزاء مثلما وقع زمن الاحتلال الروماني ثمّ في القرنين الثامن والتاسع وبعد ذلك في القرن الحادي عشر عندما انفصلت صنهاجة أشير عن زناتة إفريقية .

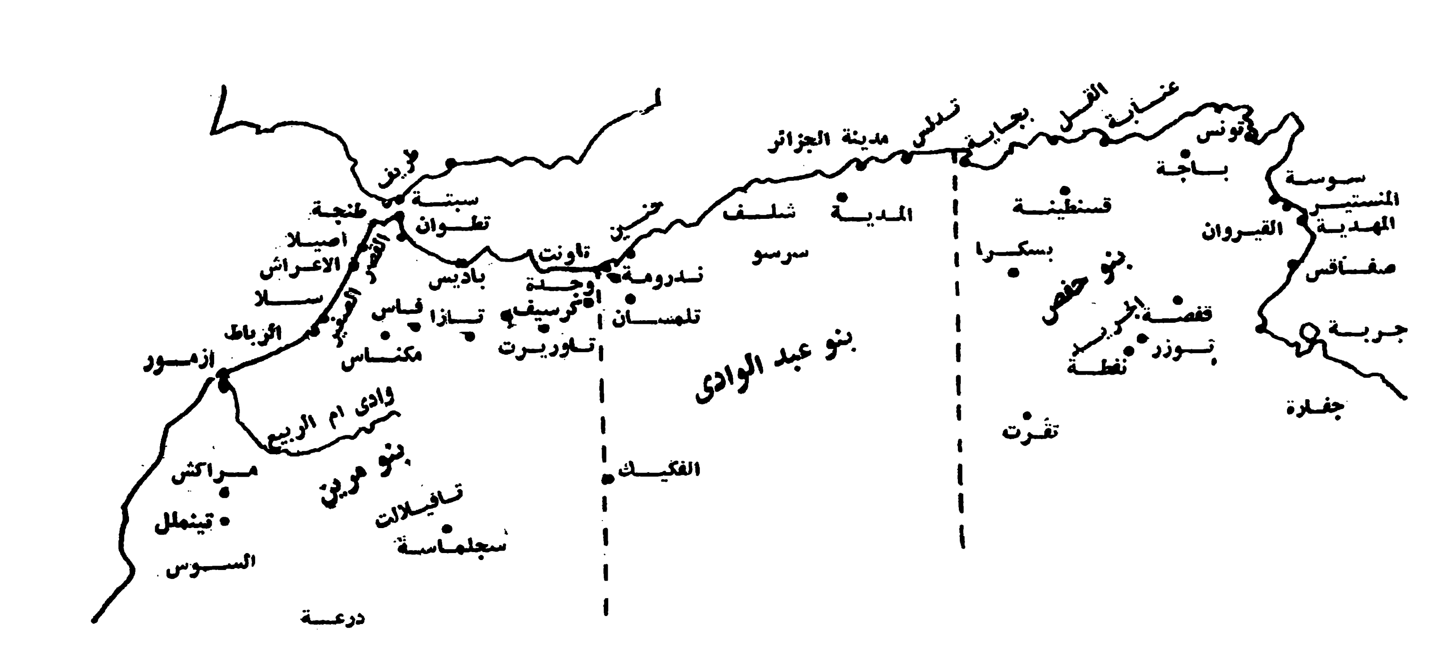
لقد أعلن والي إفريقية عن استقلاله سنة 1236 م بعد أن قطع الصلة بمراكش ابتداء من سنة 1229 . وكان بذلك تأسيس الدولة الحفصية . وأقامت قبيلة بني عبد الواد سنة 1235 بقيادة يغمراسن بن زيان حكما مستقلا بتلمسان وبالجهة المجاورة التي طالما وضعها الموحدون تحت رعايته .

وأخيرا استحوذت سنة 1248 قبيلة بربرية أخرى نعني بني مرين على مدينة فاس ، وأقامت فيها دولة سرعان ما توطدت أركانها .

وزيادة على ذلك فإن إسبانيا المسلمة كانت هي أيضا قد انفصلت عن الأمبراطورية الموحديّة. وتولى بنو نصر أمراء غرناطة حكم البقية الباقية منها.

وهكذا فإن الأمبراطورية التي أسسها عبد المؤمن انقسمت إلى ثلاثة أجزاء حكمت كل جزء منها عائلة أو قبيلة بربرية ، ودام هذا الأمر عشرين سنة قبل انهيارها الكلي ، ومرّت على كل جزء من هذه الأجزاء أطوار مختلفة وعرفت الامبراطورية فترات من المجد والازدهار النسبي. غير أنه لايمكن أن ننظر إلى هذه الممالك الاّ بوصفها تابعة إذ لم يتوفر فيها ما يذكّر بحيوية رجال المهدي وقوة شكيمتهم . وكانت جميعها تعيش في كنف الموحدين لاغاية لها سوى ضمّ شتات امبراطورية السلف وجعلها تحت سيطرتها . وأوشك بعض ملوكها بلوغ هذه الغاية إلاّ أن ذلك لم يتجاوز شهورا معدودات .

وان تاريخ المغرب ، إلى زوال الدول الثلاث الحفصية والوادية والمرينية ، أي إلى أواسط القرن السادس عشر كان في آخر الأمر سعيا ضائعا إلى إحياء الماضي وركودا طويلا ثمّ انحطاطا بطيئا .



شكل 17 ـ المغرب فى نهاية القرن الثالث عشر .

ومن حسن الصدف أن هذا الانحلال لاحظه ووصفه مؤرخ عبقري هو ابن خلدون 1332 — 1406 م. ولولا تأليفه لما أمكن لـ. ج. مرسي (Georges Marçais) ضبط مراحل زحفة بني هلال ولتعذر على أ. ف. قوتيي (E. F. Gautier) أن يسلط الأضواء على القرون المظلمة التي عاشتها بلاد المغرب حينذاك.

ولقد دخل ابن خلدون أثناء حياته السياسية في خدمة بني حفص وبني مرين وبني نصر وبني عبد الواد. ثمّ تنكر لهم مدفوعا بما كانت توعز به اليه مصلحته الخاصة لا بما يمليه عليه ضميره، ثمّ عاش بين العرب لتجييش الجيوش. وحيثما حلّ هذ الرجل الفذّ تقلّد مناصب مرموقة تمكّن بفضلها من تتبع الأحداث وتقييم الرجال. وكان يمكن أن يستمدّ ابن خلدون معلوماته من تراكم الأخبار الفجة كما هو الشأن بالنسبة إلى القرطاس، ولكن الرجل كان يتمتع بروح نقدية وتطلّع علمي بلغا حدا من القوة جعل أ. ف. قوتيي لايتردد في اعتباره في مستوى حنبعل والقديس أغسطينوس.

وفي تونس تتلمذ ابن خلدون لأبيه وأشهر الشيوخ بها فأخذ عنهم النحو وفقه اللغة، والفقه، والشعر ثم قصد علماء المغرب الذين ظهروا في عهد المرينيين فحذق بفضلهم الفلسفة وعلوم الدين. ولكن ابن خلدون كان في الواقع مجددا استمد مبادئه وطريقته من ذات نفسه ووضع لمؤلفه في التاريخ الذي سمّاه كتاب العبر، المقدمة التي احتوت على تأملات حول مواضيع متباينة يمكن رغم ذلك أن تُستمد منها فلسفة التاريخ في معناها الكامل.

وكان ابن خلدون خلافا للإخباريين (chroniqueurs) المسلمين حريصا على التحري في قيمة المصادر لا بالاعتماد على المعايير الدينية بل بالاستناد إلى أحكام العقل. ولم يكتف بسرد الأحداث بل كان يحاول دائما فهمها وبيان عللها ما أمكن ذلك. وإن له حول القيمة المحتملة للوثائق أو أهمية الشغل بوصفه عاملا من عوامل الثروة اعتبارات أصبحت مألوفة عندنا اليوم بفضل المؤرخين وعلماء الاقتصاد في القرن التاسع عشر الاّ أنها مدعاة إلى الاستغراب عندما يخطّها رجل عاش في القرن الرابع عشر. وإنه ليذكرنا بمعاصره فرواسار (Froissart) بل بمكيافيل (Machiavel) وفيكو (Vico)

وأكثر من ذلك فإن لابن خلدون تصوّرا للتطور التاريخي استمده من ملاحظة الأحداث المعاصرة له . لقد أثار انتباهه تواجد مناطق صحراوية يتجمع بين كثبانها البدو وجهات خصبة يسكنها الحضر فاستنتج أن حياة الحضر تتبع حياة البدو وتتولّد عنها . فالبدو الرحل العائشون على الفطرة والطهارة والمنقطعون إلى مصالح العائلة والقبيلة يسجلون بفضل خصالهم الحربية فتوحات يستمدون منها ثرواتهم ولكنّها تحمل بذور فسادهم ، ثمّ هم سرعان ما يتغلب عليهم شعب آخر شيمته الغلظة والشجاعة . فالبدو هم المحتفظون أكثر من غيرهم بروح التضامن والتفاني في سبيل المصلحة الجماعية وهو ما يسمّيه ابن خلدون بالعصبية التي هي قوة الدول الأساسية . وإنهم لعلى خلق عظيم خلافا للحضر الذين أخذ منهم الفساد والانحلال مأخذا عظيما .

ويدلّنا التاريخ على أن الممالك تنشأ وتتطور ثمّ تفنى مرورا بخمس مراحل وعلى أيدي ثلاثة أجيال أي في ظرف 120 سنة . وأكد أ. ف. قوتيي على ما كان يضمره ابن خلدون من احتقار للأرض والفلاح والمواطن كما نبّه إلى النظريات البيولوجيّة والوراثية التي كان يحمل لواءها هذا المؤرخ العبقري والذي بقي مفهوم الأرضية الجغرافية للتاريخ غريبا عنه تماما .

وإن بلاد المغرب هي التي أوحت إليه قبل الجزيرة العربية بهذه الفلسفة التشاؤمية حول العلاقات القائمة بين البدو والحضر ، لذا فإن الجزء الذي اقتطعه دي سلان (De Slane) من كتاب العبر ونقله إلى الفرنسية تحت عنوان وضعه هو نفسه نعني « تاريخ البربر» يبقى المصدر الأساسي خاصة بالنسبة إلى القرن الرابع عشر حيث تكوّنت الممالك الوارثة للسلطان الموّحدي . والى جانب ما أظهره ابن خلدون من ذكاء جدير بالإعجاب وما اتصفت به نظرياته من طرافة نافذة فإننا نظفر لديه بوثائق كتبها شاهد عيان إذ كان مؤرخا وفي نفس الوقت العضد المسموع الكلمة لعدد كبير من الملوك الذين روى تاريخهم .

I ـ مملكة بني حفص بتونس

أبو زكرياء 1229 ـ 1249 م .

من بين الدول الثلاث التي تقاسمت بلاد البربر وتصارعت من أجل الانفراد بها كانت دولة بني حفص هي التي فرضت نفسها بوصفها الوارثة الأولى لسلطة الخلافة الموحدية المنهارة والحافظة لتقاليدها . ولقد تمتعت هذه المملكة الجديدة خلال القرن الثالث عشر خاصة بهيبة حقيقية ولكنّها لم تقدر على حماية إفريقية من الانحطاط . وقد كانت خصومات القبائل العربيّة وثوراتها تغذّي الاضطرابات وتزيد في تفاقم الخراب . ولقد درس تاريخ هذه المملكة ر. برنشفيك (R. Brunschvig) دراسة مرموقة ومستفيضة في مؤلّف ذي جزأين سمّاه «بلاد البربر الشرقية على عهد بني حفص ، من البدء إلى أواخر القرن الخامس عشر » .

ومعلوم أن الخليفة الموحدّي الناصر لمّا هزم الثائر يحيى ابن غانية في الجنوب التونسي عهد سنة 1207م . بحماية إفريقية إلى أحد أبناء الشيخ أبي حفص عِمر الهنتاتي ، فمارس هذا الوالي السلطة وهو في طاعة الموحدين حتى توفي سنة 1221 م . ثمّ حلّ مكانه بعض الولاة من عائلة بني عبد المؤمن . وفي سنة 1226 عيّن الخليفة الناصر من جديد على إفريقية واحدا من بني حفص : ولمّا رفض هذا الوالي مبايعة المأمون الخليفة الجديد عُزل وقدم أخوه أبو زكرياء يحيى الذي كان آنذاك واليا بقابس .

وكان هذا الشاب الذي لم يبلغ السادسة والعشرين من سنه ابن أول الولاة الحفصيين على إفريقية وحفيد الشيخ أبي حفص المعروف . وقد جمع بين صيت عائلته وهيبة أبيه عندما حمى إفريقية من عمليات

ابن غانية الحربية ، ولقد زاد على هذه المزايا الموروثة ثقافة مرضية وضبطا للنفس بالغا وإقداما لايخلو من تقدير للعواقب .

ولم تمض بضعة أشهر على تعيينه بتونس حتى وجد نفسه تحت إمرة الخليفة المأمون الذي أنكر علانية مذهب الموحدين إزاء يحيى بن الناصر المنازع للمأمون في الخلافة والعاجز عن تدعيم سلطته . وبعد أن انحاز إلى يحيى بن الناصر فترة لم تتجاوز أسابيع قليلة قرر أن تقع خطبة الجمعة باسم « المهدي والخلفاء الراشدين » وأطلق على نفسه لقب الأمير وكان ذلك بمثابة إعلان محتشم عن استقلال أكمله بعد ذلك بسنوات قليلة (1236م. أو 1237م) عندما أمر بأن تكون الخطبة باسمه. وفي أثناء ذلك كان يوّسع من رقعة ملكه : ففي سنة 1230 م على الأرجح وقعت قسنطينة وبجاية في جوزته وطرد بصفة نهائية يحيى بن غانية من ممتلكاته ، وفي سنة 1235م. ألحق بملكه مدينة الجزائر وتمكّن من إخضاع أعظم قبائل وادي شلف عنوة أو عن طيب خاطر . وبذلك تكوّنت من جديد مملكة بني زيري القديمة كما كانت في أواخر القرن العاشر . ولم تخطىء كبرى دول النصارى الحساب: فعقدت البندقية سنة 1231م. وبيز سنة 1234م وجنوة سنة 1236م معاهدات حسن جوار واتفاقات تجارية مع العاهل الجديد، بينما أرسل إليه فريدريك الثاني صاحب صقلية قنصلا سنة 1239 وربط معه ملك الارغون علاقات ديبلوماسية . ومن جهة أخرى كان أبو زكرياء يظهر في غمرة فوضى الموحدين الدعامة الحقيقية للقوة الاسلامية في نظر مسلمي المغرب المهددين بحركة الاسبان الرامية إلى استرداد اراضيهم كما كان يظهر الممثل الوحيد الأصيل للسنة الموحدية : فكان القوم ببلنسية وإشبيلية وشريش وطريف وغرناطة يخطبون خطبة الجمعة باسم أبي زكرياء ابتداء من سنة 1238م. ، وكذلك في طنجة وسبتة والقصر الكبير ، وحوالي سنة 1245 م اعترف بنو مرين بدورهم بسلطة الحفصي الذي أرجع إلى الصواب الامير يغمراسن صاحب تلمسان المتعنّت في مساندته للخليفة الموحدي الرشيد وذلك سنة 1242م. . وأخيرا توّصل أبو زكرياء بسياسته الحكيمة مع القبائل العربية إلى الحدّ من تأثيرهم وجعل بعضها أعوانا له صالحين .

ولمّا توفيّ إثر مرضه سنة 1249 كان قد قام بعمل جليل به كوّن مملكة متينة الأركان محفوفة بدول تابعة أو صديقة وعوّد أهل إفريقية بالخضوع إلى دولة حاكمة جديدة .

المستنصر :

غير أن الوضع الذي تركه لابنه أبي عبد الله (1249 — 1277م.) لم يكن خاليا من الأخطار . فلقد وجد الأمير الشاب في صلب عائلته مناوئين مستعدين دائما لشق عصا الطاعة على رأس القبائل العربية . فاضطر إلى قمع أربع ثورات وتعقّب الدواودة الرّحل — وهم أشد القبائل بأسا — حتى تخوم الصحراء ، والرمي بفلولهم نحو الغرب ، وتقتيل رؤسائهم .

ولم يمنعه هذا من تسمية نفسه بأمير المؤمنين سنة 1253م. والتلقب بلقب — المستنصر بالله الّذي عرف به — وقد توخّى سياسة العظمة فأحسن تهيئة القصبة بتونس العاصمة وأوجد « حدائق رائعة » تتوسطها « برك في جهة تونس » وجلب إلى بلاطه الأدباء والشّعراء .

ودخلت مملكتا تلمسان وفاس في طاعته وكان يتلقى السفارات لا من المدن الإيطالية وأغلبية دول البحر المتوسط الغربي فقط بل كذلك من جهات نائية كالنّرويج (1262) وكانم وبرنو (1257) الّتي كان ملوكها يرسلون إليه الهدايا الثّمينة . وحتّى شريف مكّة فقد بايعه خليفة سنة 1259م وتبعه في ذلك مماليك مصر (1260م.) . وفي الواقع فان هذه المبايعة لم تدم طويلا إذ عمد بيبرس سلطان مصر الجديد إلى إحياء الدولة العبّاسيّة سنة 1261 . وكانت الدولة الحفصيّة إذن قويّة جدّا عندما ظهر سنة 1275 أمام قرطاج أسطول القدّيس لويس .

وكان بنو حفص يدفعون بصورة تكاد تكون منتظمة حتّى اعتلاء شارل صاحب أنجو (Anjou) عرش صقلية (1266) إتاوة صغيرة إلى النّرمان ثمّ إلى هوهنستوفن (Hohenstaufen) تلافيا لقرصنة الصقلّيين وحرصا على بيع حبوبهم بموانى الجزيرة في حرّية تامّة . ورفض المستنصر الاعتراف بحقوق شارل صاحب أنجو

واقتبل خصومه وكفّ عن دفع الإتاوة . وكان ذلك حسب ما يراه بعضهم سببا حاسما في قيام الحرب الصليبيّة الثامنة الّتي يظهر أن القديس لويس انساق إليها انسياقا من جراء مناورات أخيه .

ولا سبيل إلى الشك في مدى تأثير المشاكل الاقتصادية على العلاقات بين الدول أثناء القرن الثّالث عشر . ولم يكن ابن خلدون مخطئا طبعا عندما أكد على ما كان يقوم به تجار بروفانس من مساع لاستخلاص ديونهم الّتي وقع التراجع فيها بمجرد إعدام وزير سابق بتونس . ذلك أن الرّوح الصليبيّة التي كانت الدّافع لحملات جوستنيان والقديس لويس وشارل العاشر عرفت كيف تتلاءم في حاشية الملوك مع الروح التجارية . لكنّنا لا نفهم ما الّذي حمل شارل صاحب أنجو على التخلي عن مشاريعه ضد القسطنطينية في الوقت الّذي ترك له شغور البابوية المجال فسيحا . بل إننا نعلم أنّه أعرض عن ذلك بأمر من أخيه والتحق بتونس على رأس جنده منضما إلى جيش الصليبيين الّذين أبحروا من مكان قريب من إيق مورت (Aigues-Mortes) في الرابع من جويلية 1270م. . ولم تكن هذه الحرب الصليبيّة انتصارا لديبلوماسيته بل إخفاقا لسياسته .

اما تصميم القديس لويس المستوحى من الرّاهب ريمون مارتان (Raymond Martin) أستاذ العبرية والعربية بدير الدومينيكان بتونس وصديق الخليفة فاننا نجد ما يبرره فقد بلغ إلى علم ملك فرنسا أو خيّل إليه أن المستنصر عازم على التنصّر .

وعزا المؤرخون من دون أن يكون لهم في ذلك أية حجّة سذاجة القديس لويس النبيلة إلى نفاق المسلمين . فقد تحمّس الملك عندما تصوّر أنه في الإمكان أن تصبح إفريقيّة قاعدة منيعة للمسيحية أو على الأقل منطلقا للهجوم على بيبرس سلطان مصر الّذي أصبح نشاطه ينذر بالخطر .

ومهما يكن فان الاستعدادات العظيمة الّتي كانت مهيّأة لتخليص الأماكن المقدسة وجهت لاكتساح بلاد البربر وذلك بعد تردد كبير . وأرسى الأسطول بكاقلياري (Cagliari) ثمّ أشرف على

قرطاج بعد ستّة أيّام (18 جويلية) وكان الخليفة قد حصّن مدينة تونس واستنفر القبائل الحليفة ، واكتست المقاومة صبغة الجهاد المقدّس الّذي نادى به « الأتقياء الصالحون والفقهاء والأولياء » ، وضمّ الجيش الموحدين والجند والمتطوعين ولم يكن القديس لويس ليتصور إلى أي حدّ شارف النّصر .

وبينما كان المستنصر يفكّر في نقل عاصمته إلى القيروان تفشت الحمّى والاسهال في معسكر الفرنسيين وأوديا بالملك (25 أوت 1270) .

وعندما أرسى أسطول شارل صاحب أنجو ولم تمر على وفاة أخيه إلاّ ساعات معدودات أصبح رأس الصليبيين ولم يعتبر منذئذ سوى مصالحه الخاصة . وسرعان ما أبرم مع الخليفة معاهدة فيها غنم كبير لمملكة صقلّية . وإنّما أقدم المستنصر على ذلك لأنّ انتجاع العرب لأراضيهم في الجنوب كان يهدّد بتعذر صمود الجيش الإسلامي . لذا رضي بدفع ضعف الإتاوة الّتي كان يسلّمها إلى هوهنستوفن (Hohenstaufen) زيادة على ما تخلّد بذمّته وغرامة حربية كما رضي بتسليم الهاربين الصقليين وضمان امتيازات تجارية لرعايا ملوك فرنسا وصقلية ونفار (5 نوفمبر) ولم يظفر المستنصر مقابل ذلك إلاّ بتهديم أطلال قرطاج الّتي كان يحتمي بها النّصارى

ولئن لم يكن هذا الحلّ مشرّفا فإنّه كان في صالح إفريقيّه . ويظهر أن السكّان كانوا واعين لذلك إذا استثنينا بعض المعارضين المتعنتين إذ أن المستنصر لم يجد صعوبة في جمع الأموال الّتي تعهّد بدفعها . وأمكن له بدون عناء إرجاع العلاقات التجارية الّتي كان ربطها مع الأرغون (1271) وبيز ، والبندقية (1271) وجنوة (1272) كما تمكّن من تمتين الرّوابط بينه وبين شارل صاحب أنجو جاره بصقلية . ولم تتميّز أواخر أيامه إلاّ بالاستيلاء من جديد سنة 1275 على عاصمة الجزائر الّتي كانت أعلنت عن استقلالها قبل ذلك . وتوفي إثر مرض في 17 ماي 1277 والبلاد تعيش في كنف السلم وعزّة السلطان .

انفصام الوحدة الحفصية :

كانت الامبراطورية التي تركها المستنصر تظهر متينة الأركان . غير أنها ما لبثت أن تدهور أمرها على أيدي خلفائه . فقد انقاد ابنه الواثق الذي تولى الخلافة بعده لأحد مقربيه وهو من أصل أندلسي فألّب على الحكومة شق الموحدين بأكمله . ونافسه في الحكم عمّه أبو إسحاق الذي كان متمردا على المستنصر منذ سنة 1253 . وعلاوة على اجتماع كل الغاضبين بإفريقية حوله فقد مدّه بالعون العسكري بيار الثالث ملك الارغون الجديد (1276 — 1285م) . وكان لهذا الملك مطامح في حوض البحر المتوسط وخاصّة صقلية التي كان يحكمها شارل صاحب انجو . وكان يرى أن وجود عاهل موال له في إفريقية من شأنه أن يعينه على تحقيق غاياته . وبعد أن استولى أبو إسحاق على بجاية في أفريل 1279 دخل تونس في شهر اغسطس وتولى حكمها .

ولم يكن حظّ العاهل الجديد الذي اقتصر على لقب أمير أحسن من حظ سلفه المنكود . فسرعان ما خيّب ظن حاميه النصراني الذي أرسى بالقالة (Collo) في جوان 1282 لنصرة أحد المتمردين ثمّ أقلع نحو صقلية حيث نال تقتيل الفرنسيين (Vêpres Siciliennes) من سلطان شارل صاحب انجو (30 مارس 1282) . وما أن زال هذا الخطر حتى دعّم أبو إسحاق موقفه بتزويج إحدى بناته لولي عهد تلمسان . لكن سياسته الداخلية « المتأرجحة بين الضعف والقوة » أغضبت بعد قسما كبيرا من السكان ، وخاصة عرب الجنوب ، الذين وجد لديهم ابن أبي عمارة وهو مغامر مقدام آذانا صاغية فأوهمهم أنه ابن الواثق وبسط نفوذه باعانة البدو على كافة الجنوب التونسي منذ خريف 1282 . ثمّ دخل تونس في جانفي 1283 ودحر في شهر جوان جيوش الحفصيين الذين لاذوا ببجاية وحاولوا استرجاع عاصمتهم .

ولم يتمتع ابن أبي عمارة بثمرة نجاحه طويلا فقد أغضب بدوره العرب الذين سرعان ما التفوا حول أبي حفص عمر ، وهو أخ للمستنصر ، كان ينشد الحكم . وزحفوا على تونس ودخلوها وبايعوا الخليفة الجديد ولقبوه بالمستنصر بالله (جويلية 1274) .

وكان أبوحفص (1284 — 1295) مدينا في نجاحه لبني سليم — فأغدق عليهم من نعمه الشيء الكثير فبينما امتنع أبو زكرياء والمستنصر من إقطاعهم مدنا واقتصرا على منحهم جراية ، مكنّهم أبو حفص من ثلاث أو أربع أماكن بجهتي صفاقس والجريد كهبة بما في ذلك محصول الأراضي واستخلاص الضرائب (1284) .

وعجلت التنازلات التي أقدم عليها بنو حفص بانحطاط المملكة . من ذلك ما لاحظه الرّحالة العبدري سنة 1289م. من أن جميع المدن باستثناء تونس التي بقيت مركزا نشيطا للتجارة والعلم أخذت تتدهور تحت ضربات النصارى والبدو . فقد استسلمت جزيرة جربة بعدما توالى عليها ما توالى من هجمات أسطول صقلية والأرغون بقيادة روجاردي لوريا (Roger di Loria) (1284م.) وكذلك جزر قرقنة سنة 1287 . وتداعت قسنطينة من جراء تطاحن الكتل . وعمّ الخراب مدينة باجة . وبلغ خوف سكانها من هجومات العرب حدا جعلهم يدفنون موتاهم وهم في سلاحهم .

وكانت الفوضى التي تغذّيها القبائل العربية سببا في ظهور أدعياء متهافتين على الحكم يجدون دائما شقا من البدو يساندهم في تحقيق طموحهم وانفصمت وحدة السلطان الحفصي أثناء إحدى هذه الأزمات فقد أسس أبو زكرياء الثاني في بجاية مملكة منافسة لتونس شملت جزءا كبيرا من مقاطعة قسنطينة (1284) . ودام الصراع بين هذين الأميرين 23 سنة تساند كليهما قبائل عربية — ولولا نفوذ شيوخ الموحدين لما أمكن لأبي عصيدة (1295 — 1309) خليفة تونس وأبي البقاء سلطان بجاية أن يتفقا على جمع حكم المملكتين فيمن يطول عمره منهما .

والتأمت الوحدة الحفصية لمدة قليلة تحت إمرة أبي البقاء (1309 — 1311) . وسرعان ما تمكّن ابن اللحياني (1311 — 1318) ، وهو دعي لم ينل كبر سنه من دهائه ، من تجاوز نفوذ الخليفة وأعطى البدو زمام الامور بينما استولى على بجاية أبويحيى أبو بكر حفيد أبي زكريا (1318 — 1346) وتوحّد النفوذ الحفصي مرة أخرى على يد أبي بكر من سنة 1315 إلى سنة 1318 واستقام له الأمر رغم الصعوبات . ولم يقتصر

العرب على تحريض الأدعياء بل عملوا على تدخل بني عبد الواد أصحاب تلمسان الذين لم يبقوا مكتوفي الأيدي إزاء الخلافات التي كانت تمزّق شمل شرقي المغرب وكانوا يطمعون في الاستحواذ على بجاية . ولم ينج الخليفة من تضافر جهود بني سليم والدواودة وبني عبد الواد الا بحمل بني مرين على القيام بهجوم معاكس على تلمسان . وأطرد من عاصمته أثناء المعارك أربع مرات . وتمكّن بفضل حماية بني مرين وانضمام الشيخ حمزة أكبر شيوخ بني سليم من استرجاع مملكته مقاطعة بعد مقاطعة والانتقام من البربر المتمردين . وحمل الولاة والمشايخ المستقلين على الدخول في طاعته واستخلاص الزكاة من البدو . بل إن الحظ أسعفه فتمكّن من طرد النصارى من جزيرة جربة (1335) ؟ .

غزو بني مرين لافريقية :

ما أن توفي أبوبكر (1346) حتى تأزمت الأمور من جديد . فقد قتل ولي العهد الشرعي بايعاز من أخيه كما قتل ثلاثة من أبناء الشيخ حمزة . واضطر البدو ، وقد رجعت لهم صولتهم ، إلى مبايعة السلطان المريني أبي الحسن الذي انساق رغم نصح مستشاريه إلى غزو شرقي المغرب استجابة لدعوة الحاجب ابن تافراكين .

ولم يجد صعوبة في الاستيلاء على قسنطينة وبجاية ودخل تونس في موكب بهيج (15 سبتمبر 1347) . فلاذ الخليفة بالفرار ولكن ألقي عليه القبض قرب قابس وقطع رأسه . ومنذئذ بسط أبو الحسن نفوذه على كامل بلاد المغرب كما كان الأمر في عهد بني عبد المؤمن واعتبر نفسه خليفة لهم .

ولكن كان عليه أن يقرأ حسابا للبدو إذ منفعتهم بالنسبة الى من يدعي الملك تساوي خطرهم على صاحب السلطان لذلك حاول أن يجعل من الإقطاعيين موظفين اتّقاء لشرهم . وأمام هذا الخطر تألّبت عليه القبائل وهزمته قرب القيروان (10 افريل 1348) . ولم يتمكّن أبو الحسن من استرجاع نفوذه رغم الخلافات التي ظهرت في صفوف أعدائه بعد انتصارهم وأسلمت قسنطينة وبجاية أمرهما إلى أحد أولاد بني حفص

وتلاشت الامبراطورية جزءا بعد جزء . وانتهى به الأمر إلى أن لاذ بمدينة الجزائر ومنها التحق بالمغرب الأقصى – (ديسمبر 1349 – جانفي 1350) .

ولم يقدر أحد أبنائه على حكم تونس طويلا رغم حماية إحدى القبائل العربيّة التي تزوج منها .

وما لبثت خلافات إفريقية المزمنة أن مكنت بني مرين من الهجوم على مملكة بني حفص من جديد . وأكمل السلطان أبو عنان احتلاله لاراضي بني عبد الواد بالحاق بجاية حيث استمال البدو بإغداق الهبات عليهم (1353) ثمّ استحوذ رغم خيبة مرّة على قسنطينة وعنابة وتونس (1357) . وواجه مثل أبي الحسن من قبله مشكل نفوذ السلطة المركزية على العرب . ومنيت محاولاته لقمعهم بنفس الخيبة . وبذلك انفض من حوله حلفاؤه واضطر إلى الالتحاق بالمغرب على جناح السرعة . وكانت له حملة أخرى وأخيرة اقتصرت على مسيرة عسكرية بين عنابة والأوراس (1358) .

عودة سلطة بني حفص :

وكان الحفصي أبو العبّاس الذّي تقلّد أمر قسنطينة لصداقة بينه وبين السلطان المريني هو أحد الأمراء الثلاثة الحاكمين لتونس وبجاية وقسنطينة بعد رحيل بني مرين وتمكّن من أخذ بجاية وتدلس وعنابة بإعانة الدّواودة (1366) ثمّ تونس (9 نوفمبر 1370) وبقي بها إلى سنة 1394 .

وفي الواقع كان الرجل الذي جمع بين يديه مرّة أخرى كامل المملكة الشرقية جديرا بهذا النجاح الذي حالفه فهو قائد بحق ذو عزم وحزم وقوة ومع ذلك نوّه المؤرخون بعدله . وما كان ليرضى أن يحصر البدو نفوذه في تونس وأحوازها . لذلك تراجع في الإقطاعات الخليفيّة وحال دون تطاول القبائل وأخمد الثورات وأخضع لسلطته مشايخ الجريد وقفصة وقابس . إلا أنه كان يدرك مساوي الصرامة فيجنح إلى الديبلوماسية ويعرف متى يجب الإحسان وينفع العفو . وأمكنه بفضل هذه المهارة السياسية البقاء في الحكم . فلم يستطع العرب المنقسمون على أنفسهم أن يلحقوا بالخليفة الحفصي ما ألحقوه بأبي الحسن وأبي عنان المرينيين .

وفي عهده انتظمت حركة القرصنة واستهدفت مراكبَ النصارى وكانت بجاية المنطلق الرئيسي لها – وردّت الدول النصرانية الفعل وشنت بالخصوص هجوما على المهدية (1390) قامت به قوى من فرنسا وجنوة ولكن من دون جدوى .

القرن الخامس عشر الحفصي : أبو فارس وأبو عمرو عثمان

بينما كانت الدولتان المغربيتان الأخريان بتلمسان وفاس في انحطاط متواصل طيلة القرن الخامس عشر استرجعت المملكة الحفصية في نفس الفترة شيئاً من سلطانها ومجدها بفضل عاهلين لم يعدما القيمة الذاتية وعمّرا طويلا وهما : أبو فارس (1394 – 1434) وأبو عمرو عثمان (1435 – 1488) .

أما أبو فارس فقد اعتلى العرش من دون صعوبة عندما مات أبوه أبوالعباس ولم يكد يتجاوز الثلاثين من عمره وسبق أن فرض نفسه قائدا عسكريا أثناء هجوم النصارى على المهدية واشتهر بالتقوى وعرف كيف يستميل إليه إخوته ، فلم يجد كبير عناء للقضاء على بعض من حدثتهم أنفسهم بالتمرّد . ووفق إلى تأليف قلوب الموحدين والأندلسيين والعرب لفائدته وهم أهمّ الكتل بالمملكة .

واستقام له بفضل ما وفرّه لحكومته من قوة أن يُخضع لسلطانه الواحدة بعد الأخرى الإمارات الكائنة بجنوب البلاد التي كادت أن تكون مستقلة بعد أن اضطر أبوه إلى غض الطرف عنها وهي طرابلس (1398) وتوزر وقفصة (1400) وبسكرة (1402) ونجح حتى في الاستيلاء على مدينة الجزائر (1410 أو 1411) ، وكسب أبو فارس من استرجاع الدولة الحفصية لسابق عزّها نفوذا أدبيا كبيرا زاده إشعاعا تعلّقه بالدين إذ أنه قرّب إليه العلماء والأشراف وأقام المواكب البهيجة بمناسبة الأعياد الإسلامية ، ويسّر أداء الفرائض وتمسك قدر المستطاع بأحكام القرآن الكريم ، وتجاوزت سمعة أبي فارس حدود مملكته كما تشهد بذلك السفارات وما كانت ترسله إليه غرناطة وفاس ومصر وحتى البقاع المقدسة من هدايا وما تقدمه من آيات التبجيل وتسابقت الدول النصرانية

من جهتها إلى عقد المعاهدات مع عاهل في مثل هذه القوة يمسك بزمام مملكة مزدهرة ، غير أن أعمال القراصنة كانت تعكّر أحيانا صفو مثل هذه العلاقات الطيّبة : من ذلك أنه على إثر استباحة تربلانكا (1397) (Torreblanca) هاجمت أساطيل بلنسية وميورقة معا تدلس (1398) ثمّ عنابة (1399) ، كما خرّب أسطول ألفونس الخامس صاحب أرغون جزر قرقنة وتصدّى لجربة دون جدوى سنة 1432 .

وإن أسطع برهان على النهضة الحفصية ما أظهره أبو فارس من اهتمام بشؤون الغرب بينما تحمل الحفصيون طيلة قرن كامل ضربات فاس أو تلمسان من دون ردّ فعل أو هم اكتفوا بالاستنجاد باحدى المدينتين على الأخرى ، وتحرك أبو فارس كرّتين على تلمسان (1424 — 1431) حيث كان عدد من بني عبد الواد يتنازعون على الحكم وفي كل مرّة وضع على العرش ملكا مواليا له . وذهب به الأمر إلى توجيه جيوشه إلى مدينة فاس (سنة 1424) إلاّ أن السلطان المريني الشاب ووصيّه من بني وطاس هادناه فقفل راجعا ولم يتدخل ببلاد المغرب الأقصى إلاّ لحمايته بأسطوله من غارات المراكب البرتغالية . واهتم كذلك اهتماما كبيرا بما كان يمزق مملكة غرناطة من صراع على الحكم وذلك من سنة 1427 إلى سنة 1430 ، ولمّا توفي كانت الدولة الحفصية قد بلغت أو كادت ما كان لها من شأن في عهد المستنصر .

وخلفه في الحكم حفيده المنتصر الذي هدّه المرض فمات بعد أربعة عشر شهرا (16 سبتمبر 1435م.) من توليه الملك . واعتلى العرش بعده أخوه أبو عمرو عثمان الذي كان فرض نفسه رغم أنه لم يتجاوز حينذاك من سنه ست عشرة سنة ونصفا .

ولم تخل أيام ملكه الأولى من اضطرابات خطيرة ذلك أن أحد أعمامه أبا الحسن أقض مضجعه في جهتي قسنطينة وبجاية . فما زال به طيلة أحد عشر عاما حتى ضربه ضربة قاصمة بهذه المدينة (1446)

ولم يقض عليه القضاء المبرم إلاّ سنة 1452 . على أنه يجدر التنبيه إلى أن هذه الاضطرابات لم تتجاوز حدودا معينة فلم تحل دون قيام

الخليفة بحملات هامّة ضد نفطة (1441) وتوقرت (1449) ، ولم يختل الأمن في كامل المملكة الحفصية كما يشهد بذلك نصّ رسمي مصدره فلورانس بتاريخ 1446 ذكره برنشفيك . واضطر أبو عثمان بعد ذلك إلى قمع بعض القبائل العربية التي تمرّدت لأسباب مالية (1463) . وهو أمر طبيعي في البدو ولم يكتس خطورة كبيرة ولانال من سلطان الحفصيين . ولدينا فيما يخص إفريقية في ذلك العهد وثيقة نشرها ر. برنشفيك فيها يروي شاهد عيان وهو أدورن أصيل الفلاندر (le Flamand Adorne) ما رآه أثناء إقامته بتونس وسوسة من 27 ماي إلى 25 جوان 1470م. ويبدو أبو عثمان من خلالها عاهلا يجمع بين القوة وطيبة النفس ، يحبّه ويهابه رعاياه وقد أمسك بزمام مملكته في حزم كامل .

ويؤيد ماسبق طبيعة علاقاته مع الدول المجاورة : ذلك أن عددا كبيرا من كبريات البلدان النصرانية أبرمت أو جدّدت معه معاهدات تجارية من بينها بروفنسا وفرنسا في عهد لويس الحادي عشر اللتين لم يكن لهما إلى حد ذلك التاريخ دور يذكر . فقد لاحظ برنشفيك : «أغلب الظن أن جمهوريات إيطاليا البحرية وجهت حركتها التجارية نحو إفريقيا الشمالية بعد أن صدتها الجيوش التركيّة الزاحفة عن جهات كثيرة من شرقي البحر المتوسط» . وكانت الدولة الحفصية في بلاد المغرب تظهر في عهد عثمان وأبي فارس في مظهر الدولة الكبرى الاولى . ففي سنة 1468 و 1466 قام الخليفة بحملتين على تلمسان لتدعيم النفوذ الحفصي بعد أن نالت منه خلافات العائلة الحاكمة . ونحن نعلم أن محمّد الشيخ صاحب فاس ومؤسس دولة بني وطّاس أعلن سنة 1472 عن ولائه للخليفة عثمان . وكانت العلاقات مع مصر وغرناطة ودّية ونكاد نجزم بان تونس عينت سفيرا لها لدى السلطان التركي في اوائل سنة 1454 .

نهاية بني حفص:

لقد عيّن عثمان خلفا له أحد أحفاده هو أبو زكريا يحيى وما أن اعتلى العرش حتى تصدّى إلى مقاومة عدد كبير من أعمامه وإخوته كانوا ينازعونه الحكم ، وكان قاسيا ، لم يتورّع من استعمال العنف مع انصاره وأعدائه على السّواء . وسرعان ما تخلّى عنه ذووه فما زال يقاتل حتى

قُتل (1489) ولم يكن ابن عمّه المنتصر عليه باسعد حظّا منه ، إذ خلعه أحد أبناء ضحيته أبي يحيى زكرياء (1490) وبينما كانت الدلائل تبشر بمستقبل زاهر لهذا الشّاب الذي لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره اذ بالطاعون يختطفه في ربيع 1494 . فخلفه احد ابناء عمومته أبو عبد الله محمّد وهو وطيء الجانب متهالك على اللذات غير قادر على علاج ما داهم الدولة الحفصية من انحطاط ولا على مواجهة ما سينجرّ في إفريقية من نتائج الصدام بين الاتراك والاسبان .

الدولة الحفصية : :

ومهما واجهت الدولة الحفصية من صروف الدهر فانها استطاعت أن تصمدّ في الشطر الشرقي من المغرب طيلة ثلاثة قرون ونصف وان تترك في البلاد أثرا عميقا . الأمر الذي يبرر عمل ر. برنشفيك الذي خصّ أكثر من نصف تأليفه القيّم لدراسة البلاد ومؤسساتها .

وإن أول سؤال يتبادر إلى الذهن هو التعرف إلى الحال الديموغرافية ، فقد توافد على إفريقية – أكثر من غيرها من اجزاء المغرب الأخرى من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر – عدد كبير من العرب الرحل . فكيف تمكّن هؤلاء القادمون الجدد الذين نجهل عددهم من الاستيطان ببلاد لاريب انها كانت عامرة بالبربر ؛ انهم استقروا بصفة عامة ومن دون أن يكون ذلك قاعدة مطردة في المنبسط من الارض المتلائم مع عاداتهم الرعوية بينما نزح البربر نحو السواحل أو اتجهوا إلى المناطق الجبلية . على أنّه من العسير ان نميّز ابتداء من العهد الحفصي بين الجهات البربرية والجهات العربية لأن الحدود اللغوية لم تعد متطابقة مع الحدود العرقية ، نتيجة لتغلغل اللّغة العربيّة تغلغلا عميقا حتى في المناطق التي يسكنها البربر . ولا نستثني من ذلك الا الجماعات التي كانت في مأمن بفضل عزلتها النسبية مثل القبائل وسكان اوراس وجربة وجبال الجنوب التونسي وطرابلس الذين بقوا على لغتهم البربّرية . ويجب أن نضيف إلى أن العقيدة الدينية ساهمت في بعض المناطق في استبقاء اللهجة البربرية ذلك أن سكان جبال نفوسه وجربة وجزء من جفارة تمسكوا بالمذهب الخارجي واللغة البربرية معا . وكان لتضافر هذين العاملين أن حالا دون تسرب

المؤثرات الخارجية ، أما سائر البلاد التونسية الحالية فانها تعرّبت تماما منذ العهد الحفصي .

ومن جهة أخرى فان توزع المدن في البلاد دخل عليه ولاشك شيء من التغيير تحت تأثير هجومات البدو فمعظم المدن الجديرة بهذا الاسم استقرت في السواحل التي لم يعرها البدو اهتماما كبيرا بينما كانت تفسح المجال أمام السكان الجدد لاقامة علاقات اقتصادية نشيطة مع الدول النّصرانيّة . وإذا استثنينا المواني فاننا لانكاد نجد الا الواحات والمراكز الصحراوية واخيرا القيروان وقسنطينة وهما المدينتان الوحيدتان داخل البلاد اللتان احتفظتا بمركزيهما — ولو بصورة منقوصة — نظرا إلى اتساعهما وإلى موقع احداهما الاستراتيجي ومنزلة الثانية الدينية : وإن علم الأثار يشهد بذلك على الأقل بالنسبة للقيروان — وهكذا فإن توازن البلاد تغيّر تغيّرا جذريا منذ عهد بني زيري . ويظهر أن بني حفص ساهموا بفضل مرونتهم السياسية في إقرار التوازن البشري الجديد بافريقية .

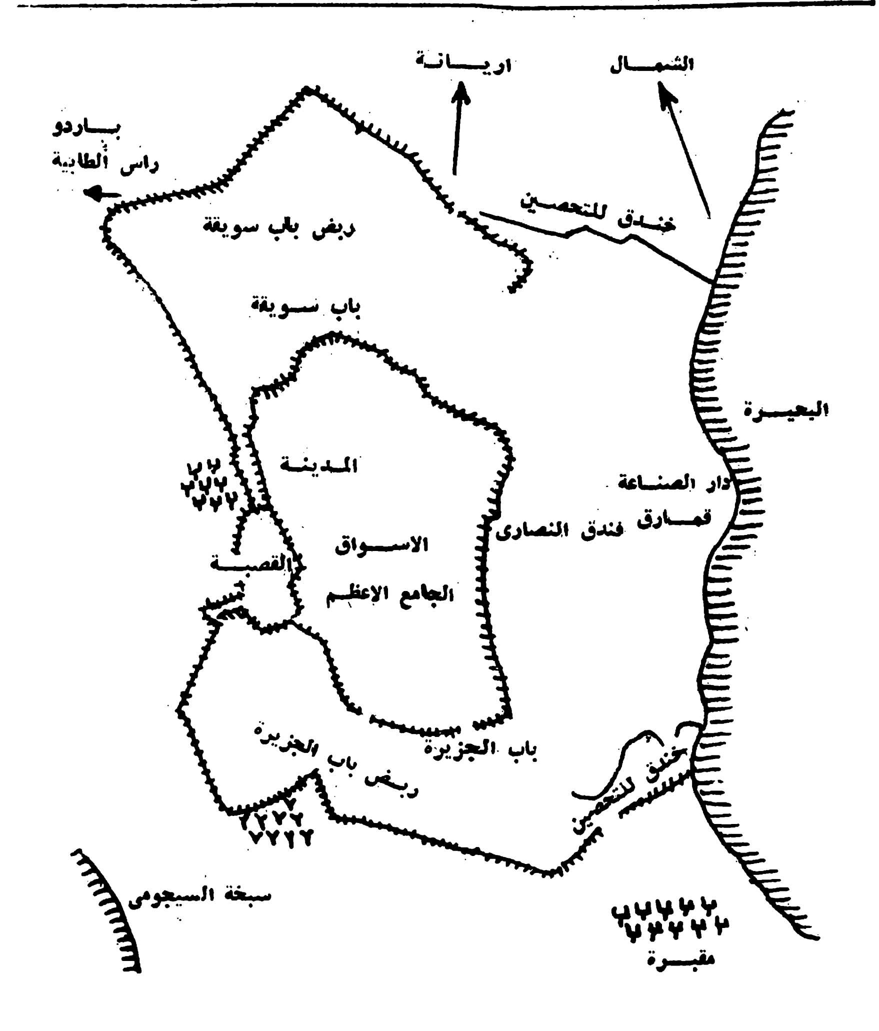
وكان يعيش إلى جانب المسلمين نصارى ويهود . ولئن ضايق الموحدون الاسرائليين فقد تمكنوا من العيش والتحق بهم عدد من يهود اسبانيا على اثر ما نالهم من اضطهاد سنة 1391م. نتيجة قرار الطرد الذي سلط عليهم بعد استيلاء النصارى على غرناطة . ولم يقم يهود إفريقية بالدور السياسي الذي كان من نصيب اخوانهم في الدين بالمغرب الأقصى في عهد المرينيين ولكنهم ساهموا مساهمة فعالة في الحركة الاقتصادية بالبلاد وشملهم ملوك بني حفص بالرعاية والعناية . فهل كانوا يعيشون في حارات خاصة كما كان الشأن في المغرب الأقصى ابتداء من القرن الخامس عشر ؟ ان ما لدينا الآن من الوثائق لايسمح بالتيقن من ذلك .

اما النصارى فانهم كانوا جميعا من أصل أوروبي إذ أن آخر ماتبقى من آثار المسيحية الافريقية قد اندثر منذ القرن الثاني عشر تحت تأثير الحركة الموحدية . وكان منهم التجار الذين يعيشون غالبا في المواني مجتمعين « بحسب قومياتهم » في فندق حيث يسكنون ويتاجرون تحت اشراف قنصل معتمد لدى العاهل الحفصي — ولئن كانوا عرضة للتقلبات السياسية فان وضعهم كان في الغالب مرضيّا . وكان إلى ذلك يوجد

بالبلاط الحفصي – حرس نصراني متركب من بضع مئات من الرجال كادوا جميعهم في بعض الأوقات ان يكونوا من القطلانيين (Catalans) يقومون بحراسة شخص الأمير ويعيشون في حي خاص بهم وبقوا في الجملة على نصرانيتهم .

وكان يوجد إلى جانب هؤلاء من تنكر لدينه وأكثرهم كانوا من العبيد رجالا ونساء اختطفهم القراصنة ، وأخيرا كان يوجد عدد من رجال الدين في خدمة كنائس المجموعات النصرانية منهم المكلف بدفع دية الأسرى ومنهم المبشر سواء انتسب إلى نحلة الدومينكان أو الفرنسيسكان يسعون جميعا إلى شراء الأنفس في سبيل الإله .

واستبقى الحفصيون بافريقية في حكمهم لهذه المجموعة من السكان المختلفة الأجناس النظام الذي وضعه الموحدون بل ان اسم المهدي ابن تومرت ظل إلى أوائل القرن الرابع عشر يدعى له في الخطب الجمعية الأمر الذي يدل دلالة قطعية على أن الخلفاء الحفصيين كانوا حريصين على الظهور بمظهر الوارثين للموحدين والمواصلين لرسالتهم ، وان المعلومات التي اوردها العمري في كتابه « المسالك » والتي استنفد «قودو فروا دي مونبين »لبابها كاملا لتشهد بأن هذا النظام بقي ماثلا حتى اوائل القرن الرابع عشر ولكنّه كان يتطور بمفعول مؤثرات عربيّة وأجنبية .



شكل 18 : ـ تونس فى عهد بنى حفص .

وكـان الملك يستأثر بجميـع السلطات حسب تصـور النّاس لمفهوم الملكية في ذلك العهـد وكـان محـل التبجيـل والاحتـرام حسب مـراسم مضبـوطة في شيء من الدقة ، غير أن هذا الحكم المطلـق لايعني ان الملك الحفصي كـان يحيـا على غرار خلفاء بني العباس بعيـدا عن رعاياه بـــل كـثيرا ما يظهـر اليهـم مثـل سلطـان المغرب اليوم ويستقبلهـم من دون صعـوبة تذكـر .

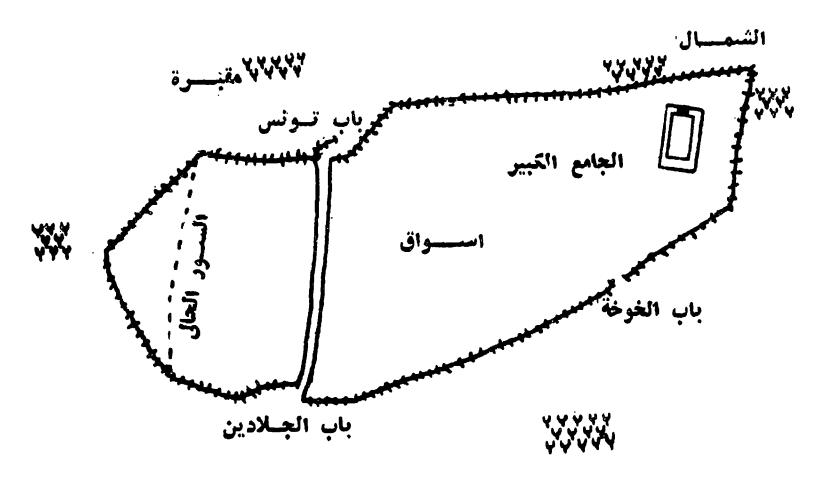
وهو إلى ذلك يحكم باعانة عشرة مشايخ من الموحدين فشيخ الموحدين وهو رأس الارستقراطية بحق كان يمارس أسمى المهام . ولقد بقي المجتمع الموحّدي كعهده في زمان ابن تومرت منظما تنظيما عموديا اذ نجد في أعلى السلّم كبار مشايخ أهل العشرة ثمّ صغار المشايخ أهل الخمسين وأخيرا المشايخ العاديين . وقد رتب هؤلاء المشايخ حسب أصناف يراقبهم مزوار كان في أول الأمر محتسبا لاغير ثمّ تطورت وظيفته فاصبح حاجبا للأمير ومنفذا لاحكامه .

وتناقص تأثير المشايخ بصورة ملحوظة منذ النصف الأول من القرن الخامس عشر . وكان المرموقون منهم اعضاء ولاشك في مجلس الشورى الذي كان يستشيره الملك وأغلب الظن انه كان يضم كبار الموظفين الساهرين على حظوظ الادارة . وكان لأبي زكرياء ثلاثة وزراء ولقد اشار « ليون الإفريقي » إلى وجود « عشرة ضباط كبار ببلاط ملك تونس في أول القرن السادس عشر » . أمّا الوزراء الثلاثة فهم صاحب الجند وهو الوحيد من المشايخ وهو قائد الجيش والمكلف بالعطايا ، ووزير المال الماسك للحسابات ، صاحب الجباية ، والملاحق للمحتالين وصاحب ديوان الرسائل والشرطة ، وعندما تلقب المستنصر بلقب خليفة أنشأ حجابة كبرى وحجابة صغرى لكلتيهما نظامها الخاص وترجعان بالنظر إلى صاحب ديوان الرسائل . وأكد ابن خلدون على أهمية وظيفة الحاجب الذي كان في أول الأمر كبير الخدم ثمّ أصبح همزة الوصل بين السلطان وموظفيه وأخيرا رئيس الحكومة الحقيقي . ويذكر مؤلف كتاب المسالك خططا أخرى لحسبان المال والنظر في حوائج المتظلمين ويذكر صاحب الشرطة والمحتسب بتونس والولاة الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر على غرار المحتسب .

وكان ملوك بني حفص يبرزون سلطانهم بما وضعوه من مراسم أثناء استقبالاتهم العمومية وخاصة مواكبهم اذ كانوا يمتطون متن جواد ويمرون في أبّهة محفوفين بالمشايخ والحرس الذي أصبح فيما بعد من الأجانب وسط نقر الدفوف وقرع الطبول وحفيف البنود الحريرية المطرزة المتعددة الألوان يعلوها علمهم الأبيض في جو من الاحتفالات

الشعبيـة . وإننا نجد فيمـا دوّنه آدورن (Adorne) وصفـا ، حيّا للغايـة ، لأحد هذه المواكب .

وكـان الجند يتكـوّن في معظمـه من الموحدين ولا يقتصر على البربر المرتّبيـن طبقـات بـل كـان يـوجد فيـه الأتـراك والأنـدلسيـون والعـرب وحتى مسلمـة النصارى والزنوج ويتكوّن منهـم ومن المرتزقة المسيحيين حرس الخـليفـة الوفـي . وكـان للجـنـد امتيـازات و يـتمـتع المشـايـخ حسب مراتبهـم باقطاعات وحتى بحـق استخلاص الجبايـة لفائدتهـم . وكـان لـكل موحّدي جراية يتسلّمهـا عينا اربـع مرات في السنة علاوة على الهبات التي يبادر بها السلطان . وقد لاحظنا أن المقتضيات العسكـريـة اضطرت الحفصيين إلى أن يُقطِعـوا العرب إقطاعـات . ولـم يعدم هذا الجيش القيمة بل يمـكن اعتبـاره في نفس المستوى الذي بلغتـه الجيوش الأوروبيّة حينذاك رغـم افتقـاره إلى السلاح الثقيـل . ولـم يـكن الأمـر كذلك بالنـسبة للقـوات البحرية التي كـانت منذ أواخر القرون الوسطى دون مستوى الأساطيـل الأروبيّة بالبحر المتوسط ، ولم تبز المراكـب الحربيـة التابعـة لجنـوة أو غيرها مراكـب الحفصيين فحسب بل ان التجـارة الخـارجية لبلاد البربر كـانت تعتمـد في معظمهـا على المراكب النصرانيـة لقلة وحدات أسطـولهم التجاري ، واحتل القراصنـة وحدهـم مرتبـة مرموقة في غربـي البحر المتوسط نظـرا لسرعة حركـتهم وقدرتهـم الفائقـة على مباغتة العدو .



شكل 19 : ـ القيروان في عهد بني حفص .

وكان للادارة الجهوية ثلاثة اشكال متميّزة سواء تعلّق الأمر بقبائل « مدن الجنوب » او المدن والجهات الراجعة بالنظر إلى سلطة الملك المباشرة وكانت القبائل العربية في معظمها تخضع للمشايخ المعيّنين منهم من دون قاعدة مضبوطة ، فاذا كانت علاقاتها طيّبة مع السلطة المركزية قام مشايخها بدور مزدوج من جهة كأعوان للحكومة ولدى منظوريهم ومن جهة أخرى كممثلين لهؤلاء لدى الحكومة — واضطر الضعفاء من ملوكهم في مدن الجنوب إلى غض النظر عن ضغط بعض الجماعات او البيوتات المحلية . أمّا اشداؤهم فانهم لاقوا صعوبات في القضاء على هذه الحركات الاستقلالية الشديدة الشبه بما طرأ فيما بين سنة 1050 وسنة 1060 عند زحفة بني هلال . وأخيرا كان يمثل السلطان وال في الجهات التي يمارس فيها الخليفة سلطته مباشرة وكان هذا الوالي في غالب الأحيان أحد اقربائه وكثيرا ما كان من أبنائه يعضده موظف مجرّب يتمتع مثل الخليفة بمشمولات واسعة جدا .

تونس والتجارة في حوض البحر المتوسط :

أصبحت تونس في عهد الحفصيين عاصمة بلا منازع . واشتملت على المدينة القديمة يلاصقها شمالا ربض باب سويقة وجنوبا ربض باب الجزيرة يحوط بهما سور شيّد في أول القرن الرابع عشر بشرقي القصبة وهو من عمل الموحدين ادخل الحفصيون عليه بعض التغييرات وأكملوه ، وأخيرا كان يوجد بشرقي العاصمة فنادق للمسيحيين ودار الصناعة على حافة البحيرة . وان ما لانزال نجده بها إلى اليوم من مختلف التجهيزات يعود الفضل فيه إلى الحفصيين من ذلك مدرستان ماثلتان إلى اليوم يرجع عهدهما إلى أبي زكرياء . أمّا المدرسة الثالثة التي عفت رسومها فقد أقيمت بالأسواق في آخر القرن الثالث عشر . كما ينوه كتاب المسالك بأهمية حماماتها وأسواقها . وفعلا فقد بني سوق العطارين والقماش في القرن الثالث أو الرابع عشر بسككها الثلاث المبنية طاقاتها بالآجر وبدكاكينها المغطاة أيضا بطاقات عمودية بالنسبة للأخرى .

وكان لا بد من بناء اسواق جديدة نظرا إلى أن حركة التجارة التونسية في نشاط مستمر ، وكانت تونس تصدّر الحبوب عند توفّر المحاصيل والتّمور ، وزيت الزيتون ، والشمع ، والحوت ، والملح ، والأقمشة ،

والزرابي، والمرجان، وبعض الأسلحة وخاصة الصوف والجلود ولربما كانت تصدر كذلك العبيد السود. وكانت تورّد الحبوب عند الاضطرار والخمور وبعض طيور القنص والبلور والخشب المصنوع والمعادن، والاسلحة والتوابل والحشائش الطبيّة، والعطور والخشخاش، والكتان والحرير، والقطن، وأقمشة متنوعة، والحلي، وكانت البضاعة المورّدةتخضع إلى ضريبة قدرها 10 في المائة من قيمتها وكانت تونس تضرب سكة من ذهب (دينار والدوبلون) ومن فضة (درهم) هي أكثر اعتبارا من سكة البلدان النصرانية.

وكانت المدينة تتاجر مع المشرق برا بواسطة القوافل وبحرا، وكان التجار النصارى يتوافدون على مينائها. فعلاوة على المنحدرين من جنوة وبيز فإن الآتين من البندقية وفلورانس والأرغون كانوا يقومون فيها بدورهام في القرن الرابع عشر، فكان لآل أكسياولي (Acciaiuoli) وبروجي (Perruzzi) من فلورانس الذين فتحوا في تونس وكالات قارة وأقدموا على تقديم تسبقات للخليفة، تأثير سياسي بعيد الأثر، وكذلك سمح تقدم التقنيّة التجارية وتطوّر التأمين على المراكب بتنمية النشاط الإقتصادي. وأبرمت معاهدات خاصة لحماية الأجانب في اشخاصهم وممتلكاتهم، وتعتبر المعاهدات التي تمت مع البندقية سنة 1231 وبيز سنة 1234 أو جنوة سنة 1236 مثالا يحتذى. «فهي تقضي بضمان الملاحة للأطراف المتعاقدة ... وتضبط قواعد التجارة وشروط استيطان النصارى الأجانب في دار الاسلام». وتجددت هذه المعاهدات في فترات كادت أن تكون منتظمة وزيد فيها أحيانا. من ذلك أن بيز تحصلت سنة 1353 على ضمانات جديدة لأمن رعاياها وحرية متاجرتهم واعتبار مسؤولية التاجر المعني بالأمر في حالة نشوب خلاف عوضا عن ادانة مواطني هذه المدينة بصورة جماعية، وكان لكل أمّة قنصل يرعى مصالح جاليتها وفندق تودع فيه البضائع ويلاذ به عند حدوث الاضطرابات ووجدت كذلك فنادق نصرانية بعنابة وبجاية وصفاقس وقابس وجربة، ولم تكن التجارة في أمن دائم إذ كان النصارى ينافسون المسلمين في سوء النية — وكثيرا ما كان الدفع بالتقاضي (à crédit) وترد البضائع إمّا عن طريق القمارك

بضمان أدبي من السلط وتباع غالبا بالمزايدة وعن طريق ترجمان أو تأتي مباشرة بما في ذلك من مخاطرة بالنسبة الى التجار .

واستفحل امر القرصنة وتجاوزت سلطة الخليفة فاضطرت المراكب إلى أن تبحر متجمعة وتكررت الأزمات من ذلك احتلال «روجار دي لوريا» لجربة وتركيز هذا الاحتلال من قبل مغامر قطلاني يدعى رامون مونتنير (Ramon Montaner) (1311 — 1314) ثمّ استرجاع المسلمين لها سنة 1335 وهجومات أهل جنوة والصقليين غير الموفقة وكانت النتيجة ان توترت العلاقات وانتهى التنافس بين البحّارة النصارى وقراصنة المهدية إلى قدوم أسطول من البندقية وجنوة سنة 1390 تعززه مراكب فرنسية للاستيلاء على هذه « المدينة الافريقية القوّية » بحماتها الأشداء (عن المؤرخ فرواسار) وفشل الهجوم ولكن قد تكون المهدية اضطرت إلى دفع اتاوة . ولاشك أن نمو قرصنة المسلمين كان من العوامل التي حملت الإسبان على مهاجمة جربة وتونس في القرن السادس عشر .

الحضارة الحفصية :

وكما كانت الدولة الحفصية نشيطة في الميدانين السياسي والاقتصادي فانها احتلت كذلك مرتبة ممتازة في دنيا الفكر بحيث يمكن الجزم بوجود حضارة حفصية . وامتازت هذه الحضارة من الناحية الدينية باحياء المذهب المالكي بعد أفول نجمه في عهد الموحدين وذلك بفضل مدارس الفقه التي ازدهرت بتونس وبجاية والقيروان وبالخصوص بفضل العالم الشهير ابن عرفة (1316 — 1401) وفي نفس الوقت تقريبا انطلقت الحركة الصوفيّة ببلاد المغرب نتيجة لدروس أبي مدين المتصوّف الكبير ببجاية ، (سيدي بومدين المتوفى قرب تلمسان سنة 1197 أو 1198) وانتشر التصوف بافريقية انتشارا كبيرا منذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر على أيدي رواد ظهروا في القرن الثالث عشر أمثال أبي سعيد الباجي (سيدي بو سعيد) وأبي الحسن الشاذلي (سيدي بلحسن) وعائشة المنوبية (للاّ المنوبية) . وكان سيدي بن عروس اشهر مشايخ الصوفية « مولى البلاد » إلى جانب عدد قليل من امثاله وقد قدسه النّاس في حياته وسار أهل تونس قاطبة في جنازته سنة 1463م. ، وطرأ على العلوم

الوضعية في إفريقية ما طرأ عليها من انحطاط في سائر العالم الاسلامي ، فلم يوجد بها في العهد الحفصي أي عالم في الرياضيات او الفيزيا ، ولا أي طبيب ممتاز ، بينما كثر الإنتاج الأدبي وتعددت التراجم الهادفة ، فالى جانب ابن خلدون العبقري يمكن ان نذكر مؤلفات تاريخية ذات قيمة مثل رحلة التجاني (القرن 14) والفارسية لأبن قنفذ والادلة للهنتاتي وتاريخ الدولتين المنسوب للزركشي وهي آثار ظهرت كلها في القرن الخامس عشر ، فاذا أضفنا إلى ذلك النثر الفني الذي تنمّق به الرسائل الرسمية والشعر الذي توحي به المناسبات في غالب الأحيان تصورنا تقريبا ما كانت عليه الحياة الفكرية في المملكة الحفصية : لقد كانت حياة فكرية فاترة تتجاذبها مؤثرات اندلسية لم تخل من اعراض الانحطاط ومؤثرات شرقية باهتة ، انها فترة انتظار وركود نسبي لها الفضل على كل حال في الحفاظ على تراث ثقافي عريق وممتاز .

وكان سلاطين بني حفص ايضًا بناة وجدوا في المدن معالم كثيرة تذكر بالفن المعماري الأغلبي والصنهاجي ولكنّهم لم يتأثروا بالتقاليد العتيقة ولا انساقوا مع المؤثرات المعماريّة الشرقية بل تتلمذوا للفنانين الاندلسيين الذين توافدوا على بلاط تونس ، فقد كتب ابن سعيد في رسالة إلى احد الأعيان المهاجرين من اسبانيا ما فحواه : إن السلطان الحالي (أبوزكرياء) شيد المعالم وبنى القصور واغترس الرياض والكروم على نمط أهل الأندلس ، أما المهندسون والبناؤون والخشابون وصانعو الآجر والدهانون والبستانيون فهم من أهل هذه البلاد والأندلسيون هم الذين وضعوا أمثلة هذه المباني أو نقلوها عن المعالم الموجودة في بلادهم (ترجمة ڤاينڤوس ذكره جورج مرسي) كما كان لاشعاع الثقافة المرينية على نحو ما عبر عنها العلماء الذين عاشروا أبا الحسن أثره كذلك في الفن بافريقية .

وبادر أبو زكرياء بتشييد جامع القصبة في تونس طبقا لتقاليد إفريقية قديمة إذ تذكّر صومعته المربّعة الشكل والمبنية بالحجارة بصومعة قصبة مراكش مع الفارق في الحجم . ولاشك ان المستنصر شيّد مسجدا بالمنستير كما أذن الخليفة أبو حفص بالقيام بأشغال هامة في الجامع الكبير بالقيروان (1294) . ولئن عفت آثار قصور المستنصر وحدائقه

التي كانت تثير اعجاب ابن خلدون فاننا لانزال نحتفظ ببابين بالمنستير يرجع تاريخ أحدهما إلى عهده لهما مشارف مستوحاة من الشرق . وكانت في إحدى حدائق هذا السلطان بركة عظيمة يتمتع نساؤه بالتفسح في مياهها على متن قوارب واضطر لتزويدها بالماء إلى ترميم حنايا أدريانوس القديمة وإقامة توابع لها وبنى الحفصيون كذلك في تونس صهاريج « وسبّالات » لاتزال حنيفياتها باقية إلى اليوم ، واحتفظ المعماريون في إفريقية بالميل إلى استعمال المواد المتعددة الألوان ، وأخيرا فان احواز تونس التي تضفي على هذه المدينة طابعها المميز هي من إنشاء بني حفص . من ذلك أولا قصر رأس الطابية المشيّد سنة 1225 في الجهة الشمالية الغربية من المدينة ، وقد أكمله المستنصر ثمّ الحديقة التي خطّها هذا الملك قرب بلدة اريانة الحالية وقصر باردو الذي بناه أبو فارس ويرجع تاريخه إلى السنوات الأولى من القرن الخامس عشر على أغلب الظن ، وأخيرا دار للنزهة أقامها أبو عبد الله محمّد بالمرسى حوالي سنة 1500 .

وهكذا فإن بني حفص لم يكونوا من عظام البناة أي انهم لم يخلفوا مباني جديرة بالاعجاب كما فعل الموحدون من قبلهم بحيث قد لايجوز أن نتحدث عن فن معماري حفصي ولكنهم رسموا لمدينة مثل تونس طابعها الذي احتفظت به قرونا ونجحوا في الابقاء على مجموعات عمرانية استطاعت ان تصمد أمام زحفات البدو مثل القيروان .

وصفوة القول أن فضل بني حفص يتمثل في حفاظهم على حضارة كانت مساهمتهم الطريفة فيها متواضعة واذا تذكرنا انهم كانوا مضطرين دائما إلى كبح جماح القبائل المشاغبة ، والتيقظ إلى خطر النصارى المتزايد من دون أي أمل في عون خارجي سلّمنا بان عملهم على تواضعه جدير على الأقل بالاحترام .

2 ـ مملكة بنى عبد الواد بتلمسان

نهوض زناتة . بنو عبد الواد :

لئن وفق شرقي بلاد البربر ، حيث بقيت التقاليد الحضرية والادارة حيّة ، إلى المحافظة على السلطنة رغم اعتداءات العرب فان المغرب الأوسط أصبح من جديد أرض انتجاع فخربت مدنه واضمحلت مزارعه. واستغلت زناتة انهيار سلطان صنهاجة الشديد فاستعادت قواها شيئا فشيئا قبل قدوم البدو المنشغلين بنهب إفريقية وتدخلهم الحاسم مرة أخرى في الصراع من أجل الحكم وطبع قبائل البربر الرحل بطابعهم .

ونتج عن استرجاع زناتة لسالف قوتها ظهور دولتين في المغرب الأوسط وغربيه يفصل بينهما مضيق تازة وهما من أرومة واحدة ولكنهما متنافستان مثلما كان الشان في السابق بالنسبة لمغراوة وبني ايفرن وهاتان الدولتان هما بنوعبد الواد بتلمسان وبنو مرين بفاس .

وأضفى مؤسس دولة بني عبد الواد أو بني زيان يغمراسن بن زيان على هذه العائلة البدوية هيبة كبيرة وان كان ماضيها متواضعا جدا وإن ادعى العرب عكس ذلك واكتفى بنو عبد الواد عندما دحروا إلى حدود المغرب الأقصى فيأواسط القرن الحادي عشر من جراء زحفة بني هلال بأن عاشوا طيلة قرن كامل في فلك عائلات زناتة القوية . وجازاهم عبد المؤمن على انضمامهم اليه فأقرهم في الجزء الغربي من جهة وهران حيث بقوا أتباعا في غالب الاحيان للموحدين .

ولم يكن لانحطاط بني عبد المؤمن انعكاس سيء على بني عبد الواد بل إن الحظ جاد عليهم بزعيم حازم استطاع أن يستغل الفرصة السانحة لبعث دولة مستقلة صمدت أكثر من ثلاثة قرون (1235 – 1554)

تلمسان :

أصبحت تلمسان عاصمة للمملكة المغربية الجديدة . وان لهذه المدينة من دون شك ماضيا كبيرا . فقد شيّد الرومان في النجد المجاور لها حيث توجد اليوم أكادير معسكر بوماريا الذي تحوّل فيما بعد إلى مدينة تحمل نفس الاسم ولربما فتحها أحد قواد عقبة ، الاّ أن الذي لاشك فيه هو أنها صارت فيما بعد مركزا لجماعة صغيرة من الخوارج بامامة أبي قرة ثمّ فتحها إدريس الأول (790) وظلت تابعة لفاس. ولمّا سقطت دولة الادارسة استولى على أكادير أمراء مغراوة وهم بنو خزر ثمّ بنو يعلى الموالون للأمويين بقرطبة . وأشار البكري في القرن الحادي عشر إلى ما توفر لها من ازدهار .

وإن الأمير المرابطي يوسف بنتاشفين هو الذي شيّد في أوائل القرن الثاني عشر تاكرارت التي سميت بتلمسان الحالية . وذلك في النجد الذي عسكر بهشرقي أكادير . وسرعان ما نمت هذه المدينة الجديدة على حساب سابقتها وضمتها إليها في آخر الأمر . وحصّن الموحدون المدينتين وكانت احداهما مقرا لرجال الدولة والأخرى لكافة الناس . وكان يغمراسن هو الذي جعل منها كما قال ابن خلدون : « قاعدة المغرب الأوسط وأمّ هؤلاء الأحياء من زناتة المغرب ».

وبيّن « أ. ف. قوتيي » أن الجغرافيا قضت ، على ما يظهر ، بتأسيس عاصمة غربيّة لبلاد الجزائر في جهة تافنا ذلك انه اذا تأملنا في الفجوة الكبيرة الواصلة بين توات على طول الممر الذي يشق التلّ وجدنا تشابها بين الخط الذي يصل تلمسان بمصبّ تافنا حيث شيدت سيقا عاصمة « سيفاكس » وبين خط أشير – مدية – مليانة – مدينة الجزائر ، ومهما يكن فان موقع مدينة بني عبد الواد يجعل المقام بها مستطابا ويساعد على نشاطها التجاري . فقد بنيت في منتصف منحدر (806متر) بين الحدائق التي

استمدّت منها اسمها اللاطيني وبلغ جمالها حدا جعل احد الكتاب العرب يشبّهها « بفتاة مخطوبة على فراش العرس » . وكانت تسيطر على ملتقى طرق كبرى كثيرة وخاصة منها تلك التي تربط بين ميناء حنين الذي يبعد 36 كلم عن شرق نومور(Nemours) وميناء وهران وبين تافلالت.

ولم ينقطع عنها التجار حتى في الاوقات العصيبة اذ كانوا يتزودون فيها بمنتوجات بلاد السودان أي العاج والذهب والعبيد الذين تأتي بهم القوافل مرورا بمسالك حفرت على طولها آبار . وكانت تلمسان تصدّر مقابل ذلك الصوف والاسلحة والكتب، وهي الى ذلك ممرّ للبضائع الإفريقية والأوروبيّة يتاجر فيها بحيّ قيصارية القديم وقد نوّه ليون الإفريقي في أول القرن السادس عشر بما اشتهر به تجار تلمسان من ثقة .

وعلى عكس ذلك كان موقع تلمسان رديئا من الناحية السياسية فكأنها بين شقي رحى تحاصرها مملكتا بني حفص وبني مرين فاستهدفت خاصة الى ضربات جيرانها بفاس الذين اعتبروها تابعة لهم والى هجمات بني هلال البدو المستعدين دائما لمساندة الغزاة . فلم يستقر لها حال منذ حكم يغمراسن ولم يستقم لها أن تحكم امبراطورية عظيمة

يغمراسن بن زيان :

ومن حسن حظّ هذه الدولة أن طال حكم مؤسسها يغمراسن (1235 – 1283) فبعد أن ظل الحكم مستقّرا فيها طيلة خمسين عاما داهمتها احداث خطيرة اضطرتها إلى محاربة اعدائها فقد هاجمها الحفصيون وانتصروا عليها سنة 1242 وجعلوها مؤقتا تحت حمايتهم. وتسلط عليهم الموحدون ولكنهم ردّوا على اعقابهم (1248) وحسدت زناتة، بني عبد الواد على نعمتهم فتحالفت عليهم مع اعدائهم وتطاول عليها بنومرين وتابعوا هجماتهم لاخضاع مملكة زناتة المنافسة لهم إلى سلطة فاس وأخيرا أغارت عليها القبائل العربيّة وخاصة المعقل من ذوي عبيد الله النازلة بغربي أرض بني زيان ممّا اضطر يغمراسن إلى القيام باثنتين وسبعين حملة على مايقال لكسر شوكتهم .

وعندما سعى يغمراسن الى استقرار بني عبد الواد لم يتخل عن ارتباطه بالبدو ولا استغنى عن مساندتهم . وواجه صف العرب وزناتة

المتكون من بني عبيد الله وبني مرين بصفّ آخر يعتمد عرب بني سويد من قبيلة زغبة . وصار بنو سويد مخزنا له ولم يكتف بإعطائهم العطايا بل أقطعهم الإقطاعات فاستقر أكثرهم بها . وذهب به الأمر إلى استقدام بطون أخرى من بني زغبة أي بني عامر وبني حميّان رغم بعد دارهم لمزيد القدرة على الاحتماء من بني عبيد الله الذين كانوا يسلّطون ضغطا على جهة من حدود مملكته ، وتمكّن يغمراسن بفضل وحداته المتكوّنة من بني زغبة من قهر دوي عبيد الله وحاول حتى الهجوم على بني مرين . ولكن سرعان ما ضاق ببني زغبة ذرعا فتركهم يرحلون عن تلمسان وكذلك الأمر بالنسبة لبني سويد أنفسهم . فقد أصبح هذا الأمير الحضري يأنس في نفسه القوة على قهر المخزن المتكوّن من البدو بعد أن اعتمد عليه في وقت الشدة .

ولم يكن بنو عبد الواد وبنو مرين على اتفاق رغم انحدارهم من أصل واحد . وقد يكون لهذا العداء المتبادل علاقة بالخصومات حول المراعي أو الصف . إلاّ أن الذي لا شك فيه هو أن الموحدين نفخوا في ناره ذلك أنه بينما تحالف بنو عبد الواد مع المنتصرين حوالي 1145 وغنموا من ذلك غنما لبى بنو مرين طاعة رجال الجبال الظافرين وانسحبوا إلى تخوم الصحراء حيث عاشوا عيشة غير مستقرة . فلّما هوى ملك الموحدين استشرى أمر الخصومات القديمة بظهور منافسات سياسية . فقد حاول الخليفة السعيد في أول الأمر أن يمحق بني مرين بإعانة بني عبد الواد (1245) فلمّا لم يستقم له ذلك رضي بمساعدة بني مرين على تلمسان (1248) فكان الصراع المستمر بين الجارين إلى أن مات يغمراسن . فلما شجع الموحدون هذا الملك لأنهم وجدوا فيه حليفا غير منتظر ، حاول مرات كثيرة مساندة السلطان المريني المتعاظم إذ أدرك عاقبة تقارب بني حفص مع بني مرين على قومه . ولم يفلح في ذلك فأوصى أبناءه وهو على فراش الموت بالتخلي عن المغرب الأقصى والتوجه شطر البلاد الحفصية المجاورة . وكانت الفرصة سانحة إذ أضعف موت المستنصر المملكة الشرقية ضعفا كبيرا . فما انفك بنو زيان طيلة قرن كامل يحاولون دون جدوى إخضاع بطون زناتة المستقرين بوادي شلف والاستحواذ على بجاية . وتدارك بنو حفص الخطر بصرف بني مرين إلى محاربتهم .

غزوات بني مرين :

قضى أبو سعيد عثمان الزياني ملكه (1283 – 1304) في المعارك. واندحر على ظاهر مدينة بجاية بعد أن عاث فسادا في ضواحيها (1287) واستهدف لاربعة هجومات قام بها السلطان أبو يعقوب المريني. وحالت اسوار تلمسان ثلاث مرات دون نجاحه فعزم سلطان فاس حينئذ على اهلاك المدينة جوعا (1299). فضرب عليها سياجا من الاسوار وفتح فيه أبوابا مداخل لحربها قال ابن خلدون « حتى لايكاد الطّيف يخلص منهم ولا إليهم ». « ودام الحصار ثمانية أعوام. واقام أبو يعقوب تجاهها قصرا ومسجدا ومباني لادارته وجنده وحمامات وفنادق واسواقا أحاطها بالأسوار وهكذا أبت همة بني مرين الاّ تأسيس مدينة منافسة لعاصمة بني زيان هي المحلة المنصورة أو تلمسان الجديدة. واستبحرت في العمران وغصت أسواقها بالبضائع وامتلأت فنادقها « بتجار رحلوا إليها من الآفاق » أما أهل تلمسان فقد نالهم الجوع واضطروا إلى أكل الكلاب والثعابين ولم تفتر عزيمتهم بموت ملكهم المفاجيء (1304). ويقال انه بينما كان ابنه أبو زيان يستعد للخروج بهم للاستماتة هلك أبو يعقوب على يد أحد خصيانه (1307). وسرعان ما أبرمت السلم وقفلت جيوش بني مرين راجعة في سرعة إلى فاس. ولم يدم احترام أهل تلمسان للمدينة المنافسة لهم فهدموا مبانيها وأطاحوا باسوارها حالما رجع الخلاف مع بني مرين.

واغتنم العرب عجز بني زيان لا ليتّحدوا مع أبي يعقوب الذي لم يقم وزنا لعروضهم بل لتوسيع رقعة نشاطهم على الأقل وخاصة في سرسو. فلما تخلص أبو زيان (1304 – 1308) إلى حين من خطر بني مرين حرص على تنظيم الأمور في مملكته وغزا القبائل البربرية بشرقيّ البلاد وهي التي عاضدت المرينيين وأطرد العرب من السرسو. الاّ ان أي عمل ناجع لايعتمد البدو يكون من باب المستحيل. وقد أدرك السلطان هذه الحقيقة واعتمد على بني يعقوب فارجع المخزن إلى سالف عهده بعد أن تسرّع يغمراسن بازالته.

ولما هلك أبو زيان لم تزل جلّ آثار هجوم أبي يعقوب ماثلة للعيان فاجتهد أخوه أبو حمو موسى الأول (1308 – 1318) في سدّ ثلم الأسوار

وحفر الخنادق وتكديس المؤونة في المخازن وملء خزائن الدولة . وكانت ترمي هذه الاجراءات جميعها إلى وضع المدينة في مأمن من حصار جديد ووفق حتى إلى منع بني مرين من تجاوز وجدة وتوسع مرة أخرى في وادي شلف وبلغ قسنطينة وبجاية . ثمّ اغتيل بايعاز من ابنه (1318) .

ولم يتجاوز أبو تاشفين (1318 — 1337) حينئذ الخامسة والعشرين من عمره . وكان بشهادة الاخباريين الذين لايشك في حسن نيتهم رجلا منصرفا إلى اللذات كلفا بالأبهة ، أديبا قليل الورع ، واستجاب لنداء قبائل العرب المتمردة على الخليفة الحفصي أبي بكر فحاصر بجاية وقسنطينة ثمّ بنى في وادي صومام حصن تامزيزدكت على مسيرة يوم من بجاية بنيّة قطع الطريق عنها — وبينما كان ينوي ضمّ الجزء الغربي من مملكة بني حفص إليه تمكن أبو بكر من حمل بني مرين على مهاجمته . فاضطر أبو تاشفين إلى الوقوف موقف الدفاع عندما داهمته الجيوش شرقا وغربا في آن واحد ، ومما زاد في تدهور أمره تخلي بني سويد وبني يعقوب بن عامر عن نصرة بني عبد الواد . وضرب الحصار من جديد على تلمسان ودام مايقرب من سنتين ثمّ اقتحمها عنوة أبو الحسن سلطان فاس . وسقط في ساحة القتال الملك وثلاثة من ولده والقائد الأعلى لجيشه (1337) .

احتلال بني مرين لتلمسان وضمها إلى مملكتهم :

كان من نتائج انتصار سلطان فاس ضمّ مملكة تلمسان إليه . ورفع بنو مرين من شأن المنصورة وحسنوا معالمها وشيدوا أجمل المباني بسيدي بومدين الذي صار قبلتهم دون غيره . ولاشك انّه تمّ في هذه الفترة إقامة الجامع وبناء قصر النصر . وحكموا البلاد مباشرة ما يقرب من ربع قرن (1337 — 1359) وحتى عندما افلتت مملكة تلمسان من أيديهم فانهم ابقوا امراء بني عبد الواد في قبضتهم وأثاروا عليهم الاعداء كلما حاولوا التخلص من ربقتهم .

ولما انهزم أبو الحسن سلطان فاس شر هزيمة في سهول القيروان ذهب ملكه اشلاء . وتخلت عنه قبائل العرب بالمغرب الأوسط

وانضمت إلى أميرين من بني زيان هما أبو ثابت وأبو سعيد فدخلا تلمسان بدون مشقة ولكن نجاحهما لم يدم طويلا . فقد دحر جيش مريني عتيد كتائب أبي الحسن العربية الزناتية في وادي شلف (1352) ووقع أبو سعيد في الاسر فأعدم مع أبي ثابت الذي سلّمه والي بجاية إلى أعدائه . وكان السرسو من نصيب بني سويد الذين آزروا المرينيين، أما بنو عامر بن حميد وشيخهم صغير الذين قاتلوا إلى جانب أبي ثابت فقد اضطروا إلى اللياذ بالصحراء . وهكذا وقع حضر التل وبدوه مرّة أخرى في قبضة سلاطين فاس ودام ذلك ستة أعوام .

ويرجع الفضل في رجوع دولة بني زيان إلى تدخل العرب فقد نصّب الدواودة الثائرون على السلطان المريني أبي عنان في تلمسان، بإعانة قوم صغير بن عامر عمّ أبي حمو موسى الثاني وهو ابن أخ للسلطانين الأخيرين وكان حينئذ لاجئا بتونس (1359 — 1399) .

أبو حمّو الثاني :

اضطر هذا الأديب المؤثر للدبلوماسية على الحروب إلى قضاء ملكه في قمع الثورات ومقاومة الأدعياء يؤازرهم العرب وبنو مرين وفي إحباط مناورات ابنه ومؤامراته . وبلغت سيطرة بني مرين على بعض قبائل بني هلال حدا مكّن أبا حمو من تأليف كتلة من العرب لمناصرته . واعتمد خاصة على بني عامربن حميد بزعامة شيخهم صغير الذي بقي دائماً على إخلاصه لبني عبد الواد كما اعتمد على معظم قبائل المعقل التي انحازت اليه بفضل دهاء وزيره ابن مسلم . ولكنه اضطر إلى اخلاء عاصمته مرتين بعد أن خذله بعض اتباعه وقضى صغير نحبه .

وتقرر مصير الملكية بالمغرب الأوسط . فقد منيت إحدى هجمات سلطان بني زيان على بجاية بهزيمة نكراء كانت لها ابعد العواقب (1366) فلم يجد العرب صعوبة في الانتشار بالسهول الخصبة التي كانوا ممنوعين عنها . وهكذا استوطن بنو حسين في تيطري حيث أخذوا في استخلاص الضرائب لفائدتهم وحاول السلطان المهزوم ردّ الفعل بالاعتماد على الدواودة ولكنه اصطدم بوحدة الصفّ بين العرب وبني

مرين التي أحكمها بنو سويد واضطر إلى مغادرة عاصمته واللجوء إلى الزاب (1370) .

وطورد حتى توغل في الصحراء ولم ينج من الهلاك الا بموت سلطان فاس فتمكن من دخول تلمسان (1372) وعقد هدنة مع دولة بني مرين بعد مفاوضات قام بها في مهارة ، مستشار هذه الدولة وصديقها ونزمار فعاضده بنو سويد واسترجع بعض سلطته . وازدهرت مملكة بني عبد الواد طيلة عشرين شهرا ازدهارا لن يتوفر لها فيما بعد . الا أن الاخطار لم تزل محدقة بها مما حمل أبا حمو على التفكير في نقل عاصمته إلى مدينة الجزائر (1378) . ولما أساء التقدير فتطاول على مملكة فاس فسدت علاقاته بونزمار وبني مرين وانفتح من جديد باب الحروب . ووقف في وجه أمير تلمسان عدو لدود وهوابنه بالذات أبو تاشفين الذي تغلب عليه في آخر الأمر باعانة سويد وبني مرين وطارده في الجبال فلم يزل يقاتل حتى هلك (1389) وبموته عاشت مملكة تلمسان في ظل فاس أو تونس حياة طويلة بلا مجد . وتعاقب عليها الملوك وقصرت عهودهم وكثرت عليهم الاضطرابات وظلت دولة بني زيان تواجه ضربات المرينيين والحفصيين ثم خضعت إلى الهيمنة الاسبانية وطال احتضارها قبل أن تسقط تحت ضربات الأتراك (1554) .

تعريب زناتة :

اغتنمت قبائل بني هلال الاضطرابات المزمنة التي كانت تنتاب المغرب الأوسط فانتشرت في ارجاء التل واستقلت بأمرها . وكان الأدعياء يعتمدون على نصرتها ويجازونها بالاقطاعات وحق الجباية . وان الحالة التي وصفها ابن خلدون لم تزدها الأيام الا تفاقما فقد كتب سنة 1380 م. ما فحواه : بسط العرب نفوذهم على البسائط ومعظم المدن، وأصبح سلطان بني عبد الواد لا يصل الى الأماكن القاصية عن مركز الدولة ولا يتعدى حدود الأراضي الواقعة على البحر والتي ملكوها في أول أمرهم. فلقد ضعف نفوذهم أمام سطوة العرب ؛ وكانوا ساهموا في تقوية هذا العنصر البدوي بمنحه الأموال الطائلة وإقطاعه الجهات الواسعة وتسليمه موارد عدد كبير من المدن.

غير ان البلاد التي كان العرب يتوسعون في ربوعها مثل ما يمتد الظل الذي تعكسه الجبال عند انحسار النهار حسب عبارة ابن خلدون لم تكن خالية من أهلها وذلك أن قبائل زناتة بقي لها من القوة رغم الحروب وما استتبع ذلك من خراب ما مكنها من مشاغبة سلاطين زناتة والحد من سرعة توسع البدو . الا أن زناتة سرعان ما تواروا عن مسرح التاريخ . فهل طردهم العرب ؟ وكيف قدروا على ذلك بينما لم يتجاوز عددهم حوالي مائتي الف ضائعين في ملايين من البربر وكيف نفسر ان تكون القبائل العربية الموجودة اليوم انحدرت جميعها من الغزاة الهلاليين أليس من الأرجح ان يكون قد حصل الانصهار اثناء القرن الخامس عشر بين بدو زناتة والعرب الرحل بفضل تشابه عاداتهم ؟ بحيث يمكن القول بأن عرب المغرب ليسوا في الغالب سوى قبائل زناتة قد تعربت ونتيجة لذلك حل محل العداوة القديمة بين البربر الحضر والبدو الذين كانت اللغة مع ذلك عامل وحدة بينهم ، حقد أشد ضراوة يباعد بين شعبين متنافرين كأعمق ما يكون التنافر أي بين العرب او زناتة المستعربين الذين ذهب بهم الظن انهم عرب وبين البربر الصامدين في وجه التعريب . وبذلك ظهر في بلاد البربر سبب آخر من أسباب الاضطرابات زاد الطين بلة . وتلك هي على كل الفرضية التي قدمها «أ. ف. قوتيي» وهي من أخصب ما قدم من الافتراضات لتبديد ما خيم على القرون الوسطى المغربية من سجف الظلام .

حضارة بني عبد الواد وفنهم :

حرص عدد من امراء بني عبد الواد على مجالسة العلماء والفنانين . واشتهرت تلمسان بأنها مدينة ثقافية وأكد ابن خلدون الذي عاش فيها طويلا أنها « نفقت بها اسواق العلم والصنائع فنشأ بها العلماء واشتهر فيها الأعلام وضاهت أمصار الدول الاسلامية والقواعد الخلافية » ومال شعراؤها إلى مدح الملوك مدحا تقليديا وبرعوا في ذلك وتصنعوا . وكان المجتمع فيها « رقيقا ، متدينا ، مثقفا » حسب عبارة ج. مرسى .

وكانت تلمسان مركزا للدراسات الاسلامية اشتهرت مدارسها الخمس شهرة كبيرة وهي مشبعة في اعماقها بذلك التصوف الشرقي الذي سيكتب له النصر كرد فعل تجاه الغزو الأجنبي . وكان القوم يقدسون سيدي

وهاب صاحب الرسول الذي قدم بعد عقبة ودفن في هذه المدينة حسب اعتقادهم ، وسيدي الداودي الولي الصالح الكبير الذي عاش في القرن العاشر (توفي في 1011) وخاصة سيدي بومدين المتصوّف الأندلسي الشهير (آخر القرن العاشر) ، صاحب البلاد الذي كان يجلب قبره الزائرين من كافة بلاد المغرب مما ساعد على نمو قرية العباد الفوقي .

ولاتزال بعض منشآت بني عبد الواد باقية إلى اليوم . فقد أعاد يغمراسن بناء صومعة مسجد أكادير وصومعة مسجد تلمسان أما صومعة أكادير المشرفة على مسجد الادارسة فهي بمثابة برج من الأجر مربع ضلعه يساوي أربعين مترا، وشكله تقليدي أنيق ، وهي مقامة على أسس أُخذت حجارتها من أطلال رومانية، تزّين واجهاتها الأربع أعمدة صغيرة وأطر مزخرفة بازهار من فخار مطلي . وأما صومعة المسجد الكبير فطولها 34 م. وهي على نفس الشكل . وقد تكون شيدت في عهد يغمراسن وأكبر الظن في فترة سابقة ، القبة الجميلة المبنية من الآجر على رسم ذي ثمانية أضلاع والمقامة على اقواس مكونة من أقواس صغيرة عديدة منفتحة خشبها من سيدي عقبة .

وما كان يمكن لمؤسس هذه الدولة ان يكتفي بقصر تاكرارت الموحدي القديم المجاور للمسجد الكبير فقد أمر بوضع أسس قصر أراده في نفس الوقت قلعة وهو المشوار الذي لم يبق له اليوم أثر يذكر . واتخذ امراء بني زيان المشوار مقرا رسميا لاقامتهم ففيه مساكنهم ومسجدهم ومستودعاتهم ، وفي بيوته يقيم الحشم وينزل الامراء الاجانب وبين أرجائه تنظم حفلات الاستقبال الكبرى . وكان أبو حمو الثاني يحتفل بالمولد النبوي جالسا على عرشه في قاعة المشوار الكبرى يحف به كبار القوم بحضور عامة النّاس .

وكانت الشمعدانات العظيمة وثياب الحرير ، وإنشاد الشعر ومأدبة العشاء ثمّ صلاة الصبح تضفي جميعها البهجة على المهرجان . ولم تبق الاّ ثلاثة مساجد ترجع إلى بني عبد الواد فزاوية سيدي بلحسن التي بناها أبو سعيد عثمان في آخر القرن الثالث عشر صغيرة ولكنها رائعة . ان أقواسها الحدوية المقامة على ثمانية إسطوانات من الجزع (Onyx) التي

اندثر منها عمودان فقط تجعل لها ثلاث بلاطات كل واحدة منها ذات ثلاثة صفوف . وتغطي فجوة المحراب ذات الزوايا المسطحة قبة مقرنسة مقامة على اسطوانات صغيرة ، زخرفت حافاتها بأطر من الجص المنقوش كان قد دهن من قبل أمّا التوريق الموجود فيها فهو يدل على مهارة وأناقة لامثيل لهما . واستطاع الفنيون الحفاظ على اجزاء فقط من السقف المصنوع من الارز والمزخرف بشتى الألوان . أمّا مسجد اولاد الامام بصفّيه وبلاطاته الثلاث فهو أصغر منه . وقد ضاعت كل زخارفه الجصية واندثرت جميع المعالم التي بناها أبو تاشفين . وازيلت منذ أقل من نصف قرن آثار مدرسته . ولم يبق من حركة أبي حمو الثاني المعمارية الا المسجد وقبر سيدي ابراهيم اللذان أعدا لاحتضان رفات والد السلطان واعمامه وهما يشهدان بالانحطاط السريع الذي طرأ على الفن التلمساني .

ولئن عدت تلمسان المركز الوحيد للفن المعماري الاسلامي بالجزائر فالفضل يرجع إلى بني مرين الذين حملهم تقديسهم للأولياء الصالحين الموجودين فيها على تشييد معالم بالمنصورة وسيدي بومدين يعتبر بعضها من أجمل ما بني في بلاد المغرب .

خاتمة :

اذا تمثل تاريخ مملكة بني حفص في الابقاء على تراث حضارى تألق نجمه في بعض الفترات فان تاريخ مملكة تلمسان يعد بلا منازع تسجيلا لخيبة كادت تشمل جميع الميادين . والحال انها انبعثت في ظروف مناسبة لأن بني عبد الواد لم يضطروا إلى خوض غمار الحرب للاستقرار في عاصمتهم كما كان الشأن بالنسبة لبني مرين ولأن الحظ اسعفهم كذلك فأتاح لهم قائدا مسك بزمام أمرهم طيلة خمسين سنة نعني يغمراسن ؛ وأخيرا لأن جيرانهم انشغلوا عنهم فترة طويلة لبعد الدار بينهم وبين الحفصيين وانصراف بني مرين إلى اقامة ملكهم ورغم كل هذه الظروف المساعدة فان تلمسان لم تصبح عاصمة لدولة كبيرة ، ذلك أن العرب الذين امتدت جذورهم في ربوع المغرب الأوسط أكثر منها في المغرب الأقصى يتحمّلون القسط الاوفر من مسؤولية هذه الخيبة

وكذلك بنو مرين الذين صمدوا أولا في وجه يغمراسن ثمّ عرفوا كيف يبعدون من حلبة السباق عائلة عبد الواد طيلة سنوات عديدة : الاّ انه قد يحسن بنا ان نقرأ حسابا للمقتضيات الجغرافية القاهرة ، فقد لوحظ أن جهة وهران وشرقي المغرب الأقصى تمتازان من بين جهات إفريقيا الشمالية الاخرى بنجادها العليا المساعدة على الحياة الرعوية القريبة من السواحل ، وهناك تكونت من التلّ والمناطق الزراعية حاشية قليلة العرض ظلت لقمة سائغة لمختلف الغزاة . بحيث لم يكن لمملكة بني عبد الواد قاعدة تعتمد على كتلة قوية من المزارعين كما كان الشأن بالنسبة لجيرانها شرقا وغربا ، ولعلنا نجد فيما سبق أحد الاسباب الرئيسية التي حالت دون استقرار هذه الدولة ونجاحها ، فانها لم تظفر بتوازنها قط ، فلم يُتَح لها أن توزع مجموعاتها البشرية المتنافسة في أغلب الأحيان من أجل المراعي ولا أن تنوّع اقتصادها .

3 ــ مملكة بنى مرين بفاس

أصل بني مرين :

ينحدر بنو مرين من زناتة مثل بني عبد الواد ، وكانت مجالات ظعنهم بالزاب وهي جهة بسكرة الحالية ، حتى دحرتهم قبائل بني هلال نحو الغرب في القرن الحادي عشر . ولمّا أقام عبد المؤمن ملكه في أواسط القرن الثاني عشر كانوا يجوبون سهول جهة وهران العليا وتكتلوا مع زناتة في حربهم ضد الموحدين . وعندما انهزموا أبوا الخضوع خلافا لبني عبد الواد بني عمومتهم ولاذوا بتخوم الصحراء بعيدا عن ولاة الموحدين وجباتهم ، ولم يعرفوا في حياتهم الاستقرار ولكنهم عاشوا احرارا ، ولم يخرجوا من عزلتهم الا سنة 1195 للمشاركة في الجهاد المقدس الذي توّج بالانتصار المبين في الارك (Alarcos) وجرح قائدهم محيو ، حينذاك، جروحا بليغة في ساحة الوغى وسرعان ما لفظ النفس الأخير فخلفه ابنه عبد الحق الذي لم يكن أول مؤسسي الدولة المرينية فحسب بل كان أيضا شخصية فذة في تقواها ، أشارت المصادر الكثيرة إلى ما كان يتمتع به من بركة .

وكان بنو مرين في ذلك الوقت أي أوائل القرن الثالث عشر يعيشون فيما نسميه اليوم شرقي المغرب الأقصى بين الفكيك ووادي صا والملوية ، وفي فصل الصيف يتوجهون نحو الشمال ويبلغون وطاط الحاج وحتى أجرسيف لينتجعوا بماشيتهم ويتزودوا بما فيه قوامهم في فصل الشتاء وهناك يأنسون بقبائل زناتة القاطنين في مناطق الريف والجهة السفلى من الملوية ، ولاشيء في هؤلاء الظواعن المتواضعين رعاة الغنم ، كان ينبيء حينذاك بأنهم سيصبحون أسياد المغرب الأقصى .

ولمّا مات الخليفة الناصر أتيحت لهم غزوة . فقد كان الخليفة الجديد المستنصر غلاما « قد شغلته احوال الصبا وجنونه » وقد أحدثت هزيمة العقاب (Las Navas de Tolosa) ثلمة عميقة في سلطان الموحدين ، وشعر بنو مرين ان الفرصة سانحة فانقضوا على مناطق التل الزراعية التي لم يتجاسروا من قبل على مهاجمتها ، ويظهر ان عبد الحق وذويه لم تخامر أذهانهم حينذاك أية فكرة سياسية البتة (1215 أو 1216) .

وأرسل الموحدون جيشا يعدّ عشرة آلاف مقاتل لمحاربة هؤلاء النهبة ، والتقى الجمعان اولا بالجهة الساحلية بوادي نكور جنوب خليج الخزامى وكانت وقعة غير حاسمة ثمّ بضواحي تازى حيث هزم بنو مرين جيوش الموحدين شر هزيمة (1216) فلمّا كانت السنة الموالية غيّر الموحدون خطتهم وواجهوا المرينيين الذين لم يرجعوا بعد إلى قفرهم ببطن من بطون بني مرين خارج عنهم وبقبيلة بني رياح العربيّة ، وكان في ظنهم ولا شك ان هذه المجموعات من الظواعن أقدر من الجند النظاميين على صد امثالهم . ودارت أهم واقعة بينهم قرب وادي سبو ومدينة فاس (26 سبتمبر 1217) ، وهلك فيها عبد الحق لكن قومه انتصروا بقيادة ابنه عثمان وفرضوا الإتاوة على بني رياح ، وكان هذا الانتصار انطلاقا لاضطرابات خطيرة حسب ما ذكره ابن خلدون : فتعرّضت الضاحية إلى الفوضى بينما اعتصم الولاة والحاميات بالمدن الاّ أن بني مرين أوجبوا شيئا فشيئا على قبائل غربي المغرب الأقصى دفع المغارم حسبما يمكن ان تسمح به من تدقيق النصوص الغامضة التي لدينا وفرضوا حتى على أمصار المغرب ضريبة معلومة على أن يصلحوا سابلتهم . وما أن نجحت الغزوات حتى تحول أمرها إلى مغامرة سياسية ، غير أن قواد بني مرين لم يكن في نيتهم بعد غزو المغرب الأقصى اذ هم لم يستغلوا البتّة ، ابتداء من سنة 1224 ، انتفاضات الامبراطورية الموحديّة ، ليقدموا على أي شيء ضدّها ، وعلى عكس ذلك بادر الخليفة الموحّدي الملقب بالسعيد بالهجوم سنة 1244 وهزمهم شر هزيمة قرب فاس وهلك في الجولة محمّد بن عبد الحق المريني الذي خلف أخاه عثمان سنة 1239 . ولحقت فلول جيوشه أول الأمر بجبال غياثة من نواحي تازى ثمّ خرجوا إلى تخوم الصحراء ، وقد يتبادر إلى الذهن أن مغامرة عبد الحق وخلفائه قد انتهى أمرها .

أبو يحيى :

أبو يحيى أبو بكر (1244 — 1258) قائد بني مرين الجديد ابن عبد الحق هو أيضا غيّر مجرى الأمور ، فلمّا ولي الأمر كان سنه سبعا وثلاثين سنة وكانت قسمته من المحاسن متساوية ، قيادةً رجال ، ومهارةً سياسيّة .

وما أن لم شعث قومه قرب الصحراء حتى قسم بلاد المغرب الأقصى إلى اقطاعات « تسوغها سائر الايام طُعْمَةً » أكبر عشائر بني مرين وهي عملية لاتخلو من جسارة ومجازفة ، ولكنها أيقظت العزائم وجعلت لها غرضا مقصودا . وسرعان ما توّجه أبو يحيى وقومه إلى طريق الشمال وحطّوا في جهة مكناس وهي مدينة ثانوية ولكنها حسنة الموقع ، وعند ذلك نجح الخليفة السعيد في اغراء يغمراسن وبني عبد الواد (اواخر سنة 1244) ، ولن يغفر لهم بنو مرين هذا الموقف . وتمكن أبو يحيى الّذي تعقّبه القوم في أول الأمر حتى انتهوا الى جهة ورغة من الفت في عضد الحلف الذي نسجه ضده السعيد. وبينما كان الخليفة يخمد نار الثورة في جهة أزمور أمكن له أن يستحوذ على مدينة مكناس وهي أول مدينة تسقط في أيدي المرينيين . وقرئت الخطبة باسم أبي زكرياء الحفصي : وهكذا ينقلب قائد عصابة إلى منافس سياسي للدولة الموحدية (1245) ولم يعترف السعيد من جهته بالهزيمة فجهز جيشا جرارا لاسترداد ملك أجداده. ويقال إن أبا يحيى وصل إلى معسكر الموحدين بوادي بهت متواريا ، فأدرك أن لاطاقة له بهم فأسرع بالرجوع إلى مكناس وجمع حامياته المنتشرة وتراجع نحو شرقي المغرب الأقصى ، وبينما كان هناك في مأمن من أية غائلة حربية دخل في مفاوضات مع الخليفة سائلا إياه أن يستكفي بنفسه في أمر يغمراسن ، وقبل السعيد أن يمدّه بنو مرين باعانة رمزية بخمسمائة مقاتل وهم في الواقع رهائن قبل أن يكونوا محاربين ، ومعلوم أن السعيد لقي حتفه في كمين قرب تلمسان وأن جيشه انفض متسابقا نحو الغرب ، وأرصد أبو يحيى له بأجرسيف على نهر الملوية وأباده ، وانتقلت الكتائب الموحدية المتكوّنة من المرتزقة الترك والنصارى إلى صف المرينيين . وقويت شوكة أبي يحيى وأصبح أقوى من ذي قبل على مواجهة يغمراسن وبسط نفوذه على شرقي المغرب الأقصى فدخل

فاس في العشرين من أوت 1248 واستحوذ بسرعة كبيرة على تازى ومكناس وسلا والرباط والبسائط إلى أم الربيع ، ويمكن أن نجعل نهاية سنة 1248 بدءا لانبعاث مملكة بني مرين التي يعتبر أبو يحيى هو الصانع الاول لها بدون منازع .

ولم تنته مصاعبه بمجرد انتصابه بفاس فقد اضطر طلبا لأمن عاصمته إلى اخضاع الأطلس الأوسط فوجّه حملة نحوه وسرعان ما تآمر عليه بعض اعيان فاس بإعانة قائد كتيبة النصارى وعدد من الموحدين كان أبو يحيى أسعفهم بالحياة . ونجحت المؤامرة ودخلت فاس مرة أخرى في حكم الموحدين (جانفي — فيفري 1250) وما أن علم أبو يحيى بذلك حتى زحف على فاس ، وبينما هو في طريقه اليها أجبر على أن يواجه هجوم يغمراسن ، وهزم خصمه القديم على ضفاف واد ايسلي وأمكن له في آخر الأمر وبعد متاعب جمّة استرجاع عاصمته . وكان القمع شديدا وضربت الرهبة على قلوب أهل فاس عهدا بعيدا .

وكان على أبي يحيى كذلك ان يصمد لبعض محاولات الخليفة الموحّدي المرتضى ، واضطر إلى التخلي مؤقتا عن سلا سنة 1252 أو 1253 (650 هـ) ولكنه استرجع قواه في السنة الموالية وهزم الجيش الموحدي هزيمة نكراء في جهة فاس واغتنم فرصة هذا الانتصار لغزو تادلا ثم سجلماسة عاصمة تافلالت ونخيل منعطف واد درعة (أقد ، زقورة ، تقونيت ، الخ ....) (1255) ومنع يغمراسن من أن يحل محله في هذه الجهات المتاخمة للصحراء ، ولمّا مات أبو يحيى حتف انفه في جويلية 1258 كان بنو مرين إذن قد بسطوا نفوذهم على كامل شرقي المغرب الأقصى وشماله والسهول الغربية إلى أمّ الربيع وتادلا والأطلس الأوسط وأخيرا واحات تخوم الصحراء ، ولم يبق للموحدين الاّ الأطلس الأعلى ، والسوس وجهة مرادش والجهات الساحلية الكائنة جنوب أم الربيع ، وان تعداد هذه الاسماء ليسمح بمعرفة مدى المجهود الذي قام به بنو مرين وأهمية نجاحهم بقيادة أبي يحيى .

أبو يوسف :

يظهر أن نزاعا من أجل الخلافة استتبع لأول مرّة ولكنها لن تكون الأخيرة ، موت أبي يحيى . وقد استولى أحد ابنائه على الحكم في فاس لكن نافسه فيه عمّه أبو يوسف يعقوب (1258 — 1286) والي تازى وتمكن ، بعد صعوبات من فرض سلطته والحصول على البيعة بكامل البلاد المحتلة من بني مرين (اكتوبر 1258) . وكان رابع أولاد عبد الحق هو الذي تسلّم امرة القبيلة . وتقلّد الملك وهو في السادسة والاربعين أو الثامنة والأربعين من سنه ولم يصفه لنا الاخباريون محاربا ، مقاتلا حياته كلّها في بلاد المغرب واسبانيا فحسب بل كذلك ملكا ورعا قائما بالليل معتبرا بحياة الصالحين مواظبا على الصيام حاميا مقام الأولياء .

وواجه في أول عهده نزاعات جديدة من أجل الملك فاستولى أحد ابناء اخوته على سلا التي تمكّن الموحدون من دخولها مرّة أخرى (اوائل 1260) فاستغل هذه الخلافات النصارى الاسبان من قشتالة على أغلب الظن وأخذوا سلا غرة في شهر سبتمبر 1260 ولم يقدر أبو يوسف على طردهم منها الاّ بعد حصار دام أربعة عشر يوما ، وإلى هذا العهد لم يجد بنو مرين الفرصة للمساهمة في الجهاد المقدس باسبانيا . وقد عقد أبو يوسف العزم على ذلك حوالي سنة 1245 في الوقت الذي احتل فيه أخوه أبو يحيى مكناس ، إلاّ أن حكمة أخيه السياسية حالت دون تحقيق ما انطوت عليه نفسه من أمان كريمة ، فلمّا هوجمت سلا وكانت غزوة أكثر منها محاولة حقيقية للاستقرار بأرض إفريقيا ، صحّ عزم العاهل الجديد ولا شك ، على مقاومة النصارى . الاّ أنه كان من الواجب عليه قبل كل شيء ان يتم فتح المغرب الأقصى . لذلك اكتفى بارسال بطن من بطون بني مرين كان تمرّد عليه في جهة شفشاون ، فوفق بذلك بين غاياته الدينية وبين مقتضيات أمن سلطانه (1262) وتفرغ عند ذلك في اطمئنان تام إلى فتح ما تبقى من مملكة الموحدين وباءت محاولة أولى في منازلته مراكش بالفشل سنة 1262 بعد معارك طاحنة امام أسوار المدينة نفسها .

فغيّر أبو يوسف الخطة : وقبل عروض أبي دبّوس الموحدي وأمده بالجيوش والمال على أن يشركه في نصف الغنيمة ونصف ما يفتحه

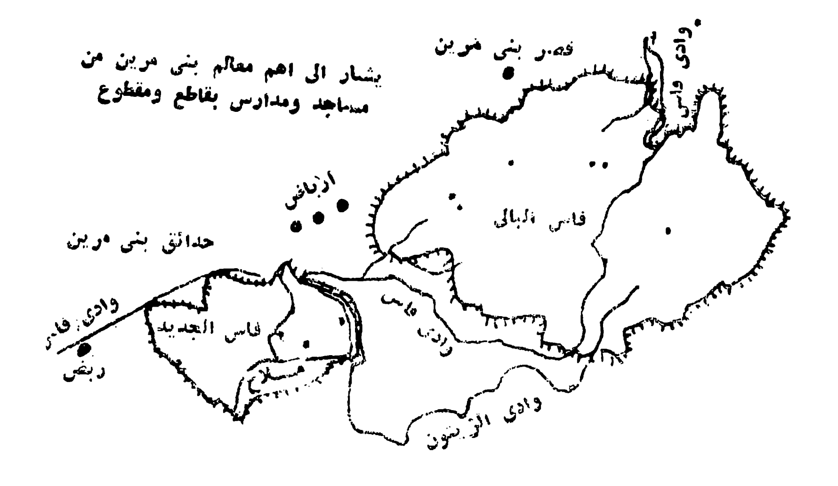
من البلاد – وفتح أبو دبوس مراكش في خريف سنة 1266 ولكنه سرعان ما نقض العهد الذي يربطه بالمريني . ولمّا ضرب المريني الحصار على مراكش كان يغمراسن الذي استهواه أبو دبوس قد دخل ارض بني مرين . فانقلب أبو يوسف ضد هذا العدو الجديد وهزمه قرب الملوية شر هزيمة في أوائل سنة 1268 ولمّا نفض يده من هذا الأمر نازل مرّة أخرى مراكش وهزم جيوش أبي دبوس ودخل المدينة في الثامن من سبمتبر سنة 1269 . وهكذا تم على أحسن وجه ما كان شرع فيه أبو يحيى بفضل خلفه . وبذلك ورث بنو مرين ملك الموحدين في المغرب الأقصى . وسرعان ما تلقب أبو يوسف بلقب أمير المسلمين على غرار المرابطين . ومعلوم أن لقب أمير المؤمنين كان منذ حوالي عشر سنوات من هذا التاريخ من خصائص العاهل الحفصي المستنصر . ولم يكن في نيّة أبي يوسف أن ينافسه فيه بل إنه قبل حتى أن تقرأ الخطبة باسم خليفة تونس .

وبينما كان اثنان من ابنائه يقومان بحملة في بلاد السوس وجبال غمارة (في مدخل الأطلس) لاخذ البيعة للمرينيّين كان أبو يوسف مقيما بمراكش حيث كانت تتقاطر عليه الوفود من كامل جنوب المغرب الأقصى تبايعه أمام الملإ وارثا للموحدين وتقدم له التهاني والهدايا . ولم تشذ عن ذلك سوى القبائل العربية من المعقل المستقرة بجهة وادي درعة وخرج أبو يوسف بنفسه للانتقام منها في ربيع 1271 وبذلك اصبحت بلاد المغرب الأقصى بأكملها خاضعة لسلطة بني مرين باستثناء العدوة الإفريقية بمضيق جبل طارق التي أذعنت سنة 1273 وسجلماسة التي دخلت في طاعة يغمراسن سنة 1265 تحت تأثير عرب المعقل ثمّ اضطرت إلى الخضوع إلى المرينيين سنة 1274 بعد حصار دام أشهرا طويلة قد يكون أبو يوسف يعقوب استعمل اثناءه المدفعية لأول مرة .

الحملة الأولى على اسبانيا وتأسيس فاس الجديدة :

كان مسلمو اسبانيا طلبوا من أبي يوسف أن يمدّهم سريعا النجدة سنة 1272 بينما كان في طريقة إلى الانتقام من يغمراسن بساندته أبا دبوس . و تفيد المصادر التي لدينا ان العاهل المريني جنح إلى السلم مع خصمه الذي لج في ذلك واستكبر فاضطر أبو يوسف إلى

منازلته مرجئا أمر اسبانيا إلى ما بعد – فهزم مرّة أخرى بني عبد الواد قرب واد ايسلي (16 فيفري 1272) وحاصر تلمسان بدون جدوى وقد شيّد قلعة مواجهة لها في تاونت قرب نومور (Nemours) الحالية بالذات وبذلك كسرت شوكة يغمراسن إلى حين – إلاّ أن أبا يوسف حرص قبل الزّج بنفسه في اسبانيا على احتلال طنجة وسبتة (1273) ثمّ استرد سجلماسة (1274) . وما أن فرغ من أمرها حتى وفدت عليه بعثة من غرناطة تناشده الغوث . ولا شيء كان يمنعه هذه المرة من الاعلان عن الجهاد المقدس والسير على سنة الموحدين وهو الذي كان يعتبر نفسه وارثا لهم . وكانت الظروف سانحة . إذ لم يواصل ابن فرديناند الثالث عملية الاسترداد (Reconquista) بنفس القوة بعد أن كادت تتم في عهد أبيه . وكان للملك الفونسو العاشر الحكيم (1262 – 1284) مناقب ممتازة ولكنّها كانت أدبية وعلمية أكثر منها سياسية . ولئن تملكه الأسى لتغيبه يوم أن بعث الكون ليجعله على أحسن تقويم فان الحزم اعوزه في تنظيم شؤون دولته على خير الوجوه . فقد عمل بوصيّة أبيه وجهز الأساطيل وجيش الجيوش لطرد بني نصر ومحاربة المسلمين في المغرب الأقصى باعانة البابا الاّ أنّه غيّر رأيه قبل الشروع في تنفيذ خطّته . وقد أحدثت الاجراءات الجبائية التي اتخذها غضبا كبيرا بين طبقات الشعب ونالت سياسته الخارجية من هيبته .



شكل 20 : – مدينة فاس في عهد بني مرين .

وكان المسلمون أعجز من أن يستغلوا مثل هذه الظروف اذ كان الأمراء يقاتل بعضهم بعضا بلا انقطاع في الرقعة الضيقة المحاطة بجبل شلير (Sierra Névada) وجبل رندة (Sierra de Ronda) فكان بنو نصر لا تنام لهم عين في غرناطة . واضطر الأمير ابن الأحمر إلى الدخول في طاعة ملك قشتالة . الاّ انه كان يدرك ان عليه الاختيار عاجلا او آجلا بين الخضوع للنصارى او الاستنجاد بالمغاربة واظهر احتلال القشتاليين لقادس (1262) وكذلك حملة جام (Jayme d'Aragon) صاحب الأرغون بمرسية ان خطر النصارى أعظم ، غير أن ما كان يضمره ابن الأحمر من عداوة لابي يوسف جرّه إلى الملك ألفونسو جرّا . وغير ابنه وخلفه محمّد الفقيه رأيه بإيعاز من بعض اللاجئين القشتاليين واغتنم فرصة غياب الملك ألفونسو ليلتمس تدخل بني مرين .

وتمكنت طلائع المرينيين بفضل سفن سبتة من اجتياز المضيق من دون أية صعوبة في افريل 1275 وسجلت بعض الانتصارات في جهة شريش واستولت على الجزيرة الخضراء (Algésiras) التي سلّمها صاحب غرناطة إلى الأفارقة بينما كان أبو يوسف في مفاوضة مع يغمراسن توجت بصلح مرضي . بحيث تمكّن بدوره من دخول اسبانيا على رأس أهم جيوش بني مرين (16 أوت 1275) .

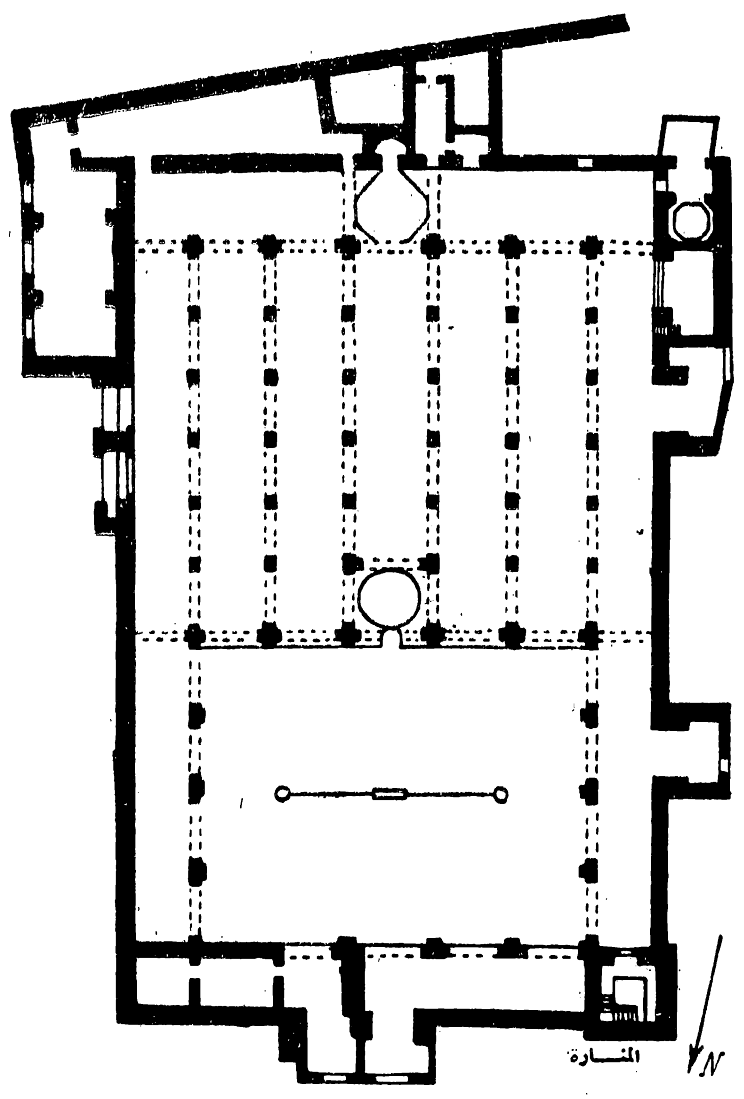
وشرع في خوض المعارك ، وغزا جهات وادي الكبير السفلي وقرطبة ثم اصطدم بجيش قشتالي عظيم اتى للنجدة بامرة القائد القشتالي الشهير دنّنة (دون نيونيو كونز ليس دي لارا Don Nuno gonzales de Lara) وكان نصراً للمرينيين مبينا احتفلوا به كثأر لعام العقاب (8 سبتمبر 1275) .

وبينما كان أبو يوسف يحارب باسبانيا كان والي مراكش المريني ينازل تينملل حيث التجأت صبابة الموحدين وفلّهم . ولم يجد عناء في تطهيرها منهم وابادة البقية الباقية من بني عبد المؤمن . وهكذا جادت سنة 1275 على بني مرين بسلسلة من الانتصارات الباهرة . وعقد أبو يوسف العزم على الاحتفاء بازدهار دولته فأذن ببناء عاصمة جديدة كما فعل قبله سيدي عقبة بالقيروان ومولاي ادريس بفاس وعبيد الله بالمهدية والمنصور بالمنصورية وحماد بقلعة بني حماد ويوسف بن تاشفين بمراكش ويعقوب المنصور

بالرباط . فاختار موقعا لمدينته الجديدة على مرتفع ينحدر بلطف ويشرف على غربي مدينة فاس ويمر منه وادي فاس ،قبل أن ينصبّ على منحدرات المدينة القديمة . وكان هذا المكان يساعد على تطوّر مدينة كبرى مثل فاس ويتيح كذلك مراقبة سكان هذه المدينة المشاغبين الذين تركت ثورتهم سنة 1250 ذكرى مريرة في نفس ملوك بني مرين . وبدأ اختطاط المدينة على حسب السنة المعهودة في 21 مارس 1276 واستنجزت الأشغال : وسرعان ما أقيمت الأسوار وبني المسجد الكبير والقصر والسوق والحمام ومنازل اعيان الدولة وذلك على حسب مثال ضبط من قبل وفتح المسجد للعبادة في جانفي 1279 وسميّت المدينة في أول الأمر المدينة البيضاء ثمّ جرى على الالسن اسم فاس الجديد تمييزا بينها وبين فاس البالي .

ويمكن التساؤل من أول وهلة هل ان الشأن كان يتعلق باحداث مدينة بأتم معنى الكلمة ام لا ؟ اذ أن المدينة الجديدة المبنية لصق القديمة ورثت عن الاولى بطبيعة الحال سمعتها واستفادت من نشاطها التجاري وكل المرافق التي تواجدت في عهد المرابطين وخاصة الموحدين حسبما يبدو . والواقع فان الذي بناه أبو يوسف بلد طريف من حيث السكان على الأقل ذلك اننا بازاء مدينة مرينية ادارية وحربيّة بقيت حتى في العصر الحديث ورغم التغييرات التي أدخلت عليها متميزة جدا عن فاس البالي .

وفي نفس الوقت أوعز أبو يوسف ببناء قصبة مدينة مكناس بقصرها ومسجدها الكبير وامر بتشييد مدرسة في فاس البالي كائنة جنوب جامع القرويين وصالحة لسكنى الطلبة الوافدين من الضاحية . وظهر العاهل المنتصر في مظهر المشيّد العظيم وفقا للسنن المغربيّة السمحاء .



شكل 21 : رسم الجامع الكبير بفاس الجديد .

حملات جديدة باسبانيا :

واجتاز أبو يوسف المضيق ثانية سنة 1277 ، وكان غرضه في هذه المرة جهة اشبيلية التي نسفها نسفا : فقد قيل انه كان يقطع في بعض الاحيان بنفسه الاشجار المثمرة ليقتدي به غيره . كما أنه استعرض قواته

أمام اشبيلية ليلة المولد النبوي (11 أوت 1277) على ضوء الحرائق المشتعلة بالضاحية . ولم تمر بضع أسابيع حتى نال جهات شريش وقرطبة ما نال غيرها . الا أن الرياح لم تجر بما كان يشتهيه المسلمون رغم نجاحهم الباهر ، ذلك أن مدينة مالقة كانت بيد عائلة منافسة لبني نصر اصحاب غرناطة فجنحت إلى المرينيين منذ حملة أبي يوسف الأولى بل خطت خطوة سنة 1278 فوهبت اليهم مدينة مالقة ، وقبل أبو يوسف عرضهم مما أغضب محمّد الفقيه ملك غرناطة غضبا شديدا ، وكان من الضّعف بحيث لم يَقْوَ على مواجهة المرينيين بقوّة السلاح فركن إلى المفاوضة : ولم يجد عناء في جعل الملك الفونسو العاشر صاحب قشتالة في صفه ووفق من جهة أخرى إلى الاتصال بوالي مالقة المريني الذي نزل له عن البلد (فيفري 1279) وأخيرا أبرم اتفاقا مع يغمراسن الذي التزم بأن يأخذ بأذيال أبي يوسف في إفريقية حتى يمنعه من النهوض إلى الحرب باسبانيا . غير أن أبا يوسف كان ماضيا في تحقيق ذلك على جناح السرعة لو لم تحل دون تحركات جيوشه أمطار غزيرة ولم تشدّه إلى المغرب الأقصى ثورة خطيرة قام بها عرب سفيان في جهة مراكش . وفي الاثناء ضرب الفونسو العاشر الحصار على الجزيرة الخضراء برا وبحرا ، وبذلك طفح الكيل اذ أصبح هذا الملك خطرا على محمّد الفقيه فالتفت إلى أبي يوسف من جديد ومده بالسفن وبفضلها تمكّن الأسطول المريني من فكّ الحصار . وحشر أبو يوسف من جهته كل المراكب الموجودة في المغرب الأقصى وأوكل قيادتها إلى ابنه أبي يعقوب . ودارت معركة بحرية بخليج الجزيرة الخضراء في 21 جويلية سنة 1279 وانتهت بانتصار المسلمين : وتوارى بذلك خطر الفونسو العاشر . ولم يبق في وجه المريني سوى يغمراسن : فانهزم بنو عبد الواد مرّة أخرى في البسائط وحوصرت تلمسان مرّة أخرى فصمدت أمام جميع الهجومات (1281) .

وقام أبو يوسف بحملة جديدة باسبانيا سنة 1282 بإلحاح من الفونسو العاشر : ذلك أن ملك قشتالة استنجد بالعاهل المريني على ابنه شانجة (دون سانش Don Sanche) الذي خرج على طاعته لخلاف معه في شأن وراثة الملك واجتاز أبو يوسف المضيق بدون تردد : فلم يجن على ما يظهر من حركته سوى الغنائم وتاج قشتالة الذي تسلمه رهنا لديه (1283) .

وتوفي يغمراسن في ربيع سنة 1283 بعد أن نصح خلفه بالاقلاع عن الصراع العقيم الذي نهض به هو نفسه ضد بني مرين ، كما مات الفونسو العاشر في ربيع سنة 1284 واعتلى العرش ابنه المتمرد شانجة . فلمّا أصبح أبو يوسف في مأمن من خطر تلمسان عزم على اغتنام فرصة هذا التغيير في عرش اسبانيا للهجوم عليها . ولم يتمكن من ذلك الاّ سنة 1285 اذ اضطر إلى القيام بحملة في السوس ودرعة السفلى لتأديب عرب المعقل الذين عاثوا فيها فسادا ونهبا .

وهكذا فان أبا يوسف لم يجتز المضيق للمرة الرابعة الاّ في السابع من افريل 1285 . ولم تكن العمليات العربية ذات بال باستثناء المعارك التي خاضها الأسطول القشتالي لمحاولة السيطرة على المضيق ولكن بدون جدوى . ولمّا اعيى شانجة الأمر ، جنح إلى السلم فاغتنم أبو يوسف الفرصة لوضع حد لحملة لاطائل تحتها ، وقبلت شروط المريني القاضية بأن يعامل تجار المسلمين في أرض النصارى معاملة أحسن وأن يمسك شانجة عن التدخل في الشؤون الخاصة للممالك الاسلامية بالجزيرة وأن يرجع إلى المسلمين المخطوطات العربية التي وقعت في أيدي النصارى إثر حرب الاسترداد وكانت من الكثرة والأهمية بحيث بلغت 13 حملا من البغال ورضي المريني مقابل ذلك بدفع غرامات عما ألحقه جيشه من ضرر بأرض النصارى . واحتفل بنو مرين بهذا الصلح واعتبروه انتصارا (21 أكتوبر 1285) . واستلهم الشعراء هذا الحدث واحتفظ القرطاس بما جادت به قرائحهم في هذه المناسبة ، ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى اعتل أبو يوسف وقضى نحبه بالجزيرة الخضراء يوم 20 مارس 1286 . ونقل جثمانه إلى الضريح الذي كان أذن باقامته في شالة .

واذا اعتبرنا أبا يحيى مؤسسا لدولة بني مرين فان أبا يوسف كان صانع عظمتهم . فعلى يديه تمت وحدة المغرب الأقصى في ظل الدولة المرينية وبفضله شيدت المباني الجديدة واستؤنفت سنّة الغزوات المغربية في اسبانيا . وقد أصبح أبو يوسف أعظم ملك بحق في بلاد المغرب إثر موت المستنصر الحفصي وما تبعه من اضطرابات من أجل الخلافة وبعد هلاك يغمراسن وما طرأ على سياسة تلمسان من تغيير . غير أن سلطانه

كان معرّضا للاخطار : ذلك ان عددا كبيرا من أمراء بني مرين لم يرضوا بسلطة العائلة الحاكمة وكان العرب سواء منهم من وطّنهم الخلفاء الموحدون بالمغرب الأقصى أو من المعقل الذين لم يمر على قدومهم إلى الجنوب وقت طويل ، على أهبة دائمة لشق عصا الطاعة في وجه الحكومة . وكان أحفاد الموحدين وصنهاجة الأطلس الأعلى يضيقون ذرعا بحكم المنتصرين عليهم ، ويحقّ لنا أن نتساءل مع «هـ . تراس» هل أن الجيوش المرينية كانت كافية للاضطلاع بالمهمات التي كلّفهم بها ملوكهم ، ولا سبيل إلى نكران ما كان لهؤلاء الفرسان من قيمة حربية غير انه من الدلالة بمكان أن نلاحظ ان أبا يوسف كان عاجزا عن مواجهة الجبهتين بنجاعة ، ثمّ إن سياسة بني مرين على نحو ماضبطها أبو يوسف كانت متجهة قبل كل شيء إلى الماضي اذ كان يرمي إلى بعث الأمبراطورية الموحدية من جديد بعد أن أزالها رغم افتقاره إلى ما استقام للموحدين من وفرة الجند وعلو المنزلة الدينية .

أبو يعقوب يوسف :

كان ابنه أبو يعقوب يوسف (1286 — 1307) وليا للعهد منذ زمن طويل ولم يجد مشقّة في مبايعته من قبل الأوساط الرسمية غير أنّه سرعان ما اضطر إلى مواجهة ثورات خطيرة كشفت عمّا كانت تشكوه الدولة المرينية من مرض الايام . فلقد تمرد عليه أحد أفراد عائلته قرب وادي درعة وعين أبو يعقوب أحد إخوته على رأس جيش صغير لكنه عوض ان يؤدب المتمرد تحالف معه عليه . وتقبض أبو يعقوب على الثوار حينما كانوا يحاولون اللياذ بتلمسان وقتلهم بتازى (1286) . وتمردت في نفس الوقت احدى القبائل بالجهة الجبلية من جنوب فاس فكسر شوكتها بسرعة . ولم يمض وقت طويل حتى استنهض عليه أحد أقربائه قبيلةً من المعقل بدرعة ففتك به في جويلية 1287 وانتقم من المعقل في أكتوبر الموالي . ثمّ جاء دور ابنه بعد مرور عام أي نوفمبر 1288 فحمل السلاح في وجه أبيه بمراكش . وأخمدت الثورة بسرعة هذه المرة ايضا . وتمكن الأمير الثائر أبو عمرو وشريكه الأول في هذه الفعلة من الفرار والالتجاء إلى تلمسان . وعمّ الهدوء البلاد طيلة أربعة أعوام أعلن اثرها بنو وطاس العصيان وهم بطن من بطون

بني مرين استقروا بالريف وأسسوا في القرن الخامس عشر دولة بالمغرب . وقضى أبو يعقوب ما يناهز ستة أشهر في حربهم قبل اخماد ثورتهم . (ربيع 1293) وأخيرا ثار ابنه المتمرد أبو عمرو من جديد بعد أن عفا عنه وظلّ يقاوم في جهة غمارة من سنة 1295 إلى سنة 1298 بينما كان أبوه ينازل تلمسان .

وكانت شؤون اسبانيا في المقام الأدنى من مشاغل أبي يعقوب . وفعلا يظهر أن هذا الأمير المعتز بآرائه والمتحلل من التقاليد أدرك أن النضال في جبهتين قد يكون وخيم العواقب على الدولة المرينية فانحصر سعيه في إيجاد حل مشرف لدرء الخطر الاسباني . وما أن مات أبوه حتى أرجع إلى محمّد الفقيه معظم المعاقل التي سلمها هذا الأمير إلى المرينيين وجدد الصلح المبرم مع شانجة سنة 1285 . كما أقدم على تنازلات لبني نصر بمناسبة زفافه من أميرة مرينية من غرناطة .

غير أن شانجة اضطره إلى الحرب اضطرارا عندما كفّ سنة 1291 عن احترام بنود معاهدة 1285 في ظروف غامضة . فنادى أبو يعقوب بالجهاد المقدس واجتاز المضيق بعد عناء كبير اذ كان أسطول قشتالة له بالمرصاد وخاض معركة سريعة لم يكسب منها مجدا وتحالف اثرها محمّد الفقيه مرّة أخرى مع القشتالي ضد المريني . وتعهد شانجة بالرجال ومحمّد الفقيه بالأموال . وضرب الحصار على حصن طريف فاستسلم أهله بعد أربعة أشهر (سبتمبر 1291) واحتفظ به شانجة رغم ما جاء في الاتفاق الذي أبرمه مع الفقيه الذي رجع إلى ما اعتاده من تارجح بين القوتين المتقاتلتين وتخلص من حليفه النصراني خوفا من طموحه المفرط وسعى من جديد إلى التحالف مع المرينيين . واضطر إلى دفع الثمن لأن أبا يعقوب اعياه تذبذب صاحبه وكان زاهدا في الزج بنفسه في اسبانيا . وتنازل له عن بعض الجهات واهداه احدى النسخ الاربعة من المصحف العثماني الذي احتفظ به بنو أمية في قرطبة وتحصل عليه بنو نصر وأمر أبو يعقوب بضرب الحصار على طريف لكن جيوشه منيت بالفشل فلم يثابر اذ كان منشغلا بكليته بحرب تلمسان (1293) .

وعمل عثمان الزياني في أول الأمر بوصية المرحوم والده فوّجه عنايته لغزو ممالك بني حفص . غير انه استدرج سنة 1289 إلى إيواء الأمير

الهارب أبي عامر ومستشاره . ولئن تصالح أبويعقوب مع الأول فقد طالب بتسليم الثاني . فأبي عثمان واندلعت الحرب بينهما وحاصر الجيش المريني تلمسان من ماي إلى أكتوبر 1290 من دون نتيجة تذكر . فترك أبو يعقوب سبيلها في السنوات الموالية . إذ كان منشغلا عنها بأمر اسبانيا وثورة بني وطاس ولكنه لم يهملها وزاده حقدا عليها تفاوض ملك بني عبد الواد مع شانجة ومحمّد الفقيه ضدّه سنة 1292 ، ولم يتفرغ لمحاربتها الا سنة 1295 فكانت حربا عوانا دامت 12 سنة . وأحكم الخطة فاحتل على التوالي تاوريرت الواقعة على وادي صا (1295) ووجدة (1296) وتاونت وندرومة (1298) . وناوش مرات عديدة تلمسان ولكنّه لم يهاجمها الهجمة الحاسمة الا عندما وثق من النصر . وكان ذلك يوم 6 ماي 1299 فعسكر أمام عاصمة اعدائه وعزم الا ينصرف عنها قبل ان تسقط في حوزته ، ولم يقلّ حماة المدينة عنه عزما ، اذ كانوا مصممين على الاستماتة . وتقابلت هاتان العزيمتان طيلة ثمانية أعوام كما سبق أن ذكرنا ، وظل أبو يعقوب طوال هذه الفترة يبسط نفوذه على كامل المغرب الأوسط حتى مدينة الجزائر بالقوة تارة وبالتفاوض اخرى . وقد بلغ من السلطان أوجه فكان يستقبل في قصره بالمنصورة السفارات من افريقية ومصر ومكّة ، ودخلت طاعته زناتة المغرب بلا استثناء وعم هدوء كامل مملكته منذ أن مات أبو عامر . ثمّ إنّ قوى تلمسان أُنهكت رغم صمودها البطولي العجيب وكانت على قاب قوسين أو أدنى من الاستسلام وبلغ يقين ابي يعقوب بقرب النصر حدا جعله لايعبأ كثيرا بخروج سبتة من حوزته اذ نزل بها سنة 1306 أحد بني مرين قادما من اسبانيا يعاضده من طرف خفي صاحب غرناطة وفرض نفسه ملكا عليها ، وتفاقم أمره في المنطقة الجبلية من شمالي المغرب الأقصى غير أن أبا يعقوب لم يأبه به . وبينما كانت أيام تلمسان معدودة اذا بالسلطان يخر قتيلا في 13 ماي 1307 تحت ضربات خصي له نتيجة ملابسات غامضة كان الحريم مسرحا لها .

أفول نجم بني مرين لأول مرة :

خلف أبا يعقوب أحد أحفاده يدعى أبا ثابت وكان في الثالثة والعشرين من عمره . ونافسه في الحكم ثلاثة أدعياء وسرعان ما ظهر رابع وقضى أبو ثابت على ثلاثة منهم بسرعة بعد أن تصالح مع أهل تلمسان

واستقدم جنده إلى المغرب الأقصى . وكان رابعهم عثمان بن ادريس المريني الذي كان نادى بنفسه ملكا على سبتة سنة 1306 وأخضع إلى نفوذه آصيلا (Arzila) والأعراش وكامل بلاد غمارة . ونازله أبو ثابت وأسس مدينة تطوان لتكون قاعدة ينطلق منها إلى سبتة . وبينما كان يتفاوض مع أهلها في شأن استسلامهم اذ أودى به المرض في 28 جويلية 1308 .

وخلفه في الملك أخوه أبو الربيع من دون صعوبة تذكر وهو في التاسعة عشرة من عمره وأمكنه استرجاع سبتة في 20 جويلية 1309 اذ كان بنو نصر يسعون إلى كسب ودّ بني مرين من جديد بعد أن ضيق عليهم القشتاليون اثر استحواذهم على مضيق جبل طارق ، فيسّروا الأمر له ولكنه اعتلّ ومات بدوره في 23 نوفمبر 1310 وهو بصدد قمع ثورة بتازى .

واعتلى أبوسعيد عثمان (1310 — 1331) العرش بعده وبويع من دون عناء رغم وجود منافس له — وكان هذا الأمير البالغ من العمر حوالي خمس وثلاثين سنة ابنا لأبي يوسف وُلد له في أواخر أيامه وكان وديعا تقيّا لم تَصْبُ نفسه إلى تحقيق مشاريع كبرى . بل ولع مثل أبيه باقامة المباني الرائعة . فهو الذي بنى ثلاث مدارس بفاس ، وهي مدرسة فاس الجديد (1320) ومدرسة الصهريج (1321) ومدرسة العطّارين (1323) .

لكن عهده لم يشمله الهدوء كما كان يؤمل ، إذ ثار عليه ابنه الأصغر أبو علي سنة 1315 وخلعه والحال أنه كان يؤثره بمحبته فعيّنه وليا للعهد ورضي أبوه بالأمر الواقع وقنع بولاية تازى الاّ ان أبا علي أدركه المرض فتشجع أبو سعيد وحاصر المتمرد في فاس الجديد إلى أن استسلم فأخّرَه عن ولاية العهد وعيّن مكانه ابنه الأكبر أبا الحسن ولكنّه سمّى أبا علي واليا على سجلماسة ، حيث أقام دولة منظمة بأتم معنى الكلمة لها ميزانيتها وجيشها النظامي وعسكرها الاحتياطي المجند من بين عرب المعقل واخضع واحات توات وتيكورارين وكذلك وادي السوس . ثمّ شهر السلاح مرّة أخرى في وجه أبيه سنة 1320 فاستولى على واحات درعة فمراكش سنة 1322 . وأوشكت مملكة بني مرين بذلك ان

تنقسم إلى مملكة بالشمال ومملكة بالجنوب . فأدرك أبو سعيد الخطر وتحرّك نحو ابنه وهزم جيوشه في أم الربيع غير أنه عفا عنه مرّة أخرى وتركه على رأس سجلماسة .

وقد همّ في أول عهده بالتدخل باسبانيا غير أنّه لم يحقق هذه الأمنية رغم أن الظروف كانت مؤاتية فقد مات فرديناند الرابع ملك قشتالة سنة 1312 بينما لم يزل وارثه في المهد . ولو كان أبو يوسف مكانه لاستغل ولا شك هذا الوضع . وفي سنة 1316 أعلن والي سبتة يحيى بن العزفي استقلاله وبقي على هذه الحال في الواقع مايقرب من عشرة أعوام . وأخيرا استغاثت غرناطة سنة 1319 من جديد بالمرينيين أمام خطر القشتاليين وكان أبو سعيد جنوحا إلى السلم فوضع شروطا مجحفة وانتهى الأمر عند هذا الحد . أمّا فيما يتعلق بتلمسان فاننا نسجل له حملة واحدة لم يحالفه فيها النجاح سنة 1314 .

غير أن سياسة بني مرين دخلت منعرجا جديدا في آخر عهدهم — فقد اضطر العاهل أبو بكر الحفصي تحت ضغط أبي تاشفين صاحب تلمسان إلى طلب عونهم (1329) فبعث أبو سعيد بقوى ضئيلة لصرف تلمسان عن بني حفص وفي نيته بالخصوص الاستفادة من هذا الوضع الجديد . ذلك أنه كان رغب سنة 1321 تزويج ابنه وولي عهده أبي الحسن من أميرة حفصيّة فرُدّ طلبه وجدد مسعاه سنة 1331 فكان له ما أراد ، ونزلت الأميرة فاطمة بساحل المغرب الأقصى في شهر اوت فتوجه حموها لاستقبالها وداهمه المرض فيضواحي تازى فلفظ النفس الاخير يوم 25 أوت .

أبو الحسن :

بلغ سلطان بني مرين أوجه في عهد أبي الحسن (1331 — 1351) الذي يعتبر أعظم ملك في القرن الرابع عشر بما حققه من استرجاع للامبراطورية المغربية الممتدة من الأطلس إلى فاس وبما تحلي به من هيبة وورع ، وما بلغه بلاطه من صيت ، وما شيّده من مبان في أيامه .

وكان عند اعتلائه العرش في الرابعة والثلاثين أو الخامسة والاربعين من عمره إذ تختلف المصادر حول تاريخ ولادته بنحو أحد عشر عاما . وكان مهيب الطلعة بالغ السمرة اذ ولد من أمّ حبشية فلقب بالسلطان

الأسود . وكان وافر النشاط حتى انّ الأتعاب كانت بالنسبة إليه من اللذائذ حسب قول ابن خلدون .

وذكر لنا ابن مرزوق كيف كان يقضي يومه بفاس فكان يصرف القسم الأكبر منه في تلاوة القرآن الذي يحفظ نصفه عن ظهر قلب وفي قراءة خطب الوعظ والارشاد وكتب الدين صحبة الفقهاء وكذلك لزيارة أضرحة الأولياء ، وكان الاتقياء في بلاطه يرعون حياته الدينية ، لاتنام لهم عين ، ولا تأخذهم فيه لومة لائم وكان يمارس الحكم بكل أمانة وينظر بمعيّة كاتبه ومستشاره الخاص ووزرائه المسائل والشكاوى المعروضة عليه وعند ذلك يدخل عليه مشايخ القبائل المرينية والعربية وكذلك الوفود وأعيان القبائل ولاشك انه كان يقرأ لمشايخ القبائل حسابا ويتقي شرهم فكان يسألهم عرض مطالبهم في أيام معينة وحسب نظام مضبوط.

ونحن نأسف لسكوت ابن مرزوق عن فحوى هذه المجالس الدورية وهو الذي عايش السلطان من قرب ، وأغلب الظن ان أبا الحسن كان يتخلص إلى حد ما من وطأة هذه المراسم عندما يكون في معسكره . الا أنه من اليقيني انه كان مضطرا إلى التمسك بهذا النظام طيلة احتفاظه بنفوذه . غير أن ما توحي به هذه السلطة من عظمة كان زائلا اذ فشلت سياسة الفتوحات سواء في اسبانيا او إفريقية وآل به الأمر في آخر المطاف إلى العدول عن استرجاع المغرب الأقصى من قبضة ابنه المتمرد عليه .

ان سياسة أبي يوسف وأبي يعقوب الحازمة هي التي ضمنت بدون منازع بسط السلطان المريني على المغرب الأقصى . غير أن وجود أبي علي بسجلماسة كان يهدّد بالفشل مجهودات السلطان الجديد الموّجهة ضد بني زيان أو النصارى في الجزيرة .

لذا رأى أبو الحسن من الحذر ترك أخيه يستأثر بتافيلالت اجتنابا للقطيعة لكنه أجبر على التخلي عن منازلة تلمسان بعد أن اتفق مع بني حفص ليضرب على سجلماسة حصارا دام سنة كاملة وكان لسقوط المدينة في أيدي الاعداء ولموت أبي علي تأثير سيء على مملكة تافيلالت فلم تقم لها قائمة طيلة ثلاثين سنة . وقضى أبو الحسن كذلك على إمارة

السوس المستقلة بفضل العرب الذين جازاهم بالاقطاعات واجبر ظواعن درعة على دفع الجباية . وبذلك ظهر له أن سلطانه على المغرب بلغ حدا من القوّة يخوّل له التدخل الفعلي في الخارج .

وظلت الحالة في اسبانيا بعد موت الفونسو العاشر يكتنفها الغموض وكانت المناورات والمطامح الشخصية وتغيّر الاحلاف من حال الى حال وفتور الحماس الديني تحول جميعها دون قيام أي طرف من الاطراف بهجوم حاسم غير أن ملك قشتالة تمكّن من الإستيلاء غرة علي جبل طارق. ولئن اضطر الى رفع الحصار عن الجزيرة الخضراء فقد سلم إليه بنو نصر مقابل ذلك مدينتين وكاد صغر سنّ الفونسو الحادي عشر (1312 ـ 1350) ينال من مكاسب النصارى. ولكن الملك استأنف حرب الاسترداد حالما تخلص من أوصيائه (1327) ولم ينج أمير غرناطة الا بفضل بنى مرين الذين استنجد بهم مرة أخرى ثم سرعان ما أطردهم عندما أصبح في مأمن من أعدائه. فلما استغاث ثانية بهم كان أبو الحسن أدهى من أن تنطلى عليه الحيلة وسرعان ما استرجع سلطان فاس الجزيرة الخضراء (1333) ثم شرع بعد تأهب دام ست سنوات فى افتكاك إسبانيا من النصارى بالتعاون مع بني نصر. فوحد الخطر بين قشتالة والارغون ولم يقووا رغم ذلك على مغالبة الاسطول المريني المعزز بسفن بني حفص فسجل انتصارا بحريا باهرا (5 افريل 1340) وسيطر لحين على مضيق جبل طارق . ثمّ ضرب أبو الحسن الحصار على طريف تعاضده جيوش غرناطة . وتمكنت المدينة بفضل مناعة اسوارها ونجدة شواني جنوه من الصمود حتى خفّ إلى نصرتها النصارى وقد جيشوا جيشا بلغ ولاشك خمسة وثلاثين ألف رجل وحصل الصدام شمالي طريف على ضفاف ريو دي سلادو (30 أكتوبر 1340) وتمكّن المحاصرون من خرجة سجلوا بها نصرا يعتبر من أهم ما حققه النصارى منذ يوم العقاب. وقفل المرينيون راجعين إلى المغرب الأقصى في عناء كبير . ولم تمض أربعة أعوام حتى سقطت الجزيرة الخضراء في أيدي ملك قشتالة بعد حصار دام أكثر من عشرين شهرا شاركت فيه نخبة من فرسان انقلترا وفرنسا وايطاليا (26 مارس 1344) .

ويؤكّد ابن خلدون ان ابا الحسن كان « موقنا بظهور أمر الله وإنجاز وعده برجع الكرة وعلو الدين »

غير أن الله يريد من الانسان أن يسعى على غرار هرقل الخرافي واكتفى السلطان بالاماني السلبية، بينما انتهى أمر الفتح الاسلامي بلا رجعة. وفي الوقت الذي كان أبو الحسن منطويا علي نفسه في تونس بعد كارثة القيروان كان ألفونسو الحادي عشر ضاربا الحصار علي جبل طارق (أوت 1349) وكان علي وشك اقتحامه لو لم يفتك به الوباء وهو في ريعان الشباب (مارس 1350). لقد أبعد نهائيا خطر بني مرين عن أرض اسبانيا ولم يبق لورثته الا أن يحاربوا مملكة غرناطة بمفردها.

وكان أبو الحسن أسعد حظا في مواجهة تلمسان فقد استجاب لرغبة والد زوجته أبي بكر الحفصي وطالب أبا تاشفين أن يكف عن مناوشة بني حفص. فلج أبو تاشفين واستكبر وكانت القطيعة (1334) وتحركت جيوش بني مرين بقيادة السلطان في أول سنة 1335 وسرعان ما طوقت تلمسان ثم انطلقت إلى غزو المغرب الأوسط بينما كانت المنصورة في عز نهضتها (ترجع آثار المباني العظيمة الماثلة حتى اليوم إلى ذلك التاريخ) وتلمسان رازحة تحت حصار بالغ القسوة. ولقد استماتت في الدفاع وصمد أبو تاشفين حتى النهاية بل ذهب به الأمر إلى الذود بسلاحه عن قصره أثناء الهجمة الحاسمة (غرة ماي 1337) فخرج وظفر به القوم وأجهز عليه في الحين وهكذا نجح بنو مرين لأول مرة في أخذ البلد عنوة بعد أن ذاقوا من أجل ذلك الأمرين. وأبلغ أبو الحسن الخبر إلى كبار ملوك المسلمين في عصره فجاءته التهاني من مصر والسودان وطبعا من غرناطة وتونس.

غير أن طموح أبي الحسن لم يقف عند هذا الحد: فقد ظلت ذكرى الأمبراطورية الموحدية عالقة بذهنه مثل اسلافه ولم يزل يتوق إلى بسط هيمنته على بلاد المغرب بأكملها. خاصة وأن الدولة الحفصية تبدو وكأنها تدور في فلك فاس. ثم إن أبا الحسن طلب من والد زوجته سنة 1341 و 1342 ان يسلمه عددا من اللاجئين المرينيين المطرودين من اسبانيا فكان له ذلك. وفي سنة 1346 الح على أبي بكر ان يزوجه من ابنته الثانية اذ هلكت الأولى في حوادث طريف المؤسفة (1340)، وكان في كل مرة يعتمد في تنفيذ أغراضه على ابن تافركين حاجب بني حفص والمتزعم للنزعة الموالية للمرينيين في البلاد التونسية. غير أن أبا الحسن لم يقدم على أي عمل في حياة أبي بكر. فلما مات هذا الملك واستشرى

التنافس بعده وجد من غير شك الفرصة سانحة بعد طول انتظار . وفي ربيع سنة 1347 قصد تونس على رأس جيوشه ودخلها في 18 سبتمبر من نفس السنة واستقرّ بها كما لو كانت بلاداً مغلوبة على أمرها .

ومعلوم أنه أغضب العرب عندما نال من امتيازاتهم وانهم هزموه قرب القيروان في 10 افريل 1348 وحاصروه في مدينة سيدي عقبة . غير أنه تمكّن بمداخلة بعض بطون العرب من الخلاص والتحق بتونس وارجع الأمور إلى نصابها . ولكن المملكة المرينية لم تخرج سالمة من هذه الأزمة. فقد استقل بالحكم أبو عنان ابن السلطان ونائبه في المملكة اثناء غياب والده وتخلّى عن تلمسان . فعاد اليها بنو عبد الواد وركزوا فيها نفوذ بني زيان من جديد ، وتمرّد عدد من امراء بني حفص على الحكم المريني في بجاية وقسنطينة وعنّابة . وحاول أبو الحسن طيلة سنة أن يمسك من جديد بزمام الأمر ثمّ قرر في الآخر أن يعود إلى المغرب الأقصى بعد أن فشلت مساعيه في تونس فشلا ذريعا (آخر ديسمبر 1349) .

وسافر عن طريق البحر اذ كان السفر برا متعذرا تماما . وقامت عاصفة فتشتّت أسطوله وقذفته الأمواج في جزيرة صغيرة قريبة من بجاية حيث كاد أن يقع في قبضة القبائلية . وانتهى به المطاف إلى مدينة الجزائر في حالة يرثى لها وهناك التفتّ حوله عرب بني سويد . وقصد تلمسان معتدّا بقوتهم غير انه انهزم في سهل شلف . — واستجمع قواه وانقض على تافيلالت صحبة انصاره وحطّ بسجلماسة ثمّ اضطر إلى التخلي عنها عندما اقتربت منه جيوش أبي عنان وتخلى عنه عرب بني سويد فرمى بنفسه حينئذ على مراكش حيث مكنه بعضهم من الاستقرار بها وإقامة شبه دولة . لكن ابا عنان حمل السلاح من جديد والتقى الجيشان على ضفاف أمّ الربيع في ماي 1350 . فانهزم أبو الحسن وكاد أن يقتل فلاذ إذ ذاك بجبال الأطلس الأعلى حيث آوته قبيلة هنتاتة الموحدّية. ولا حقه أبو عنان وشدّد عليه الحصار طيلة الشتاء واضطر أباه إلى التفاهم وقد أخذ الكلل من أبي الحسن مأخذه وعمّه اليأس وأعوزه المال . فرضي بالتنازل لفائدة الغاصب مقابل شيء من « المال والكسى » . وبينما هو كذلك اذ داهمه المرض « فافتصد لإخراج الدم » فتعفن الجرح فلقي حتفه وهو على أتعس حال في جبال هنتاتة يوم 24 ماي 1351 . ويروى أنّ ابا عنان ذرف الدمع

على جثمان أبيه وأذن بدفنه في « مقبرة سلفه » بشالة حيث لايزال قبره ماثلا إلى اليوم .

ولم يكن هذا السلطان العظيم المنكود الحظ فاتحا محروما من ثمرة مطامحه فحسب بل إنّه إلى ذلك ترك على غرار أبيه وأجداده معالم معمارية بالغة الاهمية : منها مسجد الشرّابليّين و أبي الحسن بفاس ومسجد المنصورة وهو أفخم البناءات المرينية وسيدي بومدين بتلمسان ومدرستا الواد والمصْبَاحيّة بفاس ومدارس تازى وسلا ومراكش ومكناس وقد أتمهما أبو عنان ومدرسة سيدي بومدين وأخيرًا أعاد بناء مارستان فاس .

أبو عنان :

ولد ابنه وخلفه أبو عنان فارس (1348 — 1358) في جانفي 1329 — فقد كان عند اعتلائه العرش في سن الشباب فيه ما في الشباب من الجموح والطموح وشدّة المراس . وكان طويل القامة جميل الطلعة كثير الإقدام مثقّفا ، توفرت فيه مناقب عظماء الملوك ، غير انه كان مستبدا برأيه يأنف الاستشارة ، وقد بلغ طموحه حدا جعله يتجاسر على التسمي بأمير المؤمنين .

ويظهر أن الظن ذهب به أول الأمر — عندما استأثر بالسلطان — إلى أن أباه اهلكه الطاعون في تونس . ثم ان أحد ابناء أخيه انفرد بالحكم في فاس الجديد قبل أن يُقدم هو نفسه على مثل هذا العمل والخلاصة انّه يمكن تبرير موقفه إلى حدّ ما الا أنه عندما بلغه أنّ أباه على قيد الحياة لم يغيّر موقفه ، ولم يجد عناء في طرد منافسه من فاس الجديد ولا في وضع المغرب الأقصى تحت رايته . والجدير بالملاحظة أن تلمسان والمغرب الأوسط كانا في نفس الوقت يجاهدان من أجل التحرر من الهيمنة المرينية .

وانحصرت عناية أبي عنان طيلة السنوات الأولى من ملكه في القضاء على أبي الحسن . وأخذ ابتداء من سنة 1352 يسعى إلى انجاز ما كان أنجزه بوه من قبل . وتصدى بطبيعة الحال أول ما تصدى إلى تلمسان ، وما هي الاّ معركة ببسيط أنكاد حتى استسلمت له المدينة بعد ان حقق النصر بفضل خصاله الشخصية (14 جوان 1352) ومن ثمّ واصل انطلاقته من دون

توقف فاستولى على كامل المغرب الأوسط حتى بلغ بجاية (خريف 1352) ومنذ ذلك الحين بدأت المتاعب فتمرّدت بجاية سنة 1353 واضطر إلى غزوها من جديد وظهر دعيّان سنة 1354 أوعز الحفصيون إلى أولهما بذلك في جهة قسنطينة وأرست بالثاني مراكب قشتالة على سواحل السوس فقضى أبو عنان على كليهما . وفي سنة 1335 أعلن والي جبل طارق عن استقلاله فاضطر الأسطول المريني إلى محاصرة البلد لحمله على الاستسلام .

ولمّا استتب الأمر لأبي عنان شرع في تحقيق مشروعه الأكبر ذاك الذي فكر فيه أبوه كما فكر فيه الموحدون من قبله أي وضع كامل المغرب تحت سلطة بني مرين . وبدأت الأمور على أحسن ما يرام ، فقد فُتحت قسنطينة في أول صائفة 1357 كما فُتحت تونس في سبتمبر من نفس السنة ونحن نعلم أن عرب إفريقية سرعان ما تمردوا كما تمردوا من قبل على أبي الحسن تحدوهم نفس الأسباب . وأنهك أبوعنان قواه في مطاردتهم حتى جهة بسكرة حيث أخذ الكلل من الجيوش مأخذه وبدأت تتشتت فما كان منه الا أن تراجع القهقرى وعاد إلى فاس في نوفمبر 1357 . ولم يعتبر هذه الخيبة قاضية فوجه في السنة الموالية جيشا بقيادة أحد وزرائه لاخضاع الأوراس ، فكان له ذلك ، ولم يلبث ان مرض مرضا شديدا فانقسم وزراؤه إلى كتلتين تؤيد كل واحدة منهما احد ابناء السلطان المحتضر .

وتمكن الفودودي وهو من أشدّ الوزراء جسارة من فرض مرشحه وهو طفل لم يتجاوز الخامسة من عمره — ثمّ خنق أبا عنان الذي طال احتضاره (5 ديسمبر 1358) .

وقد يبدو عهد أبي عنان إعادة أمينة ولكنها مختصرة لعهد أبي الحسن ، وفعلا فان اطوارهما متماثلة الاّ أن النتائج متغايرة ، ذلك أن أبا عنان لم تهزمه عرب إفريقية بل خذلته جيوشه التي أبت مواصلة القتال ، فقد حمّل ملوك بني مرين رعاياهم فوق مايطيقون وبلغ جهدهم أقصاه . ومن جهة أخرى تفاقم انحلال الدولة المرينية. وأصبح حالها أكثر تداعيا ممّا كان عليه قبل عشر سنوات وصار الوزراء هم الذين يولون الملوك ويعزلونهم . وستتواصل الأزمة التي ظهرت بموت أبي عنان إلى نهاية

دولة بني مرين بالذّات . وسيطول أمدها وتتولد عنها نتائج بالغة الخطورة بحيث سوف يعجز بنو وطاس عند توليهم مقاليد الحكم عن تدارك الأمر .

انحطاط الدولة المرينية :

ما أن هلك أبو عنان حتى عمّت الفوضى في مملكة بني مرين كما يستشري الداء الفتاك في الجسم العليل فتنازع على الحكم الوزراء والادعياء المرينيون والعرب وكتائب النصارى وتهالكوا في ذلك . وكان الحكم لايدوم أكثر من بضعة أيام أو أشهر وتعددت المؤامرات والاغتيالات . وأصبحت هذه الدولة التي تألق نجمها فيما مضى وأوحت بقوة السلطان شبيهة بآلة انخرم سيرها .

وخلا الجو في أول الأمر للوزير الفودودي على أنه كان يخشى منافسة أمير هنتاتة المهيمن على جهة مرّاكش ولم تمض ثمانية عشر شهرا على موت أبي عنان حتى رشح وزير آخر يدعى ابن ماساي دعيّا وسعى إلى مسك زمام الحكم في ظله : (ماي 1359) وفي نفس الوقت ظهر دعي آخر يدعى أبا سليم وهو ابن ابي الحسن ... يعاضده بطرس القاسي (Pierre Le Cruel) ملك قشتالة ، ودفع الحدس الوزيرين إلى التخلي عن مرشحيهما والتقرب من أبي سليم الذي بويع في جويلية 1359 . ونفي الفودودي إلى مراكش فأعلن العصيان والقي عليه القبض ومثل به (ربيع 1360) . وبينما كان ابن ماساي وأبو سليم يتوهمان انهما يمسكان بزمام الحكم اذا بوزير جديد هو عمر بن عبد الله يفسد عليهما الخطة ويتحالف مع قائد الكتيبة النصرانية الاسباني لمبايعة ابن من أبناء أبي الحسن يدعى تاشفين كان يغلب عليه البَلَه في 19 سبتمبر 1361 ، ولم تمض أشهر قليلة حتى اعتبر الوزير صاحب السلطة الحقيقية أن الملك دون المستوى فاستقدم آخر سنة 1361 أحد أحفاد أبي الحسن من بلاط قشتالة حيث كان لاجئا ويدعى أبا زيان ، وفي هذه الاثناء كان شمل بني مرين يتمزق ، فكان بنو عبد الواد ينتهزون كل الفرص للانتصاب بتلمسان فيُطردون منها في كل مرّة ، وكان جنوب المغرب خاضعا في واقع الأمر إلى الأمير الهنتاتي ، وأخير استقر أمير مريني بسجلماسة باعانة عرب المعقل وظهر في مظهر الملك ،

وأراد أبو زيان بعد مرور سنوات التخلص من سيطرة وزيره واعتزم قتله ، فعلم بذلك عمر بن عبد الله بواسطة الحريم حيث كانت له عيون ، وأوعز بخنق سيده وأحل محله ابنه أبا الحسن عبد العزيز الذي كان الى حد ذلك الوقت مسجونا في قصر فاس (خريف 1366).

وكان السجين الذي أصبح سلطانا ، شابا ضعيف البنية ولكنه يختزن طاقة عظيمة في جسمه المنهوك تشد أزره أمه وهي امرأة سديدة الرأي حازمة ولمّا فطن الوزير عمر أن سلطانه لم يحقق ما وضعه فيه من آمال ، فكر في القضاء عليه ولكن أمره ا نكشف فأمر عبد العزيز بأن تتناوله السيوف هبرا أمامه ثمّ تصدى إلى تنظيم أمور دولته (جويلية 1367) ولم يكن الذي جرى ليروق للهنتاتي صاحب الجنوب فشق عصا الطاعة . فخرج عبد العزيز إلى منازلته وتعقّبه في الجبال والشتاء على أشدّه ثمّ تقبّض عليه (ربيع سنة 1370) وتفرغ بعد ذلك إلى تلمسان حيث استقر مرّة أخرى أبو حمو أمير بني عبد الواد ونازلها فسقطت في يده من دون مقاومة (7 أوت 1370) ثمّ واصل عبد العزيز حركته في المغرب الاوسط وبسط نفوذه عليه بعد أن تغلب على مقاومة العرب : وهكذا التأمت سنة 1372 مملكة بني مرين على النسق الذي كانت عليه في أيام عزها عهدّ أبي يعقوب ، ولكن لم يدم ذلك طويلا اذ تداعت صحة السلطان رغم طاقته الجبارة : وتوفي في 23 أكتوبر 1372 وترك الحكم لطفل صغير يدعى السعيد .

واحتكر الوزراء الحكم مرّة أخرى : فكان الأمر أولا لأبي بكر بن غازي الذي حكم باسم الطفل السعيد ، ثمّ لم يصمد أمام ضربات منافس له يدعى محمد بن عثمان وقد ربط مصيره بالدعي ابي العبّاس الذي ناصره ملك غرناطة وانتصر سنة 1374 ولم تعد لأبي العبّاس بعد مرور عشر سنوات حظوة لدى حاميه من بني نصر : واضطر إلى الهجرة بينما قتل وزيره ، فظهر عند ذلك الوزير ابن ماساي مرة ثانية والسلطان آنذاك ولدّ لأبي عنان يدعى موسى وهو مصاب بعاهة وعاجز عن الحكم (1384 — 1386) ثمّ خلفه الواثق احد احفاد أبي الحسن (1386 — 1387) ، وان كان ابن ماساي يحاول زحزحة بني محمّد الخامس ملك غرناطة على شمال المغرب الأقصى فان هذا الاخير ارسل صاحب غرناطة المذكور إلى المغرب الأقصى أبا العباس فاستولى على الحكم وأمر بقتل ابن ماساي وعذبه عذابا

اليما واستهوت شؤون الدولة المعقل الذين كانوا سببا في هذه العودة ، فمنهم من أصبحوا اسيادا على مملكة تافيلالت ومنهم من فتحوا لأنفسهم طريق السهول الساحلية . ونعم المغرب الأقصى في عهد أبي العباس بست سنوات من الهدوء النسبي بل أمكن للسلطان أن يرسل ابنه لفتح تلمسان ومدينة الجزائر ومليانة وتدلس ، غير ان الاضطرابات التي عقبت موته المفاجئ بتازى (نوفمبر 1393) بلغت حدا تمكن معه النصارى من جعل أرض المغرب الأقصى ساحة لحروبهم .

حكومة السلاطين :

اعتمد بنو مرين في تصريفهم لشؤون الدوّلة على العمل الدائب دون أن يبدعوا ابداعا فاقتصروا ، مهما كان طموحهم ، على التسمي بامير المسلمين من غير أن يتجرؤوا قبل ملك أبي عنان على التسمي بالخليفة كما كان الموحدون يتلقبون به دون أن ينازعهم فيه أحد ، على أنهم عرفوا كيف يرفعون سمعتهم لدى الأجانب والحضر أصحاب الحل والعقد في المغرب الأقصى وذلك بأبهة بلاطهم وروعة مواكبهم وعظمة مبانيهم وجلال نقوشهم ومديح مؤرخيهم وشعرائهم . ونجحوا في فرض كل هذا لاعلى معاصريهم فحسب بل على من بعدهم حتى بقوا إلى اليوم في أذهان الشعب ، آخر من مثل عظمة الاسلام . « وكثيرا ما يردد الناس في المغرب الأقصى قائلين : انتهى كل شيء بزوال بني مرين وبني وطاس » .

وكان بنو مرين يختارون بصفة عامة وزراءهم وحجابهم وكتابهم وقضاتهم من عائلات معينة ، من ذلك ان أغلب الوزراء لم ينحدروا من سلالة الملك رأسا اذ كان يخشى كثيرًا طموحهم ولكن من جماعات ذات قرابة بعيدة أو موالية . ومما لاشك فيه انه لكل كبار الدولة من قوّاد واداريين مشمولات مضبوطة بل إنهم كانوا من أصحاب السيف قبل أن يكونوا من رجال القلم ولئن اضطلعوا بأعلى الوظائف وأخطرها فانهم لم يتحلوا دائما بالثقة والوفاء الخالصين .

وكان السلاطين يعيّنون حجابهم كما عنّ لهم فسواء كانوا عبيدا أو معتقين أو يهودا أو خصيانا فهم أهل ثقتهم والواقفون دون رعاياهم والمنظمون لمجالسهم والساهرون على تنفيذ العقوبات

والمحتفظون بالمعتقلين في سجونهم ، بل لربّما كانوا يتولون إلى ذلك الحسبة وكانوا يعهدون بإدارة المملكة إلى كتاب ينتسبون غالبا إلى أوساط الأدباء الأندلسيين ولكنهم ينحدرون في بعض الأحيان من عائلات مغربيّة كانت في خدمة الموحدين سابقا، وكثيراً ما ينتمون إلى بلاطات ملوك المسلمين حيث حصلت لهم خبرة في تصريف شؤون الدولة، فعندما دخل ابن خلدون في خدمة بني مرين كان قد تكوّن بعد ضمن اطار الوزارة الحفصية ، ويوجد حسب المسند صنفان من كتاب البلاط ، صنف مكلف بالرسائل الصادرة والواردة وصنف مسؤول عن المسائل الحربية والعقارات والمصالح المالية وخاصة توزيع الجباية واستخلاصها .

وكان ينتدب القضاة في أغلب الاحيان من بين الاطارات المحلية ممّا يدل على وجود نخبة مغربيّة حذقت المسائل الفقهية .

وكان الجند المريني من زناتة ومن القبائل العربيّة . واشتهر العساكر بشجاعتهم وكذلك بصلفهم، وكان المجاهدون في سبيل الله يمثلون النخبة من الجيش . وهم الذين يتحدّون اقطاب النصارى قبل المعركة . وكانت زناتة والعرب فرسانا غالبا والاندلسيون نشابة والمرتزقة الاسيويون رماة . ويضاف إلى ذلك كتيبة نصرانيّة قاطنة بحي فاس الجديد يدعى ربض النصارى . وكان السلطان محفوفا دائما بحرسه الخاص ويسمون أهل الدائرة تحوط خيامهم بخيمته وعندما يتحرك الجيش لخوض غمار الحرب يسلّم السلطان القائد الأعلى راية صغيرة من الكتان الأبيض وهي صورة مصغرّة من العلم الملوكي ترمز إلى سلطته . وتحمل مقدمة الجيش هذا العلم ويرفع في أعلى الحصون المفتوحة .

وكان الجيش يفضل الغزوات على المعارك المنظمة وعند المنازلة تحتل كل كتيبة مكانا معيّنا وبعد التحدّيات والمبارزة يسلط الرماة والنشابة وابلا من النبال على الاعداء ثمّ ينقض الفرسان عليهم ، وكان المنتصرون في مقاومتهم للكفار لايقيلون عثارهم ويقتسمون الغنائم بالانصاف ويأتون على كل ما يتعذر عليهم حمله .

وما كان يمكن للدوّلة المرينية أن تبقى دون الاعتماد على الأسر العربية فانتخبت في أول الأمر المحزن من الخُلْط الذين كان لهم دور ثانوي

قبل ذلك لكنهم اضمروا عداء شديدا للموحدين الذين عاملوهم معاملة قاسيّة بعد أن نفوهم إلى المغرب الأقصى . وقد توطدت الوحدة ابتداء من سنة 1260 بفضل مصاهرة بينهما . ودامت حظوة الخلط أكثر من قرن من دون أن تكون لهم نفس الامتيازات التي منحها الحفصيون وبنو عبد الواد للظواعن الذين في خدمتهم . ولربما فقدوا منزلتهم بسبب وفائهم لسلطان مراكش في الأزمة التي جدّت بينه وبين عبد العزيز سلطان فاس . ومنذ سنة 1310 أصبح بنو سويد ولمدة تقارب ثلاثين سنة أشدّ القبائل موالاة لبني مرين ضد منافسهم في المغرب الأوسط وأغدق السلطان عليهم من النعم الشيء الكثير خاصّة وأن ابتعادهم عنه حدّ من خطرهم .

الفن المريني :

لقد عبّر الفن المعماري المريني عن نشاط ملوك المغرب الأقصى السّياسي منه والعسكري والديني فقد جمّلوا عاصمتهم فاس الجديد بوصفهم رؤساء دولة وشيدوا اسوار المنصورة باعتبارهم فاتحين ، واقاموا المدارس بصفتم مسلمين أتقياء من باب التقوى كما اكثروا من المشاريع حول قبر سيدي بومدين بالعبّاد وحموا تربتهم بشالة في ظل رباط بناه الموحدون تجاه سلا .

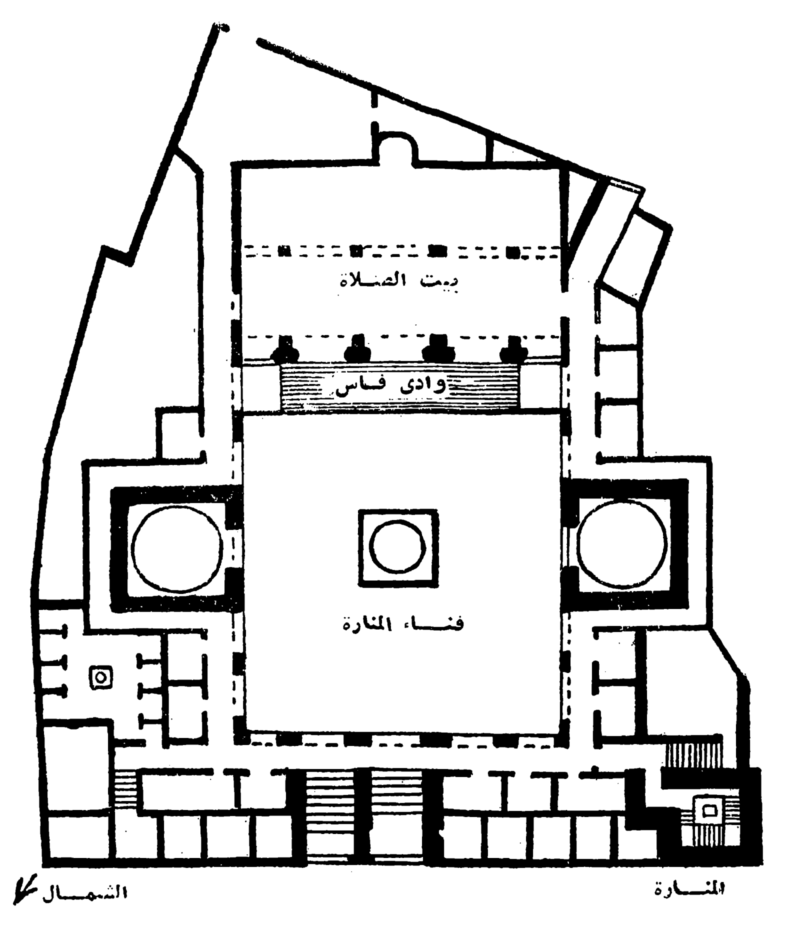
ولم يسمح انحطاط بني عبد المؤمن ولاتأسيس الدولة المرينية بوجود نشاط يذكر في ميدان البناء والتشييد طيلة قرن . ووجب انتظار آخر القرن الثالث عشر ليتبنى أبو يعقوب مسجدي تازى ووجدة المطبوعين بطابع الموحدين . ولم يتمكن أبو الحسن وهو الذي عدد له المسند ما بناه من مساجد بالمغرب الأقصى من اكمال المسجد الذي بدأه أبو يعقوب بالمنصورة والذي استوحى هندسته من مسجد حسان بالرباط باستثناء الصحن المربع الشكل الذي يرجع توسيعه إلى المرينيين ولاشك . وكانت الصومعة الضخمة التي بلغ طولها أربعين مترا والتي يعلوها جامور تلفت الانظار بهندستها ومتانة بنائها خلافا لغيرها من المباني . وكان أبو الحسن هو الذي أقام ايضا قرب قبر سيدي بومدين مسجد العباد الذي يدخله الناس من كُنّة (Porche) وهو مزيّن بفسيفساء من خزف (1339) . أما المصلّى ذو الخمس بلاطات والثلاثة صفوف والجناح الواحد فإن جدرانه وسقوفه ذات التربيعات مزخرفة بطلاء من جصّ منقوش ومحرابه المكوّن من فجوة

ذات زوايا منظمة والمحمول قوسها على أسطوانتين من جزع بتاجيهما الأنيقين فإنه مسبوق بفُرْجة مغطاة بقبة مقرنصة . وقد حفّ بالصحن رواق ذو دعائم موشوريّة الشكل أمّا الصومعة فهي مزينة بالآجر المشبك والخزف .

وبعد ذلك باربع عشرة سنة أهدى أبو عنان إلى زاهد آخر يدعى سيدي الحلوي كان تولى القضاء باشبيلية ثمّ احترف بيع الحلوى في تلمسان مسجدا مماثلا وان كان أصغر من مسجد سيدي بومدين ويحتوي المصلى على ثمانية اعمدة من الجزع وتوجد على الواجهات الاربع لصومعته اشكال من الفخار المموّه بالمينا . وعوضا عن المساجد المغربية يمكننا التعرف إلى المباني المقامة في تربة شالة على أبواب الرباط وقدوسد في هذه الأرض التي اضفى عليها الرباط قداسته ؛ السلاطين واقرباؤهم من أبي يوسف (1286) إلى أبي الحسن (1339) وكان أبو الحسن آخر بطل مريني من أبطال الاسلام هو الذي أعطى للرباط مظهر العظمة فاحاطه بسور ، وزخرف المقام وبنى مسجدا آخر ، أمّا السور المخمس وطوله 300م وعرضه 80 م فإنه مبني من الملاط الغليظ المغطى بطلاء أبيض وعلى طوله شيد عشرون برجا . أمّا بابه الرئيسي المحفوف من جانبيه بتحصينين شكلهما نصف مثمن في زاويتهما نتوءان فقد روعيت روعة الزخرف في الحجارة المنحوتة من المرمر المتعدد الألوان قبل مقتضيات الدفاع . وكان المسجد يحتوي على مصلّى أبي يوسف وهو اليوم في حالة خراب يحوط بمحرابه دهليز نصف دائري تعلوه صومعة طولها 14م 35 فوقها جامور وتزينها صور مأطّرة من الخزف المتعدد الألوان كما يحتوي على مصلّى أبي الحسن . وفي الحديقة المجاورة أقام السلطان ضريحه الفخم المبني بحجر المقاطع المحكم القطع والمتصل بعضه ببعض بواسطة قطع من الرصاص جوانبها مزخرفة أحسن زخرف على الحجر المزدان بالرخام .

وقد انجر عن انتصار المرينيين على الموحّدين وهو في الواقع تفوّق السنة على البدعة الشيعية الاكثار من المدارس حيث كان الطلبة يقيمون على نفقة السلطان ويدرسون الفقه المالكي . وكان ابن مرزوق يثني على أبي الحسن لتفانيه في الذود عن مذاهب السنة . وان مدرسة الصفارين التي أذن ببنائها أبو يوسف هي الوحيدة التي ترجع إلى آخر القرن الثالث عشر .

ويحتوي صحنها في الوسط على بركة مستطيلة الشكل اصطفّت على جوانبها غرف الطلبة أما المصلّى الصغير المربّع الشكل ففيه محراب قد يكون اتجاهه أحسن من غيره من مساجد فاس ، وبنيت المدارس الأخرى في النصف الأول من القرن الرابع عشر ، ويرجع عهد مدرسة فاس الجديد إلى أبي سعيد عثمان ومدرسة الصهريج وهي بلا صومعة يعزى اسمها الشعبي إلى وجود بركة كبرى مستطيلة في صحنها ، أشكالها بسيطة ولكنها متآلفة ، واحتضنت مدرسة السبعيين الصغيرة وهي فرع من الأولى بتعليم القراءات السبع ، وأروع مدرسة هي مدرسة العطارين ولعلّها أقرب إلى الكمال من حيث التوفيق في توزيع المساحات المزخرفة بالصّحن وزينة المصلّى ، وتحتوي المصباحية التي بناها أبو الحسن و سمّيت باسم أول من درّس بها على 117 غرفة ، وتحتفظ بظلة جميلة من الخشب المنقوش كما صُنع سقف دهليزها أحسن صنعة وامتاز مدخل المصلي بأناقة عزّ نظيرها . وتصدّر واجهة مدرسة سلا ، وهي من نفس الفترة رتاج نحته مُدرّج وتحفّ به نقوش، وكانت مدرسة العبّاد تعبيرا عما كان يكنّه أبو الحسن من تعظيم نحو سيدي بومدين (1347) وآخر مدارس وأعظمها مدرسة البوعنانية ويرجع فضل بنائها إلى أبي عنان (1350 — 1357) . ويفضي بابها بمصراعيه الخشبيين المصفحين بالبرنز المتقن الصّنع إلى مدخل ذي درجات حافاتها من الجزع والخزف و بجوانبه دكّات من الخزف المتعدد الألوان . أمّا صحنها الفسيح المغطى بالرخام الأبيض أو الوردي وبالجزع : فقد كسيت جوانبه بالفسيفساء ، وفُتحت نوافذ غرفه وسط زخرف من الجبس . قال ب. ريكار في هذا الصدد : « وفي أعلى ذلك تحتضن الدعامات مداميك العقود الكبيرة المستعارة الخشبية التي تحمل الافريز الأعلى المزخرف بالآيات القرآنية والمحميّ بظلة لم يأت مثلها في الروعة » وتضيء كوى بلورية المصلى المكوّن من بلاطتين عرضانيتين بأطرافهما الهندسية المتداخلة على أكمل وجه . والى جانب ذلك انتصبت ساعة لها 13 ناقوسا من البرنز تستعمل ولاشك للتنبيه (1357) كما وجدت ميضاة مسقوفة على أروع صورة .



شكل 22 : ـ رسم للمدرسة العنانية بفاس (الطابق السفلي)

وأكثر بنو مرين كذلك من المباني العسكرية ، فجهّز أبو يوسف رباط بورقراق بالمسالح وبنى الاسوار وأقام الأبواب بفاس الجديد . وشيّد أبو الحسن سور شالة كما سبق أن ذكرنا غير أنه كان دون سور المنصورة أهمية دفاعية .

ان الفن الاسباني المغربي المريني لايستمد قيمته من تقنية المعماريين ذلك أن مادة البناء الاولية المستعملة رديئة ولكنها مستورة بكثرة الزخرف زد على ذلك أن الخطوط الكبرى البسيطة يتبعها افراط كبير في الاعتناء بالجزئيات غير أن المظهر العام يبقى واضحا كما تبقى النسب متوازنة

والزخرف متناسبا تمام التناسب مع المسافات التي يغطيها وعلاوة على كل ذلك فان تأثير الالوان المختلفة بلغ من الاحكام والذوق الكمال بعينه .

وعندما بلغ الفن المريني أوج نضجه حمل في طياته عوامل انحطاطه لمبالغته في استعمال الأشكال وافراطه في الجزئيات . ورغم ذلك فقد كان تأثيره وجلاله لامثيل لهما لا في بلاد البربر بأكملها فقط بل حتى في المشرق . ولكنه استنفد منذ اواخر القرن الرابع عشر طاقاته فحالت الاضطرابات التي جدّت في القرن الموالي دون إبداع المعالم الفخمة

خاتمة :

استمرت الدولة المرينية بصفة رسميّة حتى سنة 1465 ، وفي الواقع فانه يمكن اعتبارها منتهية سنة 1420 عندما اغتال أبا سعيد عثمان الثالث حاجبه ؟ وأصبح الحكم يمارسه في الواقع أحد افراد عائلة بني وطاس رغم ان الخليفة الشرعي كان ابن القتيل عبد الحق وهو طفل لم يتجاوز سنه عاما . فاذا أردنا أن نقوم بكشف عن آثار بني مرين وجب حينئذ أن نقف حسب رأينا عند سنة 1420 .

وما أن أطاح بنو مرين بسلطان الموحدين بالقوة حتى وضعوا نصب أعينهم هدفا واحدا هو بناء ما هدموا وبعث امبراطورية موحدّية تحمل اسما مرينيا ، غير أن الوسائل والظروف لم تكن واحدة . فلم تكن لهم القوى التي توفرت لسابقيهم : لقد كانوا فرسانا ظواعن فلم يكوّنوا منهم جيشا من المشاة أبدا بل كان هؤلاء اندلسيين او قشتاليين وحتى مشارقة بينما تكوّن الجيش الموحدي أولا وبالذات من الجبليين المغاربة أجداد القومية اليوم — لذا فان أداتهم العسكرية مهما بهرت الناس ، ظلت منقوصة ولم يكن لها كذلك وزن كبير ، فقد لاحظ هـ . تراس أن الأرقام القليلة التي لدينا ، وكذلك مانعرفه عن سياسة بني مرين العسكرية يدّل جميعها على أن عدد جندهم كان ضعيفا نسبيا . لذلك نجدهم دائما يستنجدون بالقبائل البربرية في المغرب الأقصى التي لم تبادر دائما بحمل السلاح لنصرتهم كما يستنجدون بالقبائل العربيّة أو على الأقل بالبعض منها وهي شبيهة بما سمّي فيما بعد بقبائل المخزن ، ومعنى هذا أن جيش بني مرين لم تكن نسبة المجندين فيه من الشق المنتصر تعادل ما توفّر لجيش الموحدين

ففتر الحماس في صفوفه وكثر عدد اللامبالين بل وجدت كتائب معادية سرّا .

فكان هذا الجيش أداة قاصرة عن الاضطلاع بالرسالة التي حمّله اياها أكثر ملوك بني مرين اقداما .

ومن جهة أخرى فان اعداءهم كانوا أشدّ بأسا من أعداء الموحدين ففي اسبانيا تدعمّت مملكة قشتالة بصورة ملحوظة ، واستفاد جيشها وأسطولها مدّا حققته اوروبا الغربيّة من تقدّم في الفن العسكري ؛ وبينما واجه الموحدون في بلاد المغرب قبائل تآكلتها الفوضى أو ممالك أنهكها الزحف العربي اصطدم بنو مرين بدولتين تكوّنتا قبل دولتهم وبلغتا درجة مرموقة من التماسك بفضل ملوك من طراز يغمراسن أو أبو زكريا أو المستنصر .

ثمّ إن العرب كانوا انتشروا في كامل بلاد المغرب وعمّ معهم الصرّاع الهدّام بين الفلاحين المتوطنين والرعاة الظاعنين ، وزيادة على ذلك فان الدولة المرينية لم تتنعم بما حظيت به الدولة المؤمنية من انسجام فما أن هلك أبو يحيى وهو أول ملك مريني بحق حتى أصبح الحكم فريسة يتهافت عليها المتهافتون ، فتقلّل ان تعاقب الملوك على الحكم من دون عراقيل . ولو حقق بنو مرين حلمهم في مثل هذه الظروف لكانت المعجزة ، فقد كان عليهم أن يضعوا نصب اعينهم غاية أقرب منالا عوض الإصرار على إحياء امبراطورية موحّدية تَشْمَل بلاد المغرب واسبانيا الاسلامية فحاولوا تكوين دولة زناتية منحصرة في المغرب الأقصى والمغرب الأوسط تتاخمها شرقا بلاد القبائل والأوراس أي ان يحدوا من طموحهم . فلقد باؤوا بالفشل الذريع سواء كان ذلك في اسبانيا او بلاد المغرب : وانتهت مغامرتهم بالاندلس سنة 1340 قبل أن يتراءى لأبي الحسن طيف امبراطورية مغربيّة . ومما زاد في فداحة خيبتهم أنهم استنزفوا قواهم ، وإذ انحطاطا لانهضة بعده تبع آخر مجهود بذله أبو عنان .

وهكذا كان نصيب الدولة المرينية من الناحية السياسية الفشل الكامل غير أن الأمر على خلاف ذلك فيما يتعلق بالدين والحضارة ، بالرغم من أنّ المرينيين لم يكونوا مصلحين دينيين ولا أحفادا للرسول تُغْدَق عليهم

البركات فان تأثيرهم على الحياة الدينية في المغرب الأقصى لاينازع فيه احد. فلقد ازالوا شيئا فشيئا من دون صدام ولا صراع مذهب الموحّدين واحلوا محله المذهب المالكي كما كان في سالف عهده ، واعانوا على تطوير العلوم الدينية بتأسيس المدارس في غالب الجهات ، واذا كان من المبالغة اعتبارهم مؤسسين « لمدرسة فاس » فقد ساهموا مساهمة كبيرة في نموها واشعاعها . ويمكن القول بأن كل مايمت إلى المظهر السني من الاسلام في المغرب الأقصى يحمل طابع المرينيين ابتداء من المدارس وقائمة كتب التعليم إلى التقاليد المرعيّة في الاحتفال بالأعياد الدينية الكبيرة خاصة المولد النبّوي . ولئن بقيت نزعة الشدّة والتقشف الموروثة عن المذهب الموحدي فان جانبا عظيما من المؤسسات الدينية مريني المنشأ ، ويرجع ازدهار حركة التصوّف المغربي إلى نفس الفترة كما سيأتي بيانه وان لم يكن للملوك ضلع في ذلك كما سبق فان من زار فاس او تلمسان لايمكن ان يشك في وجود حضارة مرينية أكثر طرافة ولاريب من الحضارة الحفصية. وليست المباني هي وحدها الشاهد على ذلك ويكفي تصفح ما كتبه ليون الإفريقي عن فاس لندرك أن بني مرين أضفوا على المغرب الأقصى وشماليّه على الأقل طابعا حياتيا لم يمح تماما إلى اليوم . وقد أكد ه . تراس وهو محق في ذلك على ما كان للتأثير الأندلسي في هذه الحضارة من حظ وافر : وهو تأثير وجد بعد من عهد الموحدين ولكنه لم يكن بمثل هذه القوة ولا هذه السيطرة . ذلك أن الاسلام في اسبانيا تقهقر شيئا فشيئا إلى المغرب الأقصى المجاور تحت ضغط حرب الاسترداد ، وانساقت زناتة إلى التأثر بهذا الرافد الغني غناء كبيرا ، وهم الذين لم ترسخ لهم قدم في ثقافة ولا تعلقوا بتقاليد : من ذلك المباني التي حللنا بعضها باختصار في الصفحات السابقة والنهضة الأدبية التي يعتبر ابن الخطيب الشاعر والمؤرخ الأندلسي محورا لها وكذلك تطوّر مدن الشمال في المغرب الأقصى ، واذا كان فاس الجديد وتطوان من تأسيس بني مرين فانه يمكن اعتبار مكناس مرينية كذلك وهي التي لم تكن قبل أبي يوسف سوى قصبة قائمة قرب بعض القرى البربرية القديمة وكذلك وجدة التي جعل منها أبو يعقوب مدينة عظيمة لوقوعها على التخوم وأبى هؤلاء الأمراء البناؤون من أبي يوسف إلى أبي عنان إلا ادخال تحسينات كبيرة على مدينة فاس العتيقة وتازى وسلا وسبتة . ومن العدل أن نلاحظ أن هذه الحضارة اقتصرت على المدن ولم تشمل

الارياف ولا حتى المجموعات السكنية الثانوية . وفي هذا الباب فان بني مرين قاموا بعمل خالد بقدرما اجتنبوا تقليد الموحدين تقليدا أعمى .

4 ـ دولة بنى وطاس ويقظة الاسلام

هجوم النصارى على المغرب الأقصى :

لم تقطع أبدا العلاقات بين المسلمين في المغرب الأقصى والنصارى رغم المعارك الواقعة بالارض الاسبانية واعمال القرصنة المتبادلة . فكانت مراكب البندقية وجنوة ومرسيليا وقطلونية (Catalan) والارغون تتردد اثناء القرن الرابع عشر على مواني أصيلا وطنجة وباديس (وكانت تجاهها الجزيرة المسماة حجر باديس (Pènon de Velez) وسبتة، وأركودية أو الكدية (الخزامى) ؟ (Alhucemas) ومليلة ولكنها لاتصل الا قليلا إلى سلا وأزمور وآسفي وموقادور حيث كانت مراكب المسلمين تجوب وحدها السواحل ، ولم يكن التجار ليغامروا بأنفسهم في المدن الواقعة داخل البلاد الا بصفة إستثنائية رغم انه كان يوجد بمراكش حي للإفرنج .

وكانت المبادلات تقع في المواني التي توجد فيها القمارك العربية وفنادق النصارى . وكان أسطول البندقية يرسي كل سنتين بباديس وهو ميناء فاس ، وكان المغرب الأقصى يستورد خاصة طيور القنص والمعادن والماعون ولوازم الثياب ، والأقمشة ، وقطع النسيج والتوابل والخمر . ويصدّر العبيد ، والجلد والفراء ، والزرابي والصوف والمرجان والحبوب والسكر ، ولم تنقطع هذه الحركة التجارية النشيطة في القرن الخامس عشر رغم هجوم النصارى . بل ان مبادلات تمت بين الاهالي والحصون (Fronteiras) فسهلت التوغل البرتغالي نحو مراكش ، وتعتبر مدينة فاس أهم مركز في أوائل القرن الحادي عشر وهي عاصمة بني وطاس وتربطها اربعة مسالك بمواني غساسة (سلوان ؟ من يوم ان احتل الاسبان مليلة

سنة 1497) وباديس وسبتة وطنجة وكان المسلك الذي على ابواب تازى غير آمن ولكنه يضمن الاتصال بتلمسان ، كما كانت توجد طريق تؤدي إلى سجلماسة وتمرّ منها قوافل التمور وثلاث مسالك تفضي إلى الحوز . وكانت البضائع خاضعة لقمارك المدن وللأداءات المستخلصة من القادة المحليين .

ونتج عن العداوة القائمة بين القشتاليين وبني مرين أن ربط هؤلاء علاقات وديّة جدا مع الارغون الذين اعانوهم على قمع ثورة بسبتة (1274) وطرد ملك غرناطة من هذا الميناء (1309) وحصل التقارب بصورة تلقائية (1345) بعد ثلاثين سنة من الازمات الناشئة عن تدخل السلاطين في اسبانيا وآل الأمر بعد اثنتي عشرة سنة إلى ابرام معاهدة سياسية وتجاريّة موجهة ضد قشتالة واستمر أبو عنان وخلفاؤه في هذه السياسة المؤاتية لبلاد الارغون التي كانت منصرفة إلى شواغل أخرى بحيث لم تغيّر من سياستها تجاه المغرب الأقصى شيئا .

وكان البرتغاليون والقشتاليون خلافا لذلك يترقبون الفرصة للانقضاض على المغرب الأقصى . فقد أحكم البرتغال استقلاله القومي بمقاومة الغازين المغاربة وتباقت دولة أفيز (Avis) المؤسسة سنة 1385 إلى عجم عود قواها الجديدة بمواجهة الكفار اعتمادا على برجوازية التجار ، وكان القشتاليون وضعوا حدا بانتصارهم في واقعة طريف (واقعة نهر سالادو) لتطاول بني مرين المتواصل على التراب الاسباني فأصبح الصراع بين قشتالة وغرناطة خصومة بين ملك وأمير تابع له لا قتالا بين نصارى ومسلمين على أن المغاربة بقوا أعداء للنصارى حقيقيين . لذلك كان القشتاليون بالمرصاد لأول فرصة تمكنهم من تحقيق حلم فرديناند الثالث وللنزول بافريقية ووضع حد لخطر الغزو المحتمل والقضاء في نفس الوقت على القرصنة المتفاقم امرها واتاحت لهم الحالة التي أصبح عليها المغرب الأقصى في آخر القرن الرابع عشر أن يتدخلوا .

ولمّا مات أبو العباس مكّن الصراع من أجل الحكم أمير غرناطة يعضده ملك قشتالة من تغذية نار الفوضى في المغرب الأقصى وتهيئة الجو لتحقيق أطماعه بالايعاز إلى الادعياء او مساندتهم . وكان ردّ فعل السلطان

المريـني ان رمى المراكب الأندلسية والنصرانيـة بالقراصنة المغاربة فـأصبـح للقرصنـة من الجدوى والغنم ما جعلها تستقـل بأمرها وتفلت من سلطة الحكومة فتثير ردود فعل القشتاليين .

وبينمـا كان الجيش المريـني يحاصر تلمسان استحوذ هانري الثالث صاحب قشتالة ، الذي كـانت تراوده نزعة صليبية ، على تطـوان فخربهـا وقتـل نصف أهلهـا وجعل من البقية عبيدا (1399) . فلـم يشحذ هذا العمل الوحشي همـة القراصنـة بل أثار الحماس الوطني والديـني فـكانت هزيمة النصارى .

واغتنـم كذلك البرتغاليون ما كـان عليـه المغاربـة من فوضى . فـان الثورة التي مكنـت « الذائد عن المملـكة » يوحنا (Jean) صاحب أعلى درجة في وسام أفيـز (Avis) من النفوذ ، حققت انتصار برجوازيـة برتو (Porto) ولشبونة (Lisbonne) يؤيدهـا سكان السواحل على النبلاء من مـالـكي الأرض الذين غلب عليهم تمسّكهم بالشرعيـة ، فبقـوا موالين لملك قشتالة (1385) واثبت انتصار البرتغـاليـيـن على القشتاليين تفوّق الخطـة الثورية التي توختها فرقة المشاة البرجوازية على المناورات التقليدية للخيالـة الارستقراطيـة ، كمـا أوجـب هـذا الانتصار تغييـرا فـي السيـاسـة اذ احتلت مصالـح المنتصريـن الاقتصادية المقام الأول .

وسعـت البرجـوازية يسانـدهـا اخـوا الملك الأصغـران هنـريكـو وفرناندو اللذان كـانا يرغبان في الحيلـولة دون تدخل قشتالة في المغرب الأقصى إلى وضع حد للقرصنـة المعرقلـة لقوافل القمـوح . كمـا أرادت أن تشفـي غليلهـا من الروح الصليبية التي كـانت تنتشر بالجزيرة كلما تفـاقم أمر حرب الاسترداد وحرصت أخيرا على توجيـه الشعب الشعبـي وجهـة أخرى فحملـت الملك لذلك كـله على محاولة النزول بسبته فاستحوذ بسهـولة على الحصن حيث ابقى حاميـة تتركب من 2500 رجل (21 أوت 1415) ولم يتعرض هـذا الحصن الا إلى هجمـة واحـدة ذات بـال قـام بهـا المغاربـة وجيش غرناطة معا وكـان نصيبهـا الفشل بسبب خلافـات بنـي مرين (1419) .

قيام دولة بني وطاس :

ولم تمض على ذلك سنة واحدة حتى هلك السلطان المريني أبو سعيد عثمان بسبب تمرد في بلاطه . وتفاقمت بمقتله الحرب الأهلية ، فاغتنمت قبائل بني هلال الفرصة لتحسين موقعها ونهب رؤوس الحضر كما باع القواد العرب انفسهم وجيوشهم لأكثر الادعياء عطاء وتحصن البرتغاليون في سبتة ورفض بنو عبد الواد الولاء لفاس وأخيرا دعم رجال الدين نفوذهم . وهكذا فان القوى المتقابلة في هذه الفترة من احتضار الدولة كانت تنبيء بالخلافات التي ستكيّف تاريخ المغرب الأقصى طية قرن كامل .

وفرض بنو وطاس وهم أحد بطون المرينيين سلطتهم بفضل هذه الازمة ، وكان انتهى بهم المطاف إلى الاستقرار في شرق المغرب الأقصى بعد أن ظعنوا طويلا عبر تخوم النجاد العليا والصحراء . ولذا غنموا من انتصار المرينيين أبناء عمومتهم على الموحدين اقطاعا عظيما في بلاد الريف . وتعاظم نفوذهم في البلاط في الفترة الأخيرة من حكمهم . ولم ينجح من تقتيل عائلة أبي سعيد الا طفل في الواحدة من عمره يدعى عبد الحق وجدت له غرناطة وتلمسان من ينافسه فتبنّى أبو زكرياء يحيى الوطّاسي وكان إذ ذاك واليا على سلا ، قضية هذا اليتيم ونجح في مساعيه بعد عناء — ولم يكن تدخل أبي زكرياء يعني فقط توطيد النفوذ المريني بل معناه في الواقع استحواذ بني وطاس على الحكم اذ مارس رئيسهم السلطة الفعلية عند اضطلاعه بمهام الوصاية ، ولما بلغ عبد الحق سن الرشد آثر المجون على التخلص من الوصاية فلم يتضايق كذلك من وصاية علي بن يوسف ابن أخي أبي زكريا. ثم ان الموكّلين بقصر فاس ظلوا طيلة ثلاثين سنة في مستوى مهمّتهم (1428 — 1458) فواجهوا بحزم الخطر النصراني ومانتج عنه من يقظة التعصب القومي والديني .

ولم يعرف البرتغاليون في ظل حصنهم بسبتة الا النزال الفردي الذي كان يقوم به الاسياد ضد « المجاهدين » المتحدّين لهم فلم يصدر منهم طيلة عهد يوحنا الأول مايدّل على رغبتهم في التوّسع في غزواتهم ، غير انه لما اعتلى أخوه دوارت (Duarte) العرش تردد رجال البلاط

بين مطامع هانريك (Henrique) وفرناندو (Fernando) في المغرب الأقصى وبين سياسة الإنتاج القومي التي كان يدعمها مجلس العرش ويحبذها بيدرو (D. Pedro) الذي كان يرفض تعويض دينار بدرهم وتغلبت الكتلة الاستعمارية المعززة بموافقة البابا على احترازات الملك ونظمت حملة ضد طنجة فخرج جيش قليل العدد ضعيف العدة. اقلة المتطوعين فيه وحاصرته امام اسوار المدينة كتائب أبي زكرياء العتيدة الواردة من كامل المغرب الأقصى فاضطر إلى الاستسلام (16 أكتوبر 1437) . وما كان على المهزومين الا التخلي عن سبتة وتسليم أخي الملك فرناندو رهينة في انتظار البر بوعدهم . غير أن دوارت آثر التضحية بأخيه على التفريط في هذا المركز التجاري . ومات أخوه الشجاع بفاس (5 جوان 1443) بعد أسر شديد دام ست سنوات تحمله في صبر يبعث على الإعجاب . وأدرجت الكنيسة اسمه في قائمة الشهداء وبازكته وهي التي حالت بما اهها من تأثير وهيبة دون العدول عن الحملة (1470) .

يقظة الإسلام

استجاب أبو زكرياء باعماله الحازمة إلى رغبة رجال الدين الذين اعتبروا فترة وصايته « عهدا ذهبيا » ولما خرب الاسبان مدينة تطوان اصطبغت القومية البربرية تحت تأثير مشايخ الزوايا بصبغة الحماس الديني المتأجج ، فقام المشايخ مقام السلاطين الذين كانت اسباب سياسية تحول دون تدخلهم الشخصي وأصبحوا بفضل نشاطهم وتدفق شعورهم الديني خير من يمثل توق الشعب إلى الجهاد المقدس خلافا لما كان عليه المخزن بقراراته الانتهازية ورفضه نعت الأراضي المحتلة من الكفار بأنها دار جهاد رغم وجود مسلمين بها يمارسون ولو جزئيا فرائضهم الدينية .

وشاع التصوف بالمغرب الأقصى في عهد المرابطين والموحدين بعد أن ظهر في المشرق تحت تأثير الرهبنة النصرانية والافلاطونية الحديثة وهو مذهب المسلمين الذين زهدوا في الدنيا كرد فعل ضد من تعلقوا بها أيما تعلق . فتكاثر عدد الصالحين في كل مكان تفوح منهم البركة وتزايد الأولياء المرابطون وكانوا يعتزلون الناس أحيانا وتنشط حولهم

أحيانا أخرى في أماكن خالية زوايا متزايدة الاشعاع يدرس فيها إلى جانب التصوف الكيمياء والسحر . لذلك منع سلاطين مراكش حركة التصوف من الانتشار خارج اطار هذه الزوايا .

ولم تزل هذه الطرق تستعمل نفوذها لمناوأة الدولة المؤمنية طيلة الصراع القائم بين الموحدين والمرينيين . وسرعان ما ضاق بنو مرين ذرعا بسعي هذه الطرق إلى الانتشار رغم تأييدها السالف لهم . فأيدوا على حساب شيوخ التصوف جماعة العلماء الرسميين الذين كانوا يدرّسون مذاهب السنة وانما يرجع الفضل الأكبر في تعدد المدارس إلى مقاومة انتشار الصوفيّة .

ووسّعت الزوايا رقعة نشاطها في الوقت الذي ضعفت فيه سلطة ملوك فاس وبان عجز المخزن في مقاومة الكفار مقاومة فعّالة . فظهرت حينئذ في مظهر المؤسسات القائمة الذات المتينة الاركان فكانت في نفس الوقت اماكن للعبادة ومدارس وفنادق عليها يقوم المشايخ ومنها يشع على كامل البلاد المقدمون يبلغون التعليمات إلى جمهرة الاخوان المتحمسين . وكانت تفرض على مُريديها طقوسا مضبوطة ولكنها مبرّأة من شوائب العقائديّة بعيدة عن تعذيب الجسد وتبعث فيهم الوجد الرّباني فيفنى المتصوّف في حقيقة الذات الالهية التي لاحقيقة سواها .

وكانت زاويتان منها مركزين نشيطين لنشر العقيدة الاسلامية تنتسب الأولى إلى عبد القادر الجيلاني « القطب الأعظم » المتوفى في بغداد سنة 1066 ويديرها الشرفة القادرية بفاس وترجع الثانية بواسطة الجزولي المتوفّى في أواسط القرن الخامس عشر إلى عبد السلام بن مشيش ولي جبالة العظيم غير أن هاتين الزاويتين اللتين بالغ البعض في دورهما السياسي كادتا ان تقصر نشاطهما في عهد بني وطاس على الدعوة الدينية . ولم يصبح تأثيرهما على الجماهير لاستنهاضها ضد السلاطين مطّردا فعّالا إلا بعد انتصار السعديين الذي تم من دون ان يكون لهما دخل فيه .

وحاول بنو وطاس استغلال هذه الحركة القومية والدينية لفائدتهم فتزعموا الكفاح ضد البرتغاليين وسعوا إلى جعل عاصمتهم زاوية تفوق في هيبتها سائر الزوايا ، وصادف ان اكتشف قبر مولاي ادريس بفاس في

نفس السنة التي أسر فيهـا أبو زكرياء ، أمام أسوار طنجـة ، جيش أخوي ملك البرتغال . وكـان النّاس يعتقدون ان مؤسس هذه المدينـة دفن بوليلي إلى جانب والده وسجل الوصي ورئيس العائلـة الادريسية والفقهاء أن الجثمان بقي على حاله لم يأكلـه التراب . وتقرر ابقاؤه في نفس المكان الذي اكـتشف فيه واقامة ضريـح له . ولم يـكن الرجوع إلى تقديس الأدارسـة بعد طول نسيان من باب الصدفة فـكان بمثابة التتويـج ليقظـة النزعـة الشريفيـّة . إذ نبـع من كـل مكان الاولياء الشرفة وهم من سلالة محمـّد حقا او باطلا ورثوا عنـه البركـة وزاد في نفوذهم الروحاني ان المسلمين كـانوا يطالبـون بمعجزة ضـد الـكـفار . ولاشك ان أبـا زكرياء أراد ان ينتفـع بنـو وطاس بهـذه للعودة إلى تقديس الاشراف الاّ ان اكـتشاف جثمـان أدريس أفاد اولا وبالذات العـائلـة الادريسيـة ورفع من شأنهـا واحتل نقيبهـا منزلة مساوية لمنزلة الوصي في معاينـة اكـتشاف الجثمان .

نهـاية بنـي مـرين :

كـان لتفاقم زحف النصارى وانهيار وكـلاء القصر من بني وطـاس أثره في تـدهور نفـوذ المخـزن . وكـان الفونسو الخامس أعد أسطـولا وجيشا استجابة لنداء البابا الذي أعلن عن قيام الحرب الصليبيـّة ضد الأتراك غداة سقوط القسطنطينية (1453) ، غيرانه لم يـكن ميـّالا إلى الحمـلات البعيدة على غرار امراء النصارى فـآثر توجيـه قواته نحـو مينـاء صغير يقـع بيـن سبتة وطنجـة يدعى القصر الصغير واراد أن يجعـل منـه قاعدة حربية . وسقط الحصن من دون مقاومة في 18 اكـتوبر 1458 وحاول الملك الاستيلاء على طنجـة ثلاث مرات ولـكـنه اخفق في جميعهـا وكـانت هزيمتـه في الثالثة أشد وانـكى (12 جانفي 1464) وتـمكن في آخر الأمر من تحقيق اغراضه بسبب ما مزق شمل البلاط بفاس من انقـلابات . .

وكان السلطان عبد الحق رضي من دون أية مقاومة بوصاية يحيـى بن ابي زكرياء ثالث بني وطاس الذي كـان دون سابقيـه قيمـة وأدرك ذلك رجال البلاط فنفض الملك عنـه خمـوله وأمر بقتـل الوزير وعائلته ولم تمـر على وصايتـه سوى شهـرين (1458) ونجـا من التقتيل اخوان ليحيـى امـكن لاحدهمـا وهو محمـّد الشيـخ التحصن بآصيلا وجمـع الغاضبين حوله :

وفشل عبد الحق في القيام بمهام الملك على الوجه المرضي وعمت الفوضى كامل البلاد . فعلاوة على مملكة مزاكش المتمتعة عمليا باستقلالها منذ عشرين سنة والتي قد تكون وقعت بعد في أيدي أمراء هنتاتة ثارت القبائل وقام الامام الجزولي شريف السوس وهو من أقطاب التصوف المغربي ، بجولات في جهات شمالي الأطلس وجمع حوله حسبما يروى ما يقرب من 13.000 مريد ونشر الزوايا في البلاد. ولم يسترب اخوان فاس وحدهم في أمر عبد الحق بعد مقتل الجزولي باعتباره مشاركا في الجريمة بل كان سكان المدينة قاطبة يعيبون عليه تسمية وزير يهودي وتمرد عليه الرعايا وذبحوه مثلما تذبح الشاة . وبانتهائه انتهت دولة بني مرين (ماي 1465) .

وكشفت هذه الفعلة عن مدى نفوذ الادارسة فتلقب نقيب الاشراف الذي كان اشرف على اكتشاف جثمان إدريس بالإمام مثل جده مؤسس فاس ، ولكنه لم يقو على ردّ هجومات محمّد الشيخ الذي تمكن من فتح العاصمة بعد ست سنوات من الصراع واستحوذ على الحكم . فأصبح بنو وطاس ملوكا اسما ورسما بعد ان كانوا وكلاء على القصر .

انتصارات الاشراف :

ان عملا شاقا كان ينتظر مؤسس هذه الدولة فقد استغل البرتغاليون الاضطرابات وتمكنوا من أخذ آصيلا عنوة (24 أوت 1471) معززين بـ 477 مركبا و 30.000 رجل واضطر محمّد الشيخ إلى ابرام اتفاق يقضي بهدنة مدتها عشرون سنة لا بالنسبة للمراكز المحصنة بل للبسائط أيضا . واستند ملك البرتغال إلى بند مقيّد للطرف المقابل فأمر باحتلال طنجة من دون ان يلقى أية مقاومة (29 أوت 1471) وتلقب منذ ذلك الوقت بلقب (Rei de Portugal e dos Algarves daqueuse dalem mar en Africa).

ولم يتمكّن السلطان الوطاسي رغم حزمه من بسط نفوذه الاّ على جهة فاس . اذ خرج عن طاعته البربر في الجبال والاولياء الصالحون في الجنوب. واصطدم بعداوة رجال الدين العنيدة الذين أعانوا الادعياء عليه

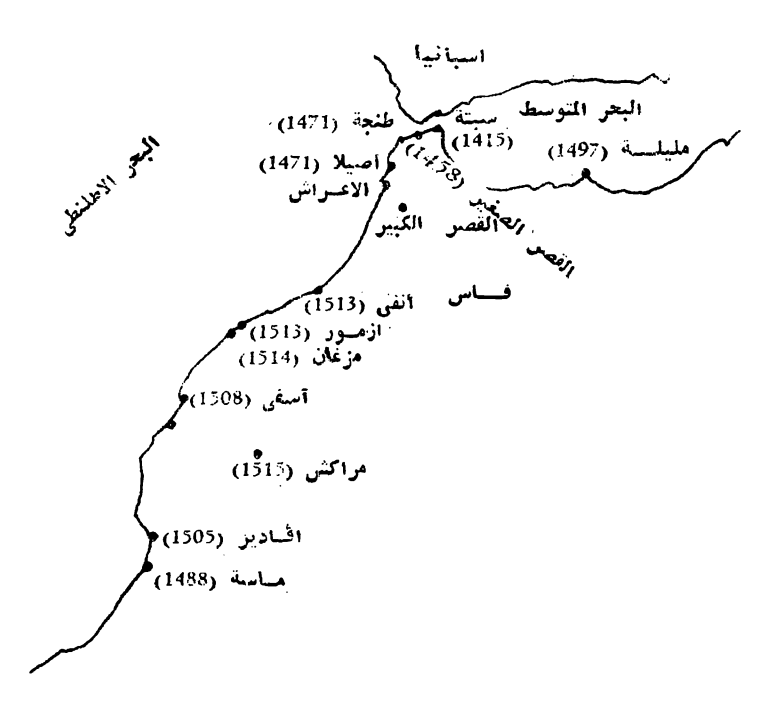
ولم ينفك البرتغاليون يواصلون زحفهم بلا انقطاع رغم ما اظهرته الزوايا من حماس في مقاومة الكفار واعترف لهم القشتاليون بمقتضى اتفاقية أبرمت سنة 1479 بحقهم المطلق على ساحل افريقيا المواجه للجزر الخضراء (Iles Canaries) بما فيه مملكة فاس كما مكنوهم من احتكار التجارة . ورغم فشلهم الذريع في محاولة الاستيلاء على جزيرة لكوس (Iles Loukkos) حيث أزمعوا على تأسيس قلعة قراسيوزا (Graciosa) (1489) فانهم تمكنوا من تحصين مراكزهم الأربعة بسبتة والقصر الصغير وطنجة وآصيلا .

وكان الاسبان رغم تعهداتهم السابقة يطمعون إلى احتلال بعض المراكز في أرض المغرب الأقصى منذ ان تتوجت حرب الاسترداد باستيلائهم على غرناطة (1492) .

وكان الملوك الكاثوليك يبعثون بالمسافرين الموالين لهم لدراسة سواحل المغرب ، واستهوتهم مليلة فاقنعوا البرتغاليين الذين خصتهم المعاهدات بكامل مملكة فاس بالتخلي عنها لفائدتهم (1494) ولم تمر على ذلك ثلاث سنوات حتى احتلها دوق مدينة شذونة (Sidonia) من غير عناد مستعينا بالاسطول المخصص لسفرة كريستوف كولومب الثانية (1497) ومنها تتبع الاسبان في قلق تفاقم الصراع بين بني وطاس والأشراف.

وزاد الوضع تأزما في عهد خليفتي محمّد الشيخ وهما محمّد البرتقالي (1455 — 1524) وأبو العباس أحمد (1524 — 1549) على أن دون مانوال سيد فاسكودي قاما (Vasco de gama) وأبو كركه (Alburquerque) المنشغل خاصة بالمنافذ الاسيوية تدخل في المغرب الأقصى ضد مملكة مراكش فأقام بها وكالات ثمّ احتل آسفي (1508) وأزمّور (1513) ولمّا هلك كان البرتغاليون قد تمكنوا من ساحل المغرب الأقصى الأطلنطي إلى مضيق جبل طارق (1520) وكان لهذا الساحل أهمية اقتصادية بالنسبة اليهم اذ منه يستطيعون شراء القموح اللازمة لوطنهم الأم وابتياع الجياد وملاحف الصوف يبادلونها في إفريقيا السوداء بالذهب والعبيد . لذا فانهم لم يقنعوا بحصونهم على السواحل بل كان لهم في عدد من المدن داخل البلاد وخاصة فاس وكلاء يتعهدونهم ويقومون في الآن نفسه مقام القناصل

والأعوان التجاريين وقد احتفظ جزء من مراسلة أحد هؤلاء الوكلاء بفاس : وفيها يتجلى فرط انشغاله بشراء الحبوب (Sources inédites de l'Histoire du Maroc. Portugal Tome 3) (مصادر لم تنشر من تاريخ المغرب الأقصى ، البرتغال ج 3) .



شكل 23 : ـ البرتغاليون في المغرب الاقصى .

وهكذا فان المغرب الأقصى لم يكن من وجهة النظر البرتغالية غاية في حد ذاته بل جزءا من الامبراطورية الاقتصادية الممتدّة الاطراف التي كان البرتغال يتكالب على تكوينها بسواحل البحر الاطلنطي والمحيط الهندي الأمر الذي يعلل زهد البرتغاليين في احتلال المغرب الأقصى وتفضيلهم نظاما شبيها بنظام الحماية العصري ، فكان الجند يعسكرون في الحصون تحميهم الأسوار والخنادق دون أن تنام لهم عين . وكانت الابراج العالية أو الناتئة تسمح بمراقبة الارياف وكانت طلقات المدافع تنبّه البستانيين والصيّادين برا وبحرا إلى خطر المغاربة ، كما كانت تنبّه جيش الاحتلال بطنجة إلى وجوب نجدة حامية آصيلا فإذا لم تكن الريح

مؤاتيـة يتولى قارب نقـل الأخبار من ميناء إلى آخر . وكـانوا يسألون الأسرى عن نوايا العدو . وكـان ضابط الحاميّة هو الذي يقـود الغزوات ويستخلص خمس الغنـائم ويقتسم البقية بين جنده . وقل ان توغّلت الحملات المنطلقة من آصيلا أو طنجـة او سبتـة إلى أبعـد من ثـلاثيـن كيلوميتر داخل الأرياف أما ضباط مراكز الجنوب فمجالهـم أوسع . لقد أخضعـوا معظم الحـوز خاصـة في مقاطعـة دكـالة واعتمـدوا على الأهـالي المعاهديـن لتموينهـم بالحبوب واعـداد الهجـوم على مراكش — واشتهر ابن تفوفت بـأنه أحسن معاون مغربـي لقائـد حاميـة آسفي . ففـي سنـة 1515 بلغت كـتيبة برتغاليـة مغربيـة أبواب مراكش على بعـد 150 كلم من آسفي . وكـانت بين المعركـة والأخرى فترات من الهدنة سرعان ما يقطعهـا أحـد الطرفيـن المتقاتلـين .

وانشغـل بنـو وطاس عن مقاومة النصارى بخطـر أشد وطأة عليهـم وهو ظهـور دولة أشراف الجنـوب المنافسة . ففي الوقت الذي كـان ولاة آسفي منصرفين فيـه إلى احتلال مراكش برز في السوس بنو سعـد او السعديون . فمنـذ اوائل القرن السادس عشر قاد شيـخ زاويتهـم الجهـاد المقدس ضد البرتغـالين الذين استقروا سنـة 1505 بـأكادير (Santa-Gruz du cap d'Aguer) ونـادى بـنفسـه سيـّدا على السـوس (1511) فجعـل أولاده مـن تـارودنـت قـاعـدة محـّصنـة ضد الـكـفـّار . وتحـالفـوا في أول الأمر مع سلطـان الجنـوب ثمّ تخلصوا منـه اغتيالا حسب الطريقـة المعهودة واتخذوا مراكش عاصمة لهم(1525) ومنذئذ بدأ الصراع بلا هوادة بين بني وطّاس وبنـي سعد . ولم يزل امراء السعدييـن يتفاقم أمرهم على حساب اعدائهـم . وتعذر على أحمـد الوّطاسي الظفر بالسلـم حتى مقابـل الاعتراف لهم بالسيادة على جهة مراكش فتحرك لهم وانهزم ثمّ اضطر إلى قبول قسمـة جديدة (1537) وتدعم نفـوذ السعديين بانتصاراتهـم العديـدة على الـكـّفار من ذلك استيلاؤهم على أكـادير (1541) وما تبعـه مـن جلاء البرتغاليين عن آسفي وأزمور . ورغم مقاومة أحد إخوة البرتقـالي ويدعى بوحسون ، تمكّن الشريف محمـّد المهدي من أخذ فاس وطرد الدولـة الوطّاسية منهـا (1549) . وعبثا حاول أبوحسون الاستعانة بأروبا . فقـد ردّه شارلـكان خائبـا ومنيـت محاولـة برتغالية بالفشل وانفرد الاتراك باعانته

اعانة جديّة ونصبوه سلطانا على فاس (1553) ولم يمض على دخولهم إفريقية واستيلائهم على تلمسان سوى وقت قصير وحملهم على ذلك خشيتهم من هجمات السعديين غير أن عودة بني وطّاس إلى الحكم لم تدم طويلا فكان هلاك بوحسّون المقتول غدرا في نزال مع محمّد المهدي ايذانا بانهيارهم النهائي وبسط نفوذ السعديين على كامل المغرب الأقصى (13 سبتمبر 1554) .

الخاتمة :

لم يكن للدولة الوطاسيّة في حد ذاتها قيمة كبرى اذ اقتصر ملوكها على اتباع سياسة بني مرين من دون ان يغيّروا فيها شيئا . لقد حاولوا خاصة في أول عهدهم مقاومة الغزاة البرتغاليين ولكنّهم سالموهم في بعض الأحيان لأنهم لم يجدوا بديلا عن ذلك والحقيقة انهم تولوا أمر بلاد في حالة تداع تام انحصرت حدودها في الجزء الشمالي من المغرب الأقصى من أمّ الربيع إلى طنجة وبلغ اطراد الفوضى حدّا جعلها تأنف الخضوع إلى سيّد لايأتيها بالجديد .

غير أن هذه الدولة لم تَشْغَل وحدها في النصف الثاني من القرن الخامس عشر والنصف الأول من القرن السادس عشر مسرح الاحداث بل برزت في المغرب الأقصى قوى أخرى إلى جانبها مالبثت ان انقلبت عليها . ولئن ظهر عجز الحكومة عن مقاومة الهيمنة البرتغالية مقاومة ناجعة فان الجماهير المغربية ما كانت لترضى بسيطرة الكفار فقد كانت تحركها مشاعر معقدة تتنازعها في آن واحد العاطفة الدينية المكلومة وكراهية الأجنبي فتحملها على الوقوف في وجه الدخيل حيثما ظهر : وكان ذلك اولا في الشمال قرب سبتة وطنجة ثم في سهل السوس وحتى واحات درعة عندما أسس البرتغاليون أكادير .

واصطبغ رد الفعل الغريزي للشعب المغربي بصبغة دينية وفقا لطبيعة الاشياء . فالتف حول الطرق والأولياء والاشراف مريدون غايتهم تعلّم الدين والدفاع عنه وانتشرت هذه القوى الخفيّة قرابة القرن بخطوات جزئية غير منتظمة . وتمكّن الشرفة السعديون في آخر الأمر من جمع

كلمة المغرب الأقصى حولهـم إلى حين. وإن هذا المخاض السياسي والديني وما انجـر عنـه من نتائـج آثارها باقيـة إلى اليوم يعتبر الحدث البارز في عهـد بنـي وطاس وهو الذي يكسبـه أهميـة كبرى .

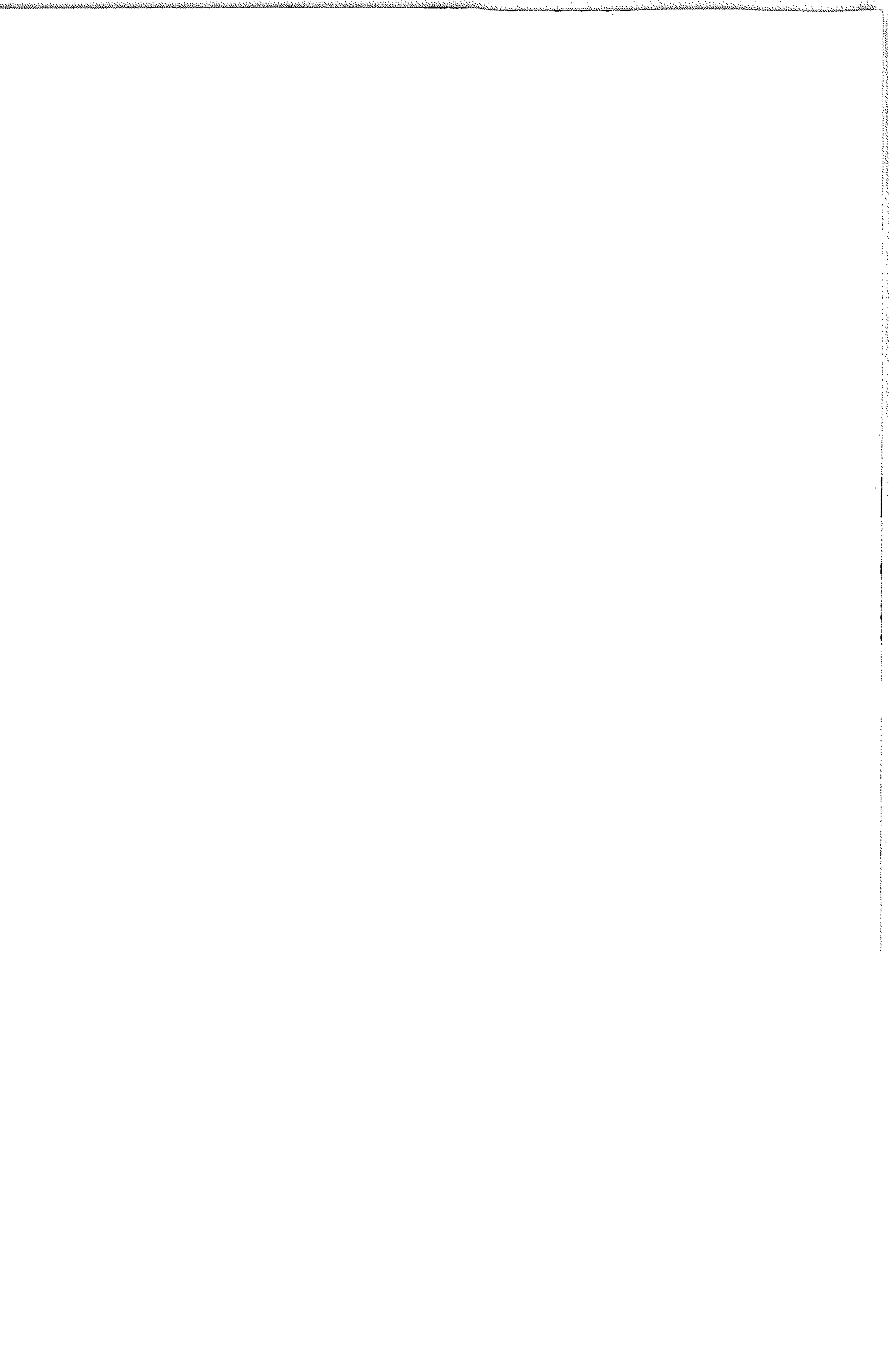
الباب الخامس

المملكة الشريفية

(1553 ـ 1830)

1 ـ الدولة السعدية

2 ـ الدولة العلوية



I ــ الدولة السعدية

تاريخ الدولة الشّريفيّة :

إن الوثائق المغربيّة الضرورية لدراسة تاريخ الدولتين السعدية والعلوية تكاد تكون مفقودة . لذا وجب الالتجاء إلى وثائق النصارى وكتب التاريخ العربية ، وان ما اجراه المقدم هـ . د . ي . كاستر (H. De Castries) من تنقيب في المكتبات وخزائن الوثائق الاوروبيّة مكّن من اعداد تأليف عظيم سمّاه المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب الأقصى (Les sources inédites de l'histoire du Maroc) وهو عبارة عن عشرين جزءاً ضخما مشحونة بالوثائق تمدّ المؤرخين بالنصوص الاساسية من المعاهدات السرية ومراسلات السفراء او التجار ، والمذكّرات ، وعقود الاستئجار ، وشركات المتاجرة ، وأخبار الرحالة التي سبق نشرها ولكنّها أصبحت نادرة أو مفقودة ، وأضاف دي كاستر إلى كل هذا مقدمات نقدية وتعاليق ثمينة . وإن هذا العمل العظيم الذي واصلهُ ب. سنيفال (P. de Cenival) وعهد به بعد وفاته إلى ر. ريكار (R. Ricard) يجدد معلوماتنا حول المغرب الأقصى في العهد الشريفي .

وإن الذي يزيد في قيمة المصادر الأوروبيّة ما يُحيط بكتب التاريخ المغربية من ريبة ذلك ان المغرب الأقصى لم يعرف حتى القرن الخامس عشر الاّ نحاة مغّرقين في التفاصيل او فُقَهَاء متحمسّين . وانجر عن التفاف المغرب الأقصى حول نفسه للصمود امام الاعتداء الأجنبي بعث تاريخ قومي . وقد بيّن ليفي بروفانصال (Levy Provencal) في كتابه المعتبر « مؤرخو الشرفة » كيف يجب ان نقدر هذا العمل التاريخي حق

قدره . وإن منهجه ينحصر في رواية أخبار متقطعة من دون أولوية بينها ولا أفكار عامة تندرج ضمنها بل هي مجرّد مديح أوهجاء لايخلو من شبهة ثمّ انها لم تبرأ في مستوى أرفع من شائبة الانتحال . اذ كان المؤرخون يُعْنَوْنَ بالاشخاص قبل الاحداث ويقصرون عنايتهم على التراجم الرسمية ولايتجاوز اهتمامهم الملك وبلاطه وعاصمته . فلا شيء في تآليفهم يترجم عن روح تاريخ المغرب الأقصى منذ القرن السادس عشر وخاصة الصراع القائم بين السلطة المركزية ورجال الدين .

واشتهر في الدولة السعدية مؤرخان كبيران (1549 — 1621) هما الفشتالي والافراني . فالأول كان كاتب دولة صاحب ديوان الرسائل ، وشاعرا مجازا ومؤرخا للمنصور وقد ضاعت تآليفه ، أما الثاني المتوفى حوالي أواسط القرن الثامن عشر فقد مجدّ الدولة المنهارة نكالة في السلطان مولاي اسماعيل ويعتبر كتابه في تاريخ الدولة السعدية بالمغرب الأقصى (نزهة الهادي) أحسن مصدر مغربي إلى اليوم ، ويمتاز من بين المؤرخين العلويين الزياني (1734 — 1833) وهو بَرْبَرِي أصيل ورجل سياسة مرموق حفلَتْ حياته بنعم العز ومرارة النكبات ومتعدد السفارات والمهام واستطاع كتابة عدّة تآليف منها تاريخ عام من بدء الخليقة وتاريخ الدولة العلوية انتحل منه من بعده الشيء الكثير ونحن مدينون له فيما يخص الدولة السعدية بفصل بالغ الأهمية نشر منه ليفي برو فنصال جزءا فقط باللغة العربيّة في كتابه منتخبات من المؤرخين العرب بالمغرب الأقصى وجمع النّاصري في القرن التاسع عشر وهو موظف من المخزن تاريخا عاما لا طرافةَ فيه (كتاب الاستقصاء) غير أنه لايخلو من الفائدة بالنسبة للفترة المعاصرة كما أعدّ بالاعتماد على منشورات سابقة كنشا لأولياء فاس (سلوة الأنفاس) .

وإلى جانب هذه المؤلفات التاريخية البحتة زخر الأدب المغربي في القرن السادس عشر بتراجم مشاهير الرّجال من مستويات متعددة من بين مختلف طبقات رجالات الدين واحتوى على الرحلات الممزوجة بتراجم محلّية . وتسمح هذه أو تلك من استقاء بعض المعطيات على قلّتها حول بحر الحياة الطُرُقية الطامي .

أصـل السّعـديـيـن :

يبدو من المفيد التّوسع في الحديث عن نشأة الدولة السعديـة إذ اكـتفينا بالخطوط العامة عند الإشارة إلى انحطاط بني وطاس ويظهـر انهـم من أصـل عربـي بلا منازع ولـكنّ شكوكـا حامت حول سلالتهـم الشريفيـة على الأقل في فترة انحطاطهـم ، حيث شاع الخبر بأنهـم لاينحدرون من الرسول بل من مرضعتـه فقـط المنحدرة من قبيلـة بنـي سعد ومنـه اسم السعديين الذي أسند اليهـم منذ أوائـل القرن السابـع عشر وهو لايخلـو من الميز اذ يؤكد عدم انتسابهم إلى الأشراف ، ومهما يـكن فانهـم اعتبروا بالتأكيد من سلالة الرسول عندما تألق نجـمـهـم وهذا هو المهم ، وكـانوا أتوا من الجزيرة العربيـة حوالي القرن الثاني عشر قبيل مجيء بني أعمامهـم الشرفة العلـوييـن على ما يظهـر وانتهـى بهـم المطاف بعـا تقلبات وظروف الله أعلم بهـا إلى واحات درعة الوسطى على مقربة من بلدة زاقورة الحاليـة . فعاشوا طيلـة قرون حياة متواضعـة مغمـورة كـالتي يحياها صغار الأدباء الذين أكسبهـم نسبهـم بعض الاعتبار ، واستوطنـوا في فترة غير مضبوطة قد تـكون في النصف الثاني من القرن الخامس عشر على أغلـب الظن تيدسي سـوادي السـوس في الجنوب الغربـي مـن تارودانتْ وغير بعيـد منهـا حيث أسّسوا زاوية . وكـانت فترة انتشرت فيهـا الفوضى رغم جهـود بني وطّاس لتوطيد حكمهـم ، فقـد كـاد جنوب المغرب الأقصى أن يفلت من قبضتهـم ! ولم يعد أمراء هـنْتاتة الحاكمـون بمراكش قادرين على فرض طاعتهم فيمـا وراء الأطلس ، بحيث أصبـح سهـل السوس والجهـة المواجهـة للأطلس وواحات درعة تتمتـع في الـواقع باستقلالهـا ، غير أنّ تفاقم امر البرتغاليين أقضّ مضاجع السكّان فدفعتهـم تقواهم إلى حمل السـلاح في وجه الـكفّار وكـانوا يبحثون من حيث لايشعـرون عـن زعمـاء دينيين يقـودونهـم في جهادهم المقدس ، فتحمـل السعديون هذه الأمانة وأول من عيّن قائدا عسكريا عليهم سنة 1511 للقيـام بـالـكفاح ضد قلعة فنتي البرتـغـاليـّة بأكادير المؤسسة سنة 1505 هو محمـّد ابن عبد الرّحمان المنتمي إلى والي الجهة عبد الله بن مبارك أصيل البـنـي (BANI) ومريد الجزولي ، ولئن لم يبلغ قصده هذه المرّة فقد بسط نفوذه على السّفح الشمـالي من الأطلس وتوفي بأفوغـال (AFOUGHAL) قرب

شيشاوى حيث دفن إلى جانب المتصوف الجزولي ، وترك بعده ابنيه أحمد الاعرج ومحمّد الاصغر الملقب بالامغر (قائد حربي) .

غزو جنوب المغرب الأقصى :

كان أحمد الأعرج هو الذي أوصى به أبوه خليفة له فتقلد السلطة ولكنه اسند لأخيه محمّد مشمولات كبيرة . وكان يقف سدًّا في وجهيهما يحيى أوتفوفت صنيعة البرتغاليين الذي اغتيل سنة 1518 فوسعا رقعة نفوذهما شيئا فشيئا حتى بلغا مراكش حيث لم يستقرا الاّ سنة 1525 بعد ان أمنا جانب الوطّاسي حاكم فاس بالاعلان عن ولائهما له .

وكان لابد من الصراع بين مملكتي فاس و مراكش رغم هذا الموقف الذي جمع بين الاعتدال والحذر وكان أحمد الوطاسي هو البادي سنة 1528 فأوشك أن يستولى على مراكش ولكنه لم يتمكّن من مواصلة جهوده بسبب قيام ثورة في أعقابه فاضطر إلى التفاوض بعد معركة غير حاسمة بتادلا وكانت مجرد هدنة ، وذلك ان أحمد الأعرج القوي بعلاقاته مع الاوْلياء والصالحين كسب عطف عدد عديد من مشايخ الطرق والزوايا . فكان بذلك يضيّق الخناق على الملك الوطاسي شيئا فشيئا ، غير أنه لم يتسرع في الأمر ربّما بحكم ما جبل عليه من جد وكذلك خاصة لئلا يظهر في مظهر المعتدي الظالم . واعتقد سنة 1537 ان الفرصة سانحة فتحرك نحو فاس ولكن عددا من الاولياء توسّطوا بين الطّرفين فاضطر إلى التفاوض من جديد .

وإن الذي يبرر وجود السعديين هو الجهاد المقدس فهاجموا قلعة أقادير البرتغالية واستحوذوا عليها سنة 1541 ، وأجبروا البرتغاليين على التخلي كذلك عن آسفي وأزمّور ولم يتمكنّوا في الحين من استغلال هذا النجاح الباهر الذي زاد في هيبتهم في نظر المغاربة إذ دَبّ الخلاف بينهم فما كادوا يستولون على أقادير حتى تصادم انصار الاعْرَج وأنصار محمّد الذي استعاض عن لقبه البربري الامغر بلقب عربي هو الشّيخ وانهزم أنصار أحمد الأعْرج فانسحب إلى تافيلالتْ وانفرد محمّد الشيخ بالحكم .

الانتصار بفاس :

وما ان أنس السعدي من نفسه القوة حتى بادر بالهجوم : فأسر سنة 1545 على ضفاف وادي العبيد السلطان أحمد . وكان بوحسون تقلد في ذلك الوقت زمام الأمور بفاس محاولا استمالة أولياء الجهة وكان بالخصوص ينوه بسليمان القانوني (Soliman le Magnifique) الذي سرعان ما أرسل اليه سفيرا بمراكش يدعوه إلى قراءة خطبة الجمعة باسم خليفة القسطنطينية فرفض محمّد الشّيخ وبذلك ساءت العلاقات بين الاتراك والسعديين لمدّة طويلة . وتحرك بنو سعد مرّة أخرى سنة 1548 ، وكانت فاس المحاصرة مسرحا لتنافس طريقتين : الطريقة الشاذلية الموالية للسعديين والطّريقة القادرية الموالية لبني وطّاس وجماعتهم الاتراك . وبقي طلبة فاس المتكتلين حول التقي الذائع الصيت الفقيه عبد الواحد الوانشريسي على ولائهم للحكم القائم . وأمر محمّد الشيخ باغتيال الوانشريسي وتمكّن من أخذ فاس سنة 1549 ، وما لبث ان توجه بجيشه نحو تلمسان التي لم تقع بعد في أيدي الاتراك ولم يعد العدة لذلك فأخفق في مسعاه ثم تصدى إلى الحامية التركية بمستغانم خاصة وان المغرب الأقصى لم يخضعْ إليه باكمله في ذلك الوقت . ونجح بوحسّون في إشراك صالح الرائس باشا الجزائر والاسبان بوهران في خطته فتمكن على رأس جيش صغير متكوّن من المغاربة والاتراك من استرجاع فاس في الايام الاولى من سنة 1554 بعد ان هزم محمّد الشيخ قرب تازة ثمّ على أبواب فاس ، غير ان الاتراك ساروا سيرة الغازين حتى أن بوحسرن اضطر إلى طردهم ووجد نفسه بدون عدّة ولا عدد أمام السّعدي الذي لم تفت النّكبات في ساعده ولئن استدرج أحمد الأعرج إلى تبنّي قضية بني وطاس فحمل السلاح ضد أخيه فإن محمد الشيخ آستأنف الهجوم ودخل فاس ثانية ووطد حكمه بها في سبتمبر 1554 وأصبح سيد المغرب الأقصى غير أنه كان معرضا لتهديد اتراك الجزائر وتحت رحمة البرتغال والاسبان رغم تقهقر البرتغاليين سنة 1541 .

ولم يستقر الشريف المتلقب بلقب الخلافة منذ أول استيلائه على فاس بهذه المدينة اذ لم ترتح نفسه إليها ولم ينس الاستقبال الحار الذي خصّتْ به بوحسّون سنة 1554 ، انها كانت بالنّسبة لصحراوي مثاله

خشن الطباع مغرقة في التمدن فقد روى الافراني كيف كان ابناء فاس الجدد يتلقون من خدم الملك السابق دروسا في السلوك ولربما كانوا اعتبروها عرضة لضربات الأتراك . غير أن رجل الجنوب هذا كان يؤثر بالخصوص مراكش ونخيلها ، فأصبحت هذه المدينة مرّة أخرى بعد ثلاثة قرون من تواريها عاصمة الدولة الجديدة .

ولم يحل كل ذلك دون عزم محمّد الشيخ على الاطاحة بالاتراك الذين كان يُضمر نحوهم حسبما يظهر حقدا شخصيا . ولم يتردد للوصول إلى غايته في التفاوض مع الكفار أعني الاسبان المستولين على وهران . وأُشعر الاتراك بالخطر المهدد فبادروا بمحاصرة وهران وحالوا دون كل تحرك ذي بال ، بل ان باشا الجزائر اوفد إلى السعدي عددا من الأتراك أوهموه بالفرار فائتمنهم وتمكنوا من اغتياله اثناء حملة قام بها في الاطلس كما تمكن نفر منهم من الرجوع إلى الجزائر بعد مغامرات عجيبة وحملوا إلى القسطنطينة رأس محمّد الشيخ (1557) .

وكان الرجل الذي أطرد بني وطاس وصمد في وجه الاتراك من طراز الملوك . فقد جمع بين الدهاء والحزم واعتبر نفسه سيّد المغرب الأقصى لاينازعه فيه منازع . وواجه المشكل العويص المتمثل في اعداد ميزانية نظامية للقيام بشؤون بلاطه وجيوشه . ولم تمكنه المبادلات التجارية مع الانقليز ولا احتكار الصناعة من توفير موارد كافية . فاضطر إلى توظيف الخراج على سكان الجبال على غرار أهل البسائط ، فأثارت هذه السياسة الجبائية في وجهه الاولياء وتسببت له في الثورات ، فأخمد نارها بحزم وآقتحم الزوايا وأطرد الأولياء والمريدين وقتل المعاندين تقتيلا وهكذا لم يتردد هذا القائد الذي نشأ في كنف الحركة الطرقية ورفع إلى الحكم ليقوم بالجهاد المقدس في كبح جماح الاولياء عندما اصطدم بالاتراك بل إنه تحالف مع الاسبان عليهم .

المملكة السّعدية إلى تاريخ معركة الملوك الثلاثة (1557 — 1578) :

إن الذي يسّر مبايعة ابن محمّد الشيخ مولاي عبد الله الغالب بالله (1557 — 1579) التجاء ثلاثة من اخوته إلى الترك عند موت ابيهم ، بل إنّ اثنين منهم عبد الملك وأحمد بلغ بهما الترحال إلى القسطنطينية حيث دخلا في خدمة سليمان وخلافائه .

وسار الملك الجديد على سنة والده ، فواصل السعي إلى الاستعانة بالاسبان ضد الترك وذهب به الأمر إلى التخلّي عن ميناء باديس لفائدتهم (Vélez) سنة 1564 ، غير ان الكارثة التي حلّت بالكونت ألكوديت (Alcoudete) بمستغانم (1558) ثمّ ثورة المورسكوس (الاندّلسيون) باسبانيا (1668) حالتا دون القيام بأي عمل ذي بال وقد ساعد مولاي عبد الله في الميدان الاقتصادي الانقليز على تنمية تجارتهم في سواحل المغرب الأقصى . بينما حاول سنة 1562 طرد البرتغاليين من مزغان (البريجة ثمّ الجديدة) ولكن بدون جدوى .

وقاوم مثل والده الأولياء والطرق الذين كانوا يتحملون عن مضض سلطانه ويتضايقون ممّا كان يُظْهره منْ مرونة ازاء النّصارى .

ولئن أمكن له القضاء على القادرية والشراقة وهم من أصل جزائري فانه اضطر إلى أن يقرأ حسابا لعدد من عائلات الاولياء الموجودة بالمغرب الأقصى الاوسط والجنوبي ، وأخيرا اغتنم فرصة الهدوء النسبي الذي كان سائدا حينذاك فاقدم على تجميل عاصمته التي لم يجد محمّد الشّيخ مُتّسَعا من الوقت ليهتمّ بها . ومات حتف انفه سنة 1574 .

وصادف أنْ كانت هذه السنة هي التي ساهم فيها أخواهُ المنفيان بالقسطنطينية في استْيلاء الاتراك على حلق الوادي وكانا اول من زف الخبر السعيد إلى السلطان مراد الثالث ، وبفضل ماوجدا من تأييد لدى القبطان باشا علج علي امكن لهما الحصول على الأموال والجند لغزو المغرب الأقصى بينما انتقلت الخلافة إلى ابن أخيهما محمّد المتوكل من دون صعوبة تذكر .

ووقعت الحملة في أوائل سنة 1576 ، ولمّا تخلى عن المتوكّل قسم من جيوشه انسحب إلى جنوب المغرب الأقصى حيث صَمّدَ بل وفق في الاستحواذ على مراكش ردحا من الزمن ثمّ انتهى به الأمر إلى اللواذ باسبانيا .

وكانت طرافة عبد الملك وهو سلطان المغرب الأقصى تتمثّل في أنه بقي طويلاً في خدمة الأجنبي وقد استفاد بالخصوص من رحلاته بالخارج فكان يتكلم الاسبانية والايطالية وكان صديقا شخصيا لأسبانيا .

ولكنّ إقامته بالامبراطورية العثمانية هي التي تركت فيه أبعد الأثر فقلد الاتراك في سلوكهم ولباسهم وكان يؤثر التكلم باللّغة التركيّة (هـ . تراس) . وما ان تقلّد زمام الأمور حتى اقام الدليل على براعته في التنظيم وحذقه للدبلوماسية فأسس جيشا منظما ودخل في مفاوضات مع اسبانيا وفرنسا وانقلترا وبهذا أمكن له أن يوعز لفيليب الثاني بالتخلي عن المتوكل .

واقعة الملوك الثلاثة (4 أوت 1578) :

إنّ ما اتسمت به السياسة البرتغالية من تأرجح في المواقف حمل حينذاك حكومة لشبونة إلى الاهتمام بالمغرب الأقصى . وبينما صرَف يوحنا الثالث (1521 — 1557) كل جهوده إلى استغلال البرازيل والتخلي عن سبْتَة وطنجة والقصر فان حفيده سبستيان (1557 — 1578) (Sebastien) الذي نشأ في بلاط ساده جوّ مفعم بالتّصوف وتأثر بمعلميه اليسوعيين جعلت منه الاقدارُ الفارس المغوار المندفع في سبيل العقيدة الكاثوليكيّة في صراعه مع البروتستانيين والمسلمين ، ولاشك كذلك ان رد الفعل ضد سياسة يوحنا الثالث الافريقية المنجرة عن تجربته المفلسة في بلاد الهند والبرازيل كان مشجعا لمساعي المتوكل .

وعزم سبَسْتِيان على غزو المغرب الأقصى رغم معارضة قواده ونصائح عَمّه فيلِبْ الثاني ملك اسبانيا وكذلك رغم احتراز الشّاعر الكبير كموِينس (Camoëns) الذي عرف مصاعب الحرب في إفريقيا وشارك فيها كجندي بسيط ورجع منها أعور ، وكان تحت امرته جيش يُنَاهز العشرين ألف رجل ، لم يتمرّن البَتّةَ على الحرب في إفريقيا ، ومتكوّن من وحدات مختلفة الاجناس برتغالية في أغلبها وفيها كذلك الاسبان والألمان والإيطاليون زيادة على وحدة صغيرة من المغاربة يقودهم المتوكل كما كانت خيالة هذا الجيش ضعيفة ومثقلة في نفس الوقت بست وثلاثين قطعة مدفعية وقافلة هامة من العربات غير متعودة على السير في المسالك المغربية ، ونزل القوم في طنجة من دون مقاومة تذكر وخاصة آصيلا وساروا الهوينا في اتجاه القصر الكبير فاعطوا بذلك مهلة إلى عبد الملك وأخيه فجمعا جيشا عظيما يقارب الخمسين الف رجل يعتمد أساسا على خيالته وتحدوه روح الجهاد المقدّس .

واستُدرج دون سيبستْيَان إلى طريق مسدودة بين نهر لوخوس (Loukkos) ووادي المخازن أحد روافده من دون ان ينتبه وهو الذي عرف بركُوبِ رأسه إلى أن علو الماء في هذا المكان يختلف كثيرًا باختلاف المدّ والجزْر وبادر بالهجوم فانتصر في أول الأمر انتصارا لم يَقْو على استغلاله لافْتقاره إلى الخيالة . وعند ذلك مسك الجيش المغربي المتفوق عددا وموقعا بزمام الأمر وتوغل في صفوف جيش النصارى الذي حاول اجتياز وادي المخازن هربا نحو العرائش غير ان النهر كان طاميا بمفعول المدّ فهلك أغلب النصارَى غرقا أو أخذوا أسرى . وغرق دون سيبستيان والمتوكل . أما عبد الملك فقد انهكه المرض منذ بدء المعركة ولكنه وجد في نفسه طاقةً عجيبة مكنته من دفع جيوشه إلى القتال ولم يلبث أن مات ظهرا قبل ان يتقور مصير المعركة . وأحيط نَبَأ موته بالكتمان الشديد حتى نهاية القتال وسُميتْ هذه المعركة بواقعة الملوك الثلاثة الذين لقوا فيها حتفهم الاّ أن المؤرخين العرب يَدْعُونها واقعة وادي المخازن لاّ غير .

أحمد المنصور (1578 — 1603) :

وكان من نتائج هذه المعركة ان استهدف البرتغال الذي اصيب في ملكه إلى مطامع الاسبان بينما شاع الحماس في المغرب الأقصى بدرجة مضاهية للتخوفات التي أثارتها تلك الحرب الصليبية ولئن أوْدى الداء بحياة عبد الملك فقد أجمع الناس على أخيه أحمد وبويع سلطانا بساحة الوغى ولقب بالمنصور ولم يفز فقط بشرف الانتصار في معركة ما كان أحد يحلم بنتيجتها الايجابية بل جمع كذلك غنائم وافرة جلبت له ولاء الجيش واسْتولى على مئات من الاسرى درّت عليه فديتهم سيلا من ذهب البرتغال . وهاب امراء النصارى هذا الملك الذي استطاع ان يسدد مثل هذه الضربات واعتبروا منذئذ المملكة الشريفية دولة عظمى بقرأ لها ألف حساب وارسلوا الى موانيها مراكبهم وعينوا سفراء لهم بمراكش وحاولوا الاقتراب من هذا العاهل الغني الذي بلغت ثروته حدا أصبح معه يلقب بالذهبي .

إن المنصور تَبَوّأ منزلة مُمتازة في مدارج الملك إذا نحن قارناه بالسلاطين السعديين الاحد عشرَ السابقين الذين واجهوا ثورات متواصلة

واغتيل منهم ثمانية – ولئن اضطر هذا الملك منذ اعتلائه العرش إلى قمع تمرد جنده أكثر من مرّة ، واحباط مؤامرات الزوايا وكبْح جماح القبائل البربرية فانه لم يكن جنديا فقط ، بل رجل دولة مثقفا ثقافة ممتازة لم تثنه شؤون الحكم ابدا عن الدرس ، وأكد معلمه المنجور أنه كان يتعلم من مخالطة تلميذه الملك هذا « العالم بين الخلفاء والخليفة بين العلماء » .

وقلّ أن عرف المغرب الأقصى ما عرفه في عهده من هدوء ورخاء فلقد اهتمّ السلطان الشريفي بالتجارة التي كانت نشيطة في عهده ونمى الأنشطة الصناعية الراجعة للدولة وأكرى لليهود والنصارى طواحين السكر وأشرف على حركة تجديد المعدات الحربية وملأ خزائنه بمداخيل القرصنة وزاد في الجباية التي كان يستخلصها بحزم . ولم تُعرّض الثورات التي واجهها سلطانه للخطر وكانت اشدّها ثورة البرانس بقيادة الناصر الدعي فكان نصيبها الفشل بسبب تخاذل الأسبان (1595 – 1596) .

وكان السلطان الشريفي في أول الأمر يُسير دواليب الحكم بنفسه في وضوح وثبات . واختار له أعضاء من بين كتابه نخص بالذكر منهم مؤرخه الفشتالي ويهوديًا بل ان تأثير مسلمة النصارى واليهود أثار حفيظة مشايخ الزوايا ، وزاد في نفوذ الطرق وأوغر الصدور نحو الأجنبي . غير انه لم يبد عداوة مكشوفة تجاه المخزن وأصحاب الطرق الذين تمكنوا من الاستعداد إلى أيام أكثر يسرا . أما الأعيان الذين كانوا في أول العهد تحت نفوذ السلطان فقد تخلصوا في آخر الأمر من أنواع الرقابة . فلم يكتفوا بالإثراء من تجارة العبيد بل استطاعوا استغلال ابناء ملتهم .

وكان للمنصور فلسفته السياسية ، منها اقتبس طريقته في حكم القبائل فكان يقول حسب ماذكره الافراني : « ان أهل المغرب بهم جنون لايمكن مداواته الاّ بشدهم إلى السلاسل والاغلال » وتطبيقا لمبادئه نظم حكم المغرب الأقصى أي المخزن حسب قواعد ظلت قائمة ، رغم التغييرات الطارئة ، إلى انتصاب الحماية الفرنسيّة .

وكانت الامبراطورية الشريفية متكونّة من قبائل يديرها بل يستغلها هيكل مركزي يسمّى المخزن بقبائله الحربيّة (قبائل الجيش) المعفاة

من الضرائب والمتمتعة بالاقطاعات وبوزرائـه وضبّاطه وولاّته وأصحاب الصنائع التابعيـن للقصـر . ومـن ذلك التـاريـخ أصبـح المغرب الأقصى منقسمـا إلى قسميـن المغرب الأقصى الرسمي (بـلاد المخزن) ويحتـوي على أراضي جمـاعة المسلمين الخاضعـة للاداء العقاري والتي تسكنهـا القبائـل العربيّة ويسيّر أمرها المخزن مباشرة من جهـة ومن جهـة أخرى المغرب الأقصى المستقـل (بـلاد السّيبة) الذي لم يتخلص فقط من نفـوذ السلطـان الفعلي بل كـان دائمـا على أهبـة للانقضاض على بلاد المخزن . غيـر انـه نتيجـة لحذر المنصور وهيبتـه وقـوّة جيشه فان هذه المنافسة بين جزْأي المغرب الأقصى كـانت في أغلـب الأحيان كـامنة في عهـده كـمون النار ولم ينـكشف أمرها ابـدا كمـا وقع ذلك فيمـا بعـد .

وحذا السلطان حذو أخيـه غالب ، فجمـل مراكش التي تـألق نجمها كعهـدها في دولة الموحدين ، وجلـب العملة لاقامة المبانـي من كـل البلدان وحتى من أوروبـا كمـا اعتمـد على ذوي الخبرة مـن الصّنـاع واشترى من إيطاليـا الرّخام بنفس ثقله من السّـكر . وبدأ غداة انتصاره في وادي المخازن ببناء قصر البديـع الذي تطلـب تشييده خمس عشرة سنة . وانتصب هذا القصر الذي هدّمـه فيما بعد بأكمله مولاي إسماعيل وسط قصبة بني سعد ، وحُفـرت فيـه لتجميلـه بـرك عـديـدة مبـلّطـة بتغشيـة خـزفيـة ويشـرف عليهـا أحواض وتحـوط بـهـا بسط من الازهار ودور على غاية من الزّينـة . ولقـد سمحت أبحاث تمت اخيرا باعطـاء صورة كـاملـة لهـذا القصر وللنّسب الموجودة بيـن كـافة اجزْائـه . وكـان قصـرا رائعـا من دون شك ونحـن على يقيـن من ان المنصور هو الذي بنى على أديـم الارض المقدسة التي تـأوي رفاتَ اجداده قرب مقام الولي الجزولي القبة الشرقيـة من ضـريـح بنـي سعـد حيث دفن أمه .

وكـان للساطان بلاطٌ عظيـم الشأن يستقبل فيه الاجانب في أبهـة كبيرة وكـان يلتقي فيـه مسلمة النصارى ذوو النفـوذ وأصحاب المـال من اليهـود والتجار النصارى والسفراء الاجانب ورجاله محـل ثقتـه من دعاة سياسيين وأصحاب أعمال وقوّاد أحيانـا . وكـانت الأعياد الـدينيـة تتـألق بمشـرق الأنوار وهي في مراسمها تشبه تماما ما يمـكن ان نشاهده اليوم في المغرب الأقصى . وكـان الحفـل الذي ينتظـم لقبـول سفراء أوروبـا وكرم المنصور

يأخذان بالألباب . ففي سنة 1579 دخل خوان دي مدينا (Juan de Medina) القصر في موكب بهيج وقد أدى له التحية مائة من الطبارين والمخازنية بطاقياتهم المزينة بالريش وكذلك مسلمة النصارى اللابسون لباس الأتراك وكان السلطان جالسا على حشايا من حرير في قاعة مفروشة بالدمقس والزرابي يقف دونه ثمانية « ڤياد » وبوابان زنجيان فاقتبله بأدب ونبل وقد بدا للعيان تمسكه بالمراسم .

فتح السودان :

اقتبس المنصور من الشرق مراسم الاقتبالات وأخذ عن الترك نظامهم العسكري بل أوكل اليهم تعليم جنده وهم مزيج من مسلمة النصارى والأندلسيين والعبيد والقبائلية واللاجئين من بلاد العثمانيين ؛ وكان الجيش الذي عهد اليه بغزو السودان يتركب من مسلمة النصارى والنصارى فحسب.

وتوطدت العلاقات بين المغرب الأقصى وبلاد السودان منذ أن أزاح المرابطون أمراء غانة الوثنيين عن عروشهم وأدخلوا إلى الاسلام الطبقات الحاكمة بالسودان العربي (القرن الحادي عشر)، وربط الملوك الماندين بالنيجر الأعلى مع سلاطين المغرب علاقات دبلوماسية قارة وتبادلوا معهم الهدايا ، ولما حل محلهم سنغاي النيجر الشرقي (اواخر القرن الخامس عشر) عمد المغرب الأقصى طيلة ما يقارب القرن إلى بسط هيمنته الفكرية والدينية على السودان وذلك بارسال العلماء ورجال الدين الصلحاء الدعاة . وتغلغلت الحضارة المغربية بمدن ولاته (Oualata) وتمبكتو ودينّي (Djenné) وكوكو » (Gao) ، ثمّ في عهد أسرة أسكيا أصحاب كوكو (1591 — 1493) .

ووضعت غزوة المنصور العنيفة للسودان حدا للتعامل السلمي معه وأقفرت بلاد الزنج واستبدت بالقوم عقلية الجري وراء المكاسب فطمع السلطان في مناجم الملح في تغازة (Teghazza) على بعد مائة وخمسين كلم شمال ملاحات تاودونه (Taadeni) الحالية التي منها كان تحصل امبراطور كوكو على الجانب الاوفر من ميزانيته — وبادر ابتداء من سنة 1581 بالاستحواذ على واحات قرارة وتوات (Garrara-Touat) ولعله ظفر سنة 1583 من سلطان برنو (Bornou) بأن يخطب في الجوامع باسمه ، وبعد

ذلك بسنوات قليلة حوالي عام 1586 طلب من اسحاق أسكيا ملك السودان ان يسلمه مثقال ذهب على كل حمل من الملح المستخرج من تغازة حتى يوفر لجيوش الاسلام ما كانت تحتاجه من امواله . وكان ذلك مجرد تعلة اذ كان المغرب الأقصى في ذلك الوقت في سلم مع أجواره ، وفي الواقع كان المنصور في حاجة إلى المال ولربما كان يرمي إلى تكوين خلافة مغربية في امكانها ان تنافس الخلافة العثمانية لو وضعت تحت سلطان أحد أحفاد النبي ، فرفض ملك السودان وعند ذلك قرر المنصور تخضيد شوكته فجمع مجلسه وعرض عليه الأمر ، فاصطدم بمعارضة شديدة خلافا لما كان يتوقع لأن حاشيته كانت تعتبر هذه الحملة جائرة ومليئة بالمخاطر ، غير أنه ألجم المعارضة وتمت الامور كما كان يتمنى .

فهل تمت حملة اولى ؟ ان نصا غريبا وغامضا من أخبار الدولة السعدية المجهولة المؤلف يجعلنا نفترض ذلك ، فقد يكون المنصور حسب هذه الوثيقة أرسل إلى السودان كتيبة من الجند المتمرد وأوعز إلى الدليل بالتواري عنهم في قلب الصحراء ولم ينج بأعجوبة الا رجل واحد ، فهل تكون تلك هي الرواية الرسمية أو شبه الرسمية لهزيمة نكراء نتيجة حملة مرتجلة ؟

ومهما يكن فقد عهد إلى أحد مسلمة النصارى جودر الاسباني سنة 1590 بقيادة كتيبة تعد ما يقارب الثلاثة آلاف رجل ، أغلبهم من مسلمة النصارى وتتمثل مهمتهم في الهجوم على السودان من الناحية الصحراوية .

وخرج جودر بجيشه في أواخر أكتوبر ووصل إلى النيجر بعد مسيرة 135 يوما ، هلك فيها نصف جيشه على الأقل وسرعان ما تغلبت بنادق الفتيلة وهلع الماشية التي تحصن وراءها جيش السونغو (Songoï) على العشرين ألف من الزنوج المسلحين بالرماح والسيوف والهراوات (12 مارس 1591) .

ولما لم يرق لجودر المقام في كوكو استقر بتنبكتو التي أصبحت من ذلك الوقت عاصمة الباشوات ، وكان بوده الرجوع إلى مراكش

بمائة الف من النقود الذهبية والف عبد كان الاسكيا عرضها على السلطان لولا أن المنصور اعتبر هذه العروض سبّة فعوّض الباشا بواحد آخر من مسلمة النصارى يدعى محمود زرقون الذي رأى من الحكمة ابقاء جودر عضدا له ومستشارا أولا .

وحاول زرقون بناء دولة السنغو من جديد ولكنه شارك بنفسه في النهب والتقتيل اللذين كانا من أساليب الحكم الوحيدة التي يحذقها هؤلاء اما خلفاؤه فقد نهكوا البلاد بسطوهم وأبادوا النخبة الفكرية والدينية التي كانوا يرهبون تأثيرها .

وترك المغرب الأقصى إبتداء من سنة 1612 السودان تحت رحمة جيش الاحتلال فتحوّل الجند إلى لصوص وأصبح الباشا لمنتخب قائد عصابة فتداول على السلطة من سنة 1612 إلى سنة 1660 واحد وعشرون باشا ومن سنة 1660 إلى سنة 1750 مائة وثمانية وعشرون باشا . ومنهم من لم تدم مدتهم أكثر من بضع ساعات اذ قتلهم منافسوهم . وتزوج الاسبان السودانيات واختلطوا شيئا فشيئا بالسكان ، غير أن أحفادهم الرماة كونوا ارستقراطية تظاهرت بالتفوّق إزاء الزنوج الصّرحاء . وهم لا يزالون إلى اليوم يتميزون بذكائهم ونزوعهم إلى الحكم وميلهم إلى الكفاح ويعرفون بثرواتهم ونظافة منازلهم — ومن بينهم النبلاء أحفاد روم الشرق والبرجوازيون المنحدرون من فاس والدهماء والرعاع من اللقطاء . وليس لهم من حرفة الا صناعة الاحذية . وهم بصدد الانصهار شيئا فشيئا في السكان السود .

وكانت الأرباح التي يدرها السودان على المنصور عظيمة جدا حسب أقوال من عاصره وأكد الافراني ان المنصور تلقى كمية من قراضة الذهب بلغت حدا « أصبح معه لايدفع جراية الموظفين الا بالذهب الابريز والدنانير الثقيلة الوزن » وقد يكون توفر للسلطان 1400 مطرقة لضرب السكة يوميا . وشهد لورانس مادوك الانقليزي وهو عون لشركة تجارية في مراكش ، قدوم ثلاثين بغلا محملة بالذهب وكانت الدوكات (Ducat) المراكشية مطلوبة من قبل التجار الانقليز الذين كانوا يحاولون تهريبها نظرا إلى عيارها المرتفع ، ورغم هذا فإنه ما كان

من صالح المنصور مغالطة المغاربة والاجانب حول أهمية موارده ، ذلك ان الغزاة لم يقدروا ابدا على استغلال مناجم الذهب السودانية مباشرة لبعدها بعدا كبيرا عن كوكو فكان الذهب الذي تلقاه السلطان في اول الأمر متأتيا من حاصل مصادرات أعيان تومبكتو ثمّ فيما بعد من عائدات المبادلات التي قام بها « اعوان الملك » المكلفون باستغلال سباخ تاودنة ومن المحتمل ألاّ تكون ثروات السودان التي أصبحت مضْربَ الامثال بلغت يوما ما بلغتْه الفدية البرتغالية التي صار المنصور يلقب من اجلها بالذهبي . وعلى كل فان النتيجة الحاصلة من غزو السنغو وتونبكتو هي اضمحلال تجارة السودان وانحطاط تونبكتو فكريا وتقلص ظل الاسلام في النيجر الأوسط الّذي لم ينته أمره إلاّ في القرن الثامن عشر تحت تأثير التوكولور (Toucouleur) .

وتلقى السلطان إلى جانب حمولات الذهب قوافل من العبيد ذُكورًا وَإناثا . ومن المحتمل ان يكون قد جند الزنوج وان سجله أوحى إلى مولاي اسماعيل بفكرة تكوين حرس أسوَد .

سياسة المنصور الخارجية :

ولئن اشتهر المغرب الأقصى بأنّه بلد له ثروات طائلة وأصبح لعاهله صيت بعيد فذلك يرجع أيضا إلى غزو السودان . فقد أقضّت عظمة السلطان الشريفي مضاجع سلاطين القسطنطينية الذين كانوا يرومون بَسْطَ نفوذهم الديني عليه . كما تضايق منه بايات الجزائر الذين يحلمون بهيمنة قراصنتهم على مواني المحيط الاطلنطي ، واستنجد المنصور بأوروبا لمواجهة اعدائه في الشرق ، غير انه لم يتخلص من تدخل الباي علج علي الاّ في آخر لحظة عندما أغدق على الباب العالي الهدايا (1581) ولم يتخلص من شبح هذا الخطر الدائم الاّ بموت علج علي (1587) وانقراض البايات (1588) بل إنّه كان بامكانه أن يبادر بالهجوم بدوره لو لم ينشغل عن ذلك بخلافات ابنائه .

ولم ترفض الدول المسيحية عروضه بل تنافس الانقليز والاسبان في كسب ودّه . ورغم ان الانقليز لم يهتموا بالمغرب الأقصى للمرة الاولى الاّ سنة 1551 فانهم اغتنموا هزيمة البرتغال لتنمية مبادلة أقمشتهم

بما يوجد في المغرب الأقصى من ذهب وسكر وجلد وبارود لتنظيم حركة تهريب البضائع .

غير ان المنافسة بين التجار الخواص وبين موكلي تجار المدينة من جهة وتأثير كبار الشخصيات اللندنيّة الذين لم يراعوا سوى مصلحتهم من جهة أخرى أحبطت المساعي المبذولة لتوحيد المصالح والمجهودات ضمن مؤسسة واحدة وهي الشركة البربرية (Barbary compagny) (1585) . ومنذئذ توقفت التجارة البربرية عن التوسع . الاّ ان العلاقات التجارية ساهمت في جلب انتباه الملكة اليزابيت إلى المغرب الأقصى لا من الوجهة الاقتصادية فحسب بل كذلك من الوجهة السياسية . فحاولت ان تتحالف مع سلاطين القسطنطينية ومراكش لمواجهة فيليب الثاني الذي أصبح سيد البرتغال . أمّا المنصور فقد كان يعتبر الاتراك من أشد أعدائه . ورغم ما يضمره المغرب الأقصى من حقد متوارث ازاء اسبانيا ممّا تجلى في الفرحة الشعبية العارمة التي عقبت ابادة الاسطول الاسباني (سنة 1588) فان المنصور لم يكن ليجهل ان بلاط فيليب يأوي أخا للمتوكل المتأهب دوما لتزعم أي تمرد يطيح بعرشه وكان ملك اسبانيا من جهته يخشى ان يستولى قراصنة المغرب الأقصى على قوافله الآتية من الهند ويتمكنوا من الاستحواذ على موارده المتواضعة المهددة دائما بالحجز فحاول ان يضمن حياد السلطان بالتخلي لفائدته عن آصيلا (1589) .

واستغل المنصور في علاقاته مع الاسبان والانقليز بمهارة فائقة ما كانوا يخشون من عواقب تدخله . فساوم اعانته من دون ان يوفي بشيء من وعوده وأخيرا رجحت الكفة لفائدة الانقليز عندما وضع فيليب الثاني خطة لاحتلال جزيرة أرقوين (Arguin) وسواحل الصحراء للاستحواذ على ذهب السودان ، بل ان السلطان فكر في غزو اسبانيا واقتسامها مع الانقليز لو لم تفضل الملكة اليزابيت صرف عنايتها إلى الهند . وذهبت هذه المشاريع السياسية الكبرى ادراج الرياح بموت الملكة العجوز وهلاك السلطان بسبب الطاعون (1603) .

أما فرنسا التي كانت تمزق شملها الحروب الدينية فان المنصور لم يتعامل معها الاّ في نطاق تجاري ضيّق واقتصر على اقتبال بعض

قناصلها . واخيرا فان هولاندا لم تخط حينذاك الا خطوات محتشمة في علاقاتها التجارية مع المغرب الأقصى .

انحطاط السّعديين :

ما ان قضى العاهل الشيخ نحبه حتى أخذ ابناؤه الثلاثة يتنازعون من أجل الحكم ، وهم مولاي زيدان الذي بويع بفاس وأبو فارس الذي نودي به سلطانا في مراكش ومحمّد الشيخ المأمون الذي كان أبوه أودعه السجن قبل وفاته وكان ميالا إلى العنف غير قادر على كبح جماح غرائزه وما كاد أبوه يسميه وليا للعهد سنة 1815 حتى عيل صبره لفرط ماتورط فيه من فضائح وما بادر به من تمرد ، فالقى عليه القبض سنة 1602 وهو يقاتل وزجّ به في السجن بمكناس . وظلوا طيلة سبع سنوات يتقاتلون اثنين ضد واحد يتحالف احدهم مع هذا او ذاك ، بالتداول ، هذا يستنجد بالاسبان والأخر بالاتراك ، واغتيل أبو فارس (1610) بخنجر عبد الله ابن أخيه المأمون ، وهو في عنفه شديد الشبه بأبيه .

وتمكّن المأمون من الاستيلاء على فاس بفضل معونة الاسبان الذين تسلموا مدينة الاعراش جزاء خدماتهم . واستبقى مولاي زيدان مراكش واقليمها بعناء كبير . وأصبح المغرب الأقصى منقسما إلى مملكتين كما كان في القرن الخامس عشر ، مملكة فاس ومملكة مراكش .

ولم يكن هذا التقسيم من شأنه ان يضمن السلم اذ ان الصراع بين ابناء المنصور أثار نار الفتن التي لم يستطع اخمادها رغم ما كان له من نفوذ فقد قام في كل مكان زعماء ينتسبون إلى رجال الدين وأخذوا يتناحرون وينشرون حولهم الموت والخراب . وشاركت القبائل العربية في الاضطرابات اما القبائل البربرية الصامدة في الجبال فقد نالها رجع من هذا التهريج فدخلت بدورها في حلبة الصراع وبلغت هذه الفترة قمة الفوضى في تاريخ المغرب الأقصى حتى إن مدنا قويّة الاركان معروفة بوداعتها مثل فاس أصبحت بدورها نهب الفتن وكفّ القوم بضعة أيام عن المناداة إلى الصلاة من أعلى صومعة الجامع الأكبر وعمّ الخراب احياء بأكملها فتحولت إلى حدائق .

وفي خضم هذه الاحداث لم يعد لسلاطين فاس ومراكش وزن يذكر، فكان مولاي زيدان (1603 ـ 1628) وهو ليس بأسوئهم حالا يجد عناء كبيرًا في الاحتفاظ بالحكم اذ أزيح عنه ثلاث مرات ثمّ استرجعه ولم يفلح ولو مرّة واحدة في استعادة مملكة فاس التي ظلت مستقلة عنه غير انّه وجد مهلة كافية لبناء القبة الغربيّة ، التي تعلو ضريح السعديين بمراكش وهي التي تثير اعجاب السواح بزينة تواريقها الفخمة ومقرنصات عقدها وتنميق قبورها . وهي رغم ذلك شاهدة على الانحطاط ، ذلك انّه يوجد كما لاحظ ذلك ج. مرسي بين عظمة مساجد الموحدين وجمال مدارس بني مرين في تناسقها وانتظامها وبين الافراط في التزويق الذي نشاهده في روضة الأمراء السعديين ما يوجد من فروق بين كنيسة برو (Brou) والباب الشمالي لكنيسة شارتر (Chartres) .

ومنذ سنة 1626 اصبحت فاس تخضع لقواد العصابات او يحكمها ردحا من الزمن احدى الفئات التي كانت تتسابق للانفراد بالحكم المطلق. اما في مراكش فقد صمد السعديون مدّة اطول حتى اغتيل العباس سنة 1659 وهو آخرهم .

الساعون إلى الحكم :

بينما كانت دولة السعديين في احتضار عمدت اسبانيا إلى احتلال بعض الموانى المغربيّة وكان همّها وضع حد لهجمات القراصنة . وقد سبق ان لاحظنا انها تسلمت مدينة العرائش سنة 1610 فشيدت قلعة في مصَبّ وادي سبو سنة 1614 لتشديد مراقبتها على مدينتي الرباط وسلا الواقعتين على ضفتي بو رقراق حيث كانت القرصنة نشيطة . وتعرف هذه القلعة اليوم بالمهدية وهي التي كان يسميها الاسبان (San Miguel de Vitramar) ويدعوها المغاربة بالمعمورة وعلى نحو ما وقع في القرن الماضي لمّا احتل البرتغال الاراضي المغربيّة ثارت ثائرة الشعب لاستحواذ النصارى على جزء من دار الاسلام وكانت تعلة اعتمدها بعض الزعماء من رجال الدين لخدمة مطامحهم .

وتجلى الخطر المسيحي بالخصوص في شمال المغرب وفيه كذلك ظهرت اعنف ردود الفعل الدينية التي زادها خطورة ضعف السعديين

وقصورهم . غير أنه ظهرت في جنوب البلاد كذلك تحركات طرقية لم تبلغ من الحدّة ما بلغته في شمال المغرب .

وأول هذه التحركات ما كان على يد أبي محلي وهو عالم بسيط من تافيلالت تخرج من مدرسة الصوفية واستقر في وادي سوراء (Saoura) حوالي سنة 1593 اشتهر بورعه وأوهم الناس بانه المهدي المنتظر . وتحرك لما تنازل السلطان عن الاعراش لفائدة الاسبان فزحف على سجلماسة واستولى عليها وهزم جيشا ارسله مولاي زيدان لنجدتها ثمّ اجتاز الأطلس واخذ مراكش غرة ، وعجز مولاي زيدان عن استرجاع عاصمته بنفسه فألب عليه وليا آخر أصيل الأطلس اسمه يَحْيَي بن عبدالله الحاحي الذي ما أن هجم على مراكش حتى قتل أبا المحلي وعلق رأسه على سور مراكش حيث بقي حسب ما يروى طيلة اثنتي عشرة سنة (1613) وزاد هذا النصر في قوة يحيى بن عبد الله واعتبر نفسه سيدا ومسك بزمام الارياف بيد من حديد حتى سنة 1627 . وعندئذ ظهر شخص ثالث هو أبو الحسن السملالي المعروف بأبي حسّون اصيل ماسة (Massat) وكان دوره قبل ذلك ثانويا فأسس في السوس والجهة المقابلة للاطلس امارة مستقلة لم تزل الاّ بعد انتصاب العلويين – كما يجب اخيرًا ان نلمح على سبيل التذكير إلى الاشراف العلويين في تافيلالت وسيأتي الحديث عنهم فيما بعد .

واضطر الامراء السعديون في فاس إلى مواجهة ثلاثة اعداء : جمهورية المورسكوس بالرباط وسلا والولي العيّاشي وأولياء الديلاء .

جمهورية بورقراق :

لقد طرد المورسكوس من مقاطعة غرناطة فقط – لا من اسبانيا أثر تمردهم سنة 1568 اذ لم يفقد فيليب الثاني ومستشاروه الأمل في ادماجهم. ولكن فيليب الثالث اعتبر ذلك مستحيلا بعد محاولات دامت اربعين سنة فأصدر ضدهم مجموعة من قرارات الطرد توالت من سنة 1609 إلى سنة 1614 ، وهكذا اضطر كل الذين لم يرضوا بالتنكر لعقيدتهم إلى الهجرة فانتشروا على كامل ساحل افريقيا الشمالية من تونس إلى الرباط وخاصة في شمال البلاد التونسية وشمال المغرب الأقصى حيث انقسموا إلى مجموعتين رئيسيتين استوطنتا الأولى تَطْوَان وانتصبت الثانية على ضفتي

مصب وادي بورقراف وفي سنة 1609 اقام أهل هرناشو (نسبة إلى مدينة صغيرة تقع بجهة إسترامادورا) في رباط الفتح وهي القلعة القديمة المشرفة على غربي هذا النهر . وفي سنة 1610 أقبل عدد من المهاجرين من جنوب الأندلس وحطوا رحالهم بالمدينة الصغيرة التي كانت تتقاوى على نفسها في ظل القلعة فعظم بذلك عمرانها . وكانت علاقاتهم في أول الأمر حسنة مع مولاي زيدان الذي كان باسطا نفوذه في تلك الجهة حتى ذلك التاريخ وكان يؤمل انه في الامكان ان يجند منهم الجند وأن يغنم ممّا أخذت تَدُرُّبه عليهم القرصنة . ذلك ان اهل هرناشو جهزوا حال وصولهم ، مراكب عديدة بفضل أموالهم الطائلة واختاروا لها عددا من مسلمة النصارى والمغامرين من كل الاجناس .

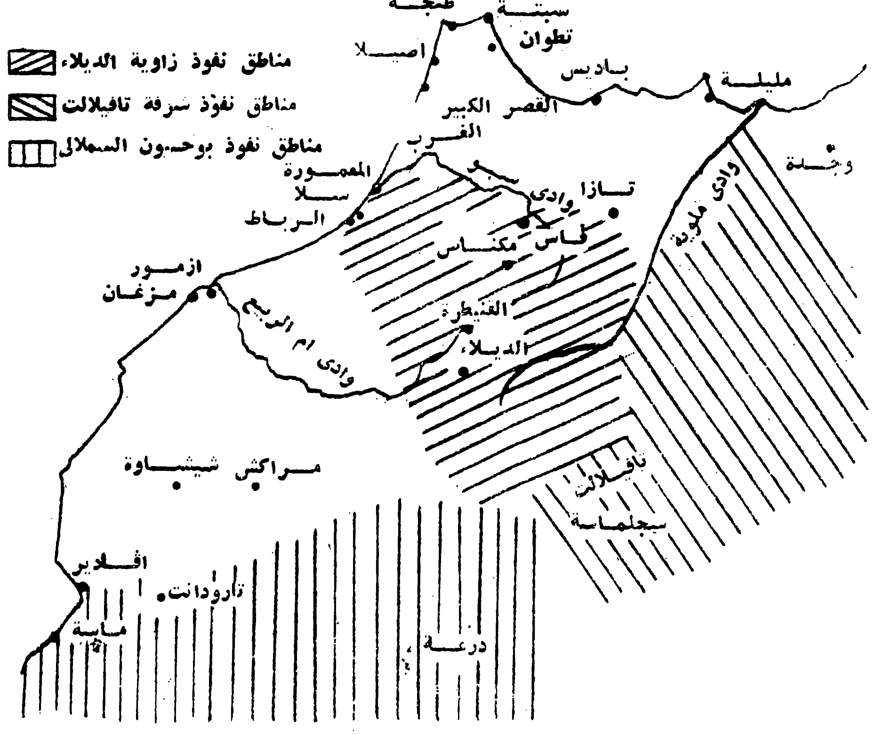
وسرعان ما أدرك المورسكوس ان السلطان يستغلهم فاعتبروا أنفسهم مستقلين ابتداء من سنة 1627 وشجعهم على ذلك الولي العياشي . لقد أسسوا جمهورية تحكمها الخاصة (Oligarchie) اتحدت مرّة مع سلا واقتصرت مرّة أخرى على التعامل مع المجموعتين اللتين تتكون منهما الرباط وكانت طورا متماسكة الصفوف وطورا آخر تتآكلها الفتن الداخلية العنيفة لأن الاندلسيين وأهل هرناشو لم يحالفهم الوئام دائما ، وآل الأمر إلى أن ضاق العياشي ذرعا باستقلالهم فأخذ يناوئهم من سنة 1637 إلى أن مات سنة 1641 وعندئذ بسط اولياء الديلاء نفوذهم على مصب بورقراف .

ولم يكن مهاجرو بورقراف ليطمحوا في الاستيلاء على المغرب الأقصى بل كانت تعتمل في نفوسهم مشاعر متضاربة للغاية . فقد كانوا من جهة يكرهون اسبانيا المسيحية التي أطردتهم من أرضهم ولكنهم كانوا من جهة أخرى غير مرتاحين إلى العيش في نظام اقتصادي وسياسي غريب عنهم فلم يقدروا على التلاؤم معه ، فكانوا يشعرون بالغربة ازاء هذا الصراع السياسي الذي كان يجري حولهم .

ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة للأولياء الذين لم يقرّ لهم قرار في تلك المنطقة .

أولـيـاء الشمـال :

أول من ظهـر منهـم هو محمـّد بن أحمـد الزيـّاني الملقب بالعيـاشي ، وكـان عالما من اتباع أحد متصوفـة سلا ، تزعم الجهـاد في سبيل الله في عهـد مولاي زيدان وهجـم على مزغان ، فجازاه السلطان على سعيـه وعينـه « قايد » أزّمور ولـكـنه سرعان ما فقدَ منزلتـه لدى سيّده ولاذَ بـالفـرار واتجـه إلى سهـول الغرب وأعانَ مدن بورقراق على فرض استقلالها وحمل لـواء الجهاد المقدس في سبيـل استرجاع المعمـورة والعرائش فالتف حولـه عدد كبير من أولياء الجهـة وحتى اولياء المغرب الاقصى ، وفي سنـة 1637 تخاصـم مع المورسكوس واتهمهم بان لهـم علاقات مريبـة مع الانقليـز والاسبان وآل أمره إلى أن استولى على الرباط وسلا سنة 1641 فـكان ذلك إيذانا بهلاكه اذ تمكن المورسكوس الذين لاذوا باولياء الـدلاء من اقناعهم بمقاتلتـه ، فانهـزم وقتـل سنة 1641 وكان اولياء الـدلاء وهم بربر صنهاجة



شكل 24 ـ : المغرب الاقصى فى اواسط القرن السابع عشر .

أسسوا في اواخر القرن السادس عشر زاوية تقع قرب قرية القنيطرة الحالية . ولقد عرفوا بكرمهم وعدلهم فاحتكمت اليهم القبائل الظاعنة بالاطلس الاوسط والملوية وعظم بذلك نفوذهم شيئاً فشيئاً لدى هذه الاقوام المشهورة بشدة بأسها في الحرب وسرعان ما أصبح لها بذلك جيش عتيد استعملوه للانتصار على محمد الشيخ الاشقر السعدي سنة 1640 عندما حاول الاطاحة بهم قبل ان تقوى شوكتهم كما هزموا الولي العياشي سنة 1641 . ففرضوا بذلك سيادتهم على كامل الجهة الشمالية للمغرب الأقصى ولكنهم اضطروا إلى التنافس مع الاشراف العلويين بتافيلالت الذين كانت لهم ايضا بعض النوايا التوسعية . وهكذا فان مصير الحكم بعد السعديين سيقرره في آخر الأمر الصراع بين بربر الجبال بقيادة الاولياء وبين سكان الواحات بزعامة الأشراف :

أوروبا والمغرب الأقصى :

ان هذه الاضطرابات لم يكن لها التأثير السلبي المتوقع على العلاقات القائمة منذ زمن طويل بين المغرب الأقصى وبعض الدول العظمى الاوروبية ، ذلك ان كل ما يخسره النصارى بسبب كره الطرف المقابل وتعصبه الديني يعوّضه لهم ما كانوا يكسبونه من جراء تناحر أعدائهم وتنافسهم . فهذا الولي الصالح العياشي الذي تقلد زمام الحكم بحافز الجهاد المقدس يرتاح شديد الارتياح في بعض الظروف إلى التفاوض مع الانقليز أو الهولنديين وإلى شراء الاسلحة منهم لمزيد النكاية بخصومه المغاربة، وهكذا فان العلاقات بين المغرب الأقصى الممزق شمله حينذاك وبين الاوروبيين مرت بحالات مختلفة حسب الظروف ومشيئة المعنيين بالامر طبعا .

وكانت اسبانيا حليفة السعديين عندما كان الاتراك خطرا عليهم ولمّا لم تعد الجزائر المحكومة من الباشوات مشغولة بالقرصنة منهوكة بالحزازات الداخلية مهددة من المغاربة ، استغنوا عن العون الاسباني — بل ان اسبانيا زادت في الطين بلة وأخذت تطرد المورسكوس وتناوىء الاسلام واحتلت الاعراش والمعمورة . ورغم ذلك فان المأمون اتجه إلى اسبانيا عندما حاول الاستحواذ على مملكة فاس سنة 1610 كما فكر مولاي زيدان في اللجوء اليها عندما اضطر إلى التخلي عن مراكش إلى أبي المحلي

والحقيقة أنّ اسبانيـا المنهمكة في سياستهـا الاوروبيّة لم تفـكر قط في غزو المغرب الأقصى ولا حتى في إيجاد مناطق نفـوذ اقتصادي او سياسي بهـا . وقـصارى ما كـانت تحرص عليـه هو حماية اسطولهـا بـالبحر الاطلنطي من غارات قراصنـة المغرب الأقصى . وابتداء من سنة 1664 لم تعد وحدها في مسرح الاحداث اذ استقل البرتغال وأعاد سلطته على قلعتي طنجـة ومزغان بينمـا احتفظت اسبانيـا بسبتة والعرائش والمعمـورة وفي سنـة 1661 أصبحت طنجـة تابعـة لانقلترا اذ كـانت ضمن مهر كـاترين البرتغاليـة عندما تزوجت بشارل الثاني الانقليزي .

ورغم ان فرنسا كـانت دولة عظمى كـاثوليكيـة وان وضعهـا ازاء المغرب الأقصى كان يختلف عن اسبانيا فإن دورها في حقيقة الأمر بقي باهتا جدا اذ هي لم تتعاط التجارة بل اكـتفت بفدية الاسرى بنجاح متفاوت . وكـان يمثلهـا دائمـا قناصل من مرسيليا وأطباء كـثيرا ما كـان يحتاج إلى خدماتهـم الامراء السعديون وكـذلك مغامرون مثل انتوان دي سان مدريـي (Antoine de Saint Madrier) المحكوم عليـه في فرنسا ولـكن الممثل لهـا في المغرب الأقصى وبانـي الموانى فيهـا او فليب كستلان الذي كـلفه مولاي زيدان بنقل البضائـع عبر النيجر فـأبـي الاّ أن يتقاضى أجره مباشرة بالاستحواذ على مكـتبة الشريف وامتعته . الاّ ان مركبه حجز من سوء حظه بأحد موانى اسبانيـا وعجز كمـا عجزت فرنسا معـه على ارجاع ما استولى عليـه من ارزاق الأمير — وكـان لهـذا الحادث المؤسف تأثيره السيء على العلاقات بيـن فرنسا والمغرب الأقصى الجنوبـي وذلك طيلـة سنـوات عديدة . غير ان اسحاق دي رزيني تمكّن في آخر الأمر من ابرام الصلح مع الشريف سنة 1631 ثمّ مع المورسكوس سنة 1635 وخلافا لمـا كـان عليـه الأمر بالنسبة لفرنسا واسبانيا فان انقلترا نشّطت الحركة التجارية مع المغرب الأقصى بصورة رسميّة بواسطة الشركة البربرية (Barbary compagny) وربمـا بصفة غير رسميّة خـاصة بواسطـة تجار لاعهـد لهم ولا ميثاق يـدعـون (Interlopers) الـذيـن كـانـوا يـبـيعـون العتـاد الحـربـي لـكل من يدفـع الثمـن المناسب سواء كـان الشاري من الثوار مثل السملالي او الملك الشرعي ، ولـم يـكن الانقليز ليتحرّجوا من الاعتبارات الشرعيـة طالمـا كـان همهـم الأول الجدوى التجارية لذلك كانوا يتفاوضون مع

جمهورية بورقراق في نفس الوقت الذي كانوا يرسلون فيه سفراءهم إلى مراكش وكانوا على علم تام بما يجري في المغرب الأقصى ، ولا تزال إلى اليوم أخبار رحالتهم وتقارير أعوانهم من خير الوثائق التي تعتمد لمعرفة هذه الفترة وكان الانقليز مثل الاسبان يتضايقون كثيرا من القرصنة فيردون الفعل بالمراوحة بين ضرب الحصار البري والتفاوض .

غير أن انقلترا لم تفز بقصب السبق في الميدان التجاري بل بزتها المقاطعات المتحدة — والسبب الرئيسي في ذلك ما عرف به التجار الهلنديون من حيوية ومهارة تجارية ، وكذلك أيضًا ما كان يشترك فيه الهلنديون مع المغاربة من إضمار الحقد لاسبانيا — لذلك لم تتردد حكومة المقاطعات المتحدة في تزويد المغرب الأقصى رسميا بالمراكب وتجهيزاتها والمدافع والبارود على أمل ان يستعمل كل ذلك ضدّ اسبانيا . وكانت عائلة بلاش اليهودية هي الواسطة في عقد كل هذه الصفقات . وكان الهولانديون على غرار الإنقليز لايتورعون في اختبار الاطراف المقابلة . فكانوا ينسجمون في نفس الوقت مع مولاي زيدان والمورسكوس وأولياء الدلاء ، ونالهم ما نال الانقليز من ويلات القرصنة فحاصروا مصب بور قراق سنة 1651 وكلفوا ترومب (Tromp) وريتر (Ruyter) بالقيام بتظاهرات بحرية سنة 1654 .

2 ـ الدولة العلوية

الأشراف الفيلاليون :

وصل (الشُّرَفاء) العلويون وهم أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب والسيدة فاطمة واصيلو ينبوع وهي القرية العربيّة الواقعة على ساحل البحر الأحمر إلى تافيلالت بعد ان مرت سنوات قليلة على انتصاب السعديين في وادي درعة . وقد حفت الأساطير بظروف مجيئهم الا ّ أنّه يحق لنا أن نتساءل مع « هـ. تراس » هل أنهم صاحبوا بعض البطون من عرب المعقل أم لا ؟ . ومهما يكن فانهم انتصبوا في واحة تافيلالت في اوائل القرن الثالث عشر وعاشوا طيلة قرون حياة عادية يتبرك بهم الناس لكن من دون ان يقوموا بدور سياسي .

وبينما كانت الفوضى تتآكل نفوذ السعديين وبعيد موت مولاي زيدان طمع في الاستحواذ على تافيلالت وليّان قويت شوكتهما وهما السملالي ومحمّد الحاج مقدم زاوية الدّلاء ، فحاول الفيلاليون الحفاظ على استقلالهم بأن جعلوا على رأسهم محمّد الشريف نقيب العلويين الشرفاء (1631) فتوفق بعد عناء إلى التخلص من خطر الوليين المتنافسين . ولكنه لم يتمكن من الحيلولة دون انتصاب محمّد الحاج قرب الجبل بوادي غريس وفي قصر السوق بوادي زيز ولا من اقحام حامية في قلب تافيلالت بالذات . ولمّا تملك اليأس محمّد الشريف حسبما يبدو عهد سكان الواحة بأمرهم إلى أحد ابنائه مولاي محمّد (1636) .

وكان مولاي محمّد قوي الشكيمة فبادر بطرد حامية الدلاء المنتصبة في تافيلالت (1638) ثمّ حاول ان يتوسع ، كما وجد مضايقة من أولاد الدلاء شمالا والسّملالي غربا . وكانت الصحراء سدا في وجهه

جنوبا فجرّب حظّه في اتجاه الشمال الشرقي وتحالف مع قبائل قير الأعلى المعروفة بشدّة بأسها واستحوذ على وجدة وجهة تلمسان ووصل به المطاف إلى الاغواط . فجنح الاتراك إلى التفاهم والتزم لهم مولاي محمّد بأن لايتجاوز جهة تفنة . وقد أصبحت له منطقة نفوذ شاسعة وأخذ يظهر في مظهر العظماء . واستنجد به سنة 1649 أهل فاس على اولاد الدلاء بعد ان ضاقوا بهم ذرعا . فخف لنجدتهم ولكنه لم يقدر على الصمود في المدينة لمواجهة رجوع محتمل لاولياء الدلاء وقفل راجعا إلى تافيلالت ولم يعاود الكرة .

مولاي الرشيد :

عندما هلك آخر السعديين كانت مملكة مراكش لم تعد حدودها تتجاوز المساحة الكائنة بين الأطلس الأعلى وأمّ الزبيع وكان يحكمها قائد الشبانات . وكان أبو حسون السملالي ينفرد بالنفوذ من غير منازع في السوس والجهة المواجهة للأطلس واحتفظ اولياء الدلاء بالسلطة المطلقة على مملكة فاس رغم محاولات طنجة والغرب والريف وحتى فاس الجديد للتخلص من قبضة سلطانهم . وكان الفيلاليون يظهرون في مظهر البيدق البسيط على رقعة المغرب الأقصى خاصة وان ملكهم لم يستطع ان يعوّل على أخيه مولاي الرشيد بل كان يعتبره منافسا له .

وأسرع مولاي الرشيد في الخروج من تافيلالت سنة 1659 والتجأ إلى خصوم الفيلاليين التقليديين . لكن أبى اولاد الدلاء وحاكم فاس ان يحتفظوا بين ظهرانيهم بهذا الصنف الذي من شأنه ان يفسد عليهم خطتهم . واضطر إلى قضاء مآربه في الجهة الشرقية المضطربة من المغرب الأقصى فحلّ اولا ببني كبدانة (بين المليلة ومصب لولبة) ثمّ ببني اسناسن حيث وجد سندا في خطواته الأولى من لدن الشيخ اللواتي والطريقة التي كان هذا الشيخ ولاشك أحد رجالها المرموقين . وعند ذلك تمكّن من القيام بعملية حازمة لاتزال ترددها الاسطورة وتقام ذكراها المشوهة بمناسبة الاحتفال السنوي بعيد سلطان الطلبة السنوي في فاس وتتمثل هذه العملية في اغتيال يهودي غني من قرية دار ابن مشعل (بجبل بني اسناسن) الذي ربّما يكون قد قام بدور هام في البلاد — وتمكن بفضل ما سطا عليه من ثروات اليهودي من بعث حزب وتهديد جيرانه — وتنسب الاسطورة إليه اغتيالات وغنائم

أخرى لاشك انهـا صدى للمغامرة الاولى . على انه من الثابت ان مولاي الرشيد ألحق في سهل أنـكاد (Angad) بعد ان انضمّ اليه سكـانه، الهزيمـة بأخيه فهلك هذا في ساحة الوغي سنة 1621 وبذلك أصبح المغامر يُعلل نفسه بالحكم . وشعرت فاس بالخطر غير ان مولاي الرشيد آثر قبل كل شيء ان يضمن لنفسه قاعدة مأمونة الخطر وملجأ في تافيلالت يلوذ به عند الاقتضاء .

ومن ثمّ قاد اول معركـة له ضد الشيـخ الاعرس صاحب الـريـف الذي كان أبى الاعتراف به والذي كان يخشى ان يفسد عليه خطته الهادفة إلى غزو فاس لما عرفـه فيـه من عداوة له . وبعـد ان فشل هـذا الشيـخ في مـعركـته ضد القبائـل المناوئة له وجه جهـوده نحو التجارة وخـص تجارا من الانقليز بمـكان في خليـج الخزامى . وسرعـان ما استعـد الفرنسيون للمشاركـة في التبادل التجاري مع الريف . وقد لاحظـوا بارتياح ان انقلترا غنمت ميناء طنجة بفضل زواج شارل الثاني بـكاترين البرتغاليـة ، بينمـا كـانت اسبانيـا طامعة في هذا الميناء (1661) ولم يعـره ما زاران أيـة قيمة قبل ذلك بثمانيـة عشر عاما . ولكـنهم سرعان ما أخذوا يتوجسون خيفة من مرامي انقلترا تجاه الاماكـن الاستراتيجية المنتشرة على ساحل الريف . وربمـا كـانت الجـولات الاستطـلاعية التي قـام بهـا بوفـور (Beaufort) ونيشار (Nuecher) في جزر الخزامى وزفارين ، ومصبّ الملوية مقدمة في نيّة كولبير لوجُود دائـم عرض السواحل المغربيّة وفي فترة لاحقة السواحل الجزائرية بجيجل .

وتحققت المشاريـع التي أخفـق فيهـا الوزير الفرنسي بفضـل جماعـة من التجار . فقـد أنشأت ثلةٌ من أصحاب رؤوس الأموال شركـة الخزامى يتزعمهـم ميشـال ورولانْ فريجـوس (Michel et Roland Fréjus) وهما من رجـال أعمال مرسيليا ثمّ مكـنهم الملك من امتياز تجاري ومن حق التفاوض مع السلط المحلية (1661) لـكن عندما نزل رولان فريجوس بسواحل الخزامى كـانت شوكـة شيـخ الاعرس قد كُسّرَتْ أثر هجمـة حاسمة قام بهـا مولاي الرشيـد (مارس 1666) وأحسن الشريف وفادة رولان فريجوس بتازة لأنّه كـان يتعذر عليـه التزود بالأسلحـة والبضائـع من الموانى الغربيـة .

وإن ما رواه هذا الرجل في شيء كـثير من الحماس والمبالغـة عن مهمته كشف بالخصوص عن قوة الرشيد. فبادرت الديبلـوماسيـة الفرنسية بمناوراتها

ضد الحضور الانقليزي بطنجة ، وعلى العكس من ذلك فقد خاب أمل القوم فيما كانوا ينتظرونه من النشاط التجاري ذلك ان رولان فريجوس تصرّف بغير لباقة باسم شركة المشرق المؤسسة في سنة 1670 والتي كانت الشكوك تحوم حولها بوصفها خلية للجوسسة فتضايق الشريف من سلوكه فشيد لفائدته برجا بالخزامى سرعان ما استولى عليه الاسبان وجعلوا منه حصنا من حصونهم (1673) وأهمل مولاي الرشيد العروض الفرنسية لأنّه كان بسط نفوذه في الاثناء على الموانى الغربية للمغرب الأقصى . ونذر نفسه لمقاومة الاحتلال الأجنبي . ولم يمض على هزيمة الشيخ الأعرابي وقت طويل حتى دخل فاس وبويع بها سلطانا (6 جوان 1666) وقد انتصر مؤسس الدولة الفيلالية لا بالاعتماد على الطرق بل بفضل تفوق جيوشه وإنّه واجه تأثير الأولياء باشعاع أشراف الادارسة الذين أصبحوا انصارا له . وزودوه بما كان يحتاج إليه المخزن من أعوان .

ولم يمتد نفوذه حينذاك الاّ إلى بلاد أنكاد وجهات تازة وتافيلالت والريف وفاس وتمكن بعد حملات مضنية من تخليص جهة الغرب وجهة طنجة من أحد أشداء القراصنة يدعى غيلان الذي كان يستمد العون من الاتراك وأحيانا من الانقليز فاضطر إلى اللجوء إلى مدينة الجزائر (1669) كما تمكن مولاي الرشيد من قهر جيش اولياء الدلاء وتدمير زاويتهم (1668) ثمّ استولى على مراكش حيث قتّل الشبانات تقتيلا (1669) وافتك أخيرا قلعة إيليغ (1670) فقضى بذلك لمدة تتجاوز القرن على سلطان اولياء السوس .

ووجد السلطان في سلا تنظيما محكما للقرصنة فلم يفكر في إزالته بل عمد إلى استغلاله لفائدته . ولم تثنه الهجومات البحرية التي قام بها جون ديستري (Jean DESTREES) وشاتورونو (Château Renaud) عن بلوغ غايته ولا كذلك حصار سلاً وقذفها بالمدافع ولا أسر بعض القراصنة كما لم تضطره المفاوضات إلى اطلاق سراح العبيد النصارى .

ورغم قصر مدته المشحونة بالمعارك فقد امكن له ان يشيد بعض المعالم ... وحملته اعتبارات استراتيجية على بناء جسر من الطابية فوق نهر سبو على بعد اربعة كيلو مترات من فاس أقيم على ثماني حنايا متفاوتة الارتفاع ويبلغ طوله 150 مترا كما حصن السلطان اسوار فاس

البالي وشيّد قصبة خميس (وتدعى اليوم قصبة شراردة) لحماية الشراقة في المغرب الأقصى وجعل منها قبائل الجيش وفي فاس ايضا التي يبدو أنّها كانت مقامه المفضّل بَنَى مدرسة الشراطين على أنقاض مدرسة قديمة بدعوى ان الطلبة دنسوها بمجونهم . ويلاحظ ان الفن المعماري والزينة اللذين اختصت بهما هذه المدرسة ابتعدا بها رغم جمالهما عن صفاء الفن المريني .

ولم يقم السلطان بمراكش الا لماما وذلك لقمع تمرد أحد أبناء أخيه عندما نزا به جواده في بساتين اقدال فألقى به على غُصن شجرة برتقال فتهشم رأسه ولم يتجاوز الثانية والاربعين من عمره (1672) .

مولاي إسماعيل :

قلّ أنْ حظي السلاطين بما حظيَ به مولاي اسماعيل لدى النصارى بعد ان خلف أخاه مولاي الرشيد ، وكان شديد المراس فمسك بمقاليد الحكم في المغرب الأقصى بيد من حديد وطالت ايام ملكه (1672 — 1727) على ان الفضل في عُلو المنزلة التي نالها لا يرجع إلى مرهف شعوره بما يقتضيه مقام الملك بل ان خبره ذاع ومجده علا بسبب بنائه قصر فرساي مغربي ومغامراته النسائية وكثرة ما أنجب هذا الفحل من اولاد من دون كلال وخاصة بسبب محاولاته التزوج من أميرة فرنسية وأصبح بكل ذلك شخصية اسطورية لاتزال طرافتها تفعل مفعولها في المؤرخين إلى اليوم .

ويمكن رسم ملامحه بسهولة لا بالاستناد إلى ما كتبه عنه مؤرخوه بل كذلك بالرجوع إلى شهادة عدد من الاوروبيين الذين اقاموا بمكناس مثل المسمى مووات (Mouette) الذي بقي في الاسر طيلة أحد عشر عاما (1670 — 1681) أو الذين زاروها إمّا لفدية الأسرى مثل الاب بوسنو (Busnot) سنة 1703 او للقيام بمهمة ديبلوماسية مثل الفرنسي بيدو دي سانت اولون (Pidou de Saint Olong) سنة 1793 . فقد بدا لـ « مووت » وهو في الخامسة والثلاثين من عمره « غير مفرط الطول لكن مع تمطّط في قامته » رغم مظهره البدين بسبب ثيابه وكان أكلف الوجه إلى بياض، مَدِيدَهُ، « جميل الملامح » طويل اللحية مُلسّنها وديع

النظرة . ولاحظ كذلك الأب « بوسنو » بعد ذلك بثلاث وعشرين سنة نحولة وجهه، وبياض لحيته المُلسّنة، وسواد بشرته مع وجود بياض قرب انفه كما لاحظ اتقادا في عينيه وقوة في صوته . وكان مولاي اسماعيل في شبابه يركض جواده ماسكا أحد ابنائه بيده اليمنى ومُشْرعًا رمحا بيده اليسرى . وكان عندما بلغ الستين يعلومتن جواده في قفزة واحدة .

وقد تحدث كل معاصريه عن عنفه وقوته وجشعه فيكفي ان يمنى بخيبة او أن يصطدم بمجرد معاكسة حتى يمتقع وجهه فيبدو كالوحش وكان مشهورا بغضباته الرهيبة فكان خدمه يقتربون منه بحذر كبير ، وقد وجده « بيدو دي سان أولان » يقطر دما بعد أن ذبح أحد ضحاياه وأكد السفير سانت أمان (St. Amand) انه لولا حضوره لقطع الشريف رأس العبد الذي لم يمكنّه من امتطاء جواده كما أكد الأب « بوسنو » انّه كان يجد في مثل هذا التقتيل ترفيها له وكان شغوفًا بجمع المال يغتصب اليهود ويبتزّ أرزاق رعاياه حتى الافلاس ولايتورع من اقتراف الجرائم لمصادرة ثروات النّاس . وكان من جهة أخرى لايعرف للتبذير بابا فكان « يعتني بنفسه بحدوّات الخيل ومساميرها والعقاقير والزيوت والعسل وغيرها من التوافه وبالتوابل الموجودة في مخازنه » ، ممّا حمل المسمّى « مووات » وهو أحد رعايا ملك لا وزن له ، على أن يقول : ان مثل هذا العمل « اولى بتاجر صغير منه بملك عظيم مثله » .

لقد كان لهذا السبع العظيم مزاج من نار ويمكن ان نقول في شأنه ما قالته العجوز لكانديد (candide) في سياق حديثها عن كل المغاربة : « ان الذي يجري في شرايينه ليس دما بل هو الزّاج » (Vitriol) وكان شديد الولع بالنساء . فعاشر عددا لايحصى منهن وكان له بدار المخزن خمسمائة جارية من كل لون وجهة وكلهن يغرقن في التجمل والفراغ في انتظار إرضاء شهوات سيدهن . فاذا تجاوزن الثلاثين من عمرهن أقصين الى الحريم القديم بفاس اوتافيلالت . وكانت زوجة السلطان زيدانة عظيمة البنية يميل لونها إلى السواد وذات حظوة كبيرة لدى السلطان الذي كان كذلك يميل ميلا شديدا إلى انقليزية شابة أسلمت . ولو كان في وسعه ان يضيف إلى هذه القائمة فرنسية لفعل . وكان مولاي إسماعيل فخورا بما ينجبه من اولاد حريصا على تقديم حصيلة

كل سنة من اطفاله المزدحمين في ابهاء القصر وقد نسب إليه ستمائة من الذكور وعدد من الاناث لايحصى . وكان هذا « المتوج » يُربّى بسجلماسة .

وكان مزاجه العنيف يحبب إليه خوض غمار الحروب حيث يبدي شجاعة جديرة بالاعجاب. ولم يقتصر على ذلك بل تجاوزه إلى ما هو أعلى وأعظم فكان حاد الذكاء حاضر الجواب دقيقه متأجج العاطفة الدينية إلى حد التبشير ، جموح الطاقة عزوفا عن الترف زاهدا في الموائد الفاخرة مرهف الشعور بمسؤوليته نحو استقلال بلاده وازدهارها الاقتصادي . تلك هي الملامح الكبرى لملك أين منه شخصية شارل الثاني ملك الاسبان أو جاك الثاني ملك الأنقليز اللذين عاصراه .

خضوع المغرب الأقصى :

اضطر السلطان الشريفي طبعا إلى توسيع ملكه بحد السيف وقضى في ذلك خمسة أعوام . فالى جانب الخصومات العائلية التي جعلت أخاه مولاي الحرّان يثور عليه في تافيلالت وحفيده أحمد بن محرز يناوئه في مراكش والسوس واجه السلطان هجمات غيلان وهو من القراصنة المقدامين ومناورات الاتراك الرامية إلى دعم خصومه .

ولمّا بويع ملكا لم يتجاوز نفوذه مدينة فاس التي كان اميرا عليها وكذلك الغرب والريف وجهة تازة فاضطر إلى افتكاك مراكش (4 جوان 1672) وإلى قمع تمرد بفاس والانتصار قرب القصر على غيلان الذي هلك في ظروف غامضة ثمّ التوجه بجيوشه إلى بلاد الجنوب والأطلس التي استجابت لنداء ابن محرز فشقت عصا الطاعة في وجهه . ودخل مراكش عنوة بعد حصار دام سنتين فخربها تخريبا (جوان 1677) فلم تفلت من قبضة السلطان منذ ذلك التاريخ وفقدت بذلك مكانتها كعاصمة . واستعمل ما بقي من معالمها لبناء قصور مكناس .

وليس معنى هذا ان الأمن قد استتبّ . فقد واصل محرز والحران طيلة اثنيْ عشر عاما بث الفوضى في السوس ولم يستقر الأمر للسلطان الشريفي (مارس 1687) الا بعد موتهما وسقوط تارودانت وقتل جميع سكانها . وكان عليه كذلك ان يثخن في البربر الذين تمردوا في تادلا

ومقاطعات الغرب بايعاز واحد من سلالة اولياء الدلاء يدعمه الاتراك . كما اضطر إلى التوغل في تافيلالت ونقل قبائل الشبانات العربيّة إلى جهة وجدة وتأديبها وغزو بني اسناسن الذين لم يرْتاحوا إلى مثل هذا الجوار والقضاء أخيراً على قبائل ملوية العليا بواسطة ثلاث كتائب وجهها الواحدة تلو الأخرى .

وهكذا دامت الحرب قرابة ربع قرن قبل ان يذعن المغرب الأقصى ويسْلُس قياده إلى السلطان .

جيش العبيد الأسود وجيش المجاهدين :

نظّم الشريف جيشا لايشك في ولائه وهو مكوّن من جند مُنتخب من بين زنوج السودان وذلك سعيا إلى مسك زمام الأمر في البلاد والتصدي إلى النصارى والاتراك وكان المنصور اتخذ جندا له من بين العبيد السود في جيشه النظامي الذي كان يضم خاصة اسرى من النصارى المعتقين ومسلمتهم من الأندلس أمّا الرشيد فقد اختلف مع ملك بنبرا (Bambara) صاحب سقو (Segou) لأنه احتضن علي بن حيدر أحد مناوئيه في السوس (أبو حسون ؟) ولم يفكر في جلب الجند من تنبكتو. بينما تمكن ابن حيدر من جمع آلاف من الزنوج في السودان للهجوم على ممالك السلطان . ولمّا بلغه نعي الرشيد سرحهم في السوس . فكوّن مولاي اسماعيل من بين جموعهم نواة حرسه الأسود . ولعله بحث فيما بعد عن احفاد جند المنصور السود الذين كشفت له عن وجودهم الوثائق الرسميّة .

ولم يبادر بإرسال هؤلاء المرسمين إلى القتال بل وجههم إلى مشرع الرمل (قرب السبوبين مكناس وسلا) ممّا أدى إلى تزايد نسلهم اذ كانت مهمتهم الاساسية الانجاب فكان صغار الزنج يُرَاضون على الجندية منذ نعومة أظافرهم . واذا بلغوا سنّ العاشرة أي سن البلوغ يساقون إلى السلطان . ولقد دام عرضهم عليه بصورة منتظمة ابتداء من سنة 1688 — 1689 — وكان أول ما يتلقونه تعلم مهنة ثمّ بعد سنتين يتحوّلون إلى بغّالة ثمّ بنائين . ويبدأ تلقينهم فنّ الحرب بعد أربع سنوات وذلك بالتمرن على الفروسية ثمّ يتوّج كل ذلك في السنة الاخيرة بالرماية

والتدرب على بندقيـة الفتيلـة (Mousquet) وفي هذه الاثنـاء توجه الزنجيات الشابات إلى اتقان الفنون المنزلية وتدريب الجميلات منهن على الموسيقى. وعندما يبلـغ أبناء الجند الخـامسة عشرة من عمرهم ينضمّون إلى الجيش ويتزوجون وتكون الجندية مـآل الذكور من اولادهم أمّا الاناث فيعددن إلى التزوج بالجند الاسود او إلى خدمة الامراء .

وفي انتظار ان يزود مشرع الرمل سنويا مولاي اسماعيـل بالجيوش فانـه ضاعف جيشه بجلـب الجند النظامي من تنبكـتو بالقيام بغزوات لسبـي العبيد والحرّاثين من القبائـل الصحراوية .

وكـان القـوم يدعون هـؤلاء الجنـود السـود نظـرا إلى أن اصلهم من العبيد. ويلقبونهم ايضا عبيد البخاري لأنهم كانوا يقسمون على صحيح البخاري الاّ اذا نتـج هذا التفسير الذي قدمـه هوداس عن خطأ في الـكـتابـة .

وهـكذا اعتمـد الجيش النظامي على الزنوج الصحراويـين ونتاج مشرع الرمـل دون سواهم لاتربطهـم بالبلاد رابطـة وليس لهـم الا ان يطيعـوا سيدهم طاعة عمياء وبلـغ عدد هذا الجيش 150 ألف رجل منهـم سبعـون ألفا في مشرع الرمل ، و25 ألفا في مكـناس وهم الحرس الخاص بالشريف اما البقيـة فموزعون على القصبات ، وشارك في كـل الغزوات الكبيرة فنال رضًا السلطان فاسنـد للعبيد وللحراثين حقّ التملّك (1697 — 1698) .

ولـم يلبث هذا الجيش المحترف ان فطن إلى أنه القوة الوحيدة المنظمة في المغرب الأقصى فأهمـل حرس هذا الطاغية مصالح الامبراطورية وارادوا تسيير الشؤون السياسيـة غير ان التنقيص في عددهـم جعلهـم لايكونـون في اواخر القرن الثامـن عشر الاّ الحرس الخاص بالسلاطين وعلاوة على الحرس الأسود فان مولاي اسماعيـل نظـم من الوجهـة العسكـريـة قرصـان الساحل الاطلنطي ووضعهـم تحت قيادة العبيـد وكـان هؤلاء تحت قنـاع محاربة النصارى ينهبـون ضواحي المواني ويكـونون كـلما سنحت الفرصة عصابات يقودها رجال مقدامون مثل العياشي وغيلان، قادرة على الوقوف في وجه السلاطين . ويظهـر ان السلطـان الشريفـي استجاب إلى مطامح غـلاة المسلمين عندما سوى وضعيـة هؤلاء المجاهدين ، وكـان في الواقـع

يروم الاستعانة بهم لتحرير الموانى المغربية من احتلال النصارى وتأثير الاتـــراك .

وكان جيش مولاي اسماعيل يضم أيضا نسبة لايمكن ضبطها من مسلمة النصارى ليس لدينا معلومات مستوفاة في شأنهم اللهم ما رواه عنهم واحد منهم وهو الانقليزي طوماس بلو (Thomas Pellow) فقد كانوا يكوّنون كتائب مستقلة قلما تقيم بمكناس ؛ وليس لنا علم بأن واحدا منهم تقلد مهام عالية في المخزن كما كان الشأن في عهد بني سعـــد .

وكان معظم هذا الجيش النظامي القومي ينتصب خارج المـــدن في القصبات المنعزلة . ولقد التجأ مولاي اسماعيل ليقبض بيد من حديد على هذا البلد المضطرب إلى الاعتماد على طريقة المراكز المحصنة التي تحرسها حاميات قارة ، واستعمل القصبات الموجودة قبله وبنى على حد قول الزياني ستّا وسبعين أخرى . وتنقسم هذه القصبات حسب « تراس » (H Terrasse) إلى ثلاثة أصناف : فصنف يراقب ويتحكم في المناطق التمردة (خاصة الأطلس الأوسط) وصنف مهمته حراسة طرق المواصلات (الطريق التي تصل تارة بوجده وفاس بتافيلالت وفاس بمراكش الخ) وصنف ثالث يقوم للعبيد مقام الثكنات وذلك على مقربة من بعض المدن الكبـــــرى .

الجهـــاد ومقاومة الأتـراك :

رجع مولاي اسماعيل إلى سياسة الغزو كأعنف ما تكون بعد ان توقفت اثر موت العياشي (1641) فافتك المعمورة من الاسبان وغنم فيها مائة مدفع (1681) وكاد ان يدخل طنجة وكان الانقليز حاولوا بعد سنوات من التردد والتوسع خارج اسوار المدينة حيث ضاقوا بها ذرعا، غير ان لندرة كرهت توخي سياسة القوّة الباهظة الثمن المشكوك في نتائجها . فقد كانت مغامرات « كتيبة طنجة » تتسبب في ثغرات لاتسد الا بمستجدين من الجند يرثى لمستواهم وكان الولاة يضاربون بوظائفهم والضباط يتحولون إلى تجار غششة والجند يفرون او يتمردون لانّهم كانوا يموتون جوعا ولا يتقاضون أجورهم وان أهم ما ترتب عن الميثاق البلدي المؤرخ

في سنة 1668 الذي اعتبر طنجة مدينة مثل سائر المدن الانقليزية هو تمكين المستشارين البلديين من امتيازات تجارية ، وكان في امكان الميناء الذي كان يحميه الضباط البحارة بواسطة مكسر للأمواج منيع ان يكون قاعدة بحرية آمنة للأسطول الانقليزي ، كما انّه كان من المفروض ان تزدهر التجارة سريعا بدفع من اللاجئين الفرنسيين المطرودين من قادس وبفضل الغنائم الهولندية ، غير ان المال العين شح وباء مشروع احداث شركة مغربية كبيرة بالفشل نتيجة لمعارضة تجار طنجة وجشع الولاة الذين كانوا يخشون منافسة موان مغربية أخرى . وزاد الطين بلة حصار مولاي اسماعيل للمدينة سنة 1679 فعطل التجارة ومنع الانقليز من اقامة التحصينات خارج الاسوار (افريل 1681) وكان في لندرة مجلس العموم يخشى ان تزوّد حامية طنجة منبع « الجنود الموالين للبابا » الملك شارل الثاني بالقوى الكافية للقيام بانقلاب ضد البرلمان فرفض الاستجابة إلى النجدة التي تقدم بها العرش « مشترطا ان يقتنع بوجود خطر واضح متأت من الحركة البابوية » وحرص الملك الذي آل به الأمر بعد حل البرلمان إلى العيش بما يمنحه إياه لويس الرابع عشر من اعانات على الا يبذر موارده في سبيل طنجة، فأمر باخلاء المدينة بعد تخريب كل ما فيها بما في ذلك مكسر الأمواج المنيع (5 فيفري 1684) ، ولاقى الرأي العام الانقليزي هذا الاجراء بعين الرضا نظرا إلى انه لم يسلم الميناء إلى منافسيهم الاوروبيين بل إلى السلطان الشريفي وذهب الظن بجيوش مولاي اسماعيل إلى أن سبب رحيل الانقليز انّما هو الحصار الذي ضربوه على المدينة سنة 1679 وهجوماتهم المتكررة عليها . ووَطّن الشريف بهذه المدينة الخربة سكان منطقة الريف وافتك المجاهدون بعد ذلك العرائش سنة 1689 وأصيلا سنة 1691 وهكذا تخلص الساحل الاطلنطي من دنس المسيحيين الا المنطقة البرتغالية في مزغان، وبقيت في أيدي النصارى على ساحل البحر المتوسط حصون مليلة وسبتة وحجر خزامى وحُجر باديس . ولمّا اضطرت الحاميات الاسبانية إلى الاعتماد على نفسها مثل حامية طنجة وهي التي لم تدفع لها جراياتها على الوجه المرضي ولم تأتها الميرة بصورة منتظمة وقاست من استقلال الولاة لم تقدر على فك الحصار الشديد الذي ضربته عليها القوات الشّريفية ولكنّها لم تنخذل امام هجماتها المتكررة . ولم يُجد مولاي اسماعيل نَفْعا

ما قام به أمام سبتة من بناء رباط فيه قصر للقائد ومسجد لتأكيد عزْمه الراسخ على فتح هذا الحصن اذ صرفته عن ذلك أمور خطيرة ونجت المدينة من قبضته بسبب الفوضى التي عقبت موته .

ان مقاومة السلطان لاتراك مدينة الجزائر استأثرت بسياسته أكثر من حربه للنصارى فقد استحال بفضل المجاهدين ان يتسرب إلى المغرب الأقصى عن طريق مواني الغرب ولو قائد واحد من قواد العصابات التركية .

غير ان الشريف اضطر بالنسبة إلى حدوده الشرقية للاكتفاء بانتصارات منقوصة ذلك ان مستوى جيش السودان كان دون مستوى الجند الجزائري ، ولم يغب عن السلطان أن الترك كانوا يشجعون الثورات في المغرب الأقصى . فزحف حتى جبل عمور لاحباط عزائمهم لكن المدفعية التركية اجبرت جموع الجيش الاضافي العربي على الفرار واضطر مولاي اسماعيل مثل أخيه الرشيد إلى الاعتراف بأن تفنا هي الحد الفاصل بين الترابين (1679) .

وعاود الكرة بالاتفاق مع باي تونس بعد خضوع السوس نهائيا ولكن الحليفين لم يهتديا إلى التنسيق بين تحركات جيوشهما فانهزما الواحد بعد الآخر (1692) . ولمّا توصل ابنه زيدان حاكم مقاطعة تازة إلى افتكاك تلمسان أثر هجمات قليلة لم يستغل نجاحه . فأنكر عليه الشريف موقفه وتولى بنفسه قيادة جيش توغل إلى وادي شريف حيث مُنِي بهزيمة نكْرَاءَ وجرح مولاي اسماعيل واوشك ان يقع في ايدي الأتراك الذين رجعوا إلى الجزائر يحملون بثلاثة آلاف من رؤوس الجند (28 افريل 1701) ورغم هذا فلم يثنه ذلك عن المضي قدما ، في تحقيق مشاريعه بل ان أمله في اضرام نار الحرب في قلب الايالة من جهة الجنوب لم ينقطع بعد ان اطمأن من أخطار زحف يأتيه من جهة الحصون الحارسة لحدوده الشرقيّة . خاصة وقد أمكن لاحد ابنائه احتلال جهة عين المهدي غربي الاغواط كما تمكن أحد احفاده من تركيز حامية ببو سمغون بين عين صفراء وجيري فيل (Géryville) (1710 — 1713).

وكان التمرد المتكرر لوجق الجزائر وثورات القبائل تسهل هذا الغزو غير ان الشريف انشغل في المغرب الأقصى بما نشب بين ابنائه من خلافات فضيّع الفرصة .

التجارة والعلاقات الخارجية :

بقدر ما كان مولاي اسماعيل حريصا على المحافظة على سلامة المغرب الأقصى من تدخل النصارى والأتراك كان معتنيا بتنشيط الحياة الاقتصادية . فقد كتب عنه أحد الفرنسيين المقيمين بالمغرب الأقصى مقارنا بينه وبين سلفه قائلا : « كان يتمنى لرعاياه الازدهار ولثرواتهم النمو وذلك بواسطة التجارة التي كان يؤثرها على القرصنة التي كانوا يمارسونها ويتعلقون بها بشغف أخذ يتناقص مع الايام » والواقع ان قراصنة سلا وتطوان لم يعودوا لقلة عددهم وضعف عدّتهم خطرا حقيقيا الا بالنسبة للمراكب الصغيرة. ويؤكد القنصل ج. ب استيل (J. B. Eestelle) قائلا سنة 1699 « ان خواص سلا يملكون بين العشرة والاثنى عشر مركبا لم يعودوا يملكونها لأنهم تعودوا عندما يأتون بالغنائم ان يتعلّل عليهم ملك المغرب الأقصى ويستحوذ عليها » .

وكان للتجارة مكانة في الاقتصاد المغربي ارفع ممّا كان عليه الأمر في مدينة الجزائر وحتى مدينة تونس ذلك ان الشريف كان مهتما بها خاصة وانه يتقاضى عشرة في المائة اداء على جميع البضائع الواردة أو الصادرة وحتى 25 في المائة ضريبة على تجارة الشمع العسلي .

ونحن نجد فيما دونه « بيدو دي سانت أولون » من مهمته بالمغرب الأقصى معلومات دقيقة حول التجارة سنة 1693 وقد كان اليهود والنصارى في الواقع يحتكرون النشاط التجاري وكانت سلا وتطوان « مركزي النقل ومنهما كانت البضائع تسوّق بسهولة أكبر » امّا نشاط آسفي وأكادير فقد كان أقل من ذلك ويعتمد على البضائع الآتية من تافيلالت والسوس . « وكانت مدينة فاس بمثابة المغازة العامة لكافة بلاد البربر » وهي مركز للتوزيع يُنشّطه خمسة آلاف يهودي » « وقد اشتهرت المدن الساحلية بصناعة الجلود الحمراء وهي أجمل ما كانت تصنعه البلاد .

وكان يجلب من اسبانيا القرمز (Cochenille) والزنجفر (Vermillon) ومن انقلترا الاجواخ وودع غينيا وهو نوع من المحار له قيمة النقود في هذه البلاد كما كان يجلب من هولاندا الأجواخ والكتان والتوابل بانواعها والاسلاك الحديدية والصّفْر (Laiton) والفولاذ والجاوي والأصْطُرك أو اللُّبْن والزنجفر والمرايا الصغيرة والانسجة الموصلية المستعملة للعمائم ومن حين إلى آخر الاسلحة وغيرها من العتاد الحربي وكانت ايطاليا تصدر الشب وقوالب الكبريت (Souffre en canon) والدمى المصنوعة من الفخار في البندقية . وأمّا الشرق فقد كان يزودها بالحرير والقطن والزرنيخ الأصفر والزئبق والزرنيخ الأحمر والافيون .

وكان الانقليز والهولنديون يودعون بضائعهم في قادس ومنها تأخذها المراكب البرتغالية .

ويمكن إكمال المعلومات المتعلقة بالربع الأول من القرن الثاني عشر بالرجوع إلى القاموس التجاري العام لصاحبه سفاري دي بروسلون وكان المغاربة واليهود يتزوّدون من المستودعات النصرانية الموجودة على السواحل بالبضائع الاوروبوية ثمّ يوزعونها على الفروع الثانية بفاس ومكناس ومراكش وتارودانت وإيليغ (Iligh) وظلت مكناس في الصدارة بالنسبة لسوق الحبوب والجلود والشموع . أما مازاد عن حاجة هذه المدن الخمس فيوجه إلى تافيلالت « حيث يستبدله العرب بالتّبر والنيلة وريش النعام والتمر وفي بعض الأحيان انياب الفيل التي تدعى أيضا العاج . وبقيت تجارة القوافل نشيطة مع السودان .

وغالبا ما كان القناصل والتجار النصارى والمغامرون الذين يستغلون أخوانهم في الدين وأهل البلاد على السواء وقد اتهمهم « مووات » (Mouette) وهو الذي خبّرهم ، بانهم يشترون من القراصنة الغنائم التي يزهد فيها المغرب الأقصى قصد بيعها في أوروبا باربعة امثال تمنها . بل ان الأدهى من ذلك هو أنهم كانوا يتاجرون بالأموال التي يأخذونها لفدية الأسرى ويتركونهم في الاصفاد موهمين عائلاتهم بانهم بصدد التفاوض مع السلطان .

وكـانت تجارة فرنسا مع المغرب الأقصى تحتـل في اواخر القرن السابـع عشر المكانة الأولى وتلقـى من الشريف كـل تشجيـع غير ان كبريـاء لويس الرابـع عشر وعنجهيته افسدتا وضعـا كـان من الممـكن ان يـكون في صالحـه لو توخى شيئاً من الحـذق واللباقة . ذلك ان مولاي اسماعيـل أكـد لممثل الملك منذ اعتلائـه العرش انه سيعمـل على سلامة المراكب الفرنسية من القرصنـة وسيسمـح بتصدير كـافة أنواع البضائـع التي تنتجهـا بلاده وخاصـة النحاس والحديد المصبوب الأخضر (آهن) بعد ان منـع كـل ذلك المرحوم أخوه « ويساعده على فدية الأسرى . وتبادل الملك، وهو النصراني الغيور ، السفراء مع السلطان الشريفي طيلـة العشرين سنة الاخيرة من القرن السابـع عشر ولـكن لويس الرابـع عشر أفسد كـل ذلك بتوخيــه سياسة العظمـة .

ففـي سنة 1682 قدم محمـد تميـم من البلاط الفرنسي بمشروع معاهدة سلـم صالحة لستّ سنوات وتضمن فيمـا تضمـن للفـرنسيين حريّة الملاحة والتجارة . وكـان الشـريف مستعدا للتوقيـع عليهـا لـو لـم يفد عليـه السفير الفرنسي « سـانت أمان » باسلوب يمس بـالـكرامة فقـد كـان مكـلفا بالسعي إلى إدخال تحويرات من شأنها ان تغيّر المقصد الأول من المعاهدة وفيمـا يتعلـق بفدية الأسرى المغاربة الذين كـان مولاي اسمـاعيـل اقترح تعويض كـل واحد منهـم بأسير نصراني وثلاثمائـة ليرة .أوصـى « كلبيـر » (Colbert) مبعـوثـه باستعمـال « كـل مـا اوتـي من اللّبـاقـة لاجتناب الجواب عن هذا الموضوع » اذ كـان يفـكر قبـل كـل شيء في التـكثير من عدد المجدفيـن ووقّع السلطان على معاهدة السلم في 14 ديسمبـر 1682 بعـد ان رفض الملحقـات التي اقترحها سـانت امان ـــ وهـكذا لم يوجد حل لمسالة الأسرى .

واصطدم محمـد تميـم في بعثة ثانيـة بعراقيـل في ميناء طولون لاسباب شكليـة تافهـة وعبثـا حـاولت سلط فرساي ترهيب المغرب الأقصى بتنظيـم مناورات بحرية . واعتصـم الملك وهو النصراني الغيـور والسلطان الشريفـي بكبريائهمـا ـــ فهـذا لا يـأبـي التفاوض الا مع السفـراء لا التجار وذاك يسعى إلى حمـل الأمير البربري على الاعتراف بتفوقـه وقبل لويس الرابـع عشر في آخر الأمر ارسال « بيدودي سانت اولون » وهـو

أحدْ نبلاء بلاطه العاديين إلى مكناس في اوائل 1693 – ولكن المفاوضات لم تكلل بالنجاح فكان لذلك انعكاس سلبي على تجارة فرنسا ووجودها .

وقد مكنت انتصارات لويس الرابع عشر على اعدائه في اوروبا من استئناف المحادثات . فمال أمير البحر ابن عائشة إلى فرنسا بعد ان كان مواليا للانقليز وقدم إلى البلاط حيث أصبح شخصية مرموقة (1698) فكانت إحدى السيدات النبيلات أقل صدودا عنه ممّا لاقى السلطان الشريفي من الملك . ورجع المغربي بخفي حنين لمّا لم يرض بالتنازلات التي عرضت عليه مقابل تعويض الأسرى . واغتاظ مولاي اسماعيل لذلك وأظهر غضبه بدون مواربة . فعاب على الملك نقضه لما تعهّد له به المتكلم باسمه مساعد أمير البحر « دستر » وكتب له قائلا : « كان على ابن عائشة الرجوع لأننّا لسنا في حاجة لاي شيء منكم فسواء عندنا حربكم اوسلمكم » . غير انّه لم يقطع العلاقات بل انه رأى من المستحسن تمهيدا إلى ابرام حلف بينه وبين لويس الرابع عشر طلب التزوج من لقيطة من العائلة المالكة الأميرة دي كونتي الحسناء التي أطنب ابن عائشة في ذكر محاسنها وقد ضمن لها حرية المعتقد . وضحك القوم في بلاط فرساي ضحكا كثيرًا لهذا العرْض الذي لم يدرك مولاي اسماعيل إلى أي حدّ كان به مدعاة إلى السخريّة . وكان الجواب الوقح انه عليه ان يعتنق المسيحية .

واستفاد الانقليز في أوائل القرن الثامن عشر من هزائم البحرية الفرنسية وتدهورها فاحتلوا جبل طارق . وكانت سياسة ملك الاسبان تعمل على المباعدة بينه وبين السلطان الشريفي الذي كان يحلم باسترجاع سبتة . ورغم ذلك حاول آباء الرحمة والثالوث (La merci et la trinité) مواصلة مفاوضات مستعصية في مكناس لفدية الأسرى ولكنهم تصادموا مع قنصل فرنسا بسلا . وفي نهاية الأمر أمكن تعويض عشرين من الأسرى فقط سنة 1712 . واستفحل الامر بعد سفر الآباء – وبسط البروتستان اللاجئون من جهة اللنقدوك (Languedoc) ايديهم على التجارة فاتهمهم بنو جلدتهم بمساعدة الأنقليز والهولندين على حساب « الأمة الفرنسية ». وقد أسلم أحدهم وأصبح واليا على سلا ولمّا فقد القنصلان الفرنسيان مكانتهما لدى السلطان بسبب تأثير اخوانهم في الدين

عليه اضطرا إلى مغادرة سلا (1710) وتطوان (1712) وظلت فرنسا طيلة اربعين عاما بدون ممثل لها في المغرب الأقصى ممّا اتاح للانقليز ان يتبؤوا المرتبة الأولى في حركة التجارة المغربيّة .

وكتب في هذا الصدد ج . هردي : « لقد أعوزت لويس الرابع عشر اللباقة وروح التفهم للناس وللاشياء في المغرب الأقصى ولم يظهر في معاملته كياسة ولا احتسابا ولو بسيطا » وهو أمر يتضارب مع « اخلاص » السلطان . فكانت ضريبة المجد الذي طلبه الملك لنفسه افلاس التجارة الفرنسية .

مكناس :

كان مولاي اسماعيل شديد الولع بالبناء على غرار لويس الرابع عشر الذي يقال انه حاكاه بينما بدأت الأشغال في مكناس مدّة غير قصيرة قبل ان يبلغه خبر مفاتن فرساي . فالملوك يقيمون الدليل على عظمتهم لرعاياهم وللتاريخ بما يشيدونه من المعالم . فقد تعلقت همّة السلطان الشريفي باقامة مدينة لائقة بمقامه وهو الذي يكره فاس ومراكش بسبب تمرّدهما عليه . فاختار موقع مكناس الرائع . وهو سهل ممتد بين نجاد خصبة يشقه نهر يكسبه الأخضرار واعتدال المناخ وهو إلى ذلك يتحكّم في مسالك الأطلس المتوسط وزرهون ولم يخلق المدينة من عدم فمكْناسة الزيتون التي تستمد اسمها من قبيلة مكناسة الزناتية لم يكن لها ماض يذكر .

وقد يكون المرابطون حصّنوها ثمّ أساءَ الموحدون معاملتها اذ انّها استمدت ثروتها من التجارة في القرن الثالث عشر. واقام بها بنو مرين قصبة ومسجدا (1276) وزاوية وفنادق ومدوا فيها قنوات المياه واقاموا جسورا ثمّ بنوا في أواسط القرن الرابع عشر المدرسة البوعنانية الجميلة ببابها ذي المصراعين المغلّفَيْن بالبرنز المنقوشين المخرمين وبقبتها المضلعة المشرفة على المدخل . وقد نوه ليون الافريقي في أول القرن السادس عشر ببساتينها ومروجها وتدفق مياهها ومناعة موقعها واهمية اسواقها غير ان الفضل في بعثها يرجع إلى مولاي اسماعيل .

وسخر الشريف لبنائها 2.000 من النصارى ، لا 25.000 كما قيل ، وحوالي ثلاثين ألفا من مساجين الحق العام والذين وقع اسرهم في صفوف المتمردين ومن العملة الذين كانت القبائل تسخرهم له ، ولاشك انه استعمل الشبان السود في السنّة الثالثة من تكونهم .

وكانت معاملة الأسرى قاسية . فكانوا يقتادون كل يوم عند الفجر من دهاليزهم ويوزعون على فرق يقود كل واحدة منها زنجي لايبخل عليهم بضرب السياط . فمنهم من يهدّم الجدران العتيقة بواسطة « معول ثقيل جدا » ومنهم من يجمع ويدقّ بشدّة بواسطة خشبتين « طينا مخلوطا بالحصى والكلس تتماسك كلها لفرط تحريكها ورشها بالماء » . ثم يرفعون هذا الملاط لاستعماله في البناء وكان نقل هذه المواد يرهق أبدانهم والسلاليم تحز في اقدامهم وحبال الجرّارات تدمي اكفهم — وكان بعض الأسرى المكلفين بأفران الكلس يموتون حرقا .

وكان الشريف لايعرف شفقة ولا رحمة. فقد روى « مووات » انه صرع برصاصة رجلا من مقاطعة بريطانيا « توقف عن العمل ليسترجع النفس » ولنفس الغرض شك بضربتين من رمحه عبدا آخر . وكان لايرفق حتى بخدمه الخاص » فقد زار سنة 1696 احدى حضائره فخيّل إليه ان الأشغال تسير ببطء ، فأمر بجلب المكلف بقصر الملك حالا فصبّ عليه جام غضبه رغم انه من المقربين في بلاطه ومن المتمتعين بكامل ثقته والقائمين على شؤون قصوره ثمّ أمر بجلده خمسمائة سوط بعد ان اشبعه ضربا بنفسه » واعتبر في مرّة أخرى ان عددا من الآجر ارهف ممّا يجب فكسّره على رأس المشرف على الحضيرة . وكان فضلا عن ذلك لايتردد في أخذ المعول بين يديه لاعطاء المثال .

وكان بناء مكناس عمل عدد عديد من النّاس خاضعين لمشيئة سيدهم . فكانت في النهاية أقرب إلى هيكل ضخم منه إلى عمل فنّي .

ولم يغيّر تغييرا بارزا في نظام مدينة مكناس القديمة . غير انه أمر ببناء عدّة مساجد مثل مسجد باب بردين الكائن شمال المدينة وأمر كذلك بهدم الحي الجنوبي الذي كان يضايقه فيما كان يزمع بناءه

(حافظت ساحة الهديم على ذكرى هذا التهديم) وأذن ببناء حي لليهود (ملاح) وأصبح ربضا يقع غربي المدينة الاسلامية .

وكانت المدينة السلطانية بنيت جنوب المدينة القديمة وهي مدينة بأتم معنى الكلمة دارت بها اسوار بعد اتمامها طولها 25 كيلو مترا . وقد أمر مولاي اسماعيل ببناء قصر كبير سمّاه الدار الكبيرة على انقاض القصبة المرينية والحي الذي هدمه . وكانت ثلاثة اسوار تحوط به في الشمال الشرقي . فالاول وهو اقلها علوا يحتوي على ابراج مربعة والثاني وهو متوسط الطول جعل مطافا للحرس امّا الثالث وهو يفوقها علوا بكثير فهو يحمي الحريم . ولم تكن الجوانب الأخرى محوطة الا بجدار واحد. فكانت مدينة أكثر منها قصرا لم يبق منها الا آثار غير واضحة المعالم وان هي لم تخل من العظمة احيانا . وكانت البناية الرئيسية تتركب على حد قول الزياني من عشرين جناحا « ابراجها المربعة الجميلة المغطاة بالقراميد الخضراء » تشرف على البراري. وعلى بعد قليل منها قامت متناظرة اربعة اجنحة كبيرة » وشيّد مسجدان عظيمان هما مسجد الزهور ومسجد للاعودة .

ثمّ أمر مولاي اسماعيل بتخطيط حدائق عديدة في الجنوب الغربي من هذه المجموعة واحاطها بجدران وبنايات وفي جنوب هذه الحدائق شيّدت بعد ذلك مجموعة أخرى من القصور منها ما رُمّم في القرن التاسع عشر وأصبح يكوّن اليوم دار المخزن وأخيرا أقيمتْ غربي الدار الكبيرة مدينة الرياض المخصصة لكبار موظفي المخزن ، ولم يبق منها الاّ باب الخميس الرائع الذي تحيط بفتحته الشبيهة بحدوة الفرس ركنيات سوداء وإطار من الفسيفساء الخضراء ويعلوه إفريز من الكتابات الدارجة السوداء ، وتأتي هذه الزخارف على أرضيّة من الآجر ويستند إلى هذا الباب بريجان بارزان أحدهما في حالة خراب » .

وأضيف إلى هذه المجموعات الاربع فروع عديدة : فهذه قصبات تضم سرايا من الجيش الأسود وهذه مروج مترامية الاطراف صالحة للاستعراضات العسكرية أو هي مراع لمواشي السلطان ، وهذه بركة فسيحة تذكر بالمرايا المائية في مراكش » وتلك مخازن واصطبلات عديدة . وبقيت اليوم من هذا البناء الضخم العرصات والطاقات وأغلب الظن انه

كان يضم الاصطبلات الكبيرة ومخزنا للحبوب وكانت الاصطبلات تبدو لـ ب . بوسنو (P. Busnot) أجمل ما في القصر بصفين من الطاقات طولها ثلاثة ارباع فرسخ وبالقناة التي تزودهما . وكانت الجياد المقيدة من أرجلها الاربع في حلقتين بواسطة حبال من شعر يقوم عليها سواس مسلمون وغلمان نصارى . وعلاوة على هذه الاصطبلات كان للسلطان حظيرة للوحوش تنتظم فيها بأمر مصارعات هذه الأسود والذئاب (؟) مع الكلاب .

وكان الشريف لا يأنف من تشريف زواره المرموقين بجولة معه في املاكه فقد أعجب الانقليزي « جون وندوس » فيما رواه من خبر عن مهمّة القائد البحري « ستيوارت » سنة 1720 بكثرة الفسيفساء ومنظر البنايات » التي جمعت بين الجمال والروعة والبساطة » ومستودعات الأسلحة والقباب ومقر محظيتيه او قبة الحضرة والسطح المشرف على الحدائق على طول يبلغ نصف ميل ومعامل السروج والاسلحة وخاصة البناية المقامة على دعائم رومانية جلبت من آثار وليلى . وقدم للزائرين اثناء هذه الجولة لمجة من الغلال والحلويات .

وآخر ما بناه الشريف كان باب منصور العلج النصراني الذي اسلم وأتمّه ابنه . وهو اضخم باب في مكناس . وكانت الفسحة العظيمة التي هي على شكل حدوة فرس منكسرة تستند إلى بريجين بارزين مقامين على طاقات . وعلى كل جانب اقيمت اسطوانة عالية تحمل « ما بين فرجتين (trumeaux) موشوريتين (prismatiques) ان الشكل الغالب يظهر في شكل مشبكات ملتوية تبرز في نتوء على أرضية مسطحة خضراء مذهبة مغطاة بالفسيفساء المبرنقَة . وتمتد على طول الافريز الأعلى كتابة عريضة جميلة بحروف دارجة سوداء يعلوها خط من اكتاف الشرفات . أمّا النسب فثقيلة، والمساحات مستعرضة (méplates) غير ان المجموع لايخلو من جلال (ب. ريكار) .

حكم الشريف :

ان هذه الارادة الفولاذية التي أظهرها مولاي اسماعيل في تحريره للبلاد وتشييده لمكناس تجلت ايضا فيما توخاه من اساليب الحكم فقد

كان يقرر كل شيء بنفسه، ولايسمح بأية معارضة وليس له من التزام الا ما تمليه عليه مشيئته . وقارب في عهده ان يندمج المغرب الأقصى وبلاد المخزن لأن قبائل الأطلس الأعلى اعترفت في بعض الأحيان بان لهما سيدا .

قال مولاي اسماعيل ردا على ملاحظة سفير لويس الرابع عشر « ان ملككم لويس يحكم بشرا امّا انا فاني احكم أجلافا لذلك استعمل الارهاب للمحافظة على الأمن» فكانت اساليبه المحببة إليه لأشعار النّاس بسلطته هي اغتصاب السلاح والجياد وتخريب مناطق كاملة بواسطة جنده وجعلها اثرا بعد عين وكذلك التقتيل الجماعي ، وبالتالي فقد كان دائما على أهبة التفاوض مع خصمه الذي غزاه وأخذه عند الحاجة في خدمته مثلما فعل مع الدلائيين وبقدر ما كان قاسيا عند القمع كان يعرف كيف يجتنب الثورات باحكام مراقبة يقظة في المناطق المضطربة وذلك بواسطة قصبات تقيم فيها حاميات تتكوّن من 400 إلى 3.000 رجل تمونهم القبائل .

وكانت هذه القصبات عبارة عن مؤسسات مستقلة مقامة في اراض حرّة لها مخزنها ومسجدها وهي في بعض الأحيان محاطة بسورين أصغرهما يضم إلى البنايات والآخر يستعمل ملجأ لأهالي المنطقة عند الحاجة – امّا مسؤولية هدوء المنطقة فراجعة إلى رئيس المركز وهكذا ساد الأمن البلاد بصورة منقطعة النظير ولقد أكد الزياني انه « بامكان يهودي او امرأة قطع المسافة الواقعة بين وجدة ووادي النون من دون أن يتجرّأ أحد ويسألهما من اين أتيا او الى أين يذهبان » .

وكان مولاي اسماعيل يستعين بالشرفة لمغالبة مناوأة الأولياء المؤيدين من الاتراك وكان مثل الرشيد يختار من بينهم مستشاريه . وكان الولي الوحيد الذي حظي بثقة السلطان هو ولي وزان الذي سمّاه واليا عليها وهو إلى ذلك من الشرفة .

خلفاء مولاي اسماعيل :

كان المخزن هيكلا رهيبا يستمد سلطته من مولاي اسماعيل وحده . فما كاد ان ينتهي عهده حتى أذ نت ثورات ابنائه ببداية انهياره . وكانت

الامبراطورية تئن تحت وطأة هذا النظام القاسي فلمّا مات الشريف (1727) لم تلبث الاطارات التي ركزها بمشقة ان تلاشت. ذلك ان الاولياء والاتراك عادت لهم صولتهم من جديد ومضت القبائل تتزود من السلاح والجياد شاقة عصا الطاعة . ورمى العبيد أرْضًا بالآجر الذي كانوا يشقَوْنَ بحمله فيما تبقى من حظائر البناء .

وانتصب العبيد خاصة أسيادا فعينوا أحد ابناء الشريف مولاي أحمد الذهبي لسخائه فسمح لهم بتقتيل الولاة الممارسين لمهامهم . ولكنهم ما لبثوا ان عوضوه بأخيه عبد الملك الذي سرعان ما خلعوه أيضا حالما لاحَ لهم بُخْله الكبير ولأنه كان يبحث عمن يتحالف معه من عرب وبربر الأطلس الأوسط لمقاومتهم والتجأوا مرّة أخرى إلى الذهبي ولكنه مات مريضا بعد بضعة أشهر (1729) .

عند ذلك كلفوا من يأتي من سجلماسة بولد آخر لمولاي اسماعيل هو مولاي عبد الله ليتبوأ الحكم ، غير أنّه ما لبث ان اختلف مع أهل فاس ثمّ مع أوداية وأخيرا مع العبيد الذين مكنوه من تسليط قسوته على أوداية وفاس فلمّا خذلوه اضطر إلى ترك الحكم والفرار إلى جهة وادي نون (1735) وعوضه أخوه مولاي علي الأعرج ، وكان رجلا لطيفا ضعيف الشخصية عاجزا على حفظ النظام في بلد متداع ، فكان من السهل على مولاي عبد الله ان يرجع إلى الحكم ويستأثر من جديد بثقة الجند (1736) غير ان هذه الفترة الثانية من حكمه لم تدم طويلا اذ ان مظاهر جديدة من القسوة ألبّت عليه حاشيته ، فلاذ بالفرار واعتصم ببلاد البربر ، ومنهما قاد عدّة هجمات ضد أخيه وخليفته سيدي محمّد بن عربيّة الذي لم يكن له أي نفوذ على أوداية ولا على العبيد الذين يدين لهم بعرشه ، وكانت الفوضى تتزايد والمجاعة تعم البلاد وثار العبيد مرّة أخرى وجربوا سلطانا آخر وهو مولاي المستضيء أحد ابناء مولاي اسماعيل . وكانت التجربة فاشلة هذه المرة أيضا ، ولمّا أعياهم الأمر نادوا بمولاي عبد الله (1740) فأظهر في أول الأمر شيئا من المرونة ولكن ما بالطبع لايتخلف ، فخلع للمرّة الثالثة والتجأ من جديد إلى البربر (1745) بينما تمكن أحمد الريفي باشا طنجة من حمل النّاس على مبايعة مولاي زين العابدين سلطانا بمكناس ، وعجز السلطان الجديد عن دخول فاس التي أبت الاعتراف به ،

وسرعان ما تخلى عنه العبيد فأصبح مولاي عبد الله الّذي كان دائما بالمرصاد سلطانا للمرّة الرابعة (1745) فظهر السلطان المستضيء على مسرح الأحداث من جديد يؤيده أحمد الريفي ولكن مولاي عبد الله تمكن بعد عناء شديد من الانتصار عليهما الواحد بعد الآخر ثمّ استولى على مراكش حيث نصب ابنه محمّدا نائبا للملك (1750) وعرف جنوب المغرب في عهد هذا الحاكم الحكيم المعتدل فترة من السلم النسبية بينما كان الشمال مسرحا للصراع بين العبيد وأوداية والبربر الذين كان مولاي عبد الله يقف منهم جميعا موقف التلاعب والتظاهر بالحياد . غير ان العبيد أرادوا سنة 1752 مبايعة ابن السلطان ملكا عوضا عن أبيه ولكن سيدي مُحَمَّد رفض ذلك في إباء واستطاع مولاي عبد الله ان يمارس حُكْمًا مهلهلا إلى أن مات سنة 1757 .

ورغم الفوضى المزمنة فان النصارى لم ينقطعوا عن التجارة وواصلوا محادثاتهم فيما يخص فدية الأسرى . وأقصى الهولانديون وخاصة الانقليز شيئا فشيئا الفرنسيين عن الاسواق وكاد الانقليز ان يحتكر المبادلات في تطوان واقتسموا مع الهولانديين تجارة الاجواخ والكتان والتوابل المستحضرة من سلا وآسفي وكذلك تسويق الشمع العسلي وجلود المعز والنحاس في أكادير ، وكانت الاصواف المغربية يصدرها الانقليز صوب مرسيليا عن طريق ڤرنة . وهكذا ما انفكت التجارة الفرنسية في تدهور ، غير انها ظلت في اواسط القرن الثامن عشر حسب ما ورد في أخبار ذلك العصر أهم ممّا كانت عليه في الأسْكِلَة الثلاث الاخرى لبلاد البربر ولئن تعذر على نحو ما فَعَلَ الإنقليز ابرام معاهدة تجارية جديدة كان يعتزم ج. أ. ري وهو تاجر من مرسيليا يعمل في سلا فالسبب يرجع إلى لامبالاة حكومة لويس الخامس عشر . أمّا فدية الأسرى فقد كان الأمر أيسر ذلك ان مولاي عبد الله دفعه احتياجه للمال إلى بيع عدد كبير من العبيد الاسبان والهولانديين والانقليز والفرنسيين

سيدي محمّد بن عبد الله (1757 — 1790) :

لقد أظهر العاهل الجديد مقدرته عندما كان نائبا عن أبيه في مراكش فكان تقيا ميالا إلى السلم والعدل اللذين كان المغرب الأقصى في أشد الحاجة اليهما بعدما قاساه من اضطرابات طيلة ثلاثين سنة . فأقدم

على بذل مجهودات جبارة لارجاع شيء من التوازن إلى هذه البلاد التي اضطربت إبرة بوصلتها . ولم يكن الأمر هينا اذ تضاءل مدخول الاداءات حتى في بلاد المخزن ، وعمت الفوضى صفوف الجيش بعد الثورات المتوالية وما استتبعتها من قمع ، ونزحت القبائل البربرية من الأطلس الأوسط نحو السهول فهددت بتجزئة البلاد إلى جزئين انطلاقا من الرباط .

وشرع سيدي محمد في العمل بصبر وأناة ، فوظف أداءات جديدة على الأسواق والمضاربات بعد ان أفتى فيها علماء فاس وفي نفس الوقت ضرب سكة جديدة ذات قيمة ، كما لم شتات الجيش فأضاف إلى سلك العبيد الذين تناقص عددهم بسبب الثورات السالفة جموعا من الحراثين الآتين من الواحات ومن القبائل العربية المنتشرة في السهول بل انه تمكن في بعض الاحيان من الاستعانة بالكتائب البربرية ، ومن جهة أخرى فقد أذن بتحصين أهم المراكز الساحلية واقامة مصاطب صالحة للمدفعية وتزويدها بالمدافع وحاول أخيرا من دون كبير جدوى على ما يظهر تكوين أسطول حربي ، غير ان قواته ظلت متواضعة وغير كافية . لذلك التجأ إلى الديبلوماسية مستغلا تارة ما يتمتع به من سمعة شريفية بقيت ذات وزن على كل حال ، وتارة أخرى ما ينخر القبائل البربرية من خلافات داخلية ، فاتخذ لخدمته في هذا الغرض من البربر الموالين لدولته من أمكن لهم الوصول إلى نتائج لايستهان بها نظرا إلى درايتهم الكبيرة بالوسط مثل المكاتب الزياني .

وبقيت الرقعة المتمردة متسعة جدا رغم كل تلك الجهود فقضى السلطان جزءا كبيرا من حكمه في إخماد الثورات والتصدي إلى توغل صنهاجة الزاحفة من الأطلس الأوسط نحو الغرب والشمال الغربي مثلما تنزلق الارض في حركة بطيئة ولكنها ثابتة . وتوصل إلى وضع السهول الشمالية تحت سلطته (المغرب الأقصى الشرقي وجهات فاس ومكناس والغرب) وكذلك سهول الجنوب (حوض أم الربيع وتنسفت) غير انه يئس من السيطرة على الطريق الرابطة بين فاس ومراكش مباشرة عن طريق تادلا ومن ذلك الوقت إلى سنة 1912 اضطرت المحلات الشريفية إلى المرور من الرباط والدار البيضاء للذهاب من فاس ومكناس إلى مراكش ، اما الطريق الواصلة بين فاس وتافيلالت فكان استعمالها متعذرا أحيانا .

وكان سيدي محمد وهو التقي الورع على علم بواسطة الحجيج بانتشار الحركة الوهابية في الجزيرة العربية وتأييد عائلة آل سعود البدوية لها . وقد أعجب بصرامتها وكان يؤثر عنه قوله : « اني مالكي المذهب، وهابي العقيدة » ومضت به حماسته الدينية إلى الإذن بإتلاف الكتب المتساهلة في الدين حسب رأيه والمحللّة لمذهب الاشعرية وتهديم بعض الزوايا مثل زاوية بوجاد .

وكان أيضا ملكا شغوفا بالبناء والتشييد ، فهو الذي أمر ببناء مدينة موقدور على أساس مثال هيأه المهندس المعماري الفرنسي « كورنو» أصيل افينيون، وفي مراكش وهي مقامه المفضل أذن ببناء قصر سمّاه الدار البيضاء (وهو اليوم مستشفى) كما أذن بالقيام بترميمات عديدة ، وشيد أيضا قصرا آخر بمكناس أعطاه نفس الاسم (هو اليوم المدرسة الحربية للضباط المغاربة) يوجد جنوب ماتبقى من آثار وقصور مولاي اسماعيل . وأخيرا بنى في فاس مدرسة باب قيزة .

ورام أيضا مواصلة الفتوحات فأجبر البرتغاليين على إجلاء مزغان آخر معقل لهم (1769) ولكنه فشل أمام مليلة رغم ما بذله من جهود .

وحاول على غرار ما قام به مولاي اسماعيل سلوك سياسة التقارب مع تركيا وفرنسا في آن واحد فأجرى معهما مفاوضات من دون قطع علاقاته مع الجزائر وتونس ، ولعلّه كان يأمل ان ينشأ خلاف بين الباب العالي والجزائريين فيتمكن بذلك من التدخل في الإيالة .

وقام ج. أ. ري (J. E. Rey) أصيل مرسيليا بدور مرموق في العلاقات بين المغرب وفرنسا فقد باع هذا التاجر المحنك والذي لاعهد له ولا ميثاق خدماته إلى الدنمارك في أول الأمر ومكنه من احتكار السوق في آسفي وأكادير (1751) ثمّ حمل السلطان الشريفي على منحه شهادة تؤهله للتفاوض مع الدول العظمى ظانا انه يستطيع المضاربة لدى الحكومة الفرنسية غير ان البلاط أساء استقباله. فقفل راجعا إلى المغرب حيث كان مآله الإفلاس التام .

ولم تذهب هذه المبادرة سدى رغم انها لم تكن شريفة المقصد ذلك ان شوازول (Choiseul) كلف تاجرا آخر من مرسيليا يدعى

« سلْفَا » باستئناف التفاوض على نفس الأساس وتوج هذا العمل بالمعاهدة التي ابرمها دي برنيون (De Brugnon) (سنة 1767) ، وعادت التجارة بذلك إلى سالف أمنها وتمتع الفرنسيون بامتيازات فيما يتعلق بنظام القمارق. ورجع القناصل إلى مناصبهم ولم يتمتعوا فقط بحقهم في التبجيل والتكريم بل أصبح في امكانهم ان يكون في خدمتهم نفر من الأهالي لايخضعون إلى الاداءات ولا إلى المحاكم المحليّة . وكان الفضل الوحيد لهذه المعاهدة التي خدمت التجارة خدمات كبرى انها أعادت لفرنسا سالف هيبتها . ولاشك ان الفرنسيين توافدوا بكثرة على قصر سيدي محمّد ولكن هذا الأمير الذكي المحب للعلماء والمتفتح على مستحدثات اوروبا كان أشدّ غيرة على مصالحه من أن يسمح للتجار الاجانب بالاثراء حسب اهوائهم . فشجع على التوالي آسفي ثمّ أكادير على حساب سلا ثمّ أسس موقدور وجعل منها السوق الكبرى للمغرب الأقصى والمتصدية لحركة التهريب على السواحل الجنوبية . وبذلك شرع في توخي سياسة اقتصادية هدفها جلب الأجانب نحو الموانى وتنشيط المبادلات ممّا يضمن وحده تزويد الخزينة المتدهورة بامكانيات جديدة غير ان التجار النصارى زهدوا في موقدور بسبب ما كان يسلطه عليهم أمناء القمارق من شديد المراقبة فلم تدخل الأموال المرتقبة . غير ان الميناء الجديد احتكر التجارة مع أقصى الجنوب لأنه أصبح منتهى القوافل وموطن جالية يهودية نشيطة في علاقاتها مع أهالي الجهة المواجهة للأطلس والسوس الذي قلت موارده بعد ان حرم من حركة موانيه القديمة فلم يعد منطلقا للتمرد المهدد لسلطة المخزن .

واحتفظت فرنسا وحدها إلى سنة 1795 بقنصلها في سلا بل في الرباط بينما اتخذت الدول الأخرى طنجة مقرا لقناصلها . وفشلت في تحقيق التوسع الذي كانت ترتجي الغرفة التجارية بمرسيليا تحقيقه في المغرب الأقصى غداة معاهدة 1767 وقنعت بنتائج أقل من المتواضعة .

مولاي اليزيد (1790 — 1792) :

خلف سيدي محمّد ابنه مولاي اليزيد الذي لفت الانظار قبل ان يضطلع بالحكم . فهو الابن المحظوظ والفارس المغوار والكريم الشجاع والمجاهد في سبيل الله لذلك علا صيته وتنبأ له النّاس بمستقبل زاهر ولكنه لم يعرف كيف يمتلك نفسه .

فلمّا عيّن قايدا على قبيلة قروان البربرية (جنوبي مكناس) سنة 1769 غرّته شهرته وقبل أن يُبَايع سلطانا . وعلم سيدي محمّد بالأمر فلجأ اليزيد إلى مكان منيع إلى أن عفيَ عنه ، وأعاد فعلته مرتين في ظروف تكاد تكون متشابهة الأولى سنة 1771 والثانية سنة 1775 فأقصاه أبوه عن شؤون الدولة ولمّا عزم سنة 1784 على الخروج إلى تافيلالت اوفده إلى الحج للتخلص منه ، لكنه عاد قبل الأوان فأرسله سيدي محمّد ثانية إلى البقاع المقدسة فحاول في القاهرة نهب بعثة الحجيج الرسميّة فلمّا علم سيدي محمّد بذلك أذن القافلة بتغيير طريقها غير ان اليزيد تعلل بأداء الحج مرّة ثالثة فالتحق بالجزيرة العربيّة وتمكّن من الاستيلاء على الهدايا المرسلة من السلطان إلى الشرفة في اليمن . ثمّ عاد إلى القاهرة على رأس عصابة مسلحة والتحق بمدينة الجزائر عبر طرابلس وسعى إلى نيل عفو أبيه في الوقت الذي كان يقوم فيه باعمال غريبة . فلم يظفر بغير المال فحجّ رابعة وكان في طريق العودة مرغوبا عنه حيثما مرّ ، وبذل مجهودا للالتحاق بالمغرب الأقصى لكنه فشل في خاتمة المطاف واعتصم بزواية سيدي عبد السلام بن مشيش المنيعة الجوار حيث ظل ينتظر ساعة الحكم التي دقت بعد بضعة أشهر عندما توفي أبوه .

ومهما بَدَا الأمرُ غريبا فان اعتلاءه الحكم لم يستتبع صعوبات تذكر . غير انه سرعان ما استفظعه النّاس لاعماله التعسفية ونزواته الدموية التي كان اليهود والنصارى أول من ذاق ويلاتها من دون ان يبقى المسلمون في مأمن منها . بل إنّه دخل في نزاع مع الاسبان بسبب ايقافه اعتباطا قنصلي اسبانيا بموقدور والعرائش وكذلك راهبين بطنجة فضرب حصارا على سبتة ولكنه عدل عن ذلك لأن علائم التمرد لاحت في الجنوب ، فقد نودي بأحد إخوته مولاي هشام سلطانا على مراكش واستولى أخ له آخر يدعى عبد الرّحمن على تافيلالت . فتصدى مولاي اليزيد للأول واسترجع مراكش ولكنه صرع في ساحة القتال بينما كان متصديا لهجوم جديد قام به مولاي هشام (1792) .

مولاي سليمان (1792 — 1822) :

ان نار الفتنة في المغرب اشتعلت من جديد في عهد مولاي اليزيد على قِصره . فما كان مولاي سليمان ليُبايع سلطانا على فاس وهو ابن

سيدي محمد المفضل بعد اليزيد حتى وجد امامه ثلاثة منافسين من إخوته وهم مولاي مسلمة في جهة الشمال الجبلية ومولاي هشام المؤيد من قبائل آسفي ومزغان المجاورة ثم بعد ذلك بقليل مولاي الحسين الذي استولى على مراكش وهاجم مولاي هشام .

وعالج مولاي سليمان الأمر بحكمة فاتجه اولا إلى مولاي مسلمة وهو أقرب مناوئيه مكانا من دون ان يكترث بالآخرين . فأدبه بعد جهد جهيد واستتب الأمن في شمال البلاد وعند ذلك جعل وجهته الجنوب الذي استنزفته الحروب القائمة بين الاخوين الدعيين . واستحوذ في آخر الأمر على مراكش سنة 1796 ومسك بفضل كل ذلك زمام الحكم في بلاد المخزن التي كان أبوه جمع شتاتها . بل إنه وسّع رقعتها شيئا ما بضمه درعة والفكيك وجزء من تادلا اليها . ووطد الامن بها بتنظيم دوريات متتابعة للشرطة وتمكّن من استخلاص الضرائب بصورة تكاد تكون منتظمة .

ولكن الامور تغيرت ابتداء من سنة 1811 اذ اشتعلت نار الفتنة في الاطلس الاوسط بعد ان التفّت أغلب القبائل البربرية حول أحد رجالها وهو أبو بكر مهاوش ونازلت تحت قيادته جيوش السلطان المرسلة لقمع الثورة وهزمتها .

ولم ينفك مولاي سليمان طيلة سنوات عديدة يوالي سعيه لحفظ الامن ولكن بدون جدوى ثمّ انهزم شر هزيمة ، في تادلا حتى انه لم ينجح الا بجهد جهيد وذلك بفضل بربري بقي يكن للسّلطان بعض الاحترام (1818) .

وتفاقمت الامور في أواخر سنوات حكمه فترك لخلفه مولاي عبد الرّحمن ابن أخيه بلادا منحدرة من جديد إلى الفوضى .

وأذن مولاي سليمان ، الصّارم في تقواه مثل أبيه اثناء فترة حكمه الهادئة نسبيا ببناء عدّة مساجد مثل مسجد حي الرصيف في فاس كما أمر بترميم مبان جميلة قديمة من بيْنِهَا مسجد الشّرابليين والمدرسة البوعنانية بفاس ، وقد بنيا في العهد المريني ومن جهة أخرى فقد حافظ على علاقات طيبة مع اتراك الجزائر والدول الأوروبية حتى انه التزم سنة 1817 بإبطال القَرْصَنة في المناطق التابعة له .

الخـلاصـة :

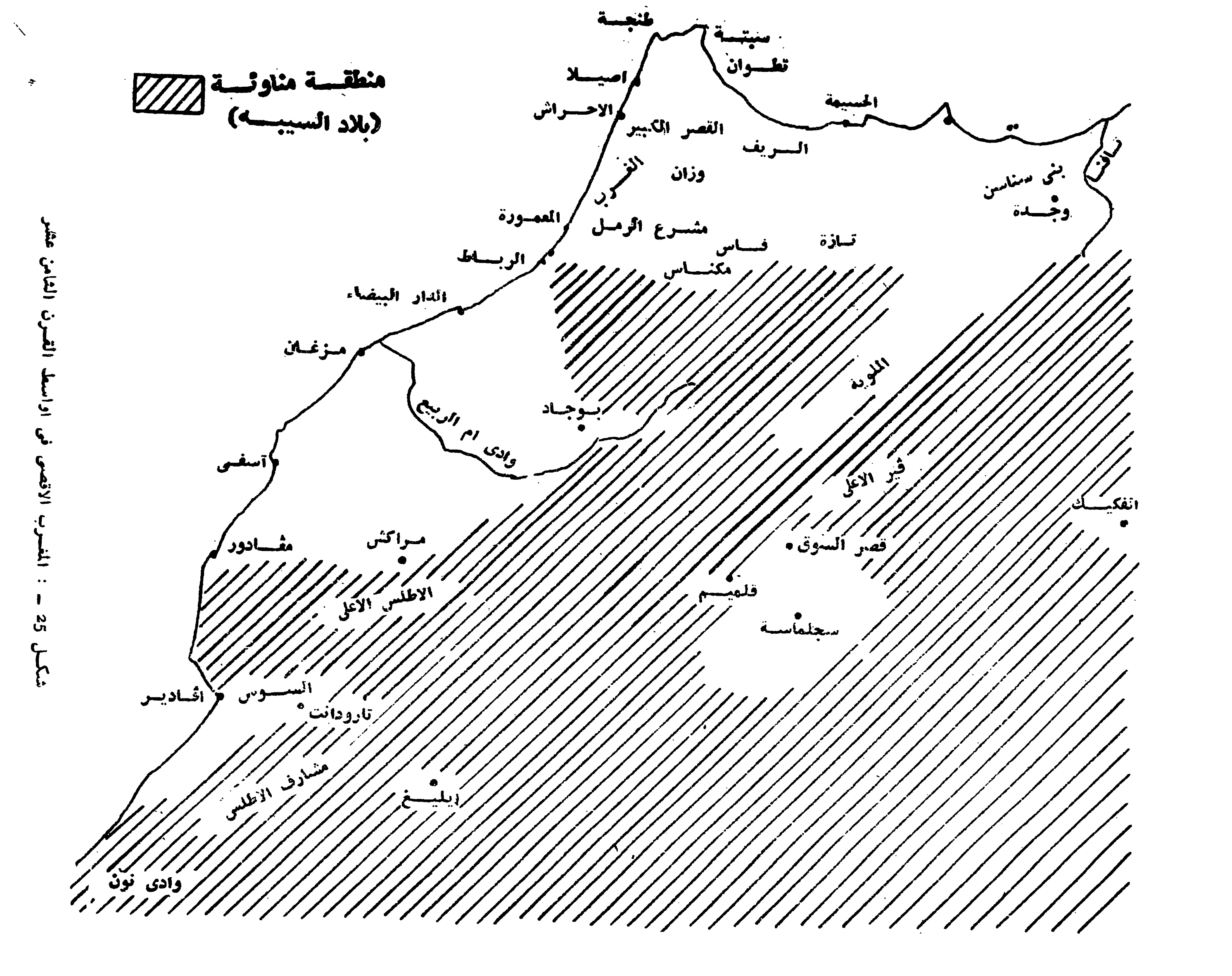
إلىَ هذا الحد تنتهي دراستنا للمغرب الأقصى الشريفي الذي سيجابه ابتداء من عهد مولاي عبد الرّحمن (1822 – 1859) مشاكل جديدة .

ان تاريخ الدول الشريفية يتمثل في انكماش ذاتي ازداد وضوحا على مرّ الأيام فقد أوشك المغرب الأقصى في القرن السادس عشر ان يُزجّ به في مغامرات أخرى بسبب البرتغاليين والاسبان الذين أظهروا جرأة كبيرة وكذلك بسبب الاتراك الذين حاولوا التمركُز في البلاد . ولكنه قويَ على درْءِ هذه الاخطار وضرب على أيدي الاتراك وكسر شوكة البرتغاليين في هجمتهم الاخيرة أثناء معركة الثلاثة ملوك وصفّى المستوطنات الاوروبيّة شيئاً فشيئاً ماعدا سبتة ومليلة اللتين بقيتا إلى اليوم في أيدي الاسبان . ولم يكتف بالتصدي إلى محاولة الهيمنة السياسية بل مضى إلى الحد من مبادلاته التجارية مع الخارج بصورة فعالة . ويمكن القول ان المغرب الأقصى أصبح عند موت مولاي سليمان لايشارك في اقتصاد عالم تطورت مبادلاته التجارية تطورا سريعا .

وكان في الإمكان ان تقترن هذه الرغبة الملحة في العزلة بايجاد توازن داخلي مرضي . وفعلا ظهر السعديون حتى اوائل القرن السابع في مظهر الموحدين للبلاد وكانت البلاد قاطبة أو تكاد وراء المنصور في اعقاب وقعة الملوك الثلاثة واستقام له طيلة حكمه ابقاء البلاد متمتعة بنظام يكاد يكون مرضيا غير ان الاحداث أظهرت بعد ذلك ان قوى الانفصال والتفكك الكامنة انّما كانت خامدة ولم يتمّ تذليلها . فلمّا مات المنصور تطاحن القوم من جديد جندا وقبائل بربرية ورجال دين وأهل حضر . ومن حقنا ان نتساءل هل أن فترتي الهدوء النسبي اللتين عرفتهما البلاد في عهد مولاي اسماعيل وسيدي محمّد ليستا سوى مظهر للحال التي أصابت القومَ . ومن ذلك الوقت وحتى سنة 1912 ظلت البلاد منقسمة إلى قسمين : بلاد المخزن الخاضعة إلى السلطان ما أخذ بناصية الأمور وبلاد السيبة المنقسمة على نفسها أيضا من جراء الحزازات القبلية والمتمردة دوما على السلطان الذي لم يستوسق له الأمر في الرقعة الخاضعة له الا بتجواله المطّرد من مكان إلى مكان محفوفا بجيشه ومستخلصا للضرائب بقوة البنادق والمدافع . ولم يقو أي سلطان بل ربما لم يدر بخلد

أي واحد منهم ان يوفق بين هذه القوى المتنافرة إلى حد ذلك الوقت ولا ان يسعى إلى تجديد البلاد . وهكذا بقي المغرب الأقصى في عالم يتطوّر بسرعة وتتقارب أطرافه بفضل تحسن وسائل النقل وتزايد حجم المبادلات مجرد شتات من القبائل تضاءلت عندها الرابطة الدينية التي كانت الوحيدة الجامعة بينها . وبقي كذلك بلادا متشبثة بنظام اقتصادي مرّ عليه قرن بل عشرات القرون أي رقعة تزداد ابتعادا عن العصر كلما مرت السنون وموقعا جغرافيا على غاية من الاهمية لأنه ملتقى إفريقيا وأوروبا على طول طريقين بحريين أساسيين وهما طريق الساحل الغربي من القارة الافريقية وطريق البحر المتوسط . ولأنه يتصل من الجهة الشمالية بمضيق جبل طارق أحد ممرات الكرة الارضية الرئيسية ولأنه يتمتع كذلك بثروات طبيعية عظيمة .

وكان لامفر من أن تثير الامبراطورية الشريفية اطماعا كثيرة وهي الضعيفة المتحجرة والكائنة في موقع جغرافي مغر . وأصبح الوجود الفرنسي في الجزائر من المعطيات الجديدة لهذا المشكل الذي يتطلب حلاّ إن عاجلا او آجلا .



شكل 25 - : المغرب الاقصى فى اواسط القرن الثامن عشر



الباب السادس

1) ـ الحرب الصليبية الاسبانية والاخوة عروج وتأسيس الايالة الجزائرية .

2) ـ الدولة الجزائرية .

3) ـ الباى لاربايات ونهاية الدولة الزيانية والدولة الحفصية .

4) ـ العصر الذهبى للقرصنة الجزائرية والتونسية .

5) ـ بلاد الجزائر فى عهد الدايات والبلاد التونسية فى عهد الحسينيين .



I ـ الحرب الصليبية الاسبانية والاخوة عروج وتأسيس الايالة الجزائرية

المغرب الأوسط في أواخر القرن الخامس عشر :

ساعد انحلال المغرب في أواخر القرن الخامس عشر على غزوه من طرف الاجانب فلقد تمركز البرتغاليون في ثغور المحيط الأطلنطي وانتصب الاسبان في حصون السّاحل الجزائري والتونسي غير ان محاولاتهم باءت بالفشل أمام مبادرات الاتراك المنافسة لهم .

وأصبح شرقي المغرب وأوسطه بسبب هذه الفوضى المتفاقمة ضربًا من الفسيفساء السياسية التي يستشف الملاحظ تنوعها العجيب من دون ان يقدر على التدقيق في شأنها .

ففي إفريقية تعزّى خلفاء أبي فارس العظيم عن عجزهم برعاية الأدباء والاهتمام بالفنون واليهم يرجع الفضل ولاشك في توسيع جامع الزيتونة بتونس وتغيير مدخله وزيادة رواقه الخارجي المرتفع ، غير أن البلاد أصبحت فريسة للقبائل العربيّة التي تدفّقت سيولها العارمة حتى غمرت مرات كثيرة اسوار مدينة تونس ، ولئن افلتت جزيرة جربة من مراقبة البدو الرّحل فان مدن الجريد والموانـي لم تقدر على المحافظة على استقلالها الاّ بدفع الاتاوة ، واضطر السلطان الحفصي السجين في عاصمته تحت حماية جنده النصارى إلى الاحجام عن الخروج حتى جبل الرصاص (على بعد 28 كلم في الجنوب الشرقي وراء سهل المرناق) .

أما من تأخر من ملوك بني عبد الواد فانهم فرّطوا في النفوذ بالمغرب الأوسط واستبقوا سلطتهم في تلمسان وغربي البلاد الجزائرية بعناء كبير وباتت تحت رحمة هجمات الاجانب بعد ان انهكتها خلافات البلاط واستنزفتها مطامع الادعياء وجشع كبار الموظفين .

وفي مهب الاحداث المحلية انقسمت البلاد بين مملكتي بني حفص وبني عبد الواد إلى عدد لايحصى من امارات وقبائل أو مجموعات

مستقلة ومناطق تحت نفوذ الاولياء وليست لها جميعا حدود واضحة . وان الذي ساعد على هذا التشتت هو التوغل العربي في الشرق من دون شك وربما الطرقية في الغرب أيضا . فقد اتحدت واحات الفكيك فكوّنت دولة مستقلة وساست قبائل الوانشريس أمرها كما عنّ لها وخضعت بلاد القبائل إلى ملك كوكو (وهي قرية آيت يحيى على بعد 8 كلم من غربي ميشلي ؟) وسيطر الشيخ الحفصي صاحب قسنطينة على الجهة الواقعة بين عنابة والقل في مأمن من تدخلات السلطان وأصبح الزاب والحضنة من نصيب العرب الدواودة . وفي توقرت تأسست دولة جديدة بسطت نفوذها على واحات وادي رير.

وأقامت المراسي من جربة إلى المغرب الأقصى انواعا من الجمهوريات أعدت العدّة لممارسة القرصنة . فسلحت تونس وبنزرت وبجاية ومدينة الجزائر ووهران وحنين كل لحسابها سفنا شراعية تجوب البحر المتوسط . ولم يكن قراصنة القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر نهابين فقط على نحو ما أصبح عليه الاتراك فيما بعد بل مجاهدين في سبيل الله يقاومون النصارى لايفكرون في التجارة بالرقيق بقدرما يهتمون بأسر الكفار ، ممّا جعل بجاية ترفع من مبلغ الفدية إلى حدّ أصبح معه من المتعذر أو يكاد الاقدام عليها .

ولم تخل القرصنة ولو كانت لدواع دينية من انعكاس سيء على تجارة النصارى وأمنهم خاصة في أواخر القرن الخامس عشر حيث نشطت على يد المغاربة المطرودين من اسبانيا بصورة مهولة بينما تضاءل أمر القرصنة النصرانية رغم ضراوتها واندفاعها في البحث عن الجدافين على حساب العدو . فكانت الحاجة إلى إزالة مخابيء القرا صنة أقوى من الروح الصليبية وحافزا لتدخل الاسبان في المغرب .

أوائل الحرب الصليبيّة الافريقية :

لاشك ان بعضهم بالغوا في اعتبار الدوافع الدينية ذات أهميّة كبرى في بدء الحرب الصليبية الافريقية وخاصّة دراسات « برودل » (Braudel) التي أبرزت خصائصها بوضوح من دون ان ننكر طبعا ما كان يتحلى به فريدناند الكاتوليكي من حماس ديني على الأقل ، في مراسلته الرسمية وما كان

لرجال الكنيسة من مسؤولية عظمى في تنظيم الحملات الأولى فالواقع ان المصالح الماديّة هي التي سرعان ما لعبت الدور الأول فلقد جعل ملك اسبانيا انتصار العقيدة مشروطا باعتبارات سياسية داخلية وخاصة خارجية ليست لها علاقة البتة بالدين ، وسلك الجند النصارى مسلك المرتزقة الذين لايبحثون عن نجاتهم من النار بقدر ما تهمهم اللّذة الرخيصة بالنهب والتقتيـــــل .

وشجع الانحلال في بلاد المغرب المطامح الاسبانية فلاحظ أحد كتاب ملوك الكاثوليك المطلع على حقائق الأمور قائلا سنة 1594 « ان الحالة النفسية في كامل البلاد بلغت حدا من الانهيار يحمل على الاعتقاد ان الله ارادها في متناول « أصحاب الجلالة » والذي جعل المغرب الأوسط فريسة مغرية هو ما ابرم من اتفاقات مع البرتغال تمنع على اسبانيا التمركز في المغرب الأقصى عدا مليلة التي اكتفت فعلا باحتلالها (1497) بعد الانتهاء من استرداد الاندلس (1492) وكان يمكن ان يتواصل هذا الموقف السلبي لو لم تبلور ثورة المغاربة سكان الجبال في مملكة غرناطة خطر الاسلام من جديد (1501) كما بين ذلك « بروديل » . وأصر المتعصبون على الاعتقاد بان يدا مغربية خفيّة تحيك الدسائس في حين ان الأمر لايعدوان يكون مجرد انتفاضة شعب تحدّته مواقف « كسمناس دي سيسنيروس » (Ximénés de Cisnéros) المتطرفة ، اذ عُرف الكردنال بحدة الطبع وتأجج العاطفة الدينية والمطامح الدنيوية فاستغل حماس الكاتوليك الديني وحملهم بجهد جهيد على نقل الحرب إلى الارض الافريقية حيث كان المورسكوس اللاجئون يوغرون الصدور على الاسبان وكان القوم يخشون اجتماع كلمة ملوك المغرب وملك السودان المصري . وحالفهُ النصر في أول الأمر ، ثمّ دخل الاسبان المعمعة بعد ان هاجم قرصان المرسى الكبير لقَنْت (Alicante) وبلش (Elche) ومالقة في ربيع 1505 وأسلم المرسى الكبير أمره إلى أسطول اسباني بعد حصار دام شهرا ونصفا وهو أحسن مرفأ على الساحل الجزائري (9 سبتمبر — 23 أكتوبر 1505) فاستولى « بيدرو نافارو » (Pédro Navarro) الذي حذق القرصنة بعد فترة قضاها في مهاجمة السفن البربرية والنصرانية من دون ميز على حجر باديس (Pénon de Velez) الموجود في

منطقة المغرب الأقصى الخاضعة للتأثير الاسباني. (1508) وافتك وهران التي ربّما سقطت بسبب خيانة خائن والتي اشرف فيها الكردنال على تقتيل 4.000 من الاعداء وأسر 8.000 من الرجال وتحويل مسجدين إلى كنيستين (ماي 1509) ثمّ استحوذ على بجاية بعد مقاومة رمزية (جانفي 1510) وأضاف في قائمة انتصاراته المغربيّة أخذه مدينة طرابلس عنوة (جويلية 1510) .

ولم تضعف هزيمة جربة (1511) من شأن الانتصارات الاسبانية اذ بقيت المراسي التي لم تعرف بعد الاحتلال خائفة من أن ينالها ما نال المرسى الكبير ووهران وبجاية . وعرضت على التوالي تنس (قبيل سقوط وهران) ودلس وشرشال ومستغانم (ماي 1511) دفع الاتاوة وسلمت الجزائر إلى بيدرو نفارو أحد الجزر الصغيرة الحامية لمرساها فأقام فيها حصنا وأصبحت لذلك الجزائر تبعد 300 متر فقط عن رمية مدافعه ، وسيطرت اسبانيا بعد بضع سنوات على أهم المراكز الساحلية التي منها يمكن الانطلاق لغزو المغرب الاوسط غير انها لم تحاول ذلك قط وليس من اليقين ان يكون كسيمناس نفسه قد فكر في الأمر .

الحصون والاحتلال المحدود :

لئن عدلت اسبانيا عن التوسع في الغزو رغم تفوق عدتها فلأن مسألة إفريقيا كانت تحتل المرتبة الثانية في قائمة مشاغلها ، ذلك ان فرديناند الكاثوليكي ملك الارغون ولّى وجهته حيال البيرينيي وإيطاليا قبل كل شيء . ويرجع تدخله الحازم في فترة قصيرة (1509 – 1510) إلى ماراّن على الشؤون الايطالية من كساد وكان عليه دائما ان يقرأ حسابا لوضعية الخزينة التي ما كانت لتسمح بتدخلات لاغنم منها في العاجل . وهكذا لم تكن السياسة الافريقية مستقلة بذاتها منذ أول القرن السادس عشر ولايمكن فهمها من دون ربطها بسياسة اسبانيا العامة كما فعل برودل .

واكتفى الاسبان منذ حكم فرديناند الكاثوليكي بنظام الاحتلال المحدود . فحولوا المراسي المحتلة إلى مراكز محصنة ذات جدران عظيمة تقيم فيها الحاميات وتركوا ما عداها إلى الاهالي بما فيها الضواحي ،

ووقعوا بالنسبة لافريقيا في نفس الاخطاء التي ارتكبوها في حرب غرناطة واقتصروا على مسك المواقع الاستراتيجية التي كانوا ينطلقون منها عندما تتيح الفرصة للقيام بغزواتهم في الارياف المجاورة .

وعاشت الحصون في حالة حصار طوال فترة الاحتلال الاسباني وكانت حياة الجند شاقة جدا لأنهم كانوا لايجدون دائما ما يسد الرمق ولايتقاضون جراياتهم بانتظام . وكانوا في وهران المحظوظة يتموّنون بفضل مغاربة موالين لهم يخبرونهم بمواقع حيوانات القبائل الرحل في الاراضي المجاورة فينهبونها على ان وهران نفسها لم تكن في مأمن من خطر المجاعة ، وفيما عداها حيث كان التموين يأتي بالخصوص من البحر كان لعقدة الحصار نتائجها الرهيبة ، فقد كشف بحث رسمي أجري سنة 1540 بعنابة ان الجنود « بلغ بهم اليأس مبلغا جعلهم يريدون ان يتحولوا إلى مغاربة » .

القرصان عروج في الجزائر :

ان تدخل الاتراك غير المنتظر لم يزد وضع الحصون تعفنا فحسب بل تسبب في فشل سياسة اسبانيا الافريقية ، إن الجزائر هي التي قامت ببادرة غيرت مجرى التاريخ الافريقي . ولا شيء كان يشير حينذاك بان مرسى القراصنة البربر والموريسك الصغير سيكون له شأن كبير ، وان ماضيه كان متواضعا فعلى انقاض ميناء ايكوز يوم الروماني الصغير الذي استوطنته قبيلة بني مزغنّا البربرية أسس الأمير الزيري بُلُكّين في النصف الثاني من القرن العاشر المدينة التي استعارت اسمها من جزرها الصخرية الاربع ، ثمّ اصبحت فريسة لكل من فتحوا المغرب الأوسط فاحتلتها في القرن الرابع عشر قبيلة الثعالبة العربية التي أظهر زعماؤها مهارة في مداراتهم بني عبد الواد والحفصيين وبني مرين ، وكادت ان تصبح في القرن الخامس عشر عاصمة بني زيان ولكنّها تخلصت من وصايتهم و « أقامت شبه جمهورية صغيرة مثل البلدية يسيّرها جمع من الخاصة برعاية الثّعالبة ووفق مصالحهم » (ج. ايفار) .

ولاحظ الرحالة العرب تزايد نشاط تجارة مدينة الجزائر من القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر الا أنّه أخذ في الضعف من دون شك بسبب

ماحدث من اضطرابات في القرون الموالية — وعلى كل فان الميناء كانت تتردد عليه من حين إلى آخر المراكب الاوربية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر وبفضله تضاعفت القرصنة وزاد توافد الموريسك المطرودين من اسبانيا بعد سقوط غرناطة (1492) على هذه المدينة في عدد سكانها الذي لم يتجاوز في منتصف القرن الخامس عشر العشرين ألفا فأصبحت هذه الآلاف العديدة من اللاجئين سببا في تفاقم القرصنة بسبب ما كان يعتمل في نفوسهم من حقد شديد. وإنما وضع « بيد رونفارو » « المدينة تحت رحمة مدافع الحصن للتصدي للهجمات المستنزفة لجهود الاسبان خاصة ، غير ان السكان تألموا من الشوكة الساكنة بقلوبهم » إلى حد جعلهم يستنجدون بعروج القرصان التركي صاحب جيجلي منذ سنة 1514 .

ويظهر ان عروج واخوته (ويطلقون عليهم اسم بربروسة وهو في الواقع لقب خير الدين فقط) أبطال نحتهم التاريخ ليكونوا مادة لروايات ملحمية وكانوا اربعة أبناء لخزاف بمدلّي (ليسبوس القديمة) يدعون عروج وخير الدين والياس واسحاق وأظهروا منذ حداثة سنهم استعدادات عجيبة لممارسة القرصنة . ومات الياس اثناء القيام بهجمة واضطر عروج إلى أن يجدف في مراكب فرسان القديس يوحنا ، ولانعرف كيف تخلص من الاسر ولا لأي سبب غادر الارخبيل مع اخويه واختار البحر المتوسط العربي ميدانا لنشاطه وذاع صيته بين المسلمين من سنة 1504 إلى سنة 1510 لما اشتهر به من سطو على مراكب النصارى وخاصة الاسبانية منها وبفضل ما حققه من انقاذ لالآف الموريسك ونقلهم إلى بلاد البربر ، ومنذئذ تقاطر عليه المغامرون الراغبون في الغنيمة بالمئات للانضمام إليه والخضوع لإمرته . فاستغل الأمير الحفصي ذلك بمهارة رغبة في الربح وذهب به الأمر إلى منحه رخصة للتموّن في مراسيه واسناده حكم جزيرة جربة التي أصبحت قاعدة لعشرة أواثنى عشر من مراكب عمارته .

وسرعان ما استصرخ المسلمون هؤلاء الابطال الاشداء وقد شعروا بما كان يتهددهم من اخطار ، ففي سنة 1512 حاول عروج الاستحواذ على بجاية استجابة لنداء الوالي الحفصي المطرود ولكنّه لم يستطع مواصلة

الحصار لأن قذيفـة مدفعيـة قطعـت له يده ، وعاود الـكـرة عاميـن بعـد ذلك فأخفـق من جديد وعند ذلك انثنى نحو جيجلي (1514) الـكائنـة في موقـع مناسب لتتـبع أطوار الصراع القائـم بين بنـي عباس « سلاطيـن » القبائـل و « سلاطين » كـوكو ، ومكّنه تدخلـه في الوقت المناسب لنصرة بنـي عباس من المدد والنصائـح الغاليـة (1516) .

وأثار نعـي فرديناند الـكاثوليكي ضجـة في الموانى المغربيـة المحتلـة من الأسبان فاعتبـر أهل مدينـة الجزائـر انفسهـم في حل من عهـودهـم تجـاه الملك الراحـل ولـكـنهم كـانوا أضعف من أن يتحرروا من ربقـة الاسبان بأنفسهـم فألحَوا إلى شيخهم سليـم التـومي لاستصراخ عرّوج وسرعان ما أدرك عرّوج الغنم من هذه المغامرة فاحتـل اولا شرشال التـي كـان يسيطر عليهـا مغامر تركـي آخـر ثمّ دخل مدينـة الجزائر دخول الفـاتحيـن .

وخسب أهل مدينـة الجزائـر انهـم سيتخلصون من وطأة الحصن بسرعة غير أن مدافع الاتراك لم تَـنَل من القلعة فتهامس الناس وحيكـت مؤامرة بيـن الثعالبـة والاسبان وأهل مدينـة الجزائر للتخلص من القراصنـة ، فقتلها عرّوج في المهد عندما أمر بخنـق الشيـخ سليـم المزمع ارجاعه إلى الحكـم ، ودفع بجنده إلى مبايعتـه سلطانا ، ورجـع الأمـن إلى نصابـه بعد قتـل البعض من المتمردين وسجن البعض الآخر وقطـع الوعـود للاعيان ، ولئن لم تظفـر المدينـة بمنقذ فقد مسك سيّد بزمامها (1516) .

لم يعر الاسبان احداث المغرب منذ خمس سنوات عنايـة تذكر بـل ركـزوا جهودهم في ايطاليا ضد لويس الثاني عشر لذلك لم يتمكن « بيدرو نفارو » من مواصلـة مـآثره ، فـكان عليهـم طيلـة نصف قرن القيـام بحملات موجهـة نحو افريقيـا للتخفيف من حدّة الخطر التركـي الذي تضرر منـه الساحل الافريقـي وانخرمت بسببه تجارتهـم في البحر المتـوسط غير أنهـم لم يجنوا من جرائـه سوى مرارة الخيبـة من ذلك ان محاولـة أولى قادها « دياڤودي ڤيرا » للسيطرة على مدينـة الجزائـر باءت بالفشل الذريـع (30 سبتمبر 1516) وتعلـل عروج بموقف سلطان تنس الملتبس ليستحوذ على مليانة والمديـة وأخيرا تنس ، وعند ذلك استنجد به أهل تلمسان على ملـكهـم الذي كـان رضى سنة 1511 بالهيمنـة الاسبانيـة ، وسرعان

ماطرده عروج وانتصب حاكما بأمره في المشوار مكان من وعده بارجاعه إلى سالف سلطته ، وروي ان سبعين زيانيا هلكوا غرقا باذن منه ، وبنى الملك الجديد الحصون واخضع بني اسناسن وفتح مفاوضات مع سلطان بني وطاس صاحب فاس غير ان انتصاره لم يدم طويلا ، اذ أن جيشا اسبانيا انضم إليه عدد من أهل البلاد قطع عليه اتصاله بمدينة الجزائر وقبضت على أخيه اسحاق الذي قتله العرب رغم التعهدات السابقة (جانفي 1518) وحاصره طيلة ستة أشهر جيش انطلق من وهران في المدينة أولا ثمّ في المشوار ، واضطر البطل الابتر إلى أن يقاتل صحبة قلة من الاتراك وتمكّن من الفرار تحت جناح الليل غير ان القوم ادركوه قرب ريبو دي سلادو وقتلوه هو وجماعته شر قتلة بعد مقاومة عنيفة (1518) .

ورغم ان مغامرة عروج العظيمة الشأن توقفت في الرابعة والاربعين من عمره فانه استطاع أن « يبوّئ مدينة الجزائر وبلاد البربر مكانة الدولة العظمى » كما لاحظ ذلك عن جدارة الراهب البندكتي الذي كان أسيرا في هذه المدينة من سنة 1577 إلى سنة 1581 ، فقد أدرك عرّوج بفضل نظرته الثاقبة المعروفة عنه كيف كان يمكن ان تستفيد أقلية فعالة من الخلافات الموجودة بين الامارات المغربيّة وكيف كان يمكن بناء دولة اسلاميّة عتيدة على انقاضها وفي مأمن من هجمات النصارى ، وهكذا احتل المتيجة ووادي شلف ، وتيتري والظهرة والوانشريس وتلمسان وضعضع النفوذ الزياني بدون رجعة ، ولو لم يواصل أخوه خيرالدين عمله ويتمه في معظمه لكتب له الفشل الذريع .

خير الدين مؤسس الايالة الجزائرية :

ان للرجل الذي عهد إليه عروج بحكم الجزائر وعينه الاتراك خليفة له ، خصلتين اثنتين ، عزم حديد ودهاء سياسي صميم ، فهو الذي أطلق عليه معاصروه لقب بربروسة وهو المؤسس الحقيقي للايالة الجزائرية قبل ان ينظم الأسطول العثماني ويصبح أميرا للبحر وقائدا له .

انه وجد نفسه في وضع لايحسد عليه بعد الكارثة التي أصابت أخاه، وكان أهل تنس وشرشال والجزائر والقبائل في كوكو الذي بقي على ولائه لصاحب تلمسان المخلوع يسعون جميعهم للافلات من قبضة القراصنة ، فألهمت خير الدين عبقريته بربط مصيره بمصير الامبراطورية

العثمانية ، ولو اعتمد على نفسه فقط لخرّ تحت ضربات اعدائه الكثيرين أما اذا دعم نفسه بالباب العالي فانه يحظى بمكانة مرموقة ويتمتع بسند عسكري ومالي من شأنه ان يعينه على تحقيق مطامحه الكبرى . لذلك لم يتوان في التعبير عن ولائه للسلطان سليم الذي منحه لقب باشا وعينه أمير الأمراء (باي لرباي) بل إنّ القسطنطينية مدّته بألفي رجل مجهزين بالمدافع ثمّ أوفدت إليه اربعة آلاف من المتطوعين يتمتعون بامتيازات الإنكشارية .

وبلغه هذا المدد في الوقت المناسب لمواجهة أخطار كبيرة ، من ذلك مؤامرة دبرها سكان مدينة الجزائر وعدد من القبائل اغرقها في الدماء ، وهجمة اسبانية جديدة بقيادة هيڤو دي مونكدا كان مآلها الخسران الفادح (1519) غير ان خيانة جند كوكو في ساحة الوغى مكنت الجيش الحفصي من الانتصار عليه في بلاد القبائل بل اضطرته إلى التخلي عن الجزائر والاعتصام بجيجلي حيث استأنف من جديد حياة القرصنة (1520 — 1525) .

ولم يتخل رغم كل ذلك عن السعي لبلوغ غاياته فما أن أسعفه الحظ بتجييش الجيوش من جديد وملء خزينته بالاموال حتى استولى على القلّ (1521) وعنابة (1522) وقسنطينة واستعان بعد ذلك بسلطان بني عباس لطرد قبائل الكوكو من الجزائر وقد ساءت سمعتهم بين الناس واحتل المتيجة (1525) وتبيّن للاهالي من خلال قمع بعض الثورات في بلاد القبايل والحضنة وشرشال وتنس وقسنطينة ان سيّدهم الجديد لاتعرف الرحمة إلى قلبه سبيلا

ولمّا بقي الحصن سيفا مسلولا على مدينة الجزائر عزم خير الدين على مهاجمته بكل حزم ، فظل يقذفه بالمدافع طيلة ثلاثة أسابيع بدون هوادة ممّا اضطر قائده « مارتين دي فرڤاس » إلى الاستسلام بعد ان يئس من النجدة ولم يبق له سوى خمسة وعشرين رجلا من بين مائة وخمسين وجُلِد حتى مات يوم 27 ماي 1529 ، وأسرع خير الدين في تقويض أسوار الحصن .

وكانت الجزائر حينذاك مرسى متواضعا تتناثر فيه الصخور وتعصف به الرياح ممّا كان يضطر القراصنة إلى ارساء مراكبهم في شاطيء باب الواد الواقع على بعد ميل غربي المدينة . فأذن خير الدين

ببناء مكسر للأمواج طوله 200 متر وعرضه 25 مترا وعلوه اربعة امتار وربط به المدينة بالجزر بواسطة ممشى واستخدم لذلك الأسرى النصارى واستعمل بقايا الحصن وآثارماتيفو (روسقوني) (Rusgunioë) وهكذا أنشىء ميناء الجزائر ، ورغم انه وقعت حمايته بعد ذلك من الناحية الجنوبية الشرقية بمكسر للأمواج جديد (المكسر الأكبر) فقد بقي ملجأ لايفي بالحاجة تماما ، معرّضا إلى الزّوابع التي تثيرها الرياح الشرقية والشمالية الغربيّة غير ان موضعه بين قنال صقلية والمدخل الغربي للبحر المتوسط يخوّل له « مراقبة الطرق المفضية مباشرة إلى جبل طارق نحو شرقي البحر المتوسط وإلى جنوبي اسبانيا في اتجاه جنوب إيطاليا أو صقلية وكذلك التصدي لمن تحدّثه نفسه باستعمالها » (لاسبس) ممّا جعل الاتراك يتخذون من هذا الميناء الحربي الذي يمتاز بموقعه أكثر مما يمتاز بمرساه قاعدة محصّنة وملجأ لأسطولهم ، ولمّا احتل الاسبان بجاية ووهران منعوا فيها القرصنة وفسح المجال لجزائر خيرالدين ان تحتكر القرصنة في المغرب الاوسط .

غزو تونس :

لمّا أصبح خيرالدين سيّد الجزائر أراد ان يضمن لنفسه حريّة التحرك في الساحل الشرقي ، فاستغل ما كان يشكوه البلاط الحفصي من حزازات وما أظهره السكان من غضب تجاه السلطان مولاي الحسن فسعى إلى الهجوم على تونس بتأييد من الباب العالي فدخل الاتراك بنزرت وقوبلوا بالترحاب ثمّ حلق الوادي حيث أوْهموا السكان بأنهم انما جاؤوا لنصرة منافس الحسن الحفصي ثمّ دخلوا تونس العاصمة بعد معركة قصيرة (18 أوت 1534) ، وأعلن خيرالدين بعد نهب المدينة عن زوال ملك الحفصيين ونادى في الناس بالامان ثمّ ركز حامية بالقيروان وجلب إلى حوزته المدن الساحلية من دون كبير عناء ، بل انه توصل إلى كسب مساندة بعض القبائل العتيدة بجنوبي قسنطينة .

وكان نشاط القرصنة الذي تزعمه الاتراك بتونس يهدد مباشرة البابا والامراء الايطاليين ، وصادف ان حدث ذلك في فترة قويت فيها الروح الصليبية باوروبا ولاحت بوادر تهديد الفرس ممّا وجّه عناية القسطنطينية نحو الشرق ، ووعد فرانسوا الاول ملك فرنسا الذي تخلّى عنه خلفاؤه ،

بالحياد فيما اذا هجم شارل الخامس على البرابرة وكان الامبراطور مترددا لايعرف هل يوجه جهوده تجاه تونس ام الجزائر ، ولعل نداءات السلطان المخلوع مولاي الحسن وخاصة الرغبة في عزل الجزائر عن القسطنطينية هما اللذان دفعاه إلى الهجوم على عاصمة الحفصيين فأرسى اسطوله المتكون من 400 مركب شراعيي والحامل لـ 30.000 رجل بقرطاج دون عناء يذكر ، ثمّ افتك الاسبان حلق الوادي (14 جويلية 1535) وبعد ستة ايام دخلوا تونس حيث كسر الأسرى النصارى الذين أبى خيرالدين تقتيلهم أصفادهم واستولوا على القصبة .

غير ان هذا النصر الذي أثار حميّة النصارى لم يحل أي مشكل. ذلك ان شارل الخامس كان عازما أكثر من فرديناند الكاثوليكي على الا يغامر فيحتل بلاد البربر فاقتصر على اقامة قلعة في حلق الوادي وارجاع مولاي الحسن إلى عرشه من دون ان تكون له أية ثقة في المستقبل وكان أول المعترفين بان السلطان الحفصي « كان مبغوضا من رعاياه » وقد أصبح بعد المذبحة العظيمة التي صاحبت رجوعه « عرضة أكثر من ذي قبل للاحتقار وبات نفوذه معدوما تماما » ، وما كان لحماية تمثل قرارها الاول في فرض ملك على بلاد بالرغم عنها ان يكتب لها الدوام بدون اعتماد على جيوش كثيرة ، بينما اقتصر الامبراطور على تركيز بعض الفصائل في حلق الوادي تاركا لمولاي الحسن زمام الامور للنجاة بنفسه .

ولم يرض خير الدين بفشله بعد ان اضطر إلى اللواذ بعنابة حيث أرسى اسطوله ، فانقض فجأة على ماهون (Mahon) وافتك ستة آلاف من الاسرى وغنم غنائم كبرى ، وكانت آخر عملية بطولية قام بها بوصفه قائدا للقراصنة الجزائريين ذلك ان السلطان سليمان الذي سمّاه سنة 1533 قبطان باشا (اميرا على البحر) استقدمه إلى القسطنطينية ليقود العمليات ضد شارل الخامس وحلفائه ، وكان خيرالدين محل ثقة السلطان وصديق السفراء الفرنسيين الذين كان يؤيد سياستهم وكان يتمتع بصيت كبير بفضل ما حققه من انتصارات باهرة واحتفظ بحظوة كبيرة في القسطنطينية إلى أن وافاه الأجل في 4 جويلية 1546 .

2 ـ الدولـــة الجزائـــريـــة

الـوجـق :

مكّن خيرالدين دولة « الجزائريين » كمـا كـان من المتعارف ان يدعى بـه أتراك الجزائر ، من تنظيم عسكري في أساسه لم يطرأ عليـه تغيير كبير حتى الغزو الفرنسي . وكـان الجند الانـكشاري (الوجق) مثلما هو الشأن بالقسطنطينية محظوظا كـثير التهويش واسع التأثير في سير الشؤون العامـة . وكـان المجنـدون من بيـن رعـاع الاناضول فمـا ان تقـذف بهـم مراكـب الباب العـالي في المـرفـأ حتى يتخلصـوا في مدينـة الجزائـر مـن ثيابهـم الرثة ويصبحوا « اسيادا لامعين عظمـاء » . وبعـد ان عينت هـذه الارستقـراطيـة قـوادهـا بـواسطـة الانتخـاب نظمـت صفـوفهـا حسب مقاييس قـارة أسـاسهـا المسـاواة وعـنـد ذلك أصبـح الإنـكشـاري البسيـط يرتقي في سلـم الدرجات العسكريـة بفضـل الاقدميـة إلى أن يصـل إلى رتبة آغا ثم يتخلى عنهـا بعـد شهريـن ليصبـح آغـا شرفيـا (منصولاغة) وكـان هذا الحرس ينقسم إلى عدة سرايا (أورتة) متفاوتة العدد تسكن ثـكـنات حسنة الترتيب وتتجمـع في غرف تـأوي بيـن اثنى عشر وعشريـن رجلا ، وكانت السريّة تحافظ محافظـة تامة على قـدرها الـكبيرة البرنزيـة وتجتمـع حولهـا لـلأكـل او المناقشة ، واذا ما ثار الإنـكشاريّة فانهـم يقلبـون القـدر وتتعالى اصواتهـم بنداءات الحرب (استميز) .

وكان لباسهم العسكري يحتوي على طرطورة من القماش الصو في الملون ذات طرفين تطوى وتنزل على الرقبة ويرجع اصلها إلى أحد الدراويش الاتراك ويعلـو هذه الطرطورة اما غلاف من الخشب او قرن مذهب أورياش ـــ كمـا تحتوي على ياقة مفتوحة ذات أكمام وسراويل من كـتان تشدها شملـة .

واستعمل الوجق اثناء فترة الباي لرباي الطبنجات والسهام إلى جانب الاسلحة النارية والسيوف المستوية ذات المقبض الواحد أو المقبضين والسيوف العريضة (صفائح) والخناجر . وكان الانكشارية يتمتعون بحظوة خاصة فيعطون الخبز واللّحم والزيت وجانبا من غنائم القرصنة ويتقاضون كذلك مرتبا . وكانوا يعفون من الضرائب . فقد كانت الحكومة توظف على المواد الغذائية بعد درس دقيق لتكاليف انتاجها ضريبتين احداهما رمزية لفائدة الإنكشارية وذويهم والثانية تشمل غيرهم من الشّارين ويدخل فيها ربح البائع — وكانت تقاليد الوجق تنظّم كل مظاهر حياتهم بما في ذلك العقوبات اذ كان الإنكشارية لايخضعون إلى السلط القضائية العادية بل يرجعون بالنظر إلى ضباطهم الذين من حقهم ان يحكموا عليهم بالسجن او الجلد او الاعدام الذي ينفذ في نطاق السريّة .

وكان الإنكشارية يمثلون المشاة فحسب اذ ينتدب الخيالة (الصبايحية) من بين قدماء الآغوات أو الاهالي وكانوا مشهورين بشجاعتهم يؤلّفون بينهم عصبية قوية غير انها اتصفت بالعنجهية وعدم الانضباط وسرعان ما خلط ديوانها المكلف بالدفاع عنها بين مصالح افرادها الخاصة ومصالح الدولة فلم يعد يكتفي بايجاد ثلة من اعضائه يمثلونه لدى ديوان الباشا حيث ينظر في شؤون الدولة ويحكم بين النّاس بل حاول أكثر من مرة الاستيلاء على الحكم ، ولم يوجه ضرباته ضد الباي لارباي بل تآمر كذلك على طائفة الرؤساء المناهضة لهم والمؤيدة له .

طائفة الرؤساء :

كان خيرالدين واخوته قد كونوا مجموعات من البحارة ودربوهم على القرصنة وجعلوا من مدينة الجزائر أخطر المواني في مجال القرصنة، وأسندت اليهم القسطنطينية في نطاق محاربة الكفار أمر منطقة غربي البحر المتوسط ، فكانوا يوجهون ضرباتهم بالخصوص ضد اسبانيا عدوة الاسلام في بلاد المغرب منذ القدم وكانت سياط القائم على الجدّافين الأسرى تلهب حماسهم فيدفعون بالغَلْيُونات (galiote) إلى الامام تجديفا حتى لاتكشف اشرعتها عن وجودها ، وبذلك يتمكن مسلمة النصارى والمغاربة من النزول فجأة بسواحل إسبانيا الشرقية فينهبون

القرى ويأسرون سكانها ، ولم تستطع ابراج المراقبة التي شيّدت ولا لجان الرعاية التي بعثت ان تحبط حيل القراصنة ، أمّا الامبراطور الذي اثقلت كاهله الشكاوى وتهاطلت عليه اللوائح فانه أغدق على رعاياه كلمات المواساة والتشجيع من دون ان ينجدهم بالفعل ، ممّا حمل سكان السواحل على مغادرة هذه المناطق البحرية غير الآمنة . .

وكان القراصنة الذين لم يرفقوا كذلك بسواحل سردانية وصقلية ونابولي يهددون المواصلات البحرية بين الممتلكات الامبراطورية الاسبانية والايطالية فيصعدون إلى المراكب ويختطفون البحارة ويستولون على البضائع ، وكان الفرنسيون والجزائريون يعملون باتفاق على ضمان سيطرتهم على غربي البحر المتوسط لافساد خطة الامبراطورية الاسبانية — ولو لم يسعف شارل الخامس باعانة غير منتظرة تمثلت في انضمام اسطول « اندري دور يا الجنوي » لكان يمكن ان ينجح التحالف بين الملك المغرق في تعلقه بالنصرانية وبين القراصنة المسلمين — وعلى كل فان نشاط القرصنة ألحق بعض الضرر بتجارة موانئ اسبانيا الشرقية وأثرى مدينة الجزائر بما ضمنه لها من غنائم . وبذلك تحول الجهاد العقائدي إلى حرب غايتها التكالب على الغنائم .

ولم يقدر النصارى على تنظيم صفوفهم لمواجهة هذه الحرب فقد قال هيدو : « كان القراصنة في الشتاء والربيع يشقون عباب البحر من المشرق إلى المغرب ساخرين من سفننا الشراعية التي كان بحارتها يقضون اوقاتهم في اللهو والقصف بالموانئ — وكانوا على يقين من ان السفن الشراعية النصرانية البطيئة الحركة أيّما بطء والمثقلة متاعا أيّما ثقل عاجزة عند مواجهتها لغليوناتهم التي بلغت حدا كبيرا من اتقان التّوْديك وخفّة الحركة عن مطاردتها ومنعها من النهب والسلب كما طاب لها . بل انهم تعوّدوا الاستهزاء منها وتغيير وجهتهم فجأة حسب هواهم وحتى مواجهتهم بمؤخرة مراكبهم » . ويرجع تفوق الجزائريين لا الى ملاءمة سفنهم ومراكبهم الشراعية مع حرب القرصنة فحسب بل إلى تدرب الجدّافين وانضباطهم الصارم واعترف كذلك هذا الراهب البندكتي نشيخ قائلا : « لقد بلغ تمسكهم بالنظام والنظافة وتهيئة مراكبهم حدا جعلهم لايفكرون في غير ذلك وكانوا حريصين خاصة على اتقان

عمليّة رصف البضائع لمزيد القدرة على الانسحاب والمراوغة . واخيرا ولنفس الغرض كان ممنوعا على أيهم وان كان ابن الباشا نفسه ان يغيّر مكانه او يتحرك من بقعته » .

وكان لايوجد في طائفة الرؤساء رفاق خيرالدين واخوته ودرغوث وسنان سوى أقلية من الاتراك او الاهالي . ذلك ان معظم اعضائها متكون من مسلمة النصارى المنحدرين من المقاطعات الفقيرة الكائنة على ضفاف البحر المتوسط والممارسين للقرصنة واللصوصية مثل اخوانهم في جهة كلابر وجزيرتي صقلية وكورسيكا ، وسرعان ما أدركوا بعد وقوعهم في الاسر من طرف الغليونات الجزائرية ان مجتمع القراصنة لايخلو من امتيازات محسوسة بالنسبة لما كانوا عليه في مسقط رأسهم اذا ما دفعوا بردتهم ثمنا لذلك ، فأصبحوا كما سماهم هييدو « اتراكا بحكم المهنة » وكانوا يمدون الطائفة بمعلومات مضبوطة حول « الاراضي والشواطىء النصرانية » التي كانوا يعرفونها حق المعرفة وكانوا بالجهاد المقدس أقل تعلقا منهم بجمع الغنائم . على ان رؤساءهم فرضوا عليهم في عهد الباي لرباي الامتثال لأوامر السلطان بفضل ما كان لهم من نفوذ فأبلوا البلاء الحسن في المعارك التي شنها الأسطول العثماني على الكفار ، وكان للرؤساء في عام 1558 خمس وثلاثون سفينة شراعية وخمسة وعشرون مركبا شراعيا او حراقة وعدد كبير من المراكب المعدة للقرصنة .

وكان القراصنة يتمتعون في مدينة الجزائر بسمعة كبرى ، كتب هييدو عنهم قائلا « تعم الفرحة مدينة الجزائر كلما عادوا اليها ذلك ان التّجار يشترون العبيد والبضائع التي جلبوها ويبيعونهم كل ما خزنوه في مغازاتهم من ملابس ومؤن وينهمك الجميع في الشرب والأكل والمتعة » .

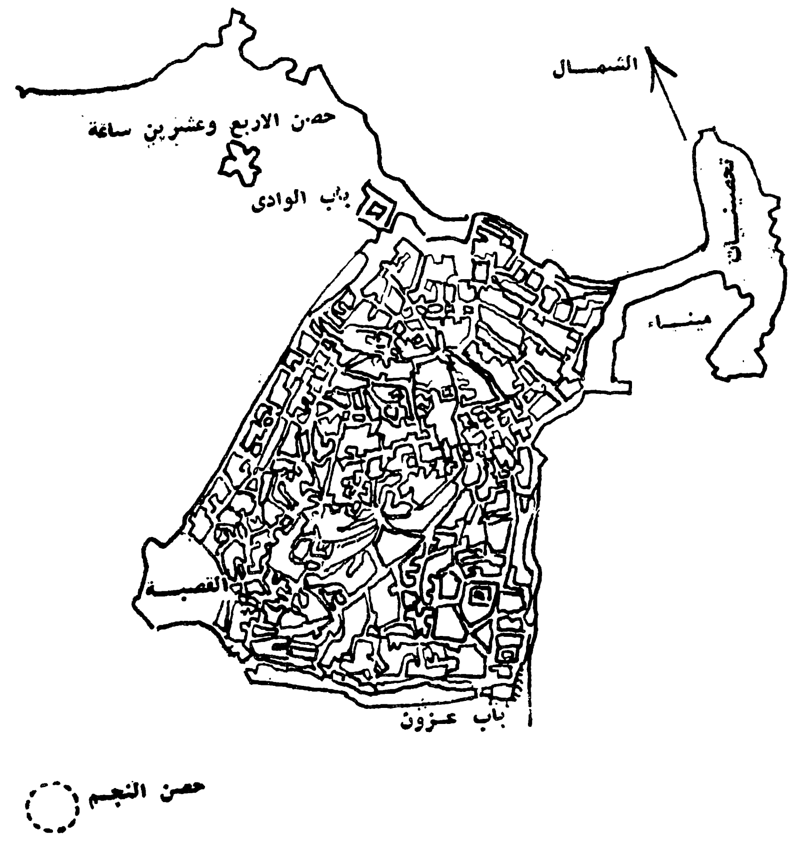
وكان الإنكشارية يحسدون القراصنة الذين كانوا بدورهم يحتقرونهم ويسمونهم ثيران الأناضول ويساندون الباي لرباي في امتناعهم من الاستجابة إلى طلباتهم ، غير ان الرؤساء اضطروا إلى التنازل لفائدة الوجق وقبول عدد منهم في بحارتهم (1568) ممّا ساهم في تقهقر القرصنة رغم ما بذله الرؤساء من مجهود للحد من عددهم .

جزائر القراصنة :

لمّا أصبحت الجزائر مدينة القراصنة اضطرت إلى التسلح للقيام بالهجومات والتحصن لمواجهة ردود فعل الاساطيل المعادية ، فكانت بذلك دار صناعة ومرسى يُلجأ إليه ، واعتبرت ابتداء من عهد الباي لرباي قاعدة حربيّة تحوط بها مراكز محصنة لدرء الهجمات البحرية وقد زيد في عددها زيادة ملحوظة بعد حملة شارل الخامس (1541) وقبل هجوم دون خوان النمساوي على تونس (1573) ، وتمت حماية الجهة المواجهة للبحر من الجزيرة باقامة مأمن كما بُني برجان في موقع الحصن القديم وفي طرف رصيف مكسر الامواج الكبير . وشيّد عروج في مكان يعلو بقليل القصبة البربرية القديمة قصبة جديدة لم يتم بناؤها الا سنة 1590 وأعاد خير الدّين وخلفاؤه بناء سور المدينةونحن نعلم بفضل هيدو الذي كان يشبه مدينة الجزائر بقاذوف تكون الجهة المواجهة للبحر بمثابة الحبل فيه ، انّ اسوارها التي بلغ ارتفاعها من 11 إلى 13 مترا وطولها حوالي 2.500 متر كانت مبنية من لبنات مشدودة بعضها إلى بعض بملاط قوي ومقامة على قاعدة من باطون (Béton) . غير ان البناء المواجه للبحر نفسه كان اضعف من ان يصمد امام كل الاخطار رغم سماكته وعلوه : لذلك عمد القوم إلى حماية السور بواسطة خندق يتراوح عمقه بين ستة وثمانية امتار وعرضه من 11 مترا إلى 14 مترا ونصفا وعززوه بابراج مربعة الشكل وبريجات قليلة البروز . اما مكسر الامواج الذي بناه خير الدين ودار الصناعة بالمصيدة (La Pêcherie) فقد كان يحميها بناءان عظيمان ومن شرفات المأمن وكواه كانت تنطلق طلقات البنادق وقذائف المدافع .

وكان للمدينة خمسة أبواب رئيسية : الباب الجديد بالجنوب الغربي من المدينة ويوجد في أسفل القصبة وباب عزون جنوبا وهو أعظم الأبواب شأنا ومنه يدخل القادمون من الارياف ويربط بينه وبين باب الواد طريق تجارية طويلة وباب الجزيرة او باب الجهاد المفتوح على مكسر الامواج الكبير ومنه يمر الرؤساء وأخيرا باب السمك او المصيدة او الديوانة واليه يتجه القادمون من الميناء .

ويوجد خارج الأسوار عدد من الحصون المكملة للتحصينات المواجهة للبحر فمنها برج علج علي الذي يعرف ببرج اربع وعشرون ساعة ويحمي شاطيء باب الواد (1568 – 1569) وحصن النجمة الذي بني بعيدا عن البحر في مكان أعلى من القصبة (1568) وبرج السلطان قلاصي المفتوح على الجنوب والمشيد في موقع معسكر شارل الخامس وكانت كل هذه الابراج بمثابة الدرع على أطراف المدينة .



شكل 26 . ـ مدينة الجزائر في عهد الاتراك

وغصت المساحة الصغيرة الباقية داخل الأسوار بالدور البيضاء ذات السطوح المُدرّجة والتي برز جزء من بنائها بواسطة عوارض من الخشب واشرف على الأنهج الضيقة حتى التقى في بعض الأحيان بالبناء المواجه

وأصبح بذلك سقفا من الأعواد او من عقود القباب ذات الحروف ، ولم يشيد الرؤساء منازلهم الفخمة في أسفل المدينة الا في أواخر القرن السادس عشر . فلم تغيّر هذه البناءات الجديدة المظهر الخارجي للمدينة التي بقيت مدينة مغربية رغم ان معظم اهلها لم يكونوا مغاربة وان شكل بعض الدور الفخمة من الداخل لم يكن مغربيا كذلك فقد كان يوجد حوالي سنة 1582 على حد قول هييدو مائة مسجد و كنيسة وزاوية لم يبق منها اليوم أي أثر « فكانت قاعات للصلاة متوازية البلاطات مغطاة بسطوح من القرميد ذات السفحين » (ج . مارسي) .

سكان الجزائر :

اننا اذا اعتمدنا حسب لاسبس (Lespés) التعداد الذي قام به هييدو قدرنا ان الـ 12.200 مسكن الموجودة في عهد الباي لرباي كانت تاوي أكثر من 60.000 ساكن من دون ان نضع في حسابنا الـ 25.000 من الأسرى النصارى الذين كان عدد كبير منهم مقيما بالضواحي وكان نصف المساكن تقريبا على ملك مسلمة النصارى الذين يمثلون مع العشرة آلاف مشرقي أغلبية السكان الساحقة . وقد حشر هييدو تحت عنوان المغاربة 6.000 من الموريسك الهاربين من الأندلس او غرناطة (المدجنون) أو بلنسية او الارغون أو قطلونية (أهل تاجرا) و 3.500 من القبائل وعددا غير مضبوط من العرب ربما بلغ 3000 أي في الجملة ما يقارب 25.000 ساكن على الأقل وكان حوالي 5.000 من اليهود تغص بهم حارتهم

وكان الكراغلة وهم المنحدرون من آباء اتراك ونساء من الاهالي يشاركون في الشؤون العامة . ومنهم ابن خيرالدين حسن باشا الذي عيّن باي لارباي اما المغاربة فقد حرموا من هذه الحظوة واعفوا من الخدمة العسكرية ، وانفردوا بالصناعات المحلية وتعاطوا أحيانا الفلاحة وساهم اثرياؤهم في تمويل السفن الشراعية وأخذوا قسطهم من ارباح القرصنة ، واستخدم « القبائلية » في الأعمال اليدوية اليومية ولم يتخلصوا من الوصاية الثقيلة المسلطة عليهم . واحتكر بنو مزاب الحمامات ودكاكين القصابة وطواحين المدينة ، كما اهتمّوا كذلك بنشاط القوافل وتجارة العبيد السود . وكان اصيلو بسكرة سقائين و « خنادقية » وأعوان شرطة

وخاصـة حمالـين يعيشـون في أكـواخ من التبن بضاحيـة باب عـزون او يلتحفون السماء . أمّا حارة اليهود المختلطة فقد سكنها عدد قليـل من اليهود الافارقة الشبيهين بالبؤساء من الاهالي وعدد كبير من المهاجرين الوافدين في أواخر القرن الثامن من الجزائر الشرقية (Les îles Baléares) (شكليين) ثم بعد قرن وخاصة بعد سنة 1492 من اسبانيا ، ويمثل الكبوسيون (1391) الخاضعون خضوعا كليا لسلطة أحبارهم الارستقراطية الفكرية والتجارية وهم فعلا المؤسسون الحقيقيون للحركة اليهودية بالجزائر وأذن خيرالدين لليهود بالاستيطان في الايالة مع تحديد عدد دكاكينهم ، غير انهم لئن تمتعوا سريعا بمكانة مرموقة في العمليات التجارية وخاصة في تصريف الغنائم التي لاتروج على عين المكان فقد ظلوا عرضة لإهانات الاهالي الآخرين واضطروا إلى حمل زي خاص بهم ودفع الجزية . ومثل الاوربيين بعض التجار وعدد كبير من الأسرى ولم تعر مدينة الجزائر التجارة كبير أهمية بينما أسس بها عدد من تجار البحر المتوسط وخاصة من مرسيليا (قبل 1550) محلات تجارية ، واستخدم ملك فرنسا الحريص على مراقبة نشاط رعاياه نفوذه لدى الباي لارباي لتعيين قنصل بالجزائر ابتداء من سنة 1564 غير ان الباب العالي استعمل كل ما لديه من سلطة معنوية لوضع حد لمعارضة الجزائريين ولم يتم ذلك الا في سنة 1580 وتمكن الانقليز بعد مرور خمس سنوات من تعيين ممثل لهم لكن من دون ان يتمتع بامتيازات القنصل ، واحتوت الجزائر كذلك على خلق كثير من الأسرى بلغ عددهم حوالي 25.000 في عهد هييدو حيث كان الرؤساء يجلبونهم بالمآت إلى سوق بادستان .

وبلغ عدد اللغات المختلفة نفس عدد الاجناس تقريبا . وكانت التركية هي اللغة الرسمية لغة الارستقراطية العسكرية والبحرية اذ يؤول الأمر بكل من اعتنق الاسلام إلى التكلم بها . واحتفظت اللهجة العربية الدارجة بمنزلة مرموقة اذ لم يقتصر استعمالها على البلديين واللاجئين من اسبانيا بل كانت ايضا اللغة الوحيدة التي تفهمها القبائل المجاورة . ولم يذكر هييدو شيئا عن اللغة البربرية غير انه من حقنا ان نؤكد ان لهجات القبائلية والمزابية كانت مستعملة على الأقل في عدد من الاحياء وداخل منازل كثيرة نظرا إلى مايذكره هييدو نفسه من استيطان عدد كبير من

القبائلية صحبة عائلاتهم ، وأخيرا كان جانب من العبيد وبعض التجار الاوربيين ونفر ممن اعتنقوا الاسلام حديثا يتكلمون « اللغة الفرنقاوية » (Langue Franca) لغة المعاملات وهي خليط من العربية والاسبانية والتركية والايطالية ولغة البروفانس وكذلك بعض الكلمات البرتغالية بعد واقعة الملوك الثلاثة اذ وفد على الجزائر فجأة عدد كبير من العبيد البرتغاليين الذين باعهم المنصور .

ويظهر ان الحياة في مدينة الجزائر على عهد الباي لارباي كانت تتسم بالرخاء اذ كثرت المواد الغذائية وانخفضت اثمانها غير ان المجاعة والطاعون كانا يفتكان في بعض الاحيان بالناس فتكا . فقد اكد هيدو انه مات جوعا في شهر واحد وفي شوارع المدينة 5.656 مغربيا اوعربيا (17 جانفي — 17 فيفري 1580) وان وباء فتاكا كا ذهب بثلث السكان في ظرف عامين (1572 — 1574) ، وكان من الحتمي فتح الأبواب امام تيار الوافدين الجارف المتواصل لتلافي هذا النقص .

حكومة الباي لارباي :

كان الباي لاربايات المعينون من طرف السلطان يحكمون الايالة مباشرة وبواسطة خلفائهم ، غير مقيدين بوجهة نظر الديوان ويمارسون نفوذهم على باشوات تونس وطرابلس ويتصرفون تصرف « ملوك الجزائر » حقا كما سمّاهم هيدو ، وظلوا على ولائهم التام للباب العالي ينفذون تعليمات أمير المؤمنين على مضض احيانا . من ذلك اعطاؤهم حوالي سنة 1650 ورغم معارضة الجزائريين « لطوماس لاش » وهوَ « كورسيكي » مقيم في مرسيليا لزمة صيد المرجان فيما بين رأس رو وبجاية مما يعدّ بادرة فيما يسمّي بلزمات افريقيا وكذلك حق تأسيس مركز غير محصن في برج فرنسا الكائن على بعد عشر كيلو مترات غربي القالة .

وكان الباي لاربايات يقيمون بالجزائر في الجنينة الكائنة وسط دار السلطان وهي مجموعة كبرى من البناءات « وتحتوي على ساحتين الثانية أصغر من الأولى وتتوسطها بركة مربعة الشكل وحنفية كبيرة تكسبانها روعة ، ويوجد في إحدى الزوايا مدرج خشبي كبير يفضي إلى رواق طويل ارضه مفروشة بالجليز ومحاطة باعمدة من الرخام وتتدفق المياه عالية

وسط فسقيـة مثمنة الاضلاع ويجلس الباشا على اريكـته القليلة العلو في اقصى الرواق (ج. مرسي) .

ولم يكـتف الباشوات باثراء عاصمتهم بواسطة القرصنـة بل استغلوا خيرات بلاد الجزائر كلمـا توسعوا في غزوها . وساعدتهـم على ذلك الفوضى السائدة في البلاد حينذاك فقـط بل كـذلك وحدة المعتقد بينهـم وبيـن الأهالي ومن دون شك نشاط الزّوايا ايضا. ولم يقتصروا خاصة على احتلال السواحل بل أسسوا حاميـات في المدن التي تحتـل مواقـع استراتيجية واستهدف تنظيمهـم امتصاص خيرات الاهالي بتوظيف الاداءات عليهـم معتمديـن على قبائـل المخزن المحدثـة ابتداء من 1563 وتوجيـه « المحلات » لنهـب البلاد . اما الذهب الذي لايرسلـه الباشا إلى السلطان استبقاء لحظوتـه لديـه فإنـه يملأ به خزائنـه الخاصـة .

وسرعان ما أدراك الباي لاربايات ان الخطر الذي يهدد حكمهم لا يأتي من رعاياهم بل من الإنـكشاريّة . لذلك حاولوا انشاء جيش لايقـل عنهـم اقداما لـكـنه أشد اخلاصا إليهم منهـم واختاروا عناصره من بيـن مستجدي القبائـل وخاصـة قبيلة زواوة وربمـا فـكروا في انشاء امبراطورية بحريـة تقتضي تظافر جميع قوى الايالـة ، غير ان الباب العالي بايعاز من الإنـكشارية حال دون ذلك خوفـا من ان تساعد مثـل هذه القوة على بعث دولة مستقلـة ومنافسة له، على ان الاتراك الذين تعلقـوا بحكـم اتصالاتهـم مع الاوروبيين بنظريات سياسية مجهـولـة من الدول المغربيـة أثروا تأثيرا عميقـا في إرساء اركـان الدول البربريـة ، ذلك ان الاتْـراك احلـوا فـكرة الحدود المضبوطـة محـل التخوم غير الدقيقـة التي قنـع بهـا القوم إلى ذلك العهد فـكانوا المتسببين الرئيسيين في التمييز الذي تـم في القرن السادس عشر بيـن البلاد الجزائرية والبلاد التونسية اللتين يـرجـع تسميتهمـا إلى عهـد ملـوكيـة جويليـة فقط وبـلاد المغرب الأقصى ، وحارب الباي لا رباي في نفس الوقت الأشراف المغاربة لتخوفهم من قوّتهم والاسبان المتمركزيـن بالحصون والساعين إلى الاعتمـاد على دولتـي تلمسان وتونس المواليتين للجزائـر والمناهضتين للاتراك .

3 ـ البای لاربايات و نهاية الدولة الزيانية والدولة الحفصية

صراع البـاي لا ربـاي ضدّ الاسبـان والأشراف (1536 ـ 1568) :

عندما عزم خيرالدين على السفر إلى القسطنطينية اذاب عنه خليفته حسن آغا (1536 ـ 1543) الذي تميزت مدته بمحاولة شارل الخامس الاستيلاء على مدينة الجزائر (1541) ذلك ان الأمبراطور أراد تسديد الضربة الحاسمة للقضاء على مكمن الرؤساء بعد ان ضمن لنفسه من جديد حياد ملك فرنسا ، ودبّر الأمر حتى لايفاجئه الاسطول العثماني فانتظر الخريف للاقتراب من مصب الحراش بأسطوله المتكوّن من 516 مركب شراعي تحمل على متنها 12.330 بحار و 24.000 جندي (23 أكتوبر) واستطاع الجيش الوصول إلى الرُّبَى المشرفة على المدينة غير ان توالي الزوابع وتهاطل الأمطار الغزيرة ادخل عليه الاضطراب فسهل على العدو دحره وتمكن الهاربون من الجند بعد تقهقر مضن دام ثلاثة ايام تحت حماية فرسان مالطة من الالتحاق بالاسطول في رأس ماتيفو وقد أتلفت العاصفة 140 من مراكبه وعدل شارل الخامس باشارة من قائد اسطوله عن محاولة القيام بهجوم ثان وأذن لفلول جيشه باللواذ بالسفن (3 نوفمبر) وغنم الجزائريون غنائم كبرى واعتبروا أقوى من أن تُكَسَّر شوكتهم رغم أن العنَاصر الطبيعية هي السّبب الحقيقي في انتصارهم .

وكان من نتائج انتصار الاتراك ان انضَمّ اليهم مولاي محمّد ملك تلمسان وسلمهم المشوار بعد خروجه عن الولاء للإسبان . فكانت الفرصة سانحة لاثارة حميّة النصارى ودفعهم إلى ردّ الفعل ، وسُرعان ما بوّأ والي وهران الكونت الكودات للحكم عبد الله وهواخ صغير للملك ودخل تلمسان على رأس فرقة من الجيش ونَصَّبَهُ مَلكًا عليها (6 فيفري 1543) ورجع بعناء إلى قاعدته بينما بايع أهل تلمسانَ ملكهم السابق . وهكذا

كان الفشل نصيب هذه الطريقة التي تعتمد القيام بالهجمات داخل البلاد من دون تمركز دائم .

وربّما عاب خيرالدين على حسن آغا ضعفه اثناء حصار الجزائر فنزع عنه بعض ثقته طيلة أشهر ثمّ عوّضه بابنه حسن باشا (1544 — 1552) الذي وجه جهوده خاصة نحو غربي الايالة — واضطر الإنكشارية إلى التخلي عن تلمسان التي دخل ملكها تحت حماية الاسبان (1547) وانجدوا قاعدة مستغانم المحاصرة من طرف الكونت الكوديت . فاغتنم محمّد المهدي الشريف المنتصر على بني وطّاس سلبية الأتراك لاحتلال عاصمة بني زيان التي كان له فيها عيون وانصار (1551) اما ابنه فقد تشجع بهذا الانتصار الأول فاستولى على مستغانم وواصل زحفه متخطّيا وادي شلف . ولم يحرك الاسبان ساكنا لان المشاكل الاوروبيّة الشائكة اقعدتهم عن ذلك بينما رد حسن باشا الفعل بقوّة بعد ان خلف أباه على الحكم (1546) فتوجه الجيش التركي بقيادة حسن كورسو الجديث العهد بالاسلام وبدعم من القبائل المقيمة غربي البلاد والمناهضة للسيطرة المغربية فاسترجع مستغانم واباد الجيش الشريفي وواصل زحفه حتى بلغ الملوية ثمّ دخل تلمسان وأبى حسن كورسو ارجاع الملك الزياني الموالي للاسبان إلى عرشه فاقر حامية تركية ونصب واليا تركيا . وأذنَ هذا الاحتلال المتواصل لعاصمة المغرب الكبرى بنهاية نشاط الاسبان في الاراضي الوهرانية . وتمكّن القائد المنتصر بفضل ماصادره من املاك سكان تلمسان الذين رفضوا المهادنة من تقديم هدية ممتازة لصلاح رايس الباي لارباي الجديد بمناسبة تقلده الحكم خلفا لحسن باشا وقد تم هذا التعيين بفضل اعانة سفير فرنسا بالقسطنطينية .

وقد ذاع صيت صالح رايس منذ كان يعمل إلى جانب خيرالدين وتحمل قيادة الأسطول العثماني وعرف بالشدّة والاقدام وتواصل نفسه في القتال وأجبر حاكمي تُوقُرْتُ وورقلة على دفع الاتاوة ، امّا في بلاد القبائل فانه لم يقدر على اخضاع بني عباس الذين تمردوا عليه بعد ان أعانوه على غزو الجنوب ولكنه استمال اعداءهم بالكوكو وجعل منهم خيالته في حربه بالمغرب الأقصى ، ولمّا رشح القوم أبا الحسن الوطاسي اتخذ من ذلك ذريعة للتدخل ضد الشريف واضطره في تازة (ديسمبر 1553)

إلى الهروب وحاول من دون جدوى استبقاء فاس تحت السلطة الاسمية للسلطان لان ثورة الأهالي أجبرته على التسليم بمبايعة بوحسون - وأمكن على كل حال الاستيلاء لفائدة الاتراك على قلعة حجر باديس (1554). ومنها كان يحيى رايس المقدام يعيث فسادا في سواحل الجزيرة بأسره لاربعة آلاف نفر (1558 - 1562) ثمّ استولى صالح رايس على قاعدة بجاية التي لم ينجدها نائب ملك نابولي في الوقت المناسب (1555) ولما تهدد فيليب الثاني الإفلاس وعجز عن القيام بحملة هدأ من روع رعاياه واتخذ من والي بجاية المسكين كبش الفداء فأمر بقتله ، غير انه لم يفد وهران في شيء عندما استسلمت بدورها إلى الاتراك (1556) ولعل وفاة صالح رايس واستقدام السفن الشراعية الجزائرية للدفاع عن البوسفور وتراجُع حسن كورسو بعد ذلك أنقذ جميعها الحصن الغربي الهام الذي لم يتصل بأية نجدة ..

وتسببت وفاة صالح رايس الفجئية في نشوب الصراع بين الوجق والطائفة ، لذا منع الإنكشارية الباي لارباي تاكرلي الذي عينته القسطنطينية من دخول مدينة الجزائر وطالبوا بتعيين حسن كورسو ، غير ان مؤامرة الرؤساء سمحت للتاكرلي باقتحام المدينة والظفر بحسن كورسو الذي طال احتضاره مدّة ثلاثة أيام مخَوْزَقًا (*) على باب عزّون ولكن الوجق قتل الباشا بعد ذلك بقليل .

وقرر السلطان في آخر الأمر نظرا إلى الفوضى المستفحلة في الايالة إلى الالتجاء إلى الحسن ابن خيرالدين (جوان 1555) وتعكر الوضع في الغرب حيث كان الجيش الشريفي المسيطر على تلمسان يحاصر الحامية الصغيرة المتمركزة بالمشوار وتمكن الباي لارباي من الهجوم على المغرب بعد اغتيال محمّد المهدي من طرف الجند الاتراك الفارين والفتن الناتجة عن تنازع الحكم الا انه اضطر إلى الالتجاء إلى البحر من دون ان يدخل فاس وذلك بسبب هجوم الاسبان من الخلف ، وقد يكون هذا الانسحاب السريع رفع من معنويات الكونت الكوديت الذي كانت تبخرت آماله في الحيلولة دون احتلال الاتراك للمرتفعات الوهرانيّة بعد سقوط مملكة تلمسان

* الخازوق : عمود طويل محدد الرأس يدخل في دبر المجرم فيموت عليه .

الموالية له وحسب ان احتلال مستغانم يقطع عنهم أهمّ قاعدة يرسي فيها اسطولهم . وكان قد فشل في ذلك مرّتين (1541 – 1547) وآلت الحملة الثالثة إلى كارثة ، إذ فوجئ غوغاء جنده المغرورين وطوقوا وهلك الوالي وقُتل أكثر من 10.000 من جيشه او سيقوا إلى الأسر (اوت 1558) ولم يسترجع الاسبان هيبتهم بعد هذه الواقعة فظلوا منذ ذلك الوقت تابعين لمدينة وهران وقاعدة مرسى الكبير .

وبينما كان حسن باشا يتهيأ لمقاومة الشريف اذ بالوجق يغضب لعمليات التجنيد التي كان يقوم بها حسن باشا في بلاد القبائل فيقبض عليه ويبعث به مقيّداً إلى القسطنطينية بتهمة السعي إلى الاستقلال (جوان 1561) ولم تمض على حكم الباشا الذي خلفه فترة وجيزة حتى أمر بقتل المتمردين الأكثر تورطا وارجع الباب العالي حسن باشا إلى منصبه كباي لارباي (1562) فلم يلبث ان استأنف تحقيق مشاريعه السابقة وضرب الحصار على وهران ومرسى الكبير ، غير أن المقاومة الاسبانية صمدت الوقت الكافي حتى انجدها اسطول دوريا واضطر الاتراك إلى الرجوع إلى الجزائر بعد ان تكبدوا خسائر فادحة (3 افريل – 7 جوان 1653) وبينما كان حسن باشا يعد العدّة للأخذ بثأره اذ بالسلطان يستقدمه من الجزائر ليساهم اولا في حصار مالطة (1665) وليقود بعد ذلك الأسطول العثماني بلقب قبطان باشا (اوائل 1567) فترك الإيالة للباشا محمّد بن صالح رايس الذي صرف همّه إلى مواجهة ما تركه الطاعون والمجاعة واللصوصية من آثار أثخنت في الجزائر وهو الذي رخص للانكشارية بالانضمام إلى البحارة ليخفف من حدّة الخصومات الموجودة بين الوجق والرؤساء وما كاد ينتهي من فرض النفوذ التركي على قسنطينة حتى عين باشا في مكان آخر وعوض بالباي لارباي علج علي (مارس 1568) .

علج عليّ ونهاية دولة الحفصيين :

ربمّا كان الباي لارباي علج علي مع خيرالدين أعظم رجالات الحكم التركي فقد اختطف منذ حداثة سنه بسواحل كلابر واحتقره الجدّافون لِقَرَعٍ برأسه قيل إنه لم يرض بالدخول في الاسلام الا ليثأر لنفسه من تركي ضربه . وسرعان ما أصبح قائما على الجدافين (Comite) فمارس القرصنة لفائدته الخاصة وبرز بالخصوص اثناء حصار مالطة

تحت إمرة حسن ابن خيرالدين و درغوث ونسب النصارى كآبته إلى تحسره على الخروج من دينه أكثر من مرضه . وأكد سفير فرنسا الذي عاشره بالقسطنطينيّة أنّه كان يقوم بالطقوس النّصرانيّة سرّا وأنّ الانكشاريّة بالجزائر شكّوا في خلوص عقيدته الإسلاميّة وعلى كلّ فانّ العروض التّي قدّمها له فيليب الثّاني بايعاز من الباب العالي لم تلق منه أذنا صاغية .

وكان الباي لارباي الجديد على معرفة تامة بالايالة اذ سبق أن وَلِيَ على تلمسان وقاد المقاومة ضد الاسبان وصرف همه اولا إلى تدعيم ثورات الموريسك بغرناطة ضد اضطهاد النصارى ولكنه لاقى صعوبات في مد الثوار بالرجال والذخيرة فهزموا هزيمة منكرة غير انه نجح في جهوده الرامية إلى تخليص تونس من الحماية الاسبانية وازالة الدولة الحفصية .

وما أن رحل شارل الخامس عن المملكة التونسية حتى رجعت اليها الفوضى . ذلك ان مولاي الحسن الذي آل به الأمر إلى محاربة شعبه الرافض لسلطته ومقاومة ابنه السّاعي إلى أخذ مكانه لم يبق في الملك الا بدعم من الاسبان – ولو لم يتدخل « دوريا » لمّا رجعت إلى حوزته قليبية وسوسة وصفاقس والمنستير (1540) غير ان الجنوب التونسي بقي خارجا عن نفوذه بل بلغ به الأمر إلى ان تخلت عنه جيوشه اثناء حملة ضدّ القيروان التي أصبحت حينذاك عاصمة للامارة الدينية للعرب الشّابية فلم يجد بدا من التماس المدد (1542) في اوروبا وهزمه رغم ذلك ابنه مولاي حميدة (أحمد سلطان) وأخذه اسيرا وسمل له عينيه . ثمّ افتك تونس من أحد الادعياء الحفصيين باعانة من النصارى وأخذ يناور بين الاسبان والاتراك ، ولاحظ « بروديل » في وثائق شانت مانكش (Cimancas) انه امضى معاهدات كثيرة مع والي حلق الوادي واشار « مونشيكور » إلى العروض التي قدمها الباب العالي سنة 1552 قصد الاحتفاظ لنفسه بحلق الوادي والمهدية و « مده بالجيوش الكفيلة باسترجاع اراضيه الخارجة على سلطته » كما كتب إليه في هذا المعنى سنان باشا .

وفي هذه الآونة جدد الرايس درغوث على سواحل بلاد البربر الشرقية مغامرات خيرالدين وقد ذكّرتْ حيلُه «مونشيكور» بحذق أُولِيس وخُدَعِه (الم يشرح فيكتور بيرار الاوديسة مستعينا بأخبار القراصنة ؟) . غير انه

بعد ان جعل من المهدية مركزا لقيادته العامة ومنها كان ينطلق ليعيث في الساحل الايطالي فسادا ، لم يمنع الاسبان من الاستيلاء على القاعدة (سبتمبر 1550) وخاب في محاولته الاستحواذ على قفصة . ولم ينج من سفن « دوريا » التي منعت عليه قنال جربة الا بخدعة جريئة (افريل 1551) ولما « خاب امل قائد القراصنة في بعث امارة له بسرتا الصغرى.... لم يبق له الا التخلي عن استقلال أصبح خطيرا عليه والرضا بحماية الباب العالي » (مونشيكور) .

وتمكن السلطان منذئذ من صرف نشاطه على السواحل الافريقية طيلة خمسة اعوام — (جوان 1551 — افريل 1556) واستطاع درغوث رغم اقصائه عن خطة قبطان باشا بسبب عداوة الوزير الأكبر رستم له ان يتحصل من السلطان سليمان على ولاية طرابلس . ولما عادت له صولته في الاراضي الافريقية قاوم إلى أن وافاه الاجل أمام مالطة (1565) المشايخ الخارجين عنه بجربة وضواحي طرابلس ودخل قفصة دخول الفاتحين (20 ديسمبر 1556) واطرد الشابية من وسط البلاد التونسية واحتل القيروان في 3 جانفي 1558 — ولم تمض سنتان حتى أصبح درغوث صاحب سيرتا و « قوة يقرأ لها الحساب » في البحر المتوسط .

ولما بلغت اسبانيا المرحلة الحاسمة من كفاحها ضد فرنسا عدلت عن الاهتمام بوضع حد لتوسع درغوث وكذلك الجزائريين غير ان معاهدة كاتوكمبريزيس (Cateau Cambresis) التي تعد بحق منعرجا في تاريخ أوروبا ازاحت عنها عبء همومها العاجلة (1559) وطرأ تحول في سياستها الافريقية ، اذ بوأ الخطر التركي البلاد التونسية المكانة الأولى بوصفها تمثل كما لاحظ « بروديل » إلى جانب مالطة وصقلية ونابولي الحدود الاسبانية التي تفصل غربي البحر المتوسط الخاضع لسيطرة الملك الكاثوليكي عن شرقيه الواقع تحت نفوذ السلطان — أما المعارك التي دارت رحاها في مناطق أخرى من بلاد البربر سواء امام المرسى الكبير (1563) وحول حصن بلش (Velez) (1564) فقد كانت ظرفية محدودة في الزمن ، وظل فيلب الثاني مركزا اهتمامه دائما على حلق الوادي . غير ان اسبانيا منيت بهزيمة نكراء (1557) فتعذر عليها تحقيق حلمها في التوسع .

وربما سمح الملك الكاثوليكي لفرسان مالطة ونائب الملك بنابولي بالهجوم على جربة ومحاربة درغوث أخذا بخاطر البابا الذي اغدق عليه المنح ، وابحر اسطول الدوق « دي ميدينة دي كايلي » على غرار اسطول شارل الخامس في فصل الخريف حيث كانت السفن الشراعية التركية راسية في جليبولي (1559) واحتل امير البحر الجزيرة من دون كبير عناء ولكنه أضاع وقتا ثمينا في جعلها قاعدة للهجوم على طرابلس — فلمّا غادر مرساه داهمه أسطول بيالي باشا ودرغوث فأغرق له ثلاثين سفينة وأَسَرَّ خمسة آلاف من رجاله (15 مارس 1560) وأبيدت حامية جربة النصرانية عن آخرها بعد قتال عنيف ورصفت عظام القتلى في شكل هرم عُرف ببرج الروس الذي ظل ماثلا للعيان إلى سنة 1846 .

وتواصل الصراع بين الملك المسيحي والسلطان على الحدود الفاصلة بين جوضي البحر المتوسط ، ولعل حصار الاتراك لمالطة كان رد فعل على هجوم جربة ، ولاشك ان اثنين من رؤساء افريقيا درغوث وعلج علي كان لهما في ذلك ضلع كبير (1565) وأخيرا عاد باي لا رباي الجزائر إلى سُنّة خيرالدين فنقل الحرب إلى مدينة تونس . ولم يجد أية صعوبة وهو يزحف نحو الشرق لدحر فرق قليلة العدد من جند الحفصيين وطرد حميدة الذي لاذ بالاسبان (1569) ثمّ قفل راجعا إلى الجزائر بعد ان نصب القائد رمضان حاكما على تونس وتفرغ إلى اعادة تنظيم أسطول بلاد البربر — ثمّ استقدمه السلطان بينما كان يعد العدة لتوجيه حملة على حلق الوادي .

ذلك ان اخطارا جُلّى كانت تتهدد الأمبراطورية العثمانية — فقد تحالفت اسبانيا مع البابا والبندقية لمقاومة تركيا نتيجة ظهور موجة التعصب الكاثوليكي من جديد بعد حرب غرناطة الثانية (1569 — 1570) ومساعي بيّوس الخامس وفشل الملك الكاثوليكي في توجيه المعارك تجاه إفريقيا وانهك قواه في ما كان يقوم به من محاولات في المشرق . وكانت معركة « ليبانت » على الأقل فرصة لانتصار المتحالفين وهي المعركة التي ابلى فيها علج علي البلاء الحسن ونال فيها لقب قبطان باشا (9 أكتوبر 1571) وما ان استتبع تخلّي البندقية نهاية الحلف (1573) حتى عاودت اسبانيا الكرة على تونس فباغت « دون خوان » النمساوي

اخو فيليب الثاني المدينة واستولى عليها بدون مقاومة تذكر (1573) وعرض على القوم الحكم باسم الملك الكاثوليكي بتعاون مع الاهالي واعدا إيّاهم باحترام قوانينهم ولربما حلم فعلا بتطبيق هذه المبادىء بل الظفر بمجرد لقب ولكنه اضطر إلى ترك حامية في المدينة والرجوع إلى ايطاليا بعد ان نصب على العرش ملكا حفصيا جديدا .

وما كان للامبراطورية العثمانية ان تسكت بعد الضربتين المسدّدتين في ليبانت وتونس فلم يمض عام حتى انضمت جيوش الايالة وطرابلس والمشرق بعضها إلى بعض بقيادة سنان باشا وعلج علي وافتكت على التوالي حلق الوادي ومدينة تونس (1574) ومهد هذا الانتصار المزدوج لدخول تونس تحت نفوذ الاتراك فأصبحت باشية وكان ايذانا بزوال التأثير الاسباني . ولم يفكر فيليب الثاني في الاخذ بالثأر في إفريقيا ورضي بمهادنة السلطان (1581) بعد ان اقعده عن ذلك افلاس جديد (1775) وشلت قواه الثورات الناشبة بهولاندا والاضطرابات المطردة بايطاليا . واحتفظت اسبانيا بالحصون المتواضعة بمليلة ومرسى الكبير ووهران التي لم يغنها ماورثته عن البرتغال شيئا كبيرًا غير أن بلاد المغرب التي حافظت على ذاتيتها بفضل هذه النزاعات اتخذت لنفسها ملامحها العصرية بكتلها السياسية الثلاث المغرب الأقصى والبلاد الجزائرية والبلاد التونسية .

نهاية الباي لازباي :

عهد علج علي منذ ان تقلد إمارة الأسطول العثماني غداة معركة ليبانت بحكومة الجزائر إلى « خَلَفوَات » وهم عرب أحمد الذي ساهم في افتكاك حلق الوادي وتونس والقايد رمضان (1574 — 1577) الذي توصل إلى تنصيب الدعي عبد الملك على مدينة فاس وإلى جلب مقابل ذلك 5.000 مثقال من ذهب وعشرة مدافع (مارس 1576) وأخيرا حسن فنزيانو (1577 —1580) وكان حسن كاتبا في سفينة شراعية من البندقية أسّره درغوث وباعه إلى علج علي فخرج عن دينه ودخل الاسلام وعرف بصلفه وعجرفته وقسوته وكذلك بحزمه وشجاعته اذا نحن صدقنا الوصف الذي وصفه به « سرفنتيس » وكان عبد الله قد توخى في حكمه الرعب وقهر الانكشارية والرؤساء على حد السواء غير ان المجاعة والطاعون تضافرتا مع أساليبه التعسفية في الحكم فكان تمرد الاهالي و كلف

جعفر الخصي الشيخ بإرجاع الأمن إلى نصابه (1580 — 1582) وبينما كان جعفر مقيما بمدينة الجزائر وصلها علج علي لاعداد العدة لمحاربة المنصور وغزو المغرب ولكنه استقدم إلى الشرق هو وخليفته قبل ان يبدأ في تنفيذ مشروعه فنصب القايد رمضان باشا على الجزائر من جديد وأمر الباب العالي رمضان بارجاع سفينتين شراعيتين إلى فرنسا رغم معارضة الجزائريين فاغتنمت الطائفة هذا الغضب لتمكين رئيسها مامي ارناووط من السلطة . وتدعّم انتصار الرؤساء بعودة حسن البندقي فجأة وانتصابه بالقوة بالجنينة (1580 — 1588) وسخر كلّ شيء منذ ذلك الوقت في سبيل القرصنة التي عمّت سواحل اسبانيا وايطاليا وحتى الجزائر الخالدات من دون رادع يردعها .

ولمّا اثقلت السنون علج علي ومات سنة 1587 رأى السلطان الفرصة سانحة ليضع الغزوات الافريقية في اطار النظام العثماني العادي فحوّل طرابلس وتونس والجزائر إلى ثلاث إيالات يحكمها باشوات يقع تعويضهم بصورة دورية ، واقتضت هذه الاجراءات حذف باي لاربـاي الجزائر فاستقدم الباب العالي حسن فينزيانو وأوكل إليه منصب قابودان باشا وعوضه بباشا يدوم حكمه ثلاث سنوات . وهكذا لم تعد مقاطعات بلاد البربر مجرد معقل من معاقل الامبراطورية العثمانية ضد الامبراطورية الاسبانية بل أصبحت مقاطعات مثل غيرها لايميز بينها سوى عامل البعد .

4 ـ العصر الذهبي للقرصنة الجزائرية والتونسية

ثورات بلاد الجزائر في القرن السابع عشر :

خرجت إيالة الجزائر وإيالة تونس عن نفوذ الاتراك في القرن السابع عشر اذ لم تطق المنظمتان العتيدتان للوجق والطائفة الخضوع إلى ادارة موظفين وقتيين لايعتمدون على أية قوة في المقاطعة التي كان من المفروض حكمها باسم السلطان . وانتهى الأمر بالباشوات إلى خروج الانكشارية والرؤساء عن مراقبتهم وانصرف همهم إلى الاثراء كلما سنحت لهم الفرصة فتنازعت هذه الشيع الشؤون العامة وقد ترك حبلها على الغارب وحركتها الاطماع أو الاحقاد . وبرزت من الازمات التي هزت الايالتين انواع أخرى من السلط ففي الجزائر ظهرت سلطة آغوات الوجق (1659) ثمّ الدّايات (1671) وفي تونس وجدت سلطة الدايات (1590) ثمّ البايات (1705) وسهّل استقلال الإيالات الباشية الافريقية تنمية القرصنة بكل حرية من دون مراعاة للاعتبارات السياسية التي كان يفرضها الباب العالي على الباي لاربابي ونتج عن ذلك امران اوّلهما رد فعل الدول الاوروبية نتيجة تفاقم نشاط القرصنة وثانيهما نشوب حروب بين الايالتين بسبب الخلافات .

وليس ادعى إلى الملل من دراسة تاريخ هاتين الايالتين في القرن السابع عشر . فقد كان في الجزائر سلسلة متواصلة الحلقات من المؤامرات والانتفاضات والمذابح واكتفى الباشا فيها بمظاهر الحكم فكان يستقبل عند قدومه من القسطنطينية في موكب بهيج ويقيم في قصر فخم ويحاط بالتبجيل والتكريم غير انه كان عليه ان يوافق على قرارات ديوان الانكشارية ليدوم حكمه . وكان الديوان يجتمع اربع مرات في الأسبوع

منها واحدة في القصر للتداول في الشؤون الخارجية ويقرر في آخر الأمر بالاجماع السلم او الحرب .

وكان على الباشا ان يثبت في أول كل قرار رسمي هذه الجملة : « نحن ، الباشا وديوان وجق الجزائر المظفر » وانفرد خضر باشا بمحاولة زحزحة وصاية الانكشارية (Khéder Pacha) مستعينا بالكراغلة الذين اقصوا عن الشؤون العامة وبالقبائل المستعدين دائما للثورة (1596) .

وحان الوقت الذي لم يعد يتحمل فيه الوجق المتكون من 22.000 رجل حتى ترك النفوذ الوهمي للباشوات . وكانوا يلومونهم على تعمدهم نهب جرايات الجند والضرائب فقد أراد أحدهم وهو الباشا ابراهيم في يوم من الأيام أخذ العشر من المنح التي كان يرسلها الباب العالي للرؤساء لفائدة الأسطول الجزائري فنتج عن ذلك تمرد . فما كان من الديوان الا القضاء على ماتبقى للباشوات من صلاحيات دفع الجرايات وتعيين القوّاد والقضاء بين البلديّة ولم يترك لهم الا اللقب التشريفاتي ، وأصبح الآغا يمارس السلطة التنفيذية معتمدا على الديوان (1659) وانتهت هذه الثورة التي اندلعت للدفاع عن حقوق الرؤساء في صالح الوجق . ونتج عن تغيير الآغوات كل شهرين اما اختلال في السلطة في حالة الامتثال او اندلاع الانتفاضات اذا تمسكوا بالحكم . والواقع ان النظام الجديد اقر الاغتيال طريقة عادية للخلافة اذ كان مآل الآغوات الاربعة الذين تقبّلوا قفطان الشرف من سنة 1659 إلى سنة 1671 الاغتيال من طرف الوجق .

وقلب الرؤساء الوضع لفائدتهم بعد مرور اثنتي عشرة سنة وأثاروا غضب اليولداش وأهل مدينة الجزائر على آغا علي فتمردوا عليه بتهمة الضعف ازاء المطالب الفرنسية المشطة . ولمّا قُتل علي وعُذِّبتْ زوجته لم يتشجع أحد على الترشح للحكم فاغتنمت الطائفة هذا الانكماش لمحاكاة تونس واسناد الحكم إلى داي منتخب من طرفها في اول الأمر (1671) ثمّ في مرحلة ثانية من طرف ضباط (1689) وامتنع الداي العاشر علي شاوش من استقبال مبعوث الباب العالي واقنع السلطان باسناده لقب باشا (1711) .

ثورات البلاد التّونسيّة :

آل انتصار سنان باشا في البلاد التونسية إلى إقامة نظام شبيه بنظام الجزائر ، فكان على رأسها باشا يعتمد على حرس انتدب افراده من بين الاتراك اولا ثمّ في مرحلة ثانية من بين مشارقة مسلمين وكراغلة ويقود هذا الحرس آغا يكاد يكون مستقلا عن الباشا وكانت بها طائفة الرؤساء وقبائل المخزن المكلفة باستخلاص الضرائب . واستهدفت الايالة الى ما استهدفت له جارتها من اضطرابات . وكان الوجق يتكون في آخر القرن السادس عشر من 40 فصيلة تعد كل واحدة منها مائة رجل على رأسها ضابط صغير اسمه الداي (اي الخال) وقاست البلاد التونسية كما قاسى سكانها من وقاحة واستبداد الملازمين (ادوباشي) ونقبائها (بلوكباشي) الذين يتكوّن منهم الديوان وقد احلوا سلطتهم محل سلطة الباشا ، وآل الأمر بالبلاد إلى كسر شوكتهم بفضل ثورة عسكرية ذات نزعة ديمقراطية (1590) وانتخب الاربعون دايا بعد مقتل البلوكباشية أحدهم لقيادة الحرس بالاتفاق مع الآغا ، غير ان هذا الداي لم يفتأ يتجاوز صلاحياته على حساب سلطة الباشا حتى أصبح الحاكم الحقيقي ، ودعم الداي الثالث عثمان نفوذه بجعل الديوان مجرد هيئة للمصادقة اولا وحصر نفوذ الباشا في تقبل القفطان ثانيا وذلك بالاعتماد على شخصين مخلصين له وهما القابودان (أمير البحر) وقائد الامحال المكلف باستخلاص الضرائب وادارة شؤون القبائل (الباي) .

تميّز تاريخ البلاد التونسية في القرن السابع عشر بتوسع نفوذ البايات على حساب الدايات . فقد أخضع عثمان داي (1590 — 1610) القبائل الثائرة في البلاد التونسية وتصدى صهره يوسف (1610 — 1637) حامي القرصنة والمشهور بكثرة البنايات التي شيّدها لانتفاضات القبائل العربية والغزو الجزائري ، وإذن فلم يكونا من ضعفاء الحكام غير ان نفوذ البايات تعاظم إلى جانب سلطتهم المعتمدة على حرس أقل شأنا من حرس الجزائر لأنهم كانوا ماسكين مقاليد الحكم الحقيقية بادارتهم لشؤون القبائل وتصرفهم في الموارد الجبائية . وتوصل الباي الثاني مراد (1612 — 1631) بعد ان نال لقب باشا إلى التحصيل على حق توريث خطته لابنه حمّودة — ولم ينفك تأثير حكم المراديين الوراثي يتعزز وعظم شأن

حمودة باي (1631 — 1659) عندما وضعَ حدّاً لانفصال القبائل العربية وضمّ جربة إلى البلاد التونسية الباشية — وأمسك بيديه مقاليد الامور في عهد الدايين المواليين فاصلح ما أفسده تدخل فرسان مالطة ضد أسطول حلق الوادي (1640) ووضع خطة لمقاومة المجاعة. ولم يراع مراد باي من بعده أية ذمة للدايات (1659 — 1675) اذ رمى بواحد منهم في البحر (1671) وانتصب في قصر باردو ملكا وأقام الدليل على اريحيته بتشييده المباني غير أن وفاته فتحت على البلاد عشرين سنة من الحرب الأهلية. وتنازع ابناه واخ له لقب الباي بحد السلاح وكانوا ينصّبون الدايات ويقتلونهم فمهدوا بهذه الفوضى إلى هجمات جزائرية مظفرة والى محاولة تدخل الباب العالي في شؤون البلاد التونسية وانتهى عهد المراديين إثر مؤامرة عسكرّية اذ عمد إبراهيم آغا الصبايحيّة إلى اغتيال كافة ذرية حمودة ونصب نفسه بايا (1702) ولم يلبث ان حمل الحرس على اسناده لقب داي (1704) واقنع الباب العالي بتعيينه باشا وبذلك تجمعت كل السلط لاول مرّة في يد واحدة — ولم يتوقف هذا التطور نحو الملكية بعد انهزام ابراهيم وأسره إثر مواجهته لجيوش الجزائر وطرابلس (1705) ذلك ان حسين بن علي آغا الصبايحية لمّ شتات الفارين وتحصّن بتونس وبايعه اهلها بايا ثمّ تصدى إلى الجزائريين فردهم على اعقابهم ولم يكتف إذ ذاك بالجمع بين الالقاب بل حذف لقب داي (1705) وآل الأمر بتوسع نفوذ البايات المتواصل إلى تأسيس دولة وراثية (1710).

ومهما بلغت الاضطرابات التي عاشتها البلاد التونسية في القرن السابع عشر من قوة فانها لم تبلغ الحد الذي بلغته الفوضى في البلاد المجاورة. ذلك ان لها ماضيا وتقاليد لم تزل بزوال الدولة الحفصية. فان سكان المدن الحريصين منذ عهود الحكم القرطاجي على ايجاد حكومة تحفظ النظام اضطروا السلطة التركية على الانصهار في القالب الذي فرضته افريقية على أسيادها منذ قرون وزودوا المخزن بالموظفين الذين لامناص منهم لضمان استمرار الادارة وانّ مابذله الحسينيون في القرن الثامن عشر من مجهودات لتحويل دولة القراصنة إلى دولة منظمة انما هو امتداد لسياسة الحفصيين والموحدين والصنهاجيين.

دولتا القراصنة :

كان القرن السابع عشر العهد الذهبي بالنسبة إلى قراصنة بلاد البربر ، فلقد سمح لهم بالقيام بكل اعمالهم الجريئة استقلال الايالتين عن الباب العالي وضعف الاساطيل الاوروبية والصراع بين الأمم النصرانية .

وغنيت الجزائر خاصة بموارد القرصنة ، اذ تجاوز عدد سكانها في اواسط القرن السابع عشر مائة الف ساكن علاوة على عدد الأسرى المتراوح بين خمسة وعشرين الف وخمسة وثلاثين الف اسير . وتعزز الأسطول بسفن شراعية كبيرة و « مراكب مدورة الشكل » او عالية الجنبات مكّنت القراصنة من ان يتمخروا عباب شرقي البحر المتوسط وان يبعثوا الرعب حتى في اسلندا بالذات (1616) وتجاوزت قيمة الغنائم اثناء السنتين المؤاتيتين بصفة خاصة (1615 — 1616) مليونين وحتى ثلاثة ملايين من الليرات وأثرى كل السكان بفضل المعاملات الناتجة عن هذه الغنائم وتجارة العبيد ، وتعددت في هذه الفترة سواء في المدن أو في الارياف تلك المنازل المتكوّنة من سقيفة ووسط دار في كل واجهة منه قاعة مستطيلة قليلة العرض تفتح على مجلس وبها مقصورتان سقفهما في بعض الأحيان على شكل قبة على نحو ما نجد اليوم في الأبرشية (archeveché) وكانت حياة الرؤساء في اليابسة على غرار من اثروا سريعا ، آنهماكا في اللذات وإقبالا على الترف في غير حياء ، وكان خزف (Delft) دلفت والرخام المنحوت من إيطاليا وحرير ومخمل ليون وجنوة ومرايا البندقية ومصنوعات زجاجية مجلوبة من بوهيميا وساعات انقلترا تكوّن كلهاحولهم اطاراً اصطناعيا هو اشبه شيء باستعراض الصياد لصيده — ولكن هؤلاء الاتراك الاصيلين منهم او الهجناء كانوا يحبون ايضا اواني النحاس والاسلحة وزرابي سطيف وڤرڤور بلاد (القبائل الصغرى) وقلعة بني راشد (بين بسكرة ورليزان) الشرقية الشكل وخاصة قطع النسيج المطرّزة بالحرير على الشاش أو الكتان وهو فن تلقّن « المعلّمات سرّه إلى بنات الأغنياء » .

وشيّد بالجزائر بفضل موارد القرصنة عدد كبير من المساجد والزوايا والمدارس حيث برز هنا ايضا تأثير آسيا الصغرى المتمثل في القباب الكبرى المثمنة الاضلاع التي تغطي المصليات وتحيط بها على الجهات الاربع

اروقة سقوفها على شكل قباب صغيرة او عقود قبابها ذات زوايا بارزة وعلى هذا النحو كان المسجد الذي بناه بعد سنة 1622 بقليل العلج بتشينو المدعو علي بتشنين والذي تغير شكله بعد أن أصبح كنيسة نوتردام دي فكتوار (Notre Dame-des-Victoires) وحرص الوجق بعد ذلك بنصف قرن (1660) على أن يكون له مسجد حنفي عظيم فبني أعظم جامع شيده الاتراك الا وهو الجامع الجديد بقبته العالية البيضوية الشكل المنزلة على مثلثات كروية والمقامة على اربعة دعامات نصف اسطوانية وكلها مستوحاة من النمط المعماري بالقسطنطينية وبني في اواخر القرن (1696) ضريح حامي مدينة الجزائر الوليّ عبد الرحمن الثعالبي (المتوفى سنة 1648) في تربة جميلة بجوار مقبرة اشجارها من السرو .

وكانت تونس أيضا مدينة أهلها خليط من السكان ، فقد أوت – أكثر من الجزائر – الموريسك المطرودين من اسبانيا سنة 1609 والتجأ اليها ثمانون ألفا منهم حسبما يقال وقد عرفت منذ القدم باحتضانها للاندلسيين – وتقبل الاتراك هذه الهجرة بصدر رحب وهي التي كان لها الاثر السيء على ازدهار اسبانيا وثقافتها ، وأكد ابن ابي دينار « ان عثمان داي آواهم في المدينة ووزع افقرهم على أهل تونس » واستقر اخيارهم من التجار وارباب الصناعة والمثقفين باحياء معينة اما زارعو البقول وصانعو الشواشي والأقمشة الحريرية والاواني الخزفية المطلية فقد واصلوا نشاطهم في الضواحي القريبة . وأحيى عدد كبير من الفلاحين الذين يرجع اليهم الفضل في خصوبة سهول الأندلس معظم اراضي وادي مجردة . ولم ينصهر في إفريقية هذه الارض العريقة في الحضارة المهاجرون فقط بل كذلك المشارقة الذين أنسوا إلى الحياة في ظل النظام التركي وسرعان ماتبنوا العادات والتقاليد التونسية . وقدموا مقابل ذلك فنيّات رفيعة في ميدان القرصنة مكّنت عائداتها من تجميل المدينة ففي هذه الفترة شيد جامع يوسف على النمط المحلي المتقادم باستثناء الصومعة الشرقية الشكل وجامع حمودة باشا المرادي المعروف بمسجد سيدي بن عروس (1654) وجامع سيدي محرز التركي النمط والأكثر طرافة بمنبريه اللذين يعلو احدهما الآخر (حوالي 1675) واقيمت مدرسة

حنفية وزيد على زاوية سيدي الصاحب الرائعة او حلاق « القيروان » وانشئت اسواق كثيرة واحدثت البركة وهي سوق للعبيد تتمثل في ساحة صغيرة بممراتها الثلاثة المسقفة – ومدّ جسران على وادي مجردة قرب طبربة ومجاز الباب ورممت حنايا قرطاج وبنيت « سبالات » (حنفيات للورود) وميضوات (جمع ميضاة)

ومهما بلغ تأثير القرصنة في إنعاش الاقتصاد التّونسي فانها لم تبلغ ما بلغته في الايالة الجزائرية حيث كانت المورد الوحيد – بل ان مقتضيات التجارة والعلاقات الدولية اضطرت الحكومة في آخر الأمر إلى الحدّ منها .

الرق في بلاد البربر :

كانت تجارة العبيد تدر على أهل بلاد البربر ارباحا أوفر ممّا يحصلون عليها من الغنائم . ولم يعد النصراني ذلك الكافر الذي يختطف من بلده بل أصبح بضاعة يسعى القوم إلى التّخلص منها في أسرع وقت وبأغلى الاثمان – فتركيز مسرحية موليار الذي قبل تسليم عبده على الفور مقابل فدية ليس وليد خيال « سكابان » المحتال ، وقد شوهد درغوث في عرض سواحل كستلاّمار (castellamard) وهو يرفع حالما تمت عملية الاختطاف « راية الفدية» .

وكان القراصنة ينزلون على السواحل ويحتجزون بالخصوص سفن النصارى وذلك سعيا إلى ملء مخازنهم بالبضائع – وكانوا يوقفون البحارة والركاب عراة على ظهر السفينة ولايتورعون في اجراء أدق التّفتيشات عليهم بحثا عن الحلي ويتأملون في ملابسهم وايديهم للتكهن بمكانتهم الاجتماعية . ثمّ تساق قطعان البشر إلى السوق حال عودتهم إلى الجزائر أو تونس – ويقلّب النخاسون (chaland) الاسرى كما تقلب الحيوانات المعروضة في السوق . ويدققون النظر في أسنانهم وعيونهم وايديهم ويجسون لحومهم ويضربونهم بالعصا لحملهم على « المشي والقفز والتّشقلُب» وتتفاوت قيمتهم بحسب ما ينتظره الشاري من خدماتهم او ما يأمله من ربح عند بيعهم . ونجد في المقدمة الفتيات والفتيان الذين لايخفى مآ لهم وكذلك كل من يُظن انه من علية القوم بحيث يؤملّ

الحصول على فدية بواسطته واخيرا العملة المختصين في الملاحة واشغال الموانى والمدفعيّة . وللسيد على عبده مطلق السلطة وله ان يضارب على فديته كما شاء .

إن حال العبيد كان أدعى إلى الرثاء من غيرهم نظرا إلى سوء تغذيتهم وضربهم بالسّياط عند التحام مراكبهم بمراكب العدو ثمّ ابتعادهم عنها ولكنهم على كل حال كانوا أحسن حظا من البربر المجدّفين في خدمة ملك فرنسا اذ هم لايوسمون في ابدانهم وبقوا احرارا في دينهم — وكان الرؤساء يستخدمونهم على اليابسة كحمّالين او يعرضونهم للكراء كعمال يوميين .

أما الخدم وهم أقل عددا فانهم يصبحون في بعض الأحيان محل ثقة اسيادهم . و « تستخدم النساء في الأعمال المنزلية » . ويرسل عدد آخر من العبيد إلى الحضائر او يكلفون بالاشغال المضنية في الضيعات ويمكن للمحظوظين منهم القادرين على دفع منحة شهرية إلى أسيادهم ان يجوبوا المدينة أحرارا . أما أكبرهم حيلة فانهم يصبحون اصحاب أو صاحبات حانات وفيها يقبل النصارى والمسلمون على تعاطي الخمر والاخلاد إلى الخلاعة . ويمكن للقساوسة بفضل ما يدفعه الأسرى في الغالب ان يقوّموا بطقوسهم الدينية .

وكان أغلب العبيد يودعون ليلا بسجون الدولة . ووُجدتْ ستة سجون في الجزائر منها سجن للملك ويتسع لالفي أسير ، وكان يوجد تسعة سجون بتونس أيام زيارة الأب دَان (Dan) لها ، وكان الاسياد يودعونها خدمهم مقابل مبلغ يدفعونه ووضعت الحراسة تحت مسؤولية باش حارس وهو شخصية تتعاطى التهريب بمساعدته على بيع مايسرقه العبيد . وكانت الاسرّة في السجن يوجد بعضها فوق بعض من دون لحاف ، وكان رجال الدين على حد قول « هييدو » يكترون من الباش حارس غرفا صغيرة ويتصرفون بكل حريّة في مصلّى منه « يؤدي القوم القدّاس كامل السنة وفي بعض الاحيان يؤدونه « بالايقاع » .

ولم يكن حظ الاسرى حالكا بالنحو الذي صورته جمعية الافتدائيين التي كان عليها ان تحرك الهمم للتحصيل على الهبات المتناقصة باطراد ولم

يقدر القساوسة الطيبون على السكوت امام جنوح الكثير إلى اعتناق الاسلام فاضطروا إلى استعمال العنف . واعتبر اغلب الاسياد الخروج عن الدين عملية خاسرة ماعدا النساء اللواتي كن يدفعن عشاقهن إلى الاسلام للتزوج بهم والرؤساء الذين كانوا يختنون صغار نوتيتهم ليبقوا في صحبتهم .

وكان العلج علي بتشنين يتبجح « باستعمال العصا لاستبقاء المسيحي على دينه » .

والعبد بضاعة ليس من المصلحة افسادها ولئن وجد اسياد « غلاظ » شراس ، قساة « فان دارفيو (Darvieux) اعترف بكل نزاهة : « انه يوجد في اوروبا اسياد لايقلون عنهم فظاظة بل ربما تجاوزوا أسياد تونس وحشية لو ملكوا عبيدا مثلهم » اما انواع التعذيب الثلاثة والعشرون التي وصفها وصورها الاب « دان » فقد حدثت بصورة استثنائية . ونسى اولئك الذين شهروا محقين بقساوة البربر ان ملك فرنسا لم يكن أكثر رفقا بالبروتستان الموجودين في سفنه الشراعية وان جماهير باريس لاتتردد في مشاهدة عقوبة الفسخ (écartellement) او بعذاب العجلة كما لو حضرت إحدى الحفلات .

واعتبرت الكنيسة دائما ان افتداء الأسرى واجب مقدس تفرغت لأدائه جمعيات (ordre) كهنوتية مثل جماعة الثالوثيين التي أسسها القديس يوحنا دي متى (1198) وجماعة نوتردام دي لامرسي التي أسسها القديس فييرنولاسك (1218) ووجد في كل أمة افتدائيون وعمدت حكومات الدول البروتستانية إلى جمع التبرعات بل ان بعض اللائكيين التقاة سعوا في تخليص ابناء أوطانهم من الاصفاد غير ان الموارد قلت وفتر حماس رجال الدين . وكشف البحث الذي أجري سنة 1638 قصد اصلاح جماعة الثالوثيين نتيجة معارضة الجنرال أن دار باريس (Maison de Paris) التي بلغت مواردها السنوية عشرة آلاف ليرة لم يوظف عليها إلا 18 ليرة للفدية .

وتتمثل طرافة القديس فانسان دي بولس في أنه عرض على اللعازريين أن يقفوا حياتهم على شيء يتجاوز اعتناق بعض الناس المسيحية أو افتداء عدد من المسيحيين . وهي مهمة لا تقدر على الاضطلاع بها في

نظره إلاّ الدولة ولا يهمنـ' ما إذا حملته نزوة الشباب وجموح الخيال كما أقام « ڤرانشون » الدليل القاطع على ذلك إلى تصوير أسره في تونس ، ثمّ أصرّ على الإمتناع عن ذكره فيما بعد . فهو الذي فكر في ارسال اخوانه لـ : « إعانة النّصارى المساكين أسرى البرابرة روحيّا ومـاديا المرضى منهم والأصحاء وذلك بالزيادرة ، والصدقة ، والتعليم والقيام بالطقوس المقدّسة » .

وظل إلى أن مات المحرك لهذا المشروع الرامي إلى رفع المعنويات ومقاومة الخروج عن الدين وكان « فنسان » شفوقا ولكنه حازم في دعوته ، عرف كيف يُبْقِي على علاقاته مع الجمعيات المتنافسة ويظفر في باريس بمؤيدين له مسموعي الكلمة ويوفق بين التواضع والقوّة وينجح في ادخال الفكرة الدينية في السياسة الفرنسية .

تجارة بلاد البربر والمراكز التجارية :

لم تقم الجزائر البتة بدور تجاري مماثل لما كانت تقوم به الأسكلة في المشرق ، ذلك ان حالة الحرب والقرصنة وضعف الماديات التجارية في الداخل ومنافسة وهران وعنابة (بونة) وبستيون فرنسا حالت دون نموّ التجارة مع الخارج – ورغم الاخطار المحدقة بالتجار الاوروبيّين في حالة نشوب الاضطرابات فانهم بقوا مقيمين بالجزائر مهما تبدلت الأحوال يتاجرون عادة بالاتفاق مع القناصل في البضاعة الحاصلة من الغنائم التي كان يبيعها لهم اليهود او يرسلونها إلى ڤرنة وحتى جزر الأنتي (Antilles) وكانوا يصدرون خاصة الجلد والشمع العسلي والصوف – وتوصل الأنقليز والهولانديون حتى إلى تبادل الأسلحة مقابل المواد الغذائية . ولم يمثل حجم التجارة التصديرية بما في ذلك الزبيب والتين والتمر والأقمشة والتبغ الا شيئا زهيدا كانت ترغب الحكومة في تنميته ، وكانت الايالة تمنح رخص التصدير وتضاعف الاداءات على تسويق البضائع وتغض الطرف مقابل ما يغدق من « بقشيش» على كل الوسائط وبلغ تلاؤم اليهود مع هذه الشروط المتعامل بها في الشرق في ميدان التجارة حدا مكنهم من ان يصبحوا المقتصدين والمحوّلين للعملة وسماسرة البايات والمسيطرين على حياة البلاد

الاقتصادية . ولم ينافسهم سوى التجار الذين جاؤوا من مرسيليا والمقدوح في اخلاقهم فقد ثبتوا رغم المذابح الدورية وتصادموا في آخر القرن السابع عشر مع المتدينين (religionnaires) القادمين من لانقدوك الذين لجأوا ابتداء من سنة 1685 إلى الجزائر او تونس او المغرب الأقصى .

وكان النصارى بتونس أسعد حظا ، اذ رغم الهزات التي نشأت عن الازمات مع الأمم الاوروبية فانهم غالبا ما عاشوا في امان بقيادتهم حتى ان التجار الانقليز واصلوا ممارسة تجارتهم بكل حرية عندما سجن التونسيون قنصلهم كرد فعل على حملة بليك (Blake) (1654) وكان فندق فرنسا المبني سنة 1659 اوسع الفنادق مساحة وأجملها منظرا لأن قنصل فرنسا كان يضع تحت حمايته التجار من مختلف الجنسيات ماعدا الانقليز والهولنديين ونازعه قنصل انقلترا هذا الامتياز بكل الوسائل ، وعندما تعذر تسويق القموح من تونس صدرت الجلود الطريّة رغم منافسة جلود المشرق لها في اواخر القرن السابع عشر وكذلك الصوف والشمع العسلي والاسفنج والتمر وريش النعام وهو أقل شهرة من ريش السينغال وكانت تستورد مقابل ذلك انواع أخرى من الصوف أكثر طواعية في صنع الشاشية وهي صناعة رائجة في تونس وكذلك الخمر وأقمشة الكتان والأسلحة . وكان تنافس اليهود وشركة الرأس الأسود (Cap nègre) تقلل من مرابيح التجار الاوروبيين المقيمين الذين كانوا يفضلون اكتراء السفن من اليهود التونسيين . وحظيت سوسة بنصيب متواضع من هذه المبادلات التجارية ورغم ان التجارة الفرنسية في تونس بلغت ضعفي او ثلاثة اضعاف ما بلغته مع الجزائر فيما بين سنتي 1670 ــ 1690 فان حجمها ظل ضعيفا .

ولم يبلغ نشاط تجار فرنسا وجنوة أقصاه في الجزائر ولا في تونس بل في بستيون فرنسا والرأس الأسود وطبرقة وقد تضايق الجزائريون من شركة « لنش» (Lenche) التي انتصبت ببستيون فرنسا وسلكت سلوك الغازين فتعاطت تصدير القموح رامية بالاتفاقات عرض الحائط وانتهى بهم الأمر إلى افتكاك هذه القاعدة ولم تكن الصفقة خاسرة اذ تنافس القوم من أجل استرجاعها تنافسا كبيرا وغنم منها ابن أخ لنش

ثروات طائلة غير ان الأمر آل إلى تهديم البستيون من جديد « بسبب تحيل الفرنسيين على المغاربة وعدم دفع معاليم اللزمة طيلة ثلاث سنوات » (1604) .

وحالتْ الخصومات بين فرنسا ومدينة الجزائر دون حصول أي اتفاق إلى ان دخل الميدان سنسون نابلون (Sansan Napollon) وهو كورسيكي الأصل مرسيلي المنشأ فتوصل بعد سنتين من المفاوضات ودفع مقادير كبرى من البقشيش إلى ابرام اتفاقية باستيون الشهيرة (29 سبتمبر 1628) التي تخص الفرنسيين دون سواهم بحق التجارة وَصَيْد المرجان في كامل المناطق المعنية وحق ترميم القواعد واعادة بنائها كما كانت من قبل توقيا من خطر المغاربة ومراكب ميورقة ومنورقة الشّراعيّة » وذلك مقابل لزمة قدرت بست عشرة الف ليرة تستعمل خاصة لدفع جراية الانكشاريّة ولم يسمح هذا النص بادخال تغييرات كبيرة على البستيون بل بترميم هذه المراكز فقط حيث حجّرت اتفاقية 1560 « اقامة أية تحصينات كانت » ولم يمنع هذا سنسون من احداث قلعة باتم معنى الكلمة حوّلها إلى مركز للجوسسة « لمعرفة مايجري ببلاد البربر » وجعلها قاعدة تموين بالنسبة « لرجال الحرب » الذين كان يحث الملك على انزالهم في أراضي المسلمين وكان يقول : « انه من الضروري الاحتفاظ بالمراكز المذكورة تحت ستار التجارة وصيد المرجان حتى تنكشف نية الغزو المبيتة » وأخيرا فانه لم يجمع الأموال من صيد المرجان والتجارة المرخص فيها فقط بل انه أثرى بالخصوص من تصدير القمح وهي عمليّة التزم بان لايقوم بها وهكذا كان في مقدور المحتال « سنسون » ان يلقن البربر دروسا في فنّ المخادعة .

وكان هذا المغامر الخبيث يحلم ايضا بافتكاك طبرقة من تجار جنوة الذين تسلموها من خيرالدين مقابل فدية درغوث (1540) وأعطوا لزمتها لجماعة لومليني (Lomellini) قصد صيد المرجان والتجارة مع بلاد البربر وباغته أهل طبرقة في محاولته الثالثة وطاردوه في البحر وقتلوه « بطلقة بندقية » ورموا بجثته في الماء وسمروا رأسه على باب القلعة (ماي 1633) .

وكان موت « سنسون » ضربة قاضية لمراكز التجارة . ذلك ان خصومات الفرنسيين المقيمين بالجزائر مع « سنسون لي باج » القبطان الجديد ، والخشية من ان يتحول البستيون إلى قاعدة تموين للأسطول الفرنسي وخاصة حجز مركبين محملين بالحبوب المهربة كانت كلها مدعاة لقرار الديوان بتهديم هذه المراكز نهائيا و « قتل كل من تحدثه نفسه بذكرها » .

ونفذ علي بتشنين هذا القرار بحذافيره (13 ديسمبر 1637) وحمل تهديم المراكز زعيم الحنانشة الذي كان يتاجر شخصيا مع الشركة ويربح بواسطتها ارباحا طائلة على حفز قبيلته على التمرد واشتراط ارجاع البستيون على ما كان عليه مقابل دخوله الطاعة ونصت اتفاقية جديدة على التمييز بين مرسى عنابة ومرسى القل اللذين لايمكن ان يكون فيهما غير المغازات وبين البستيون والقالة ورأس روزا حيث يسمح « بالبناء » للتوقي من سفن الاعداء الشراعية ومن المغاربة (7 جويلية 1640) ولم تضع هذه المعاهدة حدا لتقلّبات الأمور بالنسبة لهذه المراكز رغم ان الجزائريّين كما شهد بذلك ب. ماسون » « أبدوا رغبة ملحة في التفاهم » وباءت كل المحاولات بالفشل بسبب المطامع الجشعة التي دعمها من لا خلاق لهم من كبار القوم وبسبب الخصومات القائمة بين تجارليون وتجار مرسيليا وتدخلات العمارات الفرنسية واتاحت السلم مع الجزائر الفرصة ابتداء من سنة 1689 إلى الملك لاقصاء مديري الشركات عن الشؤون الديبلوماسية وحصر مهمتهم من جديد في التجارة فحسب . وتمت مراجعة وضع هذه المؤسسات بصفة نهائية بواسطة آخر عقد امضي بين حدى الشركات والجزائريين بالرجوع خاصة إلى السنّة التي ابتدعها سانسون نابولون (غرة جانفي 1694) ومن ذلك التاريخ إلى سنة 1754 اقتصر القوم على تجديد العمل بالاتفاقية اربع عشرة مرّة من دون تغييرها .

وكان على الشركة التي أخذت لزمة صيد المرجان بالبلاد التونسية في مكان الرأس الأسود (قبانة طبرقة) وهو غير ملائم لهذا الغرض في نفس الوقت الذي تأسس فيه البستيون ، ان تصارع تجار جنوة وتدرأ حسد التجار المقيمين بتونس وآل الأمر بالمصرف الذي رسمه بعد أطوار

كثيرة تجار مرسيليا (1631) إلى استيلاء التونسيين (1637) وسرعان مارجعت التجارة إلى سالف نشاطها غير أن الاتفاقية أبرمت بعد مرور ثلاثين سنة (1666) وهي لم تنص على أي تنازل ترابي لفائدة الفرنسيين وتمنع على هذه المؤسسات ان تكتسي أي مظهر من مظاهر التحصينات « وكانت اللزمات تقدر بخمسة اضعاف لزمات البستيون من دون ان تتحمل الشركة تكاليف أخرى لم تتجاوز ذلك بل كانت تحظى ، علاوة على ذلك ، بحق المتاجرة في القمح والشعير ، واستغل الانقليز فرصة ما استتبع موت مراد من فوضى فحاولوا بدون جدوى اقصاء الفرنسيين . ودرّ تموين الشركة لجيوش الملك بكميات الحبوب ابتداء من سنة 1691 ارباحا طائلة سعت الشركة إلى الابقاء عليها بالتحصيل على لزمة دائمة (1700) واحدثت شركة جديدة بعد فشل سابقتها في البستيون والرأس الأسود اوائل القرن الثامن عشر ووحدت بين استغلال اللزمتين مع الابقاء على الاستقلال الاداري لكل من الشركتين وزالت منذ ذلك التاريخ شركة القل والرأس الأسود وانفردت بالوجود شركة واحدة الا وهي شركة افريقيا .

حروب الإيالتين :

اذا نحن ظننا ان سياسة الدول النصرانية تجاه الدول البربرية ناتجة عن مجرد ردود الفعل ازاء اعمال القراصنة نكون قد اكتفينا باعتبارات سطحية ولئن ثار ضمير الشعب على مايقاسيه الأسرى في دينهم فان الحكومات كانت تعتمد في سياستها اولا وبالذات المصالح التجارية ، وتحرّكها المنافسات الاوروبية .

وكانت سياسة الايالتين خاضعة بالخصوص إلى اعتبارات اقتصادية . فاذا تضاءلت الغنائم عجزت موارد البلاد عن تمويل الخزينة وجدّت الاضطرابات ويَستتْبعُ ابرام الصّلح مع النصارى نقصا في الارباح الواردة عادة من مراكب الأمة المحميّة وكذلك من المراكب التي ترفع اعلاما غير اعلامها وإذن فانّ حالة الحرب افضل بما فيها من أخطار وكذلك من منافع وكانت الجزائر لاتتصالح الاّ مع دولة واحدة عند الضرورة وتضاعف مضايقتها للدول الأخرى ، من ذلك ان ابرام الصلح مع رويتر (Ruyter)جرّتفاقم القرصنة ضد المراكب

الفرنسية (1663) وكانت مهادنة لويس الرابع عشر سببا في إحلال القطيعة مع الانقليز والهولنديين (1670) وانجر عن مسالمة انقلترا اعلان الحرب على فرنسا (1681)، وعلى كل فان هذه السياسة الواقعيّة كانت تقرّ التعايش بين القرصنة والتجارة لذلك أعلم الجزائريون (سنة 1681) تجار مرسيليا «بانهم يرحبون بكل الراغبين في القدوم إلى بلادهم رغم هذه القطيعة».

لم تقدر اسبانيا في القرن السابع عشر على ردّ الفعل ضد القرصنة البربرية خلافا لانقلترا بواسطة قوادها بليك (Blake) ومارلبرو (Marlborough) وآلن (Allen) وهولاندا بواسطة رويتر اللتين قامتا بهجمات بحريّة أُعدت اتم اعداد ونُفذت أحسن وتنفيذ، وقد قذف الانقليز مدينة الجزائر ثلاث مرات (1622 — 1655 — 1672) غير ان النتائج كانت متواضعة جدا رغم تفوقهم التقني ولم يقتصروا في أغلب الأحيان على افتداء الاسرى بل ان الهولنديين اضطروا سنة 1680 كما اضطر مثلهم الانقليز سنة 1682 إلى الرضا بتزويد الجزائريين بالحبال والصواري والاسلحة مقابل حق تصدير الحبوب.

ان التدخلات الفرنسية التي أُعدت بكل تأن وشهّر بها يهود مرسيليا في الديوان لاقت مقاومة افقدتها كل جدوى وحتى عندما سمح اختراع الغليونات الكبيرة بتحدي نيران مدافع الجزائريين فان جل القنابل المحرقة تفرقعت قبل اصابة الهدف فكانت النتيجة دائما دون المجهود المبذول وصوّبت العمارات سنة 1661 — 1665 نيران مدافعها إلى مكسر الامواج بدون جدوى ورمى دوكان (Duquesne) المدينة مرتين متتاليتين . فلم يتوصل في المرة الاولى (20 اوت — 20 سبتمبر 1682) الاّ إلى تهديم خمسين دارا وقتل 500 ساكن، (جوان — جويلية 1683) وتسببت المحاولة الثانية في الحاق خسائر فادحة بالمباني وفي تقتيل الفرنسيين المقيمين ومن بينهم الأب المسن «جون لي فاشي» الذي شد إلى فوهة مدفع، وبعد ذلك بخمس سنوات القى دستري (Dèstrées) عشرة آلاف قنبلة أضرت بالحصون والمنازل ضررا كبيرا لكنه اضطر إلى الانسحاب من دون ان يكون نصيبه من النجاح اوفر من سابقيه (جوان — جويلية 1688).

وكانت نتائج محاولة احتلال جيجلي اسوأ بكثير ، فلم يقو الجنود الذين نزلوا من البحر بصعوبة (23 جويلية 1664) والذين نقصتهم المؤن والذخيرة وانهكتهم الحمى على التصدي إلى هجمات الاتراك « والقبائلية » واضطر القوم إلى ركوب البحر من جديد تاركين للعدو 1.400 جثة وحوالي مائة مدفع ، وغرق وهم في طريق العودة أحد مراكبهم قبالة بروفونس (Provence) وعلى متنه 1.200 جندي .

اختيار الملك :

لايمكن فهم موقف فرنسا من البرابرة اذا نحن لم نربطه بسياستها العامة كما فعل كبوت – ري (Capot - Rey) فالاصطدامات لم تكد تتوقف طيلة القرن السابع عشر ، وتعرض قنصلنا في سنة 1603 إلى الاعتداء والبستيون إلى النهب ثم بعد هدنة قصيرة (1605 – 1609) دامت القطيعة عشرين سنة بسبب هروب القرصان سيمون دانسا إلى فرنسا بمدفعين على ملك الباشا وبسبب تقتيل رسل جزائريين في مرسيليا ودامت حالة الحرب تسع سنوات بعد موت سنسون نابولون (1636 – 1643) ورغم هذا فان فرنسا لم ترد الفعل بقوة في أي وقت من الاوقات مثلما فعلت ذلك ابتداء من سنة 1661 ، ذلك ان عوامل جديدة ظهرت في الاثناء وفعلت فعلها .

لقد عظم شأن اللعزاريين بفضل القديس بول ، وتوصلوا على يد « جان لوفاشي » بصفتهم نوابا رسوليين ومنظمين لكنيسة افريقيا إلى اكتساب سلطة أسقفية شملت مراقبة الكبوشيين (Capucins) الايطاليين والثالوثين (Trinitaires) الاسبان . وأصبح من الصعب الاستغناء عن اعانتهم في المفاوضات الرامية دائما إلى فدية الأسرى بوصفهم المتزعمين لحركة الافتداء ومحل ثقة الاولياء الأسرى . وكانوا إلى ذلك بصفتهم قناصل ، الوسطاء الذين لاغنى عنهم بين الملك والبرابرة . وكثيرا ما تمكنوا بفضل هذه الصفات الثلاث من احلال وجهة نظرهم محل وجهة نظر الملك بل إلى فرضها . غير انهم كانوا هم أنفسهم آلة في أيدي غيرهم أكثر مما كانوا مصدر ايحاء .

ان سياسة فرنسا تجاه بلاد البربر في عهد مازاران اتخذها المترمتون غرضا من اغراض حملاتهم وهو امر غريب وغير معروف ، فقد كانت

الشركة وراء القديس بول الذي كثيرا ما يوافق على مضض وتقوم مقام الحكومة في الشؤون الافريقية وتدفع القوم في السبل التي تهيء نصرة الدين — ومن الثابت ان السيد فانسان لايرتاح إلى القنصليات وان دوقة « أقيون » (Aiguillon) هي التي اقنعته بمزايا هذه القنصليات واشترت على التوالي قنصلية الجزائر (1646) ثمّ قنصلية تونس (1648) وهي التي اقترحت كذلك سنة 1659 متجاوزة الوزراء استعمال اموال الصدقات لتمويل حملة خاصّة ضد الجزائر بقيادة الفارس « بول » وهو قائد العمارة الوحيدة الذي بقي صدْرهُ يتأجج حقدا قدسيا على المسلمين واخيرا فان نار الروح التبشيرية المستعرة التي كانت تحدو الشركة هي التي زودت الرأي العام الكاثوليكي المندفع بفرط موجة من الايمان المجدد بالقدرة على التعبير وفرض نفسه على الحكومة ، وكان على الملك وهو النصراني المغالي في نصرانيته أن يركّز جهوده استجابة إلى نداء البابا لمقاومة الاتراك في « كندي » (Candie) أو على الارض المجرية لكن التحالف بين فرنسا وتركيا ظل قائما رغم الاصطدامات ، وتمثلت مهارة لويس الرابع عشر الكبرى ، في محاربة المسلمين بأدنى التكاليف وذلك بالتزام وجهة نظر قوميّة ، فكانت الحملات الموجهة ضد البربر بدوافع تجارية بحتة تستجيب في الظاهر لرغبة النصارى المترعمين لحرب المسلمين .

وتخلصت السياسة الفرنسية عند موت السيد فانسان من قبضة الكاثوليك بفضل دي ليون (De Lionne) وكولبير (Colbert) ، ففي سنة 1672 أجاب «بومبون» (Pomponne) بشدة المركيز دي فوكيار (Marquis de feuquières) الذي ابلغه رسالة « ليبنيتز » البالغة الغرابة حول غزو مصر (Consilium Egyptiacum) قائلا : « لا أفاتحك في شيء عن أي مشروع لحرب مقدّسة غير انك تعلم ان الحروب المقدّسة موضة قد تجاوزتها الأحداث منذ القديس لويس وكان « لايبنتيز » عند ضبط تعليماته للديبلوماسيين الذين سيضطلعون بمهامهم في المستعمرات مستقبلا يؤكد على ضرورة : « اظهار السعي وراء شؤون الدّنيا والتعلق بالمصلحة في مظهر التفرغ إلى الدين والتّشبث بالاخلاق » وطبق « كولبار » هذه المبادىء التي أعدّها « لايبنتيز » لحكم مصر في علاقاته مع الدول البربرية ، فقد كانت الحملات الدينية

والمساعي من أجل افتداء الاسرى المساكين مجرد عملية انتفاعية سرعان ما استتبعت فيها مظاهر القوة المقترحات التجارية .

وكانت التجارة المرجع الاوحد لسياسة « كولبير » لذلك فقد سحب بجرة قلم من اللعزاريين نفوذهم على القنصليات التجارية استجابة لرغبة التجار ، نعم ان الآباء الطيبين جمعوا بين الوظائف فقادهم ذلك إلى الخلط بين ميزانية الأسرى وميزانية المقيمين بصورة غير شرعية وإلى توظيف اداءات جديدة على مراكب فرنسا . وربّما بالغ القوم في انتقادهم . أليس السبب الحقيقي فيما واجهوه من مناهضة يتمثل في وفائهم إلى القرار البابوي (Incoenam domini) الذي حرم بيع التجهيزات البحرية إلى المسلمين وفي معارضتهم عمليات تهريب الأسلحة التي كانت تثري المقيمين الفرنسيين ثراء كبيرا . ومهما يكن من أمر فان رجلا مثل « جون لي فاشي » الذي قدم إلى بلاد البربر في الثامنة والعشرين من عمره يكنّ له داي تونس اعجابا كبيرا وينصت إليه في احترام ديوان الجزائر وبلغ به الحماس الديني حدا جعله يصرخ قائلا : « لو فتح في وجهي من جهة طريق السماء وسمح لي بسلوكها وطريق الجزائر من جهة أخرى لفضّلت الطريق الثاني ، « ثمّ مات شهيد حبّه للسلم ، ان رجلا كهذا يمثل قيمة انسانية اين منها « دي مولان » ذلك الأضحوكة الجبان الذي أقام بتونس او الفارس « دارفيو » ذاك الدعي الزائف الذي عاش في الجزائر وقد دفعتهما خيباتهما المتوالية إلى الثار لنفسيهما بالحث على الحرب .

انساق كولبار إلى تنظيم الحملات ضد البرابرة بايعاز من التجار المقيمين ، انصار استعمال القوة دائما والناصحين تارة « بمسك العصا عالية » . فلم يُهو بها في الوقت الذي أراد بل عندما منحه الوضع في أوروبا مهلة ، فما دام لم يحرك الامبراطور ساكنا تتدهور العلاقات مع الاتراك ويؤول الأمر مع البربر إلى الهجمات البحرية – وانتهت حرب هولاندا بالتصالح بين الفرنسيين والمسلمين (1672) ولكن الملك عاد في الفترة الواقعة بن صلح نيماڤ (1678) وحرب رابطة او ڤسبورغ (Augsbourg) إلى سياسة الوعيد المتمثلة في حملات دوكان (Duquesne) بالارخبيل

(1681 ـ 1684) ورمي الجزائر وطرابلس بالقنابل وحان موعد الامتحان سنة 1688 فاختارت فرنسا ربط العلاقات الطيبة مع المسلمين ؟

وكان في امكان « كولبار » التحصيل على أكثر من السلم أي أن يبرم حلفا رسميا ولكنه أبى ذلك ، لا من باب التحري بل خشية افساد عملية تجييش المجدّفين ، ولهذا السبب ايضا رفض امكانية التفاهم مع مولاي اسماعيل ، بل انه فوق ذلك رفض الجنوح إلى هذا التفاهم حرصا على عظمة الملك التي لاتتجلى الاّ في الحروب . وهذا ما يفسر الردود الوقحة التي وجهت إلى مولاي اسماعيل وانذارات دوكان ، وقنبلة سلا ومدينة الجزائر وطرابلس وهي جميعا مظاهر من احتقار لويس الرابع عشر للبرابرة واشعار للدول الاوروبية بان قوّة الهجمات البحرية الفرنسية تفوق الهجمات الانقليزية والهولندية . ورغم ان الملك لم يتمكن من اهانة البرابرة كما طاب له فانه رضي في آخر الأمر بالتقارب معهم والتمسك في نفس الوقت باحلامه واظهرت معاهدة المائة سنة الممضاة من قبل غليوم مارسال (Guillaume Marcel) مندوب الجيوش البحرية (1689) انه عدل عن الحرب المقدسة مقابل امتيازات سياسية وتجارية ، وهكذا اختار الملك المغالي في نصرانيته نهائيا واقعية « كولبار » التجارية على حساب النزعة الصليبية المتمثلة في القديس « فانسان دي بول » .

وتوسعت الايالة الجزائرية في أواخر القرن السادس عشر حتى بلغت إلى الحدود التي حافظت عليها إلى سنة 1837 ، وتواصلت النزاعات اثناء القرن السابع عشر بينها وبين الأشراف والمراديين ، وسجلت وفاة علج على نهاية مطامحها من دون ان تضع حدا للمناورات التركية في المغرب الأقصى . وتحركت الجزائر منذ ذلك الوقت عن طريق وسطاء من رجال الدين خاصة او باعانة الثوار ، من ذلك ان الأعيان الاتراك ساندوا الرايس غيلان واحتدت الازمة عندما قام مولاي اسماعيل بهجمتين صدّهما الداي شعبان (1691) والداي حاج مصطفى (1701).

واستدرج الشريف التونسيين في نزاعاته مع الجزائر غير ان الداي شعبان اوقف غزوهم لقسنطينة ونصب أحد اتباعه في تونس (1681) وتدخل مرة أخرى بعد ثلاث سنوات لفائدة عميله وهزم خصومه في

الكاف ودخل الجزائر محملا بالغنائم (1694) وحاول الباي مراد بمعية مولاي اسماعيل الاخذ بثأره ولكنه هزم بين سطيف وقسنطينة (1700) وأصبح استقلال تونس مهددا بل واعتزم الداي الحاج مصطفى غزوها وانتصر في أول الأمر على إبراهيم ثم رده على أعقابه حسين بن علي واضطره إلى التقهقر نحو مدينة الجزائر حيث أطاحت فتنة بعرشه وقطع رأسه (1705) وهكذا اكتست الحروب التي نشبت بين المغرب الأقصى والايالتين اثناء القرن السابع عشر صبغة ظرفية ، ولم ينتج عنها أي تغيير ملحوظ في بلاد المغرب وانما ساهمت في عدم استقرار الحكم في الجزائر وتونس بسبب ما أحدثته من انقلابات في مستوى المسؤولين .

5 ـ بلاد الجزائر في عهد الدايات
والبلاد التونسية في عهد الحسينيين

تدهور مدينة الجزائر :

أضاعت مدينة الجزائر في القرن الثامن عشر ازدهارها ـ فقد تدهورت القرصنة بسبب ما تم من معاهدات بين الدول العظمى وما تعرضت إليه من هجمات بحرية وما حدث من تناقص في عدد البحارة البارعين في فن القرصنة ، فلم تبلغ الغنائم طيلة تسع سنين اثناء ربع قرن (1765 ـ 1792) مائة الف فرنك ، ونزل عدد قطع الأسطول من اربع وعشرين قطعة (1724) إلى ثمانية مراكب وغليونتين (1788) في ظرف ستين سنة .

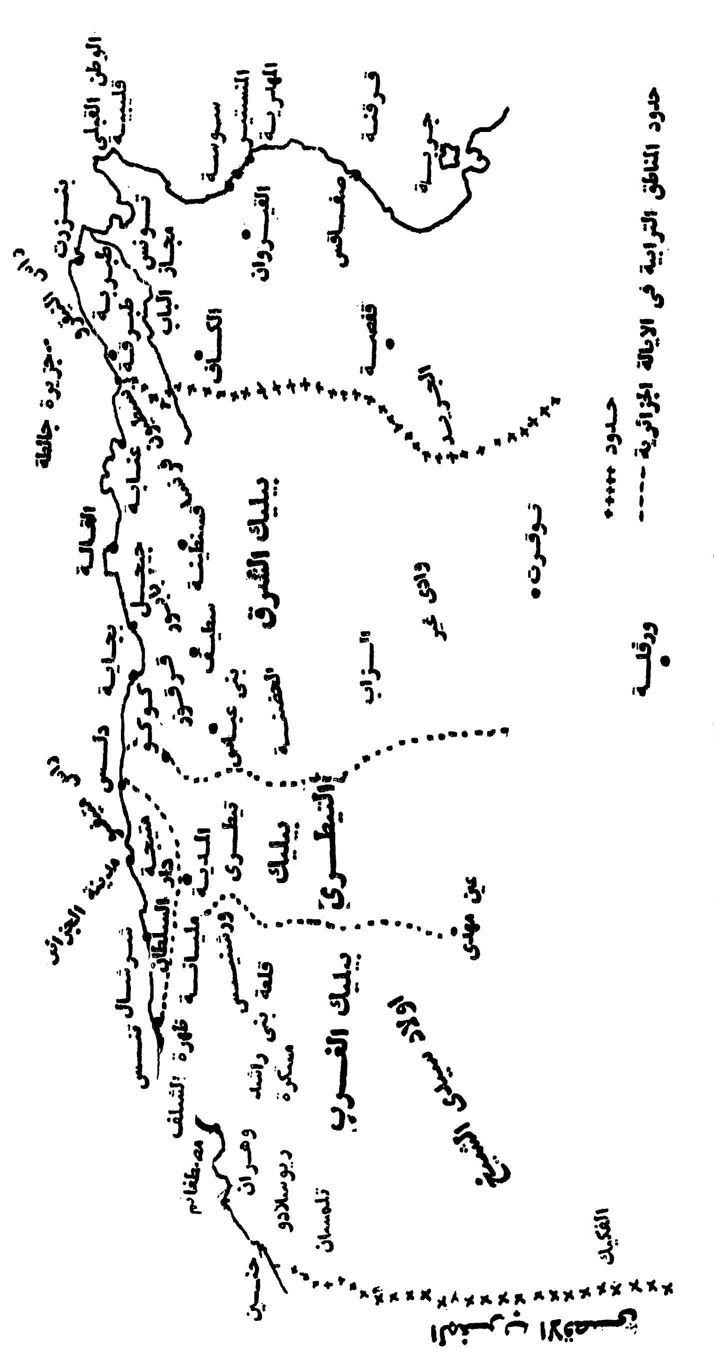
ورفع الرائس حميدو الذي جال البحار إلى سنة 1815 هذا العدد إلى 30 سفينة مستغلا الحروب التي دارت رحاها في أوروبا بعد الثورة الفرنسية ، وعجلت أوبئة الطاعون المتتالية والمجاعات المتعاقبة نتيجة انحباس المطر بتدهور الحالة في الجزائر ، فقد مات في سنة 1787 وحدها سبعة عشر الف ساكن وقضى خمسمائة شخص نحبهم كل يوم في صيف 1817 ، فاذا أضفنا إلى ذلك الفتن التي كانت تغذيها الفوضى السياسية ادركنا لماذا نزل عدد السكان في أوائل القرن التاسع عشر إلى حوالي ثلاثين ألفا ونقص عدد الوجق حتى انتهى إلى ستة آلاف وعندما احتل الفرنسيون مدينة الجزائر لم يكن عدد الأسرى أكثر من 122 بعد ان كان 800 سنة 1788 ثم ارتفع إلى 1642 سنة 1816 :

وكسدت التجارة من جراء ما دهَا مدينة الجزائر من فقر متزايد ولئن وفر ذلك للاوروبيين مزيدا من الأمن فقد حرمهم من فرص الاثراء التي عرفوها في الفترات الزاهرة وعندما احتكر الداي التجارة آل الأمر إلى خنقها فلم تبق في أواسط القرن الثامن عشر الا مؤسستان فرنسيتان او ثلاث حلت محلها فيما بعد دار واحدة من مرسيليا تدعى « دار فرنسا » احتكرت كل الصادرات وصمدت بصعوبة امام منافسة شركة إفريقيا الشهيرة .

وتحسّن الحال تدريجيا بالنسبة إلى مراكز افريقيا وهي التي انجزت ثلاث مؤسسات بالقالة وعنابة والقل وأصبحت ابتداء من سنة 1714 تصدّر القموح بحرّية ، ونجح الوزير « موروبا » (Maurepas) في صرف عناية الحجرة التجارية بمرسيليا إلى تطوير هذه المؤسسات وفي وضع الشركة تحت مراقبة الحكومة وقد أصبحت منذ ذلك العهد ملكيّة (1741) وبلغت هذه الشركة حدا من الازدهار حوالي سنة 1776 تمكنت معه من ضرب ميدالية تمثل افريقيا وهي ماسكة بيديها قرنا يرمز إلى الخصوبة وتبرز منه سنابل ، وكتبت في أسفل هذه الميدالية جملة تشير إلى ثراء مرسيليا بفضل التجارة الافريقية (Aucta libycis Opibus Massilia) .

ولم ينْم حجم الصادرات بالنسبة إلى الأمم الأخرى ، اذ خرج منذ زمان كما ذكر ذلك رينال (Rynal) سنة 1775 من حلبة السباق تجار السويد والدانمارك وهولاندا والبندقية ، وبقي في الميدان التجار الأنقليز تمثلهم شركة واحدة أقل شأنا من مثيلتها في مرسيليا لم تنفك أحوالها تسير من سيء إلى أسوأ ، غير ان الجزائر كانت تساهم في تموين جبل طارق .

ولئن احتلّت مرسيليا المرتبة الأولى بالنسبة إلى التصدير فان ڤرنة فاقتها في مجال التوريد من الجزائر وذلك بفضل اليهود ، وفاز الانقليز بالصدارة سنة 1822 بالنسبة إلى مجموع الايالة اذ كان نصيبهم حوالي نصف قيمة مجموع البضائع وفي الجملة فان رقم المعاملات التجارية في الجزائر بلغ حوالي سنة 1830 خمسة ملايين من الفرنكات تقريبا وهو رقم يعتبر ضعيفا جدا .



شكل 27 . — تونس الجزائر في عهد الاتراك .

وبقيت التجارة الداخلية مدعّمة في النصف الأول من القرن الثامن عشر اذ وُجدت في مدينة الجزائر صناعات محليّة نشيطة توزع انتاجها في كافة المقاطعات وظلت صامدة حتى سنة 1830 . ولكن تناقص عدد السكان وفقرهم المطرد قضيا على التجارة والصناعات بالانهيار .

دايات مدينة الجزائر طغاة بلا حريّة :

لما حرمت مدينة الجزائر من غنائم القرصنة اتجهت إلى استغلال البلاد ، فقد أخضع نظام الدايات الايالة إلى ملكيّة انتخابية ولكنّها تمارس الحكم المطلق وقد حلّ ضباط الحرس محل الرؤساء لتعيين الداي منذ سنة 1689 ولم يشترط في تقلد أعلى منصب في الدولة أي شرط مسبق وما دامت الطائفة ماسكة بزمام الأمور فانها تعيّن الرؤساء اما الجرس فقد خبط خبط عشواء ابتداء من الداي الخامس الاّ أن أكثر المنتخبين كانوا من بين خوجات الخيل الآغوات أو الخزناجية فعلي الملمولي (1754 – 1766) عمل حمّارا ثمّ أصبح آغا ، وكان الانتخاب مجرد مظهر إذ أن أربعة عشر دايا من بين الثلاثين الذين تعاقبوا على الحكم من سنة 1671 إلى سنة 1818 فُرضوا فرضا بعد اشعال نيران الفتنة واغتيال اسلافهم .

وكان الداي حاكما بأمره اذ كان نفوذه محددا صوريا من قبل ديوان يختار من بين اعضائه الوزراء الخمسة وهم الخزناجي وهو صاحب الخزينة وآغا المحلة أي القائد الأعلى لجيش البر ووكيل الخرج وهو وزير البحرية وخوجة الخيل وهو وكيل القصر والمكلف بالأوقاف (بيت الملجي) وقابض الضرائب ويعينهم جميعا أمين ماله الخاص خزندار وكتاب (خوجات) وحجاب (شواش) وكان الداي يجتنب جمعهم ويستقبلهم أقل مايمكن بل يؤثر الاتصال بهم عن طريق مترجم القصر .

وكانت مسؤوليته الأولى تتمثل في الحكم بين النّاس ، ولم يكن الاتراك والأهالي راجعين بالنظر إلى نفس المحاكم ولا خاضعين إلى شرطة واحدة فالاتراك وهم حنفية يتجهون إلى القاضي الحنفي اما المغاربة الباقون على المذهب المالكي فيقصدون القاضي المالكي – أما القضايا الجنائية فيحكم فيها الآغا بالنسبة إلى الأتراك وكاهيته بالنسبة إلى المغاربة ، وكان يوجد أخيرا شواش خاصون بالاتراك وشرطة نجدة مقصورة

على المغاربة ، وتنفذ الاحكام بالجلد والغرامات حالا وتُنفّذ أحكام الإعدام بقطع الرأس أمام قاعة المحكمة بالذات ويعدم المحكوم عليهم بالخنق أو بالخَنُوْزَقَة على المزاليج المعقفة بباب عزون ، أما اليهود والمرتدون فانهم يحرقون في المكان المخصص لذلك بمكسر الأمواج أو بباب الواد . وكان الداي يحيل القضايا المدنية إلى القضاة أو في بعض الأحوال إلى مفاتي المالكية أو الحنفية . ويخصص فترة ما بعد الظّهر لشؤون الدّولة فيستقبل كبار الموظفين ويوجّه المفاوضات الديبلوماسية وهو الذي يبت في آخر الأمر وعند الاقتضاء في أمر السلم أو الحرب .

وليس للدايات سوى ما يتقاضاه أعلى الإنكشارية مرتبة وذلك احتراما لفكرة المساواة النظرية ، غير أن ما يدفعه لهم الموظفون وخاصة البايات عند تسميتهم وهدايا القناصل او الملوك ونصيبهم من الغنائم وارباحهم من العمليات التجارية التي يمارسونها تدر عليهم مداخيل اضافية وفيرة ، فاذا اغتيل أحدهم رجعت ثروته وهي طائلة في أغلب الاحيان إلى الخزينة العامة . .

وكان يُوقف جانب من ثرواتهم على المشاريع الدينية فقد شيّد محمّد بن عثمان (1766 — 1791) وهو من ألمع الدايات في القرن الثامن عشر جامع السيّدة الموجود قرب القصر والذي يؤمّه زعماء الايالة . وأسرع الفرنسيون إلى تهديمه من دون فائدة تذكر سنة 1830 وكاد جامع المصيدة (La Pêcherie) أن يلاقي نفس المصير وشيّد بابا حسن خلف محمّد بن عثمان جامع كتشاوة سنة 1794 وأصبح بسبب التغييرات المسلطة عليه، لجعله كتدرائية ، مبنى ممسوخا رغم ان بعض الملامح تشير إلى بقايا قبته المثمنة الاضلاع بعقود زواياها مزينة بالربعيات والتي تغطي مساحة مرّبعة الشكل طول ضلعها أحد عشر مترا ونصفاً كما تذكر هذه البقايا بأروقة هذا الجامع الجانبية وأقواسه المنكسرة المعتمدة على اسطوانات تيجانها بصيلية الشكل . ويرجع إلى نفس الفترة بناء جامع سيدي محمد. بن عبد الرحمان في مقبرة الحامة ويدعى بوقبرين وهو الرجل ذو القبرين لأن قرية في بلاد القبائل تدعي انه مدفون بها ؛ وأذن الداي حسين وهو آخر الدايات ببناء جامع القصبة واعادة تشييد جامع

السفير الذي ليس له الا ثلاثة اروقة لأن الجهة الخلفية الموازية للقبلة خالية من ذلك .

ان كل هذه الجوامع الجزائرية « التي تتميز اساسا بقاعة رئيسية تغطيها قبّة بزواياها الثمانية وتحيط بها اروقة » (ج. مارسي) مستوحاة من النمط الأناضولي .

ورغم السّلطة التي كان الداي ينفرد بها فانه لم يكن في مأمن من الاخطار بل كان في الواقع يحوم حوله الموت بدون انقطاع فما ان ينتخب حتى يصبح ملكا للدولة التي تفصله عن ذويه لان المراسم لاتسمح له بالتمتع بالحياة العائلية في داره الخاصة الاّ نصف نهار وليلة واحدة في الاسبوع وكان عدد كبير من الدايات رجالا ممتازين ولكن اغلبهم من القساة ، ذلك انهم يظنون مثل القس نامي (Némi) ان المنافسين يتربصون بهم الدوائر لاغتيالهم وأخذ مكانهم فتدفع هذه الخشية حتى الطيّبين منهم إلى استعمال ابشع مظاهر القسوة .

وترك علي خوجة سنة 1816 الجنينة خوفا من انتفاضات الحرس واحتمى بقلعة القصبة حيث أعدت له غرفة خاصة وأقام بها حريمه وهيئت قاعة الحكم تحت أحد أروقة الطابق السفلي – أما الشُرفة التي شهدت حسب الروايات ضربة المروحة فهي عبارة عن رواق من خشب أقيم في دخلة من الطابق الثاني . وقد أصاب المؤرخ الاسباني « خوان كنو » عندما وصف الداي بأنه « رجل ثري لايتصرف في كنوزه وأب بدون أولاد وزوج بلا زوجة وطاغية غير حر وملك لعبيد وعبد لرعاياه ».

حكومة الايالة :

إن الحكم بالنسبة للاتراك صناعة سعوا جاهدين إلى أن تدر عليهم أوفر الارباح .

وكانت مقاطعة مدينة الجزائر تعتبر ملكا خاصا للداي (دار السلطان) وراجعة اليه بالنظر يتصرف فيها بواسطة آغا الصبايحية الذي يقوم مقام الباي واربعة « قياد » من الاتراك. وكان يؤثر مدينة الجزائر بنظام خاص تحت رقابة الخزناجي ويوجد على رأس كل فئة من السكان – ما عدا

فئة القبائل – وعلى رأس كل حرفة ، مسؤول يسمى الأمين وترجع إليه الشرطة والمحاكم بالنظر تحت رقابة شيخ البلد . وكانت الحنفيات والأسواق والأنهج والحمامات ودور الخناء تحت مسؤولية موظفين خاصين بها وكانت شرطة المدينة في مستوى مرضي للغاية .

أما باقي الايالة فقد قسمت إلى ثلاث مقاطعات (بيليك) بيليك الغرب وعاصمته على التوالي مزونة (جنوب شرقي رينو) ثمّ مسكرة (1710) وأخيرا وهران (1792) وبيليك الوسط أو تيطري وعاصمته مدية وبيليك الشرق أو قسنطينة ويوجد على رأس كل بيليك باي يعيّنه الداي عادة من بين أكثرهم استعدادا للمهاداة . وكان البايات يتصرفون في مقاطعاتهم تصرف الملوك مثل محمّد الكبير في وهران والحاج أحمد في قسنطينة الذي جلب خبراء مشهورين لتشييد قصر ليست اناقته في مستوى مارُصد له من أموال تحوط به حديقتان وعدّة ساحات ، وكان الدايات لايطمئنون إلى ولاتهم فيعطون إلى مبعوثي البايات (خليفة) مرتين في السنة بمناسبة قدومهم لتسليم محاصيل الضرائب ، قفطانا شرفيا (خلعة سنية) هدية لاسيادهم ، وكان على البايات ان يَقْدموا بأنفسهم كل ثلاث سنوات إلى الجزائر لتسليم الاموال المتأتية من الضرائب ، وهي بالنسبة اليهم مغامرة يتركون فيها دائما جانبا من ثروتهم ويخسرون غالبا وظيفهم ويقضون احيانا نحبهم . غير ان الداي كان يقرأ لهم حسابا حتى في مدينة الجزائر كما تشهد بذلك رواية تخليص « تدنا » من الاسر كما نشرها « أمريت » ، وكان باي تيطري أشدّ البايات خطرا على الداي لقربه من العاصمة لذلك اقتطعت مدية من جهته واثيرت في طريقه الأشواك بسبب تدخلات المسؤول عن هذه السنطقة الذي عينه الآغا .

وينقسم كل بيليك إلى جملة من « الاوطان » يضم كل واحد منها في الغالب عددا من القبائل ويحكمها « قياد » يجمعون بين أيديهم السلط المدنية والعسكرية والقضائية – ويساعدهم في الحكم رؤساء القبائل والمشايخ الذين يعتمدون بدورهم على رؤساء « الدواوير » وتتمثل مسؤولية هؤلاء « القياد » بالخصوص في السهر على توزيع الأراضي واحيائها لضبط مقاييس توظيف الأداءات ثمّ يسهرون على استخلاصها

باعانة المشايخ ويعين الباي القياد باقتراح من الأغا أو غيره من كبار الموظفين الذين يرجعون اليهم بالنظر فيتسلمون طابعا وبرنسا أحمر وكانوا كلهم اتراكا بينما ينتسب المشايخ إلى أكبر قبائل « الوطن » شأنا ، ويتفق احيانا ان يتركب « الوطن » من قبيلة كبرى واحدة فيصبح شيخها قائدا عليها ، فقد تفككت المجموعات العمرانية الكبرى المعروفة في القرون الوسطى واندمجت عناصرها في فئات أخرى واندمج كذلك نهائيا العرب والبربر بعضهم ببعض اما الفئات الثانوية المستقرة في الاراضي الفقيرة البعيدة عن مناطق النفوذ التركي مثل اولاد نايل والصحراويين فقد صمدت أكثر من غيرها أمام هذه التحولات بل زاد عدد افرادها وامتدت جذورها وأخيرا ظهرت فئات أخرى تجمعها أواصر الدين مثل اولاد سيدي الشيخ في ولاية وهران .

وكان الباي يعتمد في حفظ الأمن بولايته واستخلاص الضرائب على قبائل مخزنية معفاة من الضرائب غير الدينية فيمتصون القبائل المغلوبة على امرها امتصاصا . وكان تواطؤهم على قدر اخلاصهم لرؤسائهم ثم ان الاتراك اقروا إلى جانب ذلك في النقط الاستراتيجية مجموعات عسكرية تسمّى الواحدة منها زمالة لحفظ الأمن بالجهة مقابل اعفائها من الاداءات .

وكان البايات لايكترثون بتقاليد رعاياهم وعاداتهم ماداموا يدفعون الضرائب ولايعترضون سبيل جيوشهم .

ثورات وحروب :

ان سلطة الدايات لم تتجاوز في واقع الأمر حسب « رين » سُدُس بلاد الجزائر الحالية . ذلك أن جمهوريات بلاد القبائل والقبائل الرحل في النجود والجنوب والامارات المحاربة او الطرقية مثل امارة توقرت أو عين مهدي عاشت كلها مستقلة استقلالا تاما ، وارتبطت بهم مجموعات أخرى مثل اولاد سيدي الشيخ بروابط ولاء واهية – بل انه كان على الحكومة ان تخشى تآلف القبائل المستقرة في المناطق الخاضعة لهم لذلك كانت تعتمد على اضرام نار الفتن بينها اتقاء لشرها وتراعي وتداري نفوذ الأشراف واصحاب الطرق .

ومهما اظهر الحكم مهارة فانه لم يسيطر أبدا على البلاد السيطرة التامة ولم تنفك بلاد القبائل في تمردها رغم المراكز العسكرية التي أقرها الأتراك في وادي سبو ورغم تدخلاتهم في الخصومات القائمة بين العروش بالاعتماد على الأشراف المحليين . وقضى الداي محمد بن عثمان المعروف بحزمه (1766 – 1791) سنوات عديدة للانتهاء من أمر هذه الثورات . وكانت الفتن التي اثارتها في اوائل القرن التاسع عشر طريقة الدرقاوة والتي اوعز بها من قريب او من بعيد مولاي سليمان سلطان فاس أشد خطرا . فالولي ابن شريف هو الذي اشعل نار الفتنة في وهران بينما نادى بالثورة ابن الاحرش أحد الأشراف الدرقاوية المتصل أغلب الظن بالانقليز في قبائل البابور واضطر الاتراك إلى التخلي في الغرب عن مسكرة وحوصروا في مشوار تلمسان في حين اقتيد باي قسنطينة أسيرا وقتل . ولم تلبث أن عمت الفتنة البلاد كلها من الشلف إلى حدود المغرب الأقصى . ثم أخذ الأتراك يسيطرون شيئا فشيئا على الوضع ولكنهم لم يمنعوا مواطن الفتنة من التكاثر . فهزمتهم ابتداء من سنة 1810 إلى 1815 قبايل البابوروبني فليسة وتيطري وشاركهم بعد ذلك التونسيون . وعزز عمل الدرقاوة اولياء تيجانية عين المهدي وخاصة عندما تحققوا من حماية مولاي عبد الرحمان الشريف الجديد بالمغرب الأقصى . ولما بدأ الصراع بين فرنسا والايالة لم يتمكن الداي بعد من ارجاع نفوذه إلى ما كان عليه .

وحاول الدايات المنهمكون غربا في التصدي إلى مناورات المغاربة ان يخضعوا في الجهة الشرقية البلاد التونسية بحد السلاح مستغلين خصومات الحسينيين فاحتلوا تونس ونهبوها واجبروا البايات على دفع اتاوة سنوية (1756) ولم يتوقف الصراع الناتج عن محاولات البايات طيلة خمس وستين سنة للظفر بالاستقلال الا بفضل وساطة الباب العالي (1821) .

واغتنمت الدول العظمى تدهور الأمور في مدينة الجزائر لجبرها على احترام مراكبها وذلك باغرائها بالاموال أو بالهدايا بدون اللجوء إلى الهجمات البحرية بل ان سبعة دول وهي الولايات المتحدة وهولاندا والبرتغال ومملكة نابولي والسويد والنرويج والدانمارك رضيت بدفع اتاوة سنوية . وحاولت إسبانيا بمفردها في القرن الثامن عشر الهجوم على

مدينة الجزائر . وكان ذلك بمثابة الانتفاضات الاخيرة في سياستها تجاه الجزائر . فقد تخلّت اثناء الاضطرابات التي تبعث الحرب من أجل العرش عن وهران ومرسى الكبير (1708) بل اضطرت إلى الانتظار طيلة ربع قرن لاسترجاعهما (1732) . وأصبح أكبر الحصون في وهران الذي بلغ عدد سكانه في آخر الأمر عشرة آلاف مدينة تحتضن حامية وتسعى إلى تقليد مدريد في مراسمها ممّا جعل القوم ينعتونها في لهجة لاتخلو من تبجح بالبلاط الصغير (Corte Chica) وظلت الجيوش توالي غزواتها في دائرة تقارب مائة كيلو متر وتفرض على القبائل الخاضعة لها ضريبة من الحبوب (رومية) وبقي التموين رغم هذا الاداء وشراءات المواد الغذائية من الاهالي مرتبطا بما تجود به الموانى الاسبانيّة وخاضعاً للازمات الاقتصادية الخطيرة من دون أن تبلغ الدرجة التي عرفتها في عهد « الكونت ألكوديت » . ولعل « اوريـي » (O'Reilly) قصد اجتناب هذه الصعوبات فاضطر إلى الانسحاب من الغد بعد ان قرر انزال جيش يعد خمسة وعشرين الفا قرب الحراش بعد أن أبيد عشر جنده (8 جويلية 1775) ولاشك أن هذه الصعوبات هي التي تسبّبت في رمي « دون انجيلو برسولو » البلاد بالقنابل على كرتين (اوت 1783 — جويلية 1784) ثمّ كان امضاء معاهدة كلفت اسبانيا ثمنا باهظا ودعّمت هذه الخيبات تشاؤم بعض الاوساط الاسبانية المحترزة في التدخل في الأراضي الافريقية — فكان زلزال اكتوبر سنة 1790، الذي هدم وهران بمثابة هديّة الاقدار التي مكّنت ولاشك من الضغط على الارادة الملكية . وعلى كل فان الاسبان سلموا الداي القاعدة بمقتضى معاهدة 12 سبتمبر 1791 وجلوا عنها في السنة الموالية .

وتوترت العلاقات بين الايالة وأوروبا ابتداء من سنة 1792 ولاشك أن وكالة إفريقيا واصلت التصرف لفائدة الدولة في الشركة القديمة التي أمرت بحلها هيئة الانقاذ العمومي (8 فيفري 1794) ولاشك كذلك أن الجمهورية قبلت بارتياح شحنات الحبوب والقروض بدون فائض التي اسندها اليها الداي . غير أن نابليون فكّر في الرجوع إلى سياسة لويس الرابع عشر . ولئن هو لم يقدر على تنفيذ فكرته فقد أذنَ الرائد « بوتان » (Boutin) قائد الهندسة العسكرية (جويلية 1818) بالقيام برسوم ودراسات

على العين كانت حصيلتها تقريرا شافيا استفادت منه الحملة العسكرية في سنة 1830 .

ورفضت فرنسا غداة انهيار الامبراطورية الموافقة على المشاريع التي ضبطتها ندوات لندن للقضاء على القراصنة (1816) فآثرت ابقاء القرصنة على دعم الهيمنة الانقليزية على البحار . ولم يتوفق مؤتمر ايكس لاشابيل (Aïx-La-Chapelle) الا إلى ايفاد قائدين للبحرية أحدهما فرنسي وثانيهما انقليزي باسم أروبا فقبلهما الداي ساخرا وانتهى الأمر بالدول العظمى إلى أن تعمل كل واحدة منها على حدة ، من ذلك ان الولايات المتحدة توصلت إلى ابرام معاهدة في صالحها بقوة المدافع (1815) وقامت عمارة انقليزية يقودها اللورد « أكموث » (Exmouth) وقائد البحرية الهولندية « ڤان كابلان » (Van Cappellen) بأجرإ عملية عرفت في ذلك الوقت إذ اقتحمت المرسى في حماية راية التفاوض وامطرت الاسطول والمدينة بـ 34.000 قذيفة وسحقتهما ولكنهما اصطدمت بمقاومة شديدة خسرت فيها 883 رجلا (27 اوت 1816) وقام أمير البحر « نيل » بعد تسع سنوات بمحاولة لم تأت بأية نتيجة (1825) ولم يؤثر كل ذلك في الطاقة الدفاعية لمدينة الجزائر .

وكان في امكان الايالة ان يطول صمودها لو لم يقع الداي ضحية المساومات المالية ومناورات القنصل « دوفال » المريبة التي مهدت إلى مشهد صفعة المروحة (30 افريل 1827) التي اقتضت ضرورات السياسة الداخلية الفرنسية تنظيم حملة بعد ثلاث سنوات وانتهت باحتلال مدينة الجزائر . (5 جويلية 1830) .

البلاد التونسيّة في العهد الحسيني :

أحدث القرن السابع عشر تغييرات كبيرة في البلاد التونسية . فلقد اقام البايات المراديون نوعا من الحكم الوراثي ، واستحكم امر عدة عائلات عربية وبربرية في وسط البلاد وجنوبها وتمكنت الايالة من صيانة استقلالها ورد الهجمات الجزائرية . وركز الحسينيون ابتداء من القرن الثامن عشر بصورة رسمية الملكية الوراثية ولكنهم اضطروا إلى مقاومة

الهيمنة الجزائرية وخاصة تسلّط الدول الأوروبيّة العظمى المتزايد مع الحرص على إبرام علاقات عادية معها .

ولم يقنع مؤسس الدولة الحسينية حسين باي وهو المعروف بحذره وحزمه وذكائه بتعيينه بايًا من قبل الآغوات (1705) بل ضمن لاحفاده شرعية وراثة العرش عن طريق مجلس خاص (1710) وعرفت تونس في عهده ازدهارا اقتصاديا حقيقيا . فلاحظ بيسونال (Peysonnel) سنة 1724 مدى أهمية المواد الأولية المستعملة في صناعة الشاشية وتصدير القموح والجلود والشمع العسلي والاسفنج والتمر وكذلك توافد القوافل الآتية من المغرب الأقصى وفزان . فكثر لذلك عدد الأجانب المقيمين ، الاّ أن العقبة الوحيدة التي كانت تعترض التجارة تتمثل في « شح الباي الذي احتكر النشاط التجاري لهذا الميدان وخص نفسه ببيع البضائع باثمان باهظة » بينما اتفقت كلمة الاجانب على التنويه باستقامة التجار التونسيين ، وابرم الباي معاهدة معفرنسا (1710 — 1728) وانقلترا (1716) واسبانيا (1720) وهولاندا (1728) والنمسا (1725) — وهكذا ركز علاقاته الدولية دون تدخل الباب العالي . غير أن تأثيره على القراصنة كان محدودا ممّا تسبّب مرتين متواليتين في ارسال عمارات فرنسية إلى حلق الوادي (1728 — 1731) وكان وضع البلاد في أول الأمر حسنا جداً . وكتب في ذلك محمّد الصغير بن يوسف قائلا : « — وامنت الطرقات وكثرت في أيامه الخيرات فعمّروا الرّباع والرّياض وبنوا القصور بأمنه المستفاض ما لم يكن في زمن غيره » . وأعلى حسين باي سور القيروان وأعطاه شكله الحالي وبنى عدة مدارس وحقّق مشاريع كثيرة ذات مصلحة عامة .

غير أن ثورات ابن أخيه علي باشا الذي اقصاه عن الحكم اولاد حسين باي الذين انجبتهم علجية من جنوة احدثت اضطرابات خطيرة (1729) واستعان ابن علي باشا بالجزائريين وحاصر الباي بالقيروان طيلة خمس سنوات وتمكن في آخر الامر من القاء القبض عليه وقطع رأسه (18 ماي 1740) .

واشتهر الباي الجديد (1740 — 1756) بتطرفه في نزعته الاستقلالية وعرف كيف يقنع القناصل بذلك عندما أكد لهم انه يريد أن يبقى سيدا

في بلاده وكان يعتقد وهو محق في ذلك أن الفرنسيين يشجعون قيام الثورات في بلاده فكان يكنّ للقنصل عداوة شخصية تجلت بالخصوص عندما تورّط هذا القنصل في قضية امرأة وانتهى به الأمر إلى قطع العلاقات مع فرنسا (1741) وزاده موقف شركة افريقيا غضبا على غضبه ، ذلك انه احتجز رسالة لمدير الرأس الأسود يدعى فوقاس (Fougasse) يكشف النقاب عن خطة لغزو طبرقة التي اعتزم جماعة لومليني (Lomellini) التخلي عنها « ذلك أن احتلال الجزيرة لاينشط التجارة الفرنسية تنشيطا كبيرا فقط بل إن هذا المركز الهام من شأنه ان يمكن فرنسا من فرض ارادتها على باي تونس وعلى كل الدول البربرية » (ب. ماسون) وهكذا تشابه برنامج فوقاس ومشروع سنسون نابولون وكشف كلاهما عن نفس الاغراض الامبريالية .

وسبق الباي الاحداث فاستولى على القاعدة ثمّ الرأس الأسود فحاول ضابط بحرية فرنسي الاستيلاء على الجزيرة في غفلة من أهلها وانكشف امره وعزل « فوقاس » رسميّا جبرا لخاطر الباي غير انه احتفظ في الواقع بادارة القالة ممّا أقام الدليل على أن الحكومة نظرت بعين الرضا إلى محاولة الغزو . واضطرت الحرب الأهلية علي باشا كما شجعه كرم تاجر فرنسي مدعم بحضور عدد من « الفرقاطات » على ابرام معاهدة سلم تقضي بارجاع المراكز التجارية إلى سالف عهدها ولكنها تفرض على قنصل فرنسا الخضوع إلى مراسم تقبيل اليد (9 نوفمبر 1742) .

واستجاب الباي إلى رغبات البلاد فبنى خاصة المدارس ومن أهمها المدرسة الباشية وهي مستوحاة كغيرها من حيث معمارها من نمط المدارس المصرية في احتوائها في نفس الوقت على فصول الدراسة وضريح المؤسس وحنفية عمومية ، وزاد الباي ايضا في القصر الحفصي القديم بباردو قاعات وزخرفها في بعض الاحيان على الشكل الاوروبي وفتحها على فنائين تحوط بكل منهما اروقة .

واضطربت الاحوال في آخر عهد علي باشا من جرّاء ثورة ابنه فاغتنم الجزائريون الفرصة لغزو تونس ودخلوا العاصمة من دون عناء وقضوا على الباي وقطعوا رأسه ونصبّوا محمّدا أحد ابناء حسين بن علي بايا واضطروه إلى دفع اتاوة لهم (1756)

ولم تدم فترة حكم محمّد الاّ ثلاث سنوات تمكن فيها من بسط الامن في البلاد — واشتهر باستقامته ، وطيبة قلبه في معاملاته مع التونسيين والاجانب لمهارته ولباقته ، واعتلى العرش من بعده أخوه علي باي (1759 — 1782) فعرف بذكائه الحاد ورغم تدخلات الانقليز المزهوين بانتصارهم في حرب السبع سنوات فانه لم يظهر عداوة للفرنسيين واعترف لهم باحتكار صيد المرجان في السواحل التونسية كما ميزهم بحق فتح مصرف في بنزرت (1768) وعندما الحقت فرنسا جزيرة كورسيكا بترابها احدثت قطيعة لم تدم طويلا نظرا إلى أن ذلك من شأنه ان ينال من المصالح التونسية — وكانت آخرّ قطيعة ، وأعطى الباي الشركة جزيرة جالطة (شمال شرقي طبرقة) عوضا عن رأس نيقرو الذي كان الاهالي يطردون منه التجار الفرنسيين المقيمين بطلقات البنادق عوضا عن بنزرت التي طالبت بها فرنسا (1770) ثمّ سمح الباي بتركيز اربعة مصارف على ساحلي الوطن القبلي (1781) وكانت فرنسا مدينة بهذا الوضع الممتاز اولا وبالذات إلى مصطفى خوجة صهر الباي ووزيره الاول الذي عرفت الادارة التونسية على يده ازدهارا مجددا .

أمّا حمودة باشا ابن علي (1782 — 1814) وهو أمير شاب معروف بنزعته الاستقلالية وحماسه المتقد ، فقد صمد أكثر من سابقيه في وجه الهيمنة الاوروبية . وقطع العلاقات مع البندقيه التي رمت سوسة بالقنابل (1784) وهدمت مدينة حلق الوادي أو كادت (1785) من دون أن تلين له قناة ورضي بابرام معاهدة مع اسبانيا عندما تمكن من فرض شروط ثقيلة الوطأة عليها (1790) وقطع كذلك روابط الولاء إزاء مدينة الجزائر التي شنت هجومين متتاليين عليه باء كلاهما بالفشل (1807 و 1813) وارسل ايضا جيشا إلى طرابلس لارجاع الباشا إلى منصبه واثناء ذلك اغتنم فرصة تمرد الانكشارية لحلّهم والتخلص منهم نهائيا مستعينا في ذلك بالسكان (1811) ولم تحدث بينه وبين فرنسا سوى ثلاث خصومات فقد صادف عهده ازدهار التجارة الفرنسية التي بزت تجارة كل الأمم الأجنبية بما فيها تجارة اليهود بفضل التجار المتجولين من مقاطعة بروفانس الذين لم تفتأ ملاحتهم الساحلية تتزايد في ذلك الوقت ،

غير أن الحروب التي تبعث الثورة الفرنسية وصاحبت امبراطورية نابليون أضرت بهذا الوضع الممتاز .

وشيد حمودة باشا في فترة حكمه الطويلة قصرا كبيرا سماه دار الباي غير بعيد عن القصبة — وبنى فيه قاعة للاستقبالات فسيحة الارجاء على شكل قريب من شكل الف ممدودة لها مقصورة كبيرة ولعل زخرفة هذه القاعة كانت من صنع مغاربة ، وأقام قصرا بمنوبة نقلت ظلة منه إلى حديقة البلفدير (قبة البلفيدير) ونحن مدينون إلى وزيره الخطير يوسف صاحب الطابع بجامع الحلفاوين المشهور بطاقاته نصف الاسطوانية التي تفصل بين أروقته التسعة المسقفة وبخصائص أخرى تشهد أكثر من غيرها من المعالم المعاصرة على التأثير الاوروبي .

واعتلى العرش محمود باي (1814 — 1824) ابن محمّد باي بعد ثلاثة أشهر من حكم عثمان باي أخي حمودة باشا واضطرته الدول الاوروبية العظمى إلى ابطال الرق رغم النتائج السيئة التي نتجت عن هذا الاجراء الفجئي على الاقتصاد (1819) وادرك ضرورة التقارب مع الوجق للقدرة على الصمود أمام ضغوط الدول العظمى غير أن الايالتين لم تبرما سلما دائمة الاّ بعد عامين من ذلك التاريخ من دون حماس كبير (1821) .

ولم تتغير هذه السياسة عندما اعتلى ابنه حسين باي العرش (1824 — 1825) وانتهت جولة جديدة من التنافس القائم بين فرنسا وانقلترا بتسليم لزمة صيد المرجان بطبرقة والسواحل إلى انقلترا التي قدّمت عائدات أوفر . ولمّا حطمت السفن الفرنسية الأسطول التونسي في نهاران (Navarain) استشاط التونسيون غضبا على فرنسا (1827) غير أن الباي لم يغتنم فرصة انهيار العلاقات بين فرنسا والجزائر للتعبير عن هذه النقمة وبصورة عملية اكتفى باظهار شماتته لما حل بالايالة المجاورة شأنه في ذلك شأن الشريف المغربي الذي كان يراسله بواسطة الاولياء المتسولين . لذلك تظاهر بالحياد الكامل بل انه لم يتردد في مدّ باريس بمعلومات عن الوضع الداخلي بالجزائر وما كان أحد ليتنبأ في ذلك الوقت بان حملة فرنسا سنة 1830 ستؤول إلى احتلال مدينة الجزائر ثمّ كامل البلاد الجزائرية بصورة دائمة ولا من باب أولى وأحرى أن يتوقع احتلال البلاد التونسية وبلاد المغرب الأقصى .

الخـاتـمـة :

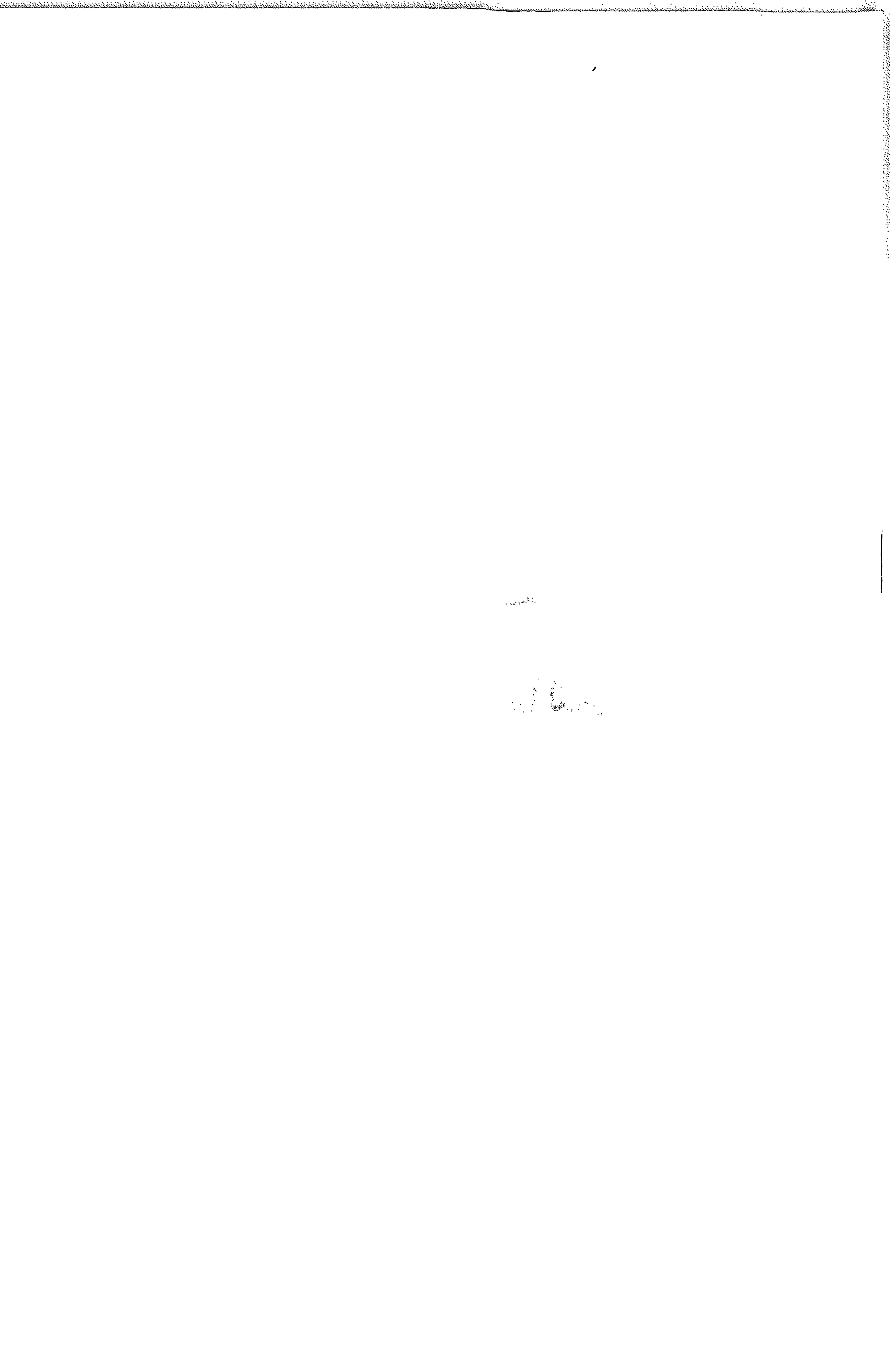
اتجهـت الايالتان اللتان اسسهمـا الاتراك في إفريقيـا الشماليـة واللتان لم يلبث منذ انبعاثهمـا أن تفرق جمعهما وجهتين مختلفتين اختلافا كبيرا . فقـد اندمج الاتراك شيئًا فشيئًا في تـونس وهي بلاد عريقة في حضارتهـا ـ ويمـكن الجزم بان ذلك تم في اوائـل القرن التاسـع عشر وان الدولـة الحسينية أصبحت دولة تونسية : ونحـن اذا استثنينا عددا من الألفـاظ المستعملـة في الادارة وبعض العادات التركية أمـكننا اعتبار البايات وضباطهـم مـن أهـل البلاد .

ولم يـكن الأمر كـذلك بالنسبـة لمدينـة الجزائـر حيث عاش الفاتحون على هامش البلاد إلى سنـة 1830 ، ولاشك ان أحد اسباب هذه الظاهرة هو انصراف الاتراك إلى شؤون البحر وعدم اكـتراثهـم بالبلاد نفسهـا ولـكن يجـب أن نعترف ايضا بأن فقـر البلاد الجزائريـة الحضاري بلـغ حدا حال دون « هضـم غازيهـا المتعـالي » وان البربر المتمسكين بشخصيتهـم تمسكا شديدا والموجودين في الجهات التي استقر فيهـا الاتراك بالذات لم تـكن لهـم مع المشارقة نفس الوشائـج التي كـانت لسكان البلاد التونسية المتعربين .

وخلاصـة القول فان البلادين رغم خضوعهمـا لسلطـة واحدة في أول الأمر سرعان ما اختلفتا في الاتجـاه . فظلـت احداهمـا بلدا مغزوا لايضمر العداوة لغالبـه لـكن من دون اتصال حقيقي معـه ، بينمـا هضمت الاخرى الوافدين عليهـا شيئًا فشيئًا وسعـت إلى أن تجعـل منهـم تونسيين أشبـه ما يكـونون بغيرهم من التونسيين .

الباب السابع

نَظْرَةٌ إِجْمَالِيَّةٌ



لمّا نزلت الجيوش الفرنسية بسيدي فرج سنة 1830 يكون قد مر على دخول الاسلام إلى إفريقيا الشمالية اثنا عشر قرنا ، ولئن واجه المسلمون في أيام الفتح الأولى مقاومة مستميتة من قبل البربر فانه يظهر أن المسيحية الافريقية لم تصمد في وجه الاسلام صمودا كبيرا ، بل ان الدين اليهودي ، إذا ما نحن سلمنا بان الكاهنة يهودية ، هو الذي واجه الدين الجديد مذهبيا ووفق في التصدي له والدليل على ذلك ان المجموعات اليهودية المحلية لا تزال موجودة إلى يومنا هذا بينما آل أمر المجموعات المسيحية بالبلاد الافريقية إلى الزوال في اواخر القرن الثاني عشر ، غير ان الاسلام أصبح بعد مرور ثلاثة قرون أو أربعة دين الأغلبية الساحقة للمغاربة ولعله طبعهم بطابع لن يمّحي واكسب كل المدن في هذه البلاد وكل المناطق التي يسهل الوصول اليها اسلوبا في الحياة خاصا بها اما في المناطق الجبلية التي منحتها الطبيعة مناعة أكبر فان الاسلام أثر في المعتقدات ولكنه لم يكد يغير شيئاً من العادات التي بقيت وفيّة للماضي .

غير أنّ الاسلام تكيف في صيغ خاصة عند التحامه بالبرابرة لذلك يجوز الحديث عن اسلام مغربي كما نتحدث عن كاثوليكية اسبانيا أو مقاطعة بريطانيا فلقد نجا الاسلام في المغرب أو كاد من الخصومات المذهبية ، ولم تبق آثار للشيعة الادارسة ولا للفاطميين . وتبخر المذهب الموحدي من دون أن نعرف السر في ذلك رغم شبابه وحيويته في أول أمره ، وظل المذهب الخارجي وحده يتحدى الزمن ممثلا في مجموعتين بربريتين بالمزاب وجزيرة جربة إلى اليوم وهما عبارة عن ربوتين بارزتين لا تكادان تغيّران شيئاً من الملامح البشرية لهذه البقعة من الأرض . وعلى كل فان هاتين المجموعتين الخارجتين عن الجماعة المستقرتين على هامش المغرب في أماكن قاصية لم تدخل ابدا في صراع مكشوف مع أهل السّنة المحيطين بها بل ان بلاد المغرب كلها اوتكاد تتبع تعاليم مذهب فقهي واحد الا وهو المذهب المالكي : ولم يتبنّ المذهب الحنفي سوى

أحفاد الاتراك المستقرين بالبلاد الجزائرية والتونسية ، وهم جماعات قليلة العدد تقيم في بعض المدن الكبرى في البلدين . ان الدين الاسلامي في بلاد المغرب لم يبق في مأمن من البدع رغم ابتعاده عن الخصومات الفقهيّة الكبرى ولا يمكن أن ننكر ان نزعة التجسيم قد رانت عليه ، فقد انتشر تقديس الأولياء انتشارا كبيرا كما تشهد بذلك الزيارات اليوميّة لقبور الصالحين واقامة المواسم حيث يحتفل بذكرى وفاة الولي وأصبح القوم يعددون مناقب الأولياء في كافة بلاد افريقيا الشمالية ابتداء من القرن الخامس عشر ، وتواجد عندهم في احيان كثيرة الأولياء مع الاشجار والعيون والاماكن الرفيعة بحيث لم يعد مجال للشك في أن تقديس الولي الصالح المسلم يغطي ضروبا عتيقة من التقديس بقي البربر اوفياء لها ، ثم ان الوثنية المنتشرة في العهود الغابرة تغذت بسهولة من الاعتقاد في الجنّ الذي يقره الدين الاسلامي .

وعلاوة على هذه البقايا من العبادات القديمة التي تختلف درجة وضوحها فان الاسلام تميّز في بلاد المغرب بازدهار نوع من الصوفيّة الشعبية ابتداء من القرن الخامس عشر بالخصوص . ولقد انبثق هذا الدين النابع من القلب في الارياف لا المدن وشع في أذهان أبسط النّاس عقيدة وأشدهم حميّة لا في عقول الاصوليين والفقهاء الثاقبة . وانتشر شيئا فشيئا في شكل فرق دينية يجمع بين افرادها نسق صوفي واحد أو كما يقال « طريقة » واحدة ، فمنها المتواضعة التي لايتجاوز عدد مريديها بضع عشرات استقروا في بقعة صغيرة ومنها التي انتشرت في جزء كبير من افريقيا الشمالية واحيانا عمت البلاد بأكملها ، ومنها المغرقة في الشعبية حتى آل امرها إلى البهلوانية كما كان الشأن بالنسبة إلى طريقة العيساوية الشهيرة . ومنها التي أصبحت مراكز اشعاع لعلم التصوّف واستقطبت أكثر العقول تهذيبا . ولا يمكن بالاستناد إلى ما وصلت اليه معلوماتنا اليوم أن نعرف بكل دقة الدور الذي لعبته الطرق في تاريخ بلاد البربر ، الا أنه كان دورا كبيرا ولاشك مثلما تشهد بذلك ثورة الدرقاوة على الاتراك بجهة وهران في أواخر القرن الثامن عشر .

ولايمكن أن نهمل المنزلة التي حظي بها كل من اشتهروا بأنهم آعطوا البركة ، وهي منّة إلاهيّة لها مفعولها في شؤون الدنيا والدين

وهؤلاء هم أولياء الله الذين يعيشون صحبة أقربائهم ومريديهم فيعطون أحدهم البركة ليكون خليفتهم في اشاعة تعاليمهم ومواصلة كراماتهم ، وغالبا ما تكون منطقة نفوذهم محدودة غير أنهم أشعوا بعض الاشعاع أحيانا عند نشوب الاضطرابات وظهور الفوضى . فقد كاد اولياء الدلاء ان يستحوذوا على الحكم في كامل بلاد المغرب الأقصى في اواسط القرن السابع عشر ، وقد نافسهم في البركة الأشراف وهم المنحدرون من السلالة النبوية الذين عظم شأنهم منذ إدريس الأول وعبيد الله في بلدان المغرب بالنسبة إلى كل الطبقات الاجتماعية ، وآل أمرهم إلى مسك زمام الأمور في المغرب الأقصى حيث يصعب ان نتصوّر اليوم أن يكون عاهلها من غير سلالة الأشراف – ولئن لم يكن تأثيرهم كبيرا في الجزائر وتونس فانه لايمكن اهماله على كل حال .

وأخيرا فان الاسلام في بلاد المغرب يبدو كأنه تعوزه الحركية ، ذلك أن العبادات والمعاملات بقيت منذ الحركة الموحدية أي ابتداء من أواسط القرن الثالث عشر هي هي لم تتطور اللهم الا بدعة واحدة تتمثل في الاحتفال بالمولد النبوي أدخلها رسميا أبو يعقوب المريني وتبناها عن طواعية كل أهل المغرب حتى اصبحت في مستوى عيد الفطر وعيد الاضحى (العيد الصغير والعيد الكبير) ، غير أن حركة مذهبية في مثل اهمية الحركة الوهابية لم تجد أي صدى في المغرب في القرن الثامن عشر رغم الجهود التي بذلها سيدي محمّد بن عبد الله سلطان المغرب الأقصى لفائدتها.

وانتصر الاسلام إذن في إفريقيا الشمالية ، فكوّن العلماء وجلب إلى حضيرته كل الأهالي او كاد حتى ان أجهل النّاس وابعدهم عن تعاليم السنة أصبح لا يتردد في بذل حياته للدفاع عن معتقداته البسيطة كما ان الإسلام أكسب هذه البلاد ملامح شرقية ظلت طيلة الفترة الرومانية تحيا على النمط الغربي وارتاحت إلى ذلك على ما يظهر ، غير أنه في الوقت الذي كان فيه الاسلام بالمغرب يتغلغل في النفوس كان ينطوي على نفسه ويفقد روابطه مع المدارس الشرقية ومجموعاتها وينقاد إلى التأثر بالمعتقدات القديمة والعادات البربرية العتيقة ويتحنّط بسبب اغراق المذهب المالكي في المناقشات الشكلية والخلاصة ان الاسلام في المغرب بقي قويا في جوهره ولكنه تحجر وانحرف نوعا ما نتيجة ممارسة المغاربة اياه منذ قرون .

ولم ينجرّ عن انتصار الاسلام انتصار العرب، اذ لـم تطل سيطرتهم على كـافة بلدان افريقيـا الشماليـة أكـثر من خمسين سنة وانتهـت نهـائيـا في أواسط القرن الثـامن بالنسبـة إلى القسم الغربـي منهـا . أمـا بالنسبـة إلى إفريقيــة فقـد تم ذلك بعـد قرن ونصف .

غير أن الغريـب في الأمر هو أنه رغم سرعـة زوال تأثير المشرق الاسلامـي في المغرب سياسيا فان البربر اصطفوا رؤساءهم من المشرق واستوحوا اعمـالهـم منـه طيلـة قرون كـاملـة .

واذا نحـن تركـنـا جانبـا النجاح المنقطـع النظير الذي حققه بنو أميّة في اسبانيـا الاسلاميـة وجب أن نتذكر ان ابـن رستم وإدريس بـن عبـد الله وعبيد الله وداعيته أبا عبد الله جاءوا جميعهـم من المشرق وتـمكـنوا كلهم بفضل نسبهـم الشرقي او شجرتهم النبوية بالنسبـة إلى إدريس وعبيد الله من قيادة قبيـلة أو مجمـوعة من القـ ـل البربرية فأسسوا بهـا دولا ، فقـد اعتمـد ابن رستـم على زناتة وادريس على أوربة وعبيد الله على كـتامة ، ولمّـا عدل البربر فيما بعد عن الامتثال للاجانب واستقلوا بالدعوة لانفسهم استمدوا مـن المشرق المثل العليـا التي شـدت عزائمهـم في الـكـفـاح ، ونشأ سعي أول المرابطيـن إلى تجديـد الاسـلام اثنـاء رحلـة إلى الشرق كمـا تصور ابـن تومرت مذهبـه اثناء اقامتـه في بلاد المشرق ولم ينغلق البربر عن كـل المؤثرات الخارجيـة الا ابتداء من عهـد عبد المؤمن فلـم تنقض على ذلك فترة طويلـة حتى زالت الامبراطو ية البربرية الـكبـرى ورجعـت البـلاد شيئا فشيئا إلى سابـق تفـكـكهـا .

ويظهر اننّا بازاء أشد خاصيات تاريـخ المغرب عراقة وهي معارضتهم الشديدة للاوامر الصادرة لهـم من ذويهم ، وعزيمتهـم الفولاذية في تشديد المراقبـة على كـل من يتقلد الحكم منهـم وكـذلك عصبيتهـم الضيقة التي تحمـل القبيلة المنتصرة على غلق باب التفاهم مع المغلوبيـن والنفور مـن تشريـكهم في اعمالهـا وبايجاز عجزهـم عن التحول من الـروابط العرقيـة إلى مستوى الدولة . ولم يوفق قائـد بربري واحد إلى تجاوز العصبيـة القبلية . نعـم قد حاول ابن تومرت ذلك في تينملل بيـن قبائـل تربط افرادهـا بعضهـم إلى بعض روابط الدم واللغـة ونمط الحياة . لـكن ما ان نزل الموحدون ن جبالهم حتى امتنعوا عن التعاون مع الاقوام التي اخضعوهـا ، وسرعان ما

اصبحت عائلة عبد المؤمن ، وهو الرجل العظيم ، جماعة جديدة منغلقة على نفسها ضمن الجماعة الكبيرة المنتصرة ، ولم يشذ عن هذه القاعدة الا الحفصيون الذين لم يبلغ عددهم في إفريقية حدا يمكنهم من فرض سيطرتهم وحدهم على باقي السكان . غير انهم لم يقدروا على تأسيس دولة كاملة الانسجام لأن القبائل العربية حالت دون بلوغ هذه الغاية ، والحال انهم كانوا أوفر حظا لتحقيق مرامهم لأن افريقية كانت أقل بلاد المغرب تجزّؤاً بحكم طبيعتها ولأنها إلى ذلك منطقة منفتحة إلى المؤثمرات الخارجية منذ أبعد الدّهور يسكنها اناس جاؤوا من آفاق مختلفة وتعودوا الحياة بعضهم مع بعض ولانها ايضا زاخرة بالمدن عامرة بالحضارات الا أن وجود العرب البدو أفسد عليها إلى حد كبير هذه المؤهلات الكفيلة بالتطور والرقي إلى مستوى الدولة .

ولم يتخلف مؤرخ واحد منذ ابن خلدون عن ذكر أهمية الحدث العربي في إفريقيا الشمالية ، وانّ تغلغل بني هلال ومن جاؤوا بعدهم بصورة بطيئة وثابتة في نفس الوقت غيرّ حسْبَ ما يقال التّوزان السياسي في بلاد المغرب ، والواقع أن التغيير شمل ايضا وبالخصوص التوازن الاقتصادي ، فالمناخ والتضاريس جعلت من إفريقيا الشمالية بلاداً فلاحية ورعوية في نفس الوقت الاأن التوفيق صعب بين هذين النمطين من الحياة لإختلاف مقتضياتهما ، ويظهر أن الرومان اقصوا الرعاة في اتجاه الجنوب ما أمكنهم ذلك وممّا يلفت النظر في هذا الصدد هو أن حدود الوجود الروماني توافق تقريبا ، بحسب ما توفر لدينا من قدرة على الضبط ، الخط الذي يمكن اعتباره فاصلا طبيعيا بين الرعاة والفلاحين أي الخط الذي يتوغل كثيرا في الجنوب بالبلاد التونسية ومقاطعة قسنطينة ويقترب من البحر بصورة جليّة كلما اتجهنا نحو الغرب حتى اذا بلغنا جهة تلمسان حيث تقترب الصحراء أو السباسب من البحر قربا كبيرا أصبح مجرد حاشية موازية للسواحل

ان التوازن الذي فرضته السيطرة الرومانية واقتضته في نفس الوقت احوال البلاد لم يختل بزوال الرومان ، ولم يمحه الفاتحون المسلمون الأولون لأنهم لم يكونوا رعاة بالجزيرة العربية بل حَضَرا من الشرق الأدنى ولم تؤثر كذلك تأثيرا كبيرا الخصومات السياسية التي عقبت

الفتح الاسلامي وبقي المغرب كما وصفه ابن حوقل في أواسط القرن العاشر بلادا فلاحية تكثر فيها الغابات ويعمها الازدهار رغم ما قامت به قبائل زناتة الرحل من محاولات لمنازعة قبائل كتامة الحضرية في التفوّق وبسط النفوذ ، ولئن تمكّنت زناتة من التسرب إلى أقصى بلاد المغرب فانهم لم يفلحوا في اقتحام مناطق غمارة وبرغواطة ومصمودة الفلاحية .

ولمّا زحف العرب الرحل تغيركل شيء ، وقد شك المؤرخون في كثرة عددهم ولعلهم محقون في ذلك ، غير أنه يكفي ان يحل بالصحراء بضعة آلاف من البشر والحيوانات ليضيق المتسع الحيوي بأهله ، فكلما توافد العرب اضطرّت القبائل البربرية الرعويّة التي احتفظت بنشاطها التقليدي إلى التقهقر نحو الغرب والشمال أي في آن واحد نحو أراضي الفلاحين . وتم هذا المد بصورة بطيئة ولكنها ثابتة ولم يلبث الفلاحون ان وجدوا انفسهم مطاردين من المعز والغنم التي ضيقت من الاراضي المزروعة وأفسدت الأشجار المثمرة ولابد ان نسلم بأن هذه الثورة غير المشعور بها والعميقة في آن واحد التي طرأت على توازن البلاد الداخلي ليست غريبة عن التدهور السياسي الذي حل ببلاد المغرب بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر .

وحدث في القرن الخامس عشر عامل جديد أثر في توازن القوى المتقابلة الا وهو حضور النصارى في إفريقيا . وأسهم أهل المغرب الأقصى إلى حد ذلك التاريخ في الدفاع عن الاسلام باسبانيا وكان حظهم متفاوتا غير ان هزائم أبي الحسن سنة 1340 و 1343 وضعت حدا لتدخلاتهم وعبر البرتغاليون سنة 1415 مضيق جبل طارق واستقروا للمرة الاولى منذ الفتح العربي في أرض اسلامية .

ولئن ظل هذا النجاح فريدا في نوعه مدّة طويلة فسرعان ما ترتبت عنه نتائج هامة ، ذلك أن وجود أقوام غير مسلمة في المغرب الأقصى ، ولو انحصر في شبه جزيرة صغيرة في طرف البلاد احدث حركة دينية تتقد حماسا وكان لها مفعول أعمق ممّا لوحظ في عهد الموحدين خاصة انه لم تَنْبع من ذهن رجل مذهبي مثل ابن تومرت بل انبثقت من ضمير الشعب ، وبدأ عدد الاولياء رجالا ونساء يتكاثر بجوار سبتة في الهبط والجبل داعين المسلمين للدفاع عن عقيدتهم المهددة ثمّ توسعت الحركة

من هذا المنطلق بالقدر الذي كـان يتغلغل فيـه البرتغاليون في سواحل المغرب الأقصى حتى بلـغ الأماكن القاصية في الدرعة والسوس حيث ظهر الأشراف السعديون ، ولم يلبث الحماس الديني ان تحـول إلى كـره للاجنبي إلى حد جعـل السعديـين لايترددون في التحالف مع الاسبان لمزيد القدرة على مقاومة الاتراك المتمركزين بمدينـة الجزائـر رغم انهم مسلمون ، اذ اعتبروهم اجانب يهددون بالتوغل في المغرب الأقصى بينما تـوارى خطر الاسبان .

وكـفّ المغرب الأقصى من ذلك التاريـخ عن المشاركـة في حياة إفريقيـا الشماليـة وانطوى على نفسه شيئاً فشيئاً وأصبـح لايسمـح مـن الاتصالات الا ّ بما هو ضروري لمواصلـة تجارة هزيلة وانقطعـت علاقاتـه مع المشرق الاسلامي والغرب النصراني على السـواء، وانهمك في صراع لايكاد يني بين القبائـل البربرية المتمردة على الحكم القائم وانغلق تماما عن كـل تأثير خارجي ـــ وينتـج عن هذه الانتفاضات المنهـكة ركود لامثيـل له في الحياة الاجتماعيـة في وقت كانت فيـه أوروبا المجاورة تتطور بسرعـة متزايدة وأعرض المغرب الأقصى عن أوروبا بينمـا كـانت تنمو في تسرع وتسعى إلى جر سائر العالم في تيارها .

وانجرّت عن التدخل الاسبانـي في جهات المغرب الأقصى نتائـج مغايرة فلقد تحالف مغاربة بجايـة مع القراصنـة الاتراك لاسترجاع مدينتهم فاغتنـم الأتراك الفرصـة للتمركز بمدينـة الجزائر ، ولما احسوا بالخطـر بدورهم استنجدوا بالسلطان في القسطنطينية وبعث لهم بالجيوش وبسط سلطانه على المناطق التي احتلوها ، فأصبحت الجزائر لمدة نصف قرن القلعة الأماميـة الذائدة عن الأمبراطورية العثمانيـة في غربـي البحر المتوسط وإحدى النقط الحساسة في الصراع الهائل القائـم بين شارل الخامس وسليمان القانوني ـــ واستقر الاتراك في نهاية القرن ولمدة طويلـة في الإيالتين الجزائرية والتونسية . غير انـه بينما كـان اتراك الجزائر يعيشون على هامش البلاد ويقتصرون على جوبهـا لاستخلاص الجبايـة حيثمـا قدروا انصهر اتراك تونس في بوتقة واحدة مع التونسيين لأنهـم وجدوا انفسهم بازاء حضارة ثابتـة الأركان وأسسوا دولة يمـكن نعتهـا بالوطنيـة الا وهي دولة الحسينيين ومهما اختلف تطور الايالتين فان الأتراك لم يتوصلوا رغم ذلك إلى دفع المغرب العريق في القدم دفعا جديدا بل انتصر في كـلا البلدين الجمـود البربري

بحيث عاش المغرب من اقصاه إلى أقصاه في اوائل القرن التاسع عشر منطويا على نفسه تحدوه قيـم انخنى عليها الدهر من دون ان يقدر على التطور ويصبـح دولة عصرية

والخلاصة انه لايمـكن ان ننـكر أن الحضارة الاسلامية أمكن لها بعد فترة من التأقلم طويلـة وصعبة أن تخمّر العجين البربري وان تبعث حضارة لامعة بلغت أوجها في العهد الموحدي ، ثمّ ان البرابرة خـلّدوا بأنفسهم بعد ذلك فانساقوا شيئاً فشيئاً إلى حضيض التناحر وامتطابوا الوضـع ان صحت هذه العبارة وعاشوا حياة تجاوزها العصر غير بعيد عن عالم يغلي غليانا . وان جوارا كـهذا ما كـان يمـكن ألاّ يؤتي ثماره .

ببلوغــرافيا

1 ـ ملاحظات عامـــة

نلاحظ * بادىء ذى بدء ان الببلوغرافيا التى أعدها شارل أندرى جوليان فى طبعته الثانية للكتاب المنقحة والمزيدة والصادرة منذ ما يقرب من ثلاثين سنة لم تعد مستوفاة لأن كتبا جديدة صدرت أثنـاء هذه الفترة تحتوى على وثائق ومراجع ودراسات جد هامة . وهى رغم هذا لها قيمة علمية لا شـك فيها عـلاوة على كثافتها (تقـارب الاربعين صفحة من الكتاب الصادر باللغة الفرنسية) .

ونلاحظ أيضا ان هذه الببلوغرافيا تحيل الى مراجع أغلبها باللغة الفرنسية او باللاطينية او الانقليزية او الاسبانية او غيرها من اللغات الاخرى .

لهذه الاسباب ولاسباب أخرى تتعلق بسعر الكتاب آثرنا الا نترجم هذه الببلوغرافيا تاركين للقارىء الرجوع الى النص الفرنسى اذا رام زيـادة فى التفاصيل .

على اننا سنحاول ان نعطى لمحة عامة عن هذه الببلوغرافيا ثم نشير الى المصادر العربية التى اعتمدها شارل أندرى جـوليان المترجمة الى الفرنسية والتى اعانه على الاطلاع عليها المستشرق روجى لوترنو .

قسم شارل اندرى جوليان الببلوغرافيا الى قسمين : ببلوغرافيا عـامة وببلوغرافيا حسب الابواب فالببلوغرافيا العامة تحتوى على :

1) ببلوغرافيا تشير الى المراجع المتعلقة بالجزائر وتونس والمغرب الاقصى وطرابلس .

2) الوثائق والمكتبات .

3) المجلات الفرنسية الصادرة بالجزائر وتونس والمغرب الاقصى وفرنسا وبلدان أخرى .

4) وسائل العمل من تراجم اعلام كدائرة المعارف الاسلامية ومن مجموعة خرائط وبيانات وجداول ومتاحف .

5) المصادر وهى تضم :

---

*) المعربان .

أ ـ النصوص العربية التي سنذكر أهمها في آخر هذه البيبلوغرافيا والنصوص الصادرة بلغات أوروبية .

ب ـ الفن وعلم والآثار وأهم كتاب هو لجورج مرسي .

ج ـ علم المسكوكات .

د ـ علم النقائـــش .

6) الاسلام وهنا ذكر لاهم الكتب الدارسة لتاريخ الديانات والاسلام خاصة في بـلاد البربـر .

7) علم الاجتماع وعلم الاجناس ويذكر هنا المؤرخ مراجع عديدة وهامة تتعلق بحياة شعوب بلاد المغرب وجنسهم .

8) المسائل الاقتصادية .

9) تآليف عامة متعلقة بالتاريخ .

أ ـ التواريخ العامة .

ب ـ القرون الوسطى .

ج ـ اسبانيا والبرتغال .

د ـ افريقيا الشمالية ويذكر المؤرخ هنا التآليف الدارسة لعموميات هذه البلاد ثم المراجع المتعلقة بالفتح الاسلامي ثم المتفرقات ثم التآليف الدارسة لتاريخ الجزائر وتونس والمغرب الاقصى .

أما البيبلوغرافيا حسب الابواب فغالبا ما تحتوى على المصادر العربية بما فيها الوثائق والنصوص العربية او الاجنبية ثم التآليف والدراسات .

2 ـ المصادر العربية

ملاحظة : المصـادر المذكـورة منشورة وأغلبها مترجـم في كتب او في نشريات ونحن نعطي قائمة فيها من دون الاشارة الى الناشر وتاريخ الصدور محيلين القارىء الى النسخة الفرنسية زيادة في التدقيق .

ـ اليعقوبي ، كتاب البلدان .

ـ ابن حوقل ، كتاب المسالك والممالك .

ـ البكرى ، كتاب المسالك .

ـ الادريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق .

ـ ابن عبد الحكم ، كتاب فتوح مصر وافريقية .

ـ ابن الاثير ، الكامل في التاريخ .

- ابن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر فى ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر .
- ابن ابى دينار القيروانى ، المؤنس فى اخبار افريقية وتونس ..
- الناصر السلاوى ، كتاب الاستقصاء فى أخبار دول المغرب الاقصى.
- ابن الصغير ، تاريخ الدولة الرستمية بتاهرت .
- أبو زكرياء ، كتاب السيرة واخبار الايمة .
- ابن ابى زرع ، روض القرطاس .
- ابن عذارى ، البيان المغرب فى اخبار المغرب .
- ابو العرب ، طبقات علماء افريقية .
- المالكى ، رياض النفوس .
- ابو الحسن على الجزنائى ، زهرة الآس .
- ابن حماد ، أخبار ملوك بنى عبيد .
- ابن خلكان ، وفيات الاعيان .
- المقرى ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب .
- المراكشى ، المعجب فى تلخيص اخبار المغرب .
- الزركشى ، تاريخ الدولتين .
- العمرى ، مسالك الابصار فى ممالك الامصار .
- ابن الاحمر ، روض النسرين .
- يحيى بن خلدون ، بغية الرواد .
- ابن قنفد ، الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية .
- أبو عبد الله محمد الشماع ، الأدلة البينة النوارنية على مفاخر الدولة الحفصية .
- ابن مرزوق ، المسند .
- التجانى ، رحلة .
- الزيانى ، الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب .
- التمغروتى ، النفحات المسكية فى السفارات التركية .
- غزوات عروج وخيرالدين .
- الصغير بن يوسف ، المشرع الملكى .
- العياشـــى ، رحلة .



فهـرس الاعـــلام

- غ -

الجماعات والقبائل والدول

---

*) اهملنا ذكرهم فى هذا الفهرس لكثرة ترددهم

- ل -

ـ ن ـ

الامـاكن والبلـدان والمـدن
والسهول والجبال والوديان

*) أهملنا ذكر «افريقيا الشمالية» وما فى معناها : «المغرب الكبير» «المغرب» لكثرة ترددهـا ولانها موضوع الكتاب بأكمله .

ـ ت ـ

*) انظر : تونس (البلاد) فى افريقية .

ـ ز ـ

– ص –

– ط –

- ع -

ـ هـ ـ

ـ و ـ

الثــورات والاحــداث والوقعــات

الـكـتـب

قـائـمـة الخـرائط

فهـرس الموضوعـات

البـاب الثاني

الدول العربية والبربرية من 9 الى 11

البـــاب الثـالث

الامبـراطورية البربريـة

الباب الرابع

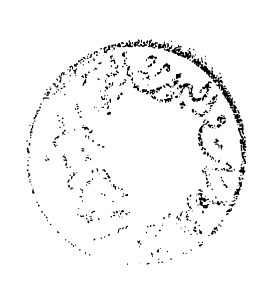
عودة الى الممالك البربرية

الباب الخامس

المملكة الشريفية

الباب السادس

الباب السابع



الفهـــارس





تم طبع هذا الكتاب
بمطبعة شركة فنون الرسم والنشر والصحافة
تونس ، فيفري 1983

سحب من هذا الكتاب 5.000 نسخة في طبعته الثانية .

محمد مزالي

- ولد محمد مزالي بالمنستير في 23 سبتمبر 1925
- زاول تعلمه الثانوي بالمدرسة الصادقية .
- تابع تعلمه العالي بكلية الاداب بباريس حيث تحصل على الاجازة في الفلسفة ودبلوم الدراسات العالية في الآداب .
- تحمل مسؤوليات في الحكومة والحزب الاشتراكي الدستوري منذ الاستقلال وهو حاليا وزير أول بالجمهورية التونسية .
- أسس مجلة **الفكر** سنة 1955
- رئيس اتحاد الشباب التونسي
- نائب رئيس اللجنة الاولمبية العالمية .
- انتخب سنة 1979 رئيسا لهيئة العاب البحر الابيض المتوسط .

صدر له :

- الديمقراطية 1955
- تاريخ افريقيا الشمالية جزان لشارل أندري جوليان ترجمه بمعية الاستاذ البشير بن سلامة . صدر الجزء الاول سنة 1968 و الجزء الثاني سنة 1978
- من وحي الفكر 1969
- المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي لشارل أندري جوليان ترجمه بمعية الاستاذ البشير بن سلامة ـ1971 .
- مواقف :1973
- دراسات :1974
- وجهات نظر :1975 .

البشير بن سلامة

- ولد البشير بن سلامة في 14 اكتوبر 1931 بباردو .
- زاول تعلمه بالمدرسة الصادقية ثم بدار المعلمين العليا .
- استاذ في اللغة والاداب العربية .
- رئيس تحرير مجلة الفكر التونسية .
- وزير الشؤون الثقافية بالجمهورية التونسية .

صدر له :

- اللغة العربية ومشاكل الكتابة 1971
- الشخصية التونسية : مقوماتها وخصائصها 1974
- النظرية التاريخية في الكفاح التحريري التونسي 1977 .
- قضايا 1977 .
- تاريخ افريقيا الشمالية جزان لشارل أندري جوليان ترجم بمعية الاستاذ محمد مزالي ج 1 ـ1968 ج2 ـ1978
- المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي لشارل أندري جوليان ترجمه بمعية الاستاذ محمد مزالي صدر سنة 1971 .
- « عائشة » رواية 1982 .